
روبرتو بولانيو
الرايش الثالث
مكتبة #902
ترجمة
رفعت عطفة
منشورات الجمل
رواية
مكتبة

روبِرتو بولانيو: الرايش الثالث



روبِرتو بولانيو: الرايش الثالث، ترجمة: رفعت عطفه، رواية

Roberto Bolaño: EL TERCER REICH

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٢١١١

الإمارات العربية المتحدة

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



MINISTERIO
DE CULTURA
Y DEPORTE

DIRECCIÓN GENERAL
DEL LIBRO
Y FOMENTO DE LA LECTURA

Esta obra ha sido publicada con una subvención del
Ministerio de Cultura y Deporte de España.

نُشر هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية

روبِرتو بولانيو

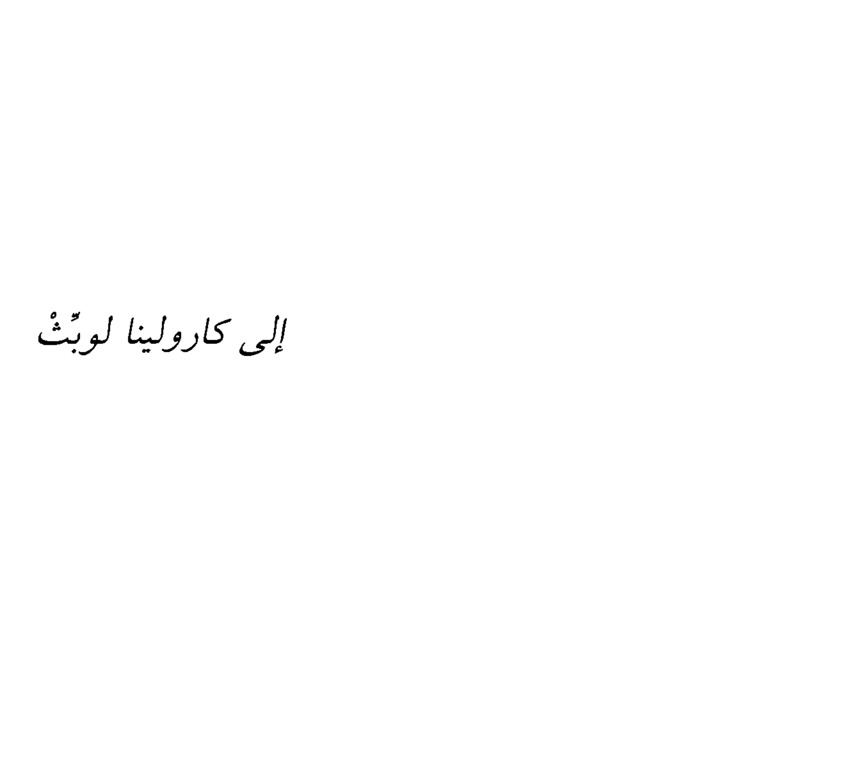
الرايش الثالث

رواية

ترجمة

رفعت عطفه

منشورات الجمل



إلى كارولينا لوبّثْ

نلعبُ أحياناً مع باعة جوّالين، وأحياناً أخرى مع مُصطافين، ومنذ شهرين استطعنا حتى أن نُدين جنرالاً ألمانياً بعشرين سنة سجناً. جاء متنزّهاً مع زوجته ووحدها براعتي أنقذتْهُ من المشنقة.

العطل

فريدريش دورنمات.

٢٠ آب

من النافذة تدخل وشوشة البحر مختلطةً بضحكاتِ آخر سهارى الليل، ضجيج، ربّما كان ضجيج النُّدُل وهم يجمعون الأشياء عن طاولات الشرفة، ومن حين لآخر سيارة تدور ببطء في الكورنيش البحري وأزيز خافت لا يمكن تحديد ماهيته مصدره غرف الفندق الأخرى. إنجيبورغ تنام، وجهها يُشبه وجه ملاكٍ لا شيء يُعَكّرُ عليه حلمَهُ، على منضدة المصباح كأس حليب لم تذقه ولا بدّ أنّه الآن ساخن، وبجانب المخدّة نصف مغطى بالملحفة كتابٌ للباحث فلوريان ليندين، لم تكد تقرأ منه صفحتين قبل أن تسقط نائمة. أنا يحدث معي عكس ذلك تماماً: الحَرُّ والتعب يذهبان عَنّي بالنعاس. أنام عامّةً جيّداً، ما بين السبع والثماني ساعاتٍ يومياً، على الرغم من أنّني نادراً ما أذهب إلى النوم متعباً. أستيقظُ في الصباح منتعشاً مثل خسّةٍ وبِطاقةٍ لا تفترُ بعد ثماني أو عشر ساعات من النشاط. هكذا كان حالي دائماً، كما أتذكّرُ، إنّه جزء من طبيعتي. ما من أحدٍ لقّمَهُ لي. ببساطة أنا هكذا، ولا أريد بهذا أن أُلمِّح إلى أنّني أفضل أو أسوأ من آخرين؛ إنجيبورغ نفسها مثلاً لا تنهض من فراشها أيّام السبت والأحد إلا بعد منتصف النهار وفي بقية أيّام الأسبوع وحده فنجان القهوة الثاني ـ وسيجارة ـ يتمكنان من إيقاظها تماماً ودفعها نحوَ العمل. ومع ذلك فالحرُّ والتعبُ في هذه الليلة يذهبان بالنعاس عنّي. كما أنّ إرادةَ الكتابةِ وتسجيلَ أحداث اليوم يمنعاني من أن أدخل في الفراش وأُطفئ النور.

مرّت الرحلة من دون أيّ مُنَغّصٍ جديرٍ بالذكر. توقّفنا في ستراسبورغ، المدينة الجميلة، على الرغم من أنّني كنتُ أعرفها. أكلنا في نوع من السوبر ماركت على جانب الطريق السريع. على الحدود وعلى العكس مما حذّرونا منه لم نُضطر إلى أن نقف في الصف ولا إلى أن ننتظر أكثر من عشر دقائق كي ننتقل إلى الجانب الآخر. كلّ شيء كان سريعاً وناجعاً. بدءاً من تلك اللحظة سقتُ أنا، لأنّ إنجيبورغ لم تكن تثق بالسائقين المحليين، وأظنّ أنّ ذلك يعود إلى تجربة سيّئة مرّتْ بها قبل سنوات في طريق إسبانيّ، حين كانت ما تزال طفلة وجاءت في إجازة مع والديها. ثمّ إنّها كانت، إضافةً إلى ذلك، مُتْعَبةً.

في مكتب الاستقبال اهتمّت بنا فتاة شابة جدّاً، تتعامل بشكل جيّد باللغة الألمانية ولم نجد أيّ مشكلة في العثور على الحجز. كلّ شيء كان منظماً، وحين رحنا نصعد لمحتُ في المطعم فراو إلسي، عرفتها على الفور. كانت ترتّب طاولة بينما تدلّ نادلاً، كان إلى جانبها يحمل صينية عليها ممالح. كانت ترتدي طقماً أخضر وثبّتت على صدرها لوحة معدنية عليها شعار الفندق.

لم تكد السنون تلمسها.

رؤيتي فراو إلسي جعلتني أستحضرُ أيّامَ مراهقتي بساعاتها الكالحة وساعتها الوضاءة، والديَّ وأخي وهم يتناولون طعام إفطارهم في شرفة الفندق، الموسيقى التي كانت تبدأ مكبّرات صوت المطعم في السابعة مساء بنشرها في الطابق الأرضي، ضحكات النُّدُل التي لا معنى لها والمباريات التي كانت تُنظّم بين صبية من عمري للخروج للسباحة ليلاً أو للذهاب إلى المراقص. ما أغنيتي المفضّلة في تلك المرحلة؟ في كلّ صيف كانت هناك أغنية جديدة، شبيهة قليلاً بأغنية العام السابق، المدندنة والمَصْفُورة حتى التخمة والتي كانت تختم بها مراقصُ البلدة يومَها. أخي، الذي كان مُتطلّباً دائماً بالنسبة إلى الموسيقى، كان يختار

بعناية الأشرطة التي سترافقه قبل أن تبدأ الإجازات. كنتُ على العكس منه أُفضّل أن تكون المصادفة من ستضع في سمعي لحناً جديداً، وكانت لا مفرّ أغنية الصيف. كان يكفيني أن أسمعها مرّتين أو ثلاث مرّاتٍ بمحض المصادفة كي تتبعني عبر الأيام المشمسة والصداقات الجديدة، التي كانت تزيّن إجازاتنا. صداقات عابرة، من منظوري الحالي، مصمَّمة فقط لاستبعاد أدنى إحساس بالضجر. من كلّ تلك الوجوه لا يكاد يبقى في ذاكرتي سوى بضع منها. أولاً فراو إلسي، التي شغلتني ملاحتُها منذ اللحظة الأولى، وجعلتني هدفاً لمزاح ونكات والديَّ، اللذين وصل بهما الأمر إلى حدّ أنّ يسخرا منّي بحضور فراو إلسي ذاتها وزوجها، وهو إسباني لا أتذكّر اسمه، مُلمّحين إلى بعض الغيرة المزعومة ونضج الشباب المبكّر، ونجحا في جعلي أحمرّ خجلاً حتى في أظافري وأيقظا عند فراو إلسي شعوراً رقيقاً بالرفاقيّة. اعتقدتُ منذ ذلك الوقت أنّني رأيتُ في معاملتها لي حرارة أكبر من تلك الممنوحة لبقيّة عائلتي. كذلك، لكن بمستوى مختلف، خوسِهْ، (تراه كان يسمى هكذا؟)، وكان فتى من عمري يعمل في الفندق وأخذني أنا وأخي إلى أماكن لم نكن لنطأها أبداً لولاه. حين ودّع بعضنا بعضاً، ربّما تنبّأنا بأنّنا لن نقضي الصيفَ المقبل في فندق البحر، أهداه أخي زوجاً من أشرطة الروك وأنا أهديته بنطلوني الجينز القديم. مرّت عشر سنواتٍ وما زلت أتذكّر الدموع التي سرعان ما نفرت من عيني خوسِهْ، والبنطلون مطويّ في يدٍ والشريطان في أخرى، من دون أن يعرف ما يفعل أو ما يقول، متمتماً بإنكليزية كان أخي يسخر منها دائماً: وداعاً، يا صدقيَّ العزيزين، وداعاً، يا أصدقائي الأعزاء، إلخ، بينما كنّا نحن نقول له بالإسبانية ـ اللغة التي كنّا نتكلّمها ببعض الطلاقة، ليس عبثاً أنّ والدينا يمضيان إجازاتهما منذ سنوات في إسبانيا ـ ألاّ ينشغلَ ففي الصيف المقبل سنعود لنجتمع مثل الفرسان الثلاثة، فليتوقّف عن البكاء. تلقينا بطاقتي بريد من

خوسِهْ. وأنا أجبته عن الأولى باسمي وباسم أخي. نسيناه بعدها ولم نعرف عنه شيئاً. كان هناك أيضاً فتى من هيلبرون يُدعى إريك، أفضل سبّاحي الموسم، وأخرى تُدعى شارلوت كانت تُفضّل أن تتشمس معي على الرغم من أنّ أخي جنّ بها جنوناً بالغاً. حالة خاصّة شكّلتها الخالة المسكينة جيزيل، أخت أمّي الصغرى، التي رافقتنا في الصيف ما قبل الأخير الذي قضيناه في فندق البحر. كانت العمّة جيزيل تُحبّ قبل كلّ شيء مصارعة الثيران ونهمها تجاه هذا النوع من المشاهد لم يكن له حدود. ذكرى لا تُمحى: أخي يقود سيارة أبي بحرّية تامّة وأنا إلى جانبه، أُدخّن من دون أن يقولَ لي أحدٌ شيئاً والخالة جيزيل في المقعد الخلفيّ تتأمّل مبتهجةً الجروفَ الصخرية المغطّاة بالزبد تحت الطريق ولون البحر الأخضر وابتسامة رضا على شفتيها الشاحبتين وثلاثة ملصقات، ثلاثة كنوز في حضنها، تُثبت أنّنا أنا وهي وأخي التقينا بشخصيات عظيمة من شخصيات المصارعة في ساحة الثيران في برشلونة. حقيقة أنّ والديّ لم يكونا يوافقان على كثير من الانشغالات التي كانت الخالة جيزيل تنهمك فيها بحماس كبير، تماماً كما لم تكن تسرّهما الحرّية التي كانت تمنحها لنا، المفرطة بالنسبة للأطفال، بحسب طريقتهما بالنظر إلى الأشياء، على الرغم من أنّني كنتُ وقتها أقارب الرابعة عشرة من عمري. من ناحية أخرى، انتابني دائماً شعور بأنّنا نحن من كان يعتني بالخالة جيزيل، المهمّة التي كانت تفرضها علينا أمّي من دون أن ينتبه أحد، بطريقة حصيفة ومليئة بالتخوّفات. مهما كان الأمر رافقتنا العمّة جيزيل صيفاً واحداً؛ الصيف ما قبل الأخير الذي قضيناه في فندق البحر.

ما أتذكّره غير ذلك هو أكثر قليلاً. لم أنسَ الضحكات على طاولات الشرفة، أكواب البيرة الهائلة التي كانت تُفرّغ أمام نظرة ذهولي، النُدُل المتصبّبين عرقاً والمتجهمين القابعين في زاوية من طاولة العرض وهم

يتحدّثون بصوت خافت. صور متفرقة. ابتسامة أبي السعيدة وإيماءات موافقته المتكرّرة، محلّ كانوا يؤجرون فيه دراجات هوائية، الشاطئ في التاسعة والنصف ليلاً نور شمس خفيف ما يزال موجوداً، الغرفة التي كنّا نشغلها آنذاك كانت مختلفة عن هذه التي نشغلها الآن، لا أدري ما إذا كانت أحسن أم أسوأ، لكنّها مختلفة، في طابق أدنى، وأكبر، ما يكفي كي تتسع لأربعة أسرّة، وفيها شرفة واسعة تطلّ على البحر، حيث كان يجلس والداي في المساء، بعد الغداء، ليلعبا أشواطَ ورقٍ لا نهاية لها. لستُ واثقاً مما إذا كان لنا حمّامنا الخاصّ أم لا، ربّما في بعض الأصياف كان لنا وفي أخرى لا. غرفتنا الحالية بلى فيها حمّام خاصّ وخزانة ملابس كبيرة وجميلة وسرير زوجي ضخم وسجاجيد وطاولة حديد ومرمر في الشرفة وستائر مزدوجة واحدة للداخل من القماش الأخضر ناعمِ الملمس جدّاً وأخرى خارجية من الخشب المدهون بالأبيض، حديَثة جدّاً وأنوار مباشرة وغير مباشرة ومكبرات صوت خفية تنقلُ بمجرد الضغط على زر موسيقى بتردد معتدل... لا شكّ في أنّ فندق البحر قد تطوّر. إنّها المنافسة، بالحكم من النظرة السريعة التي استطعتُ أن أُلقيها من السيارة بينما نحن ندخل الكورنيش، أيضاً لم تتأخّر. هناك فنادق لم أكن أتذكّرها وأبنية الشقق الصغيرة كثرت في مناطق الخلاء القديمة. لكن كلّ هذا تخمينات. سأحاول غداً أن أتكلّم مع فراو إلسي وسأخرج لأقوم بجولة في البلدة.

وهل تطوّرتُ أنا أيضاً؟ طبعاً قبلها لم أكن أعرف إنجيبورغ وأنا الآن معها، صداقاتي صارت أهمّ وأعمق، مثلاً كونراد، الذي هو بمثابة أخ آخر لي وسيقرأ هذه الصفحات؛ وأنا الآن أعرفُ ما أريدُ ومنظوري أوسع، مستقلٌ اقتصادياً؛ على العكس مما كان يحدث في المراهقة، فأنا اليومَ لا أسأم أبداً، عن عدم السأم يقول كونراد إنّه برهان ذهبي عن الصحة. صحتي، بحسب هذا لا بدّ أنها رائعة. أعتقد، من دون الوقوع في المبالغة، أنّني في أفضل لحظات حياتي.

المسؤولة عن هذا الوضع إلى حدّ كبير هي إنجيبورغ. العثور عليها هو أفضل ما حدث لي. عذوبتها، ملاحتها، النعومة التي تنظر بها إليّ تجعل كلَّ ما عدا ذلك، جهوديَ اليومية، العثراتِ التي يضعها الحسّادُ أمامي، تكتسبُ بعداً آخر، بعداً دقيقاً يسمح لي بأن أواجهَ الأحداث وأتغلّبَ عليها. إلامَ ستنتهي علاقتنا؟ أقول ذلك لأنّ العلاقات بين الأزواج الشباب اليوم هشّة جدّاً. لا أريد أن أُفكّر فيه كثيراً. أفضّل الدماثة؛ أُفضّلُ أن أحبّها وأعتني بها. بالمناسبة سيكون أفضل إذا ما انتهينا إلى الزواج. حياة بكاملها إلى جانب إنجيبورغ، هل أستطيع على المستوى العاطفي أن أطلب أكثر؟

سيقول الزمنُ كلمته. حالياً حبّها هو... لكن دَعْنا من الشعر. أيام الإجازة هذه ستكون أيضاً أيّامَ عمل. سأطلب من فراو إلسي طاولةً أكبر، أو طاولتين صغيرتين، كي أنشر عليها الرقع. مجرّد التفكير في الإمكانات التي يُقدّمها انفتاحي الجديد وفي التطورات البديلة المختلفة التي يمكن أن تتبع ذلك يجعلني أرغب في أن أنشر اللعبةَ الآن بالذات وأبدأ بالتحقّقَ منها. لكنّني لن أفعل. ليس عندي وقت إلاّ لأن أكتب برهة أخرى، فالرحلة كانت طويلة ولم أكد أنام البارحة، من ناحية لأنّها كانت المرّة الأولى التي نبدأ فيها إنجيبورغ وأنا إجازة معاً، ومن ناحية أخرى لأنّني سأعود وأطأ فندق البحر بعد غياب عشر سنوات.

غداً سنتناول فطورنا في الشرفة. في أيّ ساعة؟ أفترض أنّ إنجيبورغ تنهض متأخّرة. ترى هل هناك توقيت ثابت للفطور؟ لا أتذكّرُ، أعتقد لا. على أيّ حال نستطيع أيضاً أن نتناول فطورنا في مقهى داخل البلدة. في محلّ قديم دائماً كان مليئاً بصيادي الأسماك والسياح. اعتدنا مع والديَّ أن نتناولَ جميعَ وجباتنا في فندق البحر وفي هذا المقهى. تراهم أغلقوه؟ في عشر سنوات تحدث أشياء كثيرة. آمل أن يكون ما يزال مفتوحاً.

٢١ آب

تكلّمت مرّتين مع فراو إلسي. لم تكن لقاءاتنا مرضية كما كنتُ أُريدُ تماماً. حدث اللقاء الأوّل عند الحادية عشرة صباحاً؛ قبلها بقليل كنتُ قد تركتُ إنجيبورغ على الشاطئ وعدتُ إلى الفندق كي أسويّ بعضَ المسائل. وجدتُ فراو إلسي في مكتب الاستقبال تهتمّ ببعض الدنماركيين الذين كانوا يغادرون، بحسب ما يُستَخْلَص من حقائبهم ولونهم البرونزي التام الذي يتبخترون به باعتزاز. كان أبناؤهم يجرون بعض قبعات القشّ المكسيكية الضخمة في ممرّ مكتب الاستقبال. ما إن انتهى الوداع بوعودٍ بلقاءات جديدة ودقيقة في العام القادم، حتى قدّمتُ نفسي. أنا أودو بيرغير، قلتُ مادّاً يدي ومبتسماً بإعجاب وهذا شيء منطقيّ، في تلك اللحظة وعن قرب بدت لي فراو إلسي أجملَ بكثير وغامضة، على الأقل كما في ذكريات مراهَقَتي. ومع ذلك هي لم تعرفني. اضطررت لأنّ أوضّح لها خلال خمس دقائق من أنا، من هما والداي، كم صيفاً أمضينا في فندقها، بل وحتى تذكّر نوادر منسية معبرة كنتُ أفضّل ألا أقولها. كلّ ذلك وقوفاً في مكتب الاستقبال بينما يروح ويغدو زبائن بثياب السباحة (أنا نفسي كنتُ في سروال السباحة والصندل)، كانوا يقطعون عليّ باستمرار الجهودَ التي أبذلها كي تتذكّرني. أخيراً قالت بلى، عائلة بيرغير، من ميونيخ؟ لا، من ريوتلنجن، صحّحتُ، على الرغم من أنّني أعيش الآن في ستوتغارت. طبعاً، قالت كانت أمّي امرأة ساحرة وتذكّرت أيضاً أبي بل وحتى الخالة جيزيل. أنتَ كبرت كثيراً، صرتَ رجلاً بكلّ

معنى الكلمة، قالت بنبرة اعتقدت أنّني لاحظت فيها بعض الخجل، واستطاعتْ، دون أن أستطيع تفسيرَ ذلك بطريقة عقلانية، أن تُحْرِجني. سألتني كم من الوقت أفكّر في أن أُمضي في البلدة، وما إذا لاحظت أنّها تغيرت كثيراً. أجبتُها بأنّني لم أملك الوقتَ بعد كي أخرج لأتمشى. قلتُ وصلتُ ليلةَ البارحة، مُتأخّراً كفاية، وإنّني أُخطّط كي أبقى خمسة عشر يوماً، طبعاً هنا في فندق البحر. هي ابتسمت وبهذا اعتبرنا الحديث بحكم المنتهي. صعدتُ بعدها فوراً إلى الغرفة، متضايقاً قليلاً، من دون أن أعرف السبب الدقيق؛ هتفتُ من هناك وطلبتُ أن يصعدوا لي بطاولة. وضّحتُ لهم أنّها يجب أن تكون بطولِ متر ونصفِ المتر على الأقل. قرأتُ، بينما رحتُ أنتظرُ، الصفحاتِ الأولى من هذه اليوميات، لم تكن سيّئة، خاصّةً بالنسبة إلى مبتدئ. أظنّ أنّ كونراد على حقّ، فالممارسة اليومية، الإجباريةُ أو شبهُ الإجبارية، لتسجيلِ أفكارِ وأحداث كلِّ يوم في يومياتٍ تُفيد كي يتعلّم عصاميٌّ افتراضيّ مثلي أن يُفكّر، أن يُدَرّب الذاكرة مسلّطاً الضوء على الصور بحذر وليس بلامبالاة، وأن يُراعي على وجه الخصوص بعضَ الجوانب من حساسيته، التي يعتقد بأنّها اكتملت تماماً، بينما هي في الحقيقة مجرّد بذور قد تنتش وقد لا تنتش في عريكتهِ. ومع ذلك فإنّ الغاية الأوّلية من اليوميات تخضع لأهداف أكثر عملية بكثير: أن أتدرّب كيلا يتخطّى من الآن فصاعداً في نثري الجناسُ الناقصُ والتركيب النحوي الخاطئ مما يمكن أن يوجد في مقالاتي، المنشورة في عددٍ هو في كلّ مرّةٍ أكبر من المجلات المتخصّصة، هذه المقالات التي صارت في المرحلة الأخيرة هدفاً لعمليات نقد متباينة، سواء على شكل رسائل في قسم بريد القارئ أو على شكل شطبٍ أو تصحيح من قبل المسؤولين عن المجلات. ولم تفدني احتجاجاتي بشيء، ولا وضعي كبطل، أمام هذه الرقابة التي لا تزعج نفسها بالتورية وحجّتها الوحيدة تشكّلها عيوبي النحوية (كما لو

أنّهم يكتبون بشكل ممتاز). على شرف الحقيقة عليّ أن أقول إنّ من حسن الحظ أنّ الأمر ليس كذلك: هناك مجلات تجيبني بعد أن تتلقى عملي بأدب، مرسلةً ملاحظة، تُمرر من خلالها جملتين أو ثلاث جمل تنمّ عن الاحترام، ويظهر بعد وقت نصّيَ مطبوعاً من دون أن يُحذف منه أيّ شيء. وأخرى تذوب بالمدائح، إنها تلك التي يسميها كونراد المنشورات البيرجيرية. مشاكلي في الحقيقة قائمة فقط مع جزء من مجموعة ستوتغارت ومع بعض الأشخاص المغرورين من كولونيا، الذين فزت عليهم أحياناً بشكل مدوٍّ وهم حتى الآن لا يغفرون لي ذلك. في ستوتغارت توجد ثلاث مجلاتٍ ونشرت فيها جميعاً؛ مشاكلي هناك هي، كمن يقول، عائلية. في كولونيا هناك مجلة واحدة فقط، لكنّ نوعية التصوير فيها أفضل، وتُوَزّع على مستوى الأمّة، وما لا يخلو من أهمّية أن المساهمات فيها مدفوعة الأجر. بل إنّهم يسمحون لأنفسهم بترف امتلاكِ مجلس تحرير، صحيح أنّه صغير، لكنّه مؤهّل مهنياً، براتب شهريّ لا يُستهان به، بالضبط لأنّهم يعملون ما يُحِبّون. أن يعملوا ذلك بشكل جيد أو سيئ، أنا أرى أنّهم يعملون بشكل سيئ، فهذه مسألة أخرى. نشرتُ في كولونيا مقالين، أوّلهما (كيف تفوز في معركة بولج) تُرجم إلى الإيطالية ونُشر في مجلة ميلانية وهو ما استحققت عليه مدائح في دائرة أصدقائي وإقامة اتصال مباشر بالهواة في ميلان. نُشر المقالان، كما قلتُ، وإن كنتُ لاحظتُ تعديلات خفيفة وتغييرات طفيفة، حين لا تُحذف جمل بكاملها بذريعة ضيق المكان (ومع ذلك فجميع الصور التوضيحية التي طلبتها ضُمِّنَت!) أو تصحيح أسلوب، هذه المهمّة الأخيرة مكلّف بها شخص، لم أنل قط شرف التعرّف إليه ولا حتى بالهاتف وعندي شكوك جدّية بوجوده الحقيقيّ. (لا يظهر اسمه في المجلة. أنا واثق من أنّ خلف هذا الاسم المستعار يختبئ أعضاء مجلس التحرير في ظلمهم للمؤلفين) الطامة الكبرى جاءت مع المقال الثالث

الذي قدّمته، ببساطة رفضوا نشره على الرغم من أنّه كُتِبَ بتكليف واضح منهم. كان لصبري حدود؛ بعد ساعات من تلقي رسالة الرفض اتصلت برئيس التحرير لأبين له استغرابي للقرار المتخذ وأسفي على الساعات التي أضعتها عبثاً، على الرغم من أنّني كذبت في هذا الأخير، فأنا لا أعتبر الساعات المستخدمة في تسليط الضوء على مشكلة متعلقة بهذا النوع من اللعب مضيعةً للوقت، وأقل منها بكثير تلك التي أُفكّر وأكتب فيها عن جوانب معيّنة من حملةٍ تعنيني بشكل خاص. لدهشتي ردّ عليّ رئيس التحرير بسلسلة من الشتائم والتهديدات، كنتُ أعتقد قبل ذلك بدقائق أنّ من المستحيل أن أسمعها من منقاره؛ منقار البطة الكريه. قبل أن أقطع الخطّ ـ على الرغم من أنّه هو من قطعه ـ وعدته أن أُحطّم له أنفه إذا ما التقيت به ذات مرّة. من بين الشتائم الكثيرة التي اضطُرِرْتُ لأن أسمعها ربّما أكثر ما أثّرت في حساسيّتي كانت تلك المتعلّقة بتفاهتي الأدبية المزعومة. إذا ما فكّرت فيها بهدوء، فلا شكّ في أنّ الرجل المسكين كان مخطئاً، وإلاّ فلماذا ما تزال المجلات الألمانية وبعض المجلات الأجنبية تنشرُ أعمالي؟ لماذا أتلقى رسائل من ريكس دوغلاس، ونيكي بالمير، وديف روسي؟ هل لأنّني البطل فقط؟ وبالوصول إلى هذه النقطة أرفض أن أسميها أزمة. كونراد قال الجملة الحاسمة: أنصحك بأن تنسى جماعة كولونيا (الوحيد الذي له قيمة هناك هو هايميتو وليس له أيّ علاقة بالمجلة) وأن أكتب يومياتي وليس بفائض أن يكون هناك مكان أسجّل فيه أحداث اليوم وأرتب أفكاري المتفرقة من أجل أعمال مستقبلية، وهو بالضبط ما أفكّر في أن أعمله.

كنتُ غارقاً في هذه الأفكار حين طرقوا البابَ وظهرت نادلة، تكاد تكون طفلةً، دمدمت بلغةٍ ألمانية مُتَخَيّلة ـ الحقيقة التعبير الألماني الوحيد كان كلمة لا ـ ببعض الكلمات التي فهمت بعد أن فكّرتُ فيها أنّها تريد أن تقول إنّه لا توجد طاولة. وضحت لها بالقشتاليّة أنّ من الضرورة

القصوى أن يكون عندي طاولة، وليس أيّ طاولة، بل طاولة بطول متر ونصف كحدّ أدنى، أو طاولتان كلّ واحدة بطول خمسة وسبعين سنتيمتراً، وأنّني أريدها الآن.

ذهبت الطفلة وهي تقول إنّها ستعمل كلّ ما هو ممكن. بعد برهة ظهرت من جديد مع رجل في حدود الأربعين من عمره يرتدي بنطلوناً بنّياً مجعّداً، كما لو أنّه ينام ليلاً من دون أن يخلعه وقميصاً أبيض، متسخَ القبّة. دخل الرجل إلى الغرفة وسأل من دون أن يقدّم نفسه أو يستأذن لماذا كنتُ أُريد الطاولة وأشار بفكّه إلى الطاولة التي كانت الغرفة مزوّدة بها، الصغيرة والمنخفضة أكثر من اللازم بالنسبة لهدفي. فضّلتُ ألا أجيب. قرّر أمام صمتي أن يُوضّح أنّه لا يمكن وضع طاولتين في غرفة واحدة. لم يبدُ واثقاً من أنّني كنتُ أفهم لغته وكان يقوم بين الفينة والأخرى بحركات من يديه كما لو أنّه يصف امرأة حبلى.

متعباً قليلاً من كلّ تلك الإيماءات قذفت على السرير بكلّ ما كان على الطاولة وأمرته بأن يأخذها ويعود بأخرى بالمواصفات التي كنتُ أطلبها. لم يقم الرجل بما يدلّ على أنّه سيتحرك، بدا خائفاً، على العكس منه كانت الطفلة التي ابتسمت لي بملاحة. بعدها أخذت بنفسي الطاولة وأخرجتها إلى الممرّ، وخرج الرجل من الغرفة موافقاً ومرتبكاً، من دون أن يفهم ما جرى. قال قبل أن يذهب إنّه لن يكون سهلاً العثور على طاولة كالتي كنتُ أُريدُها. شجّعته بابتسامة، كلّ شيء ممكن إذا ما صمّم المرء..

بعدها بقليل هتفوا من مكتب الاستقبال. صوت يصعب تحديد ماهيته قال بالألمانية إنه لم يكن عندهم طاولة كتلك التي كنتُ أطالب بها. هل أرغب في أن يعودوا ويصعدوا بالتي كانت في الغرفة؟ سألتُ مع من كان لي شرف الكلام. مع عاملة الاستقبال قال الصوت؛ الآنسة نوريا. وضّحت للآنسة نوريا بالنبرة الأكثر إقناعاً أنّ طاولة أعلى وأطول على

وجه الخصوص لا غنى عنها لعملي، بلى أنا أعمل في الإجازات، وليس تلك التي كانت من قبل، النموذج المعمم على كلّ غرف الفندق، إذا لم يكن طلباً زائداً عن الحد. فيمَ تعمل أنت، يا سيّد بيرغير. سألت الآنسة نوريا. وأنت ماذا يهمّك هذا. اقتصري على إعطاء الأمر بأن يصعدوا لي بطاولة كالتي طلبتها وكفى. تلعثمت عاملةُ الاستقبال ثم وبخيطٍ من صوتٍ قالت إنّها سترى ماذا يمكن أن تفعل وأغلقت على عجل. في تلك اللحظة استعدت حسن مزاجي وارتميتُ على السرير وضحكتُ بقوّة.

أيقظني صوت فراو إلسي. كانت واقفة بجانب السرير وعيناها تُراقبانني قلقتين، بكثافة غير معتادة. وعلى الفور أدركتُ أنّني كنتُ قد نمت فشعرت بالخجل. حرّكتُ يديّ بحثاً عن شيء أتغطّى به ـ وإن كان بطريقة بطيئة جدّاً، كما لو أنّني كنتُ ما أزال وسط حلم ـ فبالرغم من أنّني كنتُ أرتدي سروال السباحة إلا أنّ شعوري بالعريّ كان تامّاً. كيف استطاعت أن تدخل من دون أن أسمعها؟ تراها كانت تملك مفتاحاً موحّداً لكلّ غرف الفندق وتستخدمه من دون مشكلة؟

فكّرتُ في أنّك مريض، قالت. هل تعلم أنّك أخفتَ عاملةَ استقبالنا. هي تقتصر على تنفيذ قواعد الفندق، وليس عليها أن تتحمّل سلاطة الزبائن.

ـ هذا حتميّ في أيّ فندق ـ قلتُ.

ـ هل تريد أن تعرف أكثر منّي عن أعمالي؟

ـ لا، طبعاً.

ـ إذن؟

تمتمت ببعض كلمات الاعتذار من دون أن أستطيع أن أبعد نظري عن الشكل البيضوي التامّ الذي هو وجه فراو إلسي، الذي اعتقدتُ أنّني

رأيت فيه ابتسامةَ سخريةٍ خفيفة، كما لو أنّ الوضع الذي خلقته كان بالنتيجة مُضحكاً.

كانت الطاولة خلفها.

استجمعت نفسي حتى صرت على ركبتي فوق السرير، لم تقم فراو إلسي بأيّ إيماءة تحرك كي أستطيع أن أتأمّل الطاولة على هواي: ومع ذلك انتبهت إلى أنّها كانت تماماً كما كنتُ أرغب، بل وأفضل. آمل أن تنال إعجابك، اضطررت أن أنزل إلى القبو كي أبحث عنها، كانت لأمّ زوجي. كانت نبرة السخرية ما تزال في صوتها: هل ستفيدك في عملك؟ لكن هل تُفكّر في أن تعمل طوالَ الصيف؟ لو كنتُ بشحوبك لقضيتُ النهار كلّه على الشاطئ. وعدتُها بأن أقوم بالشيئين، بقليل من العمل وقليل من الوجود على الشاطئ، بالقدر الدقيق. وفي الليل، ألن تذهب إلى المراقص؟ ألا تُحبّ صديقتُك المراقصَ؟ بالمناسبة، أين هي؟ على الشاطئ، قلتُ. يجب أن تكون فتاة ذكية، فهي لا تضيع وقتاً، قالت فراو إلسي. سأعرّفكِ إليها هذا المساء، إذا لم يكن لديك أيّ مانع، قلتُ. بلى، عندي موانع عديدة، من الممكن أن أقضي النهار كلّه في المكتب، مرّة أخرى، قالت فراو إلسي. ابتسمتُ. كنتُ أجدها في كلّ مرّة أكثر أهمّية.

ـ أنتِ أيضاً تستبدلين الشاطئ بالعمل ـ قلتُ.

وضعتُ الطاولة بجانب النافذة في وضعية مفيدة كي أتلقى أقصى درجات النور الطبيعي. خرجتُ بعدها إلى الشرفة وبقيت برهة طويلة أنظر إلى الشاطئ وأحاول أن أُميّز إنجيبورغ بين الأجساد شبه العارية المعروضة للشمس.

أكلنا في الفندق، كانت بشرة إنجيبورغ محمرّة، هي شقراء جدّاً ولا يناسبها أن تتناول الشمسَ هكذا دفعة واحدة، آمل ألا تكون قد أصابتها

ضربة شمس، لأنّها ستكون رهيبة. حين صعدنا إلى الغرفة سألتني من أين خرجت تلك الطاولة فاضطررت لأن أوضّح لها في جوٍّ من السلام المُطلق، أنا جالس بجانب الطاولة وهي مستلقية على السرير، بأنّني طلبتُ من الإدارة أن يبدلوا لي القديمة بأخرى أكبر فقد كنتُ أُفكّر في أن أنشر اللعبة. نظرت إنجيبورغ إليَّ دون أن تقول شيئاً، لكنّني لاحظتُ في عينيها ملمح إدانة.

لا أستطيع أنْ أقول في أيّ لحظة نامت. تنام إنجيبورغ بعينين شبه مفتوحتين. بحذرٍ أخذتُ اليوميات وبدأتُ أكتب.

ذهبنا إلى مرقص مصر القديمة. تناولنا العشاء في الفندق. تكلّمت إنجيبورغ في حلمها خلال القيلولة (ما أسرع ما تُكتسَب العادات الإسبانية!). كلمات متفرّقة مثل سرير، ماما، طريق سريع، بوظة... حين استيقظت قمنا بجولة في الكورنيش، دون أن نتوغّل داخل البلدة، يلفّنا تيارُ المتنزهين الذين كانوا يروحون ويغدون. جلسنا بعدها على كاسر أمواج الكورنيش ورحنا نتكلّم.

كان العشاء خفيفاً. بدّلت إنجيبورغ ملابسَها. ارتدت فستاناً أبيضَ وحذاءً عالي الكعب أبيضَ، وطوق لؤلؤ وجمعت شعرها في كعكة مهملة عمداً. على الرغم من أنّني كنتُ أقلّ أناقة منها ارتديت أيضاً الأبيض.

كان المرقصُ في منطقة المخيمات، التي هي أيضاً منطقة المراقص، ومحلات الهامبرغر والمطاعم. قبل عشر سنوات لم يكن هناك إلاّ مخيمَان وغابة صنوبر تمتدّ حتى خطّ القطار، اليوم بحسب ما يبدو هو التجمع السياحي الأهمّ في البلدة. ضجيج جادتها الوحيدة التي تمضي موازية للبحر يمكن مقارنته بضجيج مدينة كبيرة في ساعة الذروة. مع فارق أنّ ساعات الذروة هنا تبدأ في التاسعة ليلاً ولا تنتهي إلا بعد الثالثة

فجراً، الحشد الذي يتجمّع على الأرصفة متنوع وعالمي، بيض وزنوج، صفر وهنود، خُلاسيون، كان يبدو كما لو أنّ كلّ الأعراق اتفقت على أن تمضي إجازاتها في هذا المكان، بالرغم من أنّهم ليسوا جميعاً في إجازة.

كانت إنجيبورغ مشعة وأحدث دخولنا إلى المرقص نظرات إعجاب خفية. إعجاب بها وحسد لي. أنا أحسدها، فهمتها بلمح البصر. على كلّ الأحوال فكّرنا في أن نبقى برهة طويلة. وللطامة القاتلة لم يتأخّر زوجان ألمانيان في الجلوس إلى طاولتنا.

سأُوضّح كيف حدث هذا: أنا لستُ مولعاً بالرقص؛ أرقص عادة، خاصّة منذ أن تعرّفت إلى إنجيبورغ، لكن قبل ذلك عليّ أن أشرب كأسين وأهضم، كي أقول ذلك بطريقة ما، الإحساس بالغرابة الذي تحدثه عندي كلّ تلك الوجوهِ المجهولةِ في صالة ليست، كقاعدة عامّة، حسنةَ الإضاءة، على العكس منّي إنجيبورغ ليس عندها أي مانع من أن تخرج وترقص لوحدها. تستطيع أن تبقى في الحلبة الوقت الذي تدومه أغنيتان، تعود إلى الطاولة، تشرب رشفة من المشروب وتعود إلى الحلبة وهكذا تبقى طوال الليل إلى أن تسقط منهكة. لقد اعتدتُ على ذلك. أفكّر خلال فترة غيابها في عملي وفي أشياء لا معنى لها، أو أُدندِن بهدوء كبير بالموسيقى التي تُسمع في مكبرات الصوت، أو أفكّر في أقدار الكتلة الهلامية والوجوه غير الواضحة التي تُحيط بي. تقتربُ إنجيبورغ أحياناً غريبةً عن مشاغلي وتُقبّلني. أو تَظهر مع صديقة جديدة وصديق جديد، مثل الزوجين الألمانيين في هذه الليلة اللذين لم تكد تتبادل معهما كلمتين في زحمة حلبة الرقص. الكلمات التي إذا ما أُضيفت إلى وضعنا المشترك كمصطافين تكفي كي تؤسّس لشيء شبيه بالصداقة.

كارل ـ على الرغم من أنّه يُفَضِّل أن ينادوه تشارلي ـ وحنّة هما من

أوبرهاوزن، هي تعمل سكرتيرة في الشركة التي يعمل هو فيها ميكانيكياً. كلاهما في الخامسة والعشرين من عمره. حنّة مُطلّقة. عندها طفل في الثالثة من عمره وتُفكّر في الزواج من تشارلي ما إن تستطِع ذلك، كل ما سبق حكته لإنجيبورغ في المغاسل وهذه حكته لي ما إن عادت إلى الفندق. تشارلي يُحبّ كرة القدم، الرياضة بعامّة، والزلاجة الشراعية: جاء معه بزلاجته التي يقول عنها العجائب، من أوبرهاوزن، سألني جانبياً بينما كانت إنجيبورغ وحنّة في الحلبة ما هي رياضتي المُفضّلة، قلتُ له أحبّ الجري. أن أجري وحدي.

كلاهما شرب كثيراً، ولكي أقول الحقيقة إنجيبورغ أيضاً شربت أكثر من اللازم، كان من السهل في تلك الظروف أن نتواعد ليوم الغد. كان فندقهما فندق كوستا برافا يبعد خطوات قليلة عن فندقنا. اتفقنا على أن نلتقي عند منتصف النهار على الشاطئ بجانب المكان الذي يؤجرون فيه الزلاجات.

غادرنا عند الساعة الثانية فجراً. قبلها كان تشارلي قد دفع دورة مشروب أخيرة؛ كان سعيداً، قال لي إنّه في البلدة منذ عشرة أيّام ولم يُقم حتى الآن صداقة مع أحد. فندق كوستا برافا مليء بالإنكليز، والألمان القليلون الذين وجدهم في البارات لم يكونوا اجتماعيين أو أنّهم جاؤوا في مجموعات مكوّنة حصراً من رجال وهذا ما يستبعد حنّة.

في طريق العودة راح تشارلي يُغنّي أغاني لم يسبق أن سمعتها قط، معظمها كان بذيئاً، بعضها كان يشير إلى ما كان يُفكّر في أن يفعله مع حنّة ما إن يصلا إلى غرفتهما وهو ما استنتجت منه أنّ الكلمات على الأقل كانت مخترعة. كانت حنّة، التي كانت تسير إلى الأمام قليلاً آخذة بذراع إنجيبورغ، تحتفل بها بقهقهات متفرقة. إنجيبورغ ذاتها كانت تضحك أيضاً. للحظة تصوّرتها بين ذراعي تشارلي فارتعشتُ. شعرت كيف راحت معدتي تنكمش حتى صارت بحجم القبضة.

في الكورنيش كانت تجري نسمة رطبة ساهمت في إنعاشي. لم يكن يُرى ناس تقريباً. كان السياح يعودون إلى فنادقهم مترنحين أو وهم يغنّون والسيارات القليلة تدور ببطء في هذا وذاك الاتجاه، كما لو أنّ كل الناس أُنهكوا، أو مرضوا فجأة وصبّوا جهدهم الآن باتجاه الأسرّة والغرف المغلقة.

عندما وصلنا إلى فندق كوستا برافا أصرّ تشارلي على أن يريني زلاجته الشراعية، كان قد ثبتها فوق حاملة الأمتعة في السيارة بأربطة مطاطية في مرآب الفندق المكشوف، ما رأيك؟ قال. لم يكن فيها شيء استثنائي، كانت زلاجةً مثل ملايين الزلاجات الموجودة، اعترفت له أنّني لا أعرف شيئاً عن التزلج الشراعي. إذا أردت أستطيع أن أعلّمك، قال. سوف نرى، أجبته، من دون أن أزجّ نفسي في أيّ التزام.

رفضنا أن يُرافقانا إلى فندقنا وفي هذه النقطة دعمتنا حنّة بثبات، على كلّ الأحوال امتدّ الوداع برهة أكثر. كان تشارلي أكثر سكراً بكثير مما اعتقدتُ وأصرَّ على أن نصعد ونتعرف إلى غرفته. كانت حنّة وإنجيبورغ تضحكان من الترهات التي كان يقولها، بينما بقيت أنا دون تبدّل. وحين أقنعناه أخيراً بأنّ من الأفضل أن نذهب وننام أشار بيده إلى نقطة على الشاطئ وراح يجري إلى هناك حتى ضاع في العتمة. تبعته أوّلاً حنّة ـ التي لا بدّ أنّها معتادة على هذه المشاهد ـ، تبعتها إنجيبورغ وبعد إنجيبورغ تبعتهم أنا دون رغبة، سرعان ما صارت أضواء الكورنيش خلفنا. على الشاطئ لم يكن يسمع غير صوت البحر. في البعيد وعلى اليسار ميّزتُ أضواء الميناء إلى حيث ذهبتُ مع والديَّ ذات صباح، باكراً جدّاً، في محاولة شاقّة لشراء السمك: كان البيع يتمّ، على الأقل في تلك السنوات، مساءً.

رحنا نناديه. وحدها صرخاتنا كانت تُسمع في الليل. دخلت حنّة بغفلة منها في الماء وبلّلت بنطلونها حتى الركبتين. عندها تقريباً، بينما كنّا

نسمع شتائم حنّة، فالبنطلون كان من الساتان ومياه البحر قد تتلفه، ردّ تشارلي على نداءاتنا: كان بيننا وبين الكورنيش. أين أنت، يا تشارلي؟ صاحت حنّة. هنا، هُنا، اتبعوا صوتي، قال تشارلي. رحنا نسير مرّة أخرى نحو أضواء الفنادق.

ـ انتبهوا من الزلاجات ـ نبّه تشارلي.

مثل حيوانات أعماق البحر السحيقة كانت الزلاجات تشكّل جزيرة على امتداد الشاطئ. كان تشارلي ينتظرنا جالساً على عوّامة إحدى تلك المركبات الغريبة، مفتوح أزرار القميص منفوشَ الشعر.

ـ فقط أردت أن أريك المكان الذي سنتقابل فيه غداً ـ قال أمام توبيخ حنّة وإنجيبورغ اللتين واجهتاه بالخوف الذي تسبّب لنا به وبتصرّفِهِ الصبياني.

بينما راحت المرأتان تساعدان تشارلي على النهوض على قدميه راقبت مجموعة الزلاجات. لا أستطيع أن أقول بدقّة ما الذي لفت انتباهي. ربّما الطريقة الغريبة التي رُتِّبت بها، المختلفة عن أيّ طريقة أخرى رأيتها في إسبانيا، مع أنّ هذا البلد ليس بلداً منهجياً. الترتيب الذي كانت فيه كان على الأقل متفاوتاً وغيرَ عمليّ. العادي حتى ضمن الشذوذ المزاجي لأيّ مسؤول عن الزلاجات هو أن يتركها وظهرها إلى البحر، مصفوفة ثلاثاً بثلاث، أو أربعاً بأربع. بالمناسبة هناك من يتركها ووجهها إلى البحر، أو في صفّ واحد طويل، أو لا يصفّونها، أو يجرونها حتى الجدار الاستنادي الذي يفصل الشاطئ عن الكورنيش. ومع ذلك فوضع هذه كان لا يدخل في أيّ تصنيف. بعضها كان مواجهاً للبحر وبعضها الآخر مواجهاً للكورنيش وإن كانت الغالبية جانبية، تشير إلى الميناء أو إلى منطقة المخيمات في نوع من الترتيب المتكسر، لكن الأكثر غرابة هو أن بعضها رُفع وأبقى على توازنه فقط على عوّامة، بل

وكان هناك واحدة استدارت كلّياً، مع العوامات وأطراف المجاديف العريضة نحو الأعلى والمقاعد مطمورة في الرمل، الوضعية التي لم تكن بالنتيجة غير معهودة وحسب بل وتحتاج إلى قوّة فيزيائية معتبرة والتي لولا التناظر الغريب والإرادة النابعة عن المجموع نصف المغطى بأشرعة قديمة، لاعتبر من عمل الزعران، الذين يجوبون الشواطئ عند منتصف الليل.

طبعاً لا تشارلي ولا حنّة ولا حتى إنجيبورغ لاحظوا شيئاً غير طبيعي في الزلاجات.

حين وصلنا إلى فندقنا سألتُ إنجيبورغ ما الانطباع الذي ولّده لديها تشارلي وحنّة.

شخصان طيّبان، قالت. وأنا متفق معها مع بعض التحفظات.

٢٢ آب

تناولنا الفطور في بار لا سيرينا. إنجيبورغ تناولت فطوراً إنكليزياً مكوناً من فنجان شايٍ بالحليب، وصحن فيه بيضة مقلية وشريحتا لحم خنزير مُقدّد ومقدار من الفاصوليا الحلوة وحبة بندورة مشوية، كل هذا بثلاثمئة وخمسين بيزيتا؛ أرخص كثيراً من الفندق. على الجدار خلف طاولة العرض هناك حورية بحر من الخشب، حمراء الشعر وذهبية البشرة. ما يزالون يعلقون من السقف حتى الآن شباك صيد قديمة. كل ما عدا ذلك كان مختلفاً. كان النادل والمرأة اللذان يقومان على خدمة طاولة العرض شابّيْن. قبل عشر سنوات كان يعمل هنا رجل وامرأة عجوزان، أسمران ومجعدان، اعتادا أن يُدردشا مع والديّ. لم أجرؤ على السؤال عنهما. لماذا؟ الحاليان يتكلّمان الكتلانية.

وجدنا تشارلي وحنّة في المكان المُتّفق عليه، بالقرب من الزلاجات. كانا نائمين. أيقظناهما بعد أن مددنا حصيرتينا بجانبهما. فتحت حنّة عينيها على الفور. لكنّ تشارلي دمدم بشيء غير مفهوم وتابع نومه. وضّحت حنّة أنّه أمضى ليلة سيّئة جدّاً. عندما يشرب تشارلي، بحسب حنّة، لا يعرف حدوداً ويتمادى بالقسوة على مقاومته الجسدية وصحّته. حكت لنا أنّه خرج في الثامنة صباحاً دون أن يكون قد نام ليتزلّج على الماء وبالفعل كان لوح التزلج هناك بجانب تشارلي. قارنت حنّة بعدها بين مرهم تسميرها ومرهم تسمير إنجيبورغ واستلقت الاثنتان بعدها وظهرهما باتجاه الشمس. كان الحديث يدور حول شخص من أوبرهاوزن. إداري

كان عنده نوايا حقيقيّة تجاه حنّة، بالرغم من أنّ هذه كانت «تُقدّره فقط كصديق». تجاهلتُ ما كانت تقوله وكرّستُ الدقائق التالية لأتأملَ الزلاجات التي طالما أقلقتني الليلة الفائتة.

لم تكن كثيرة تلك التي كانت على الشاطئ، معظمها كان مؤجَّراً، ينزلق بطيئاً ومتذبذباً في البحر الساكن ذي الزرقة الكثيفة. من المفروغ منه أنّه لم يكن يُلاحظ على الزلاجات، التي لم تكن قد أُجّرَتْ بعدُ، أيّ شيء مُقلِق، كانت قديمة، من موديلات تمّ تجاوزها حتى من قبل زلاجات محلات أخرى، كانت الشمسُ تبدو وكأنّها تفورُ على أسطحتها المُتشقَّقة حيث كان الطلاءُ يقشر بقوة. حبل مشدود إلى سواري مغروزة في الرمل، كان يفصل المستحمين عن المنطقة المخصّصة للزلاجات، لم يكن الحبل يرتفع عن الأرض أكثر من ثلاثين سنتيمتراً، بل وكان هناك سوارٍ مائلة وتوشك على السقوط كلّياً. ميّزتُ على الشاطئ المسؤولَ. كان يُساعدُ مجموعةً من الزبائن على النزول إلى البحر، منتبهاً كيلا ترتطم الزلاجة برأس أحدِ الأطفال الكثيرين الذين كانوايتخبطون في الماء حولها. كان عددُ الزبائن يُقارب الستة، جميعهم صعدوا على الزلاجات ومعهم أكياس بلاستيكية لا بدّ أنّهم يحملون فيها شطائر وعلبَ بيرة، كانوا يؤشرون إلى الشاطئ مودّعين، أو يربتون ربتات فرح. حين اجتازت الزلاجة منطقة الأطفال خرج المسؤول من الماء وبدأ يتقدّم نحونا.

ـ مسكين ـ سمعتُ حنّة تقول.

سألتُ من تقصدين؛ أشارت إليّ إنجيبورغ وحنّة كي أُراقب خفية. كان المسؤول أسمرَ، طويلَ الشعر، مفتولَ العضلات، لكن أكثر ما يلفت الانتباه في شخصه هي الحروق ـ، أعني حروقَ نار وليسَ حروق شمس، كانت تُغطّي القسم الأعظم من وجهه وعنقه وصدره، وتنتشر مكشوفة داكنة وخشنة كأنّها شرائحُ لحمٍ مشوية على الصاج أو صفائحُ طائرةٍ منكوبة.

شعرتُ للحظة كأنّني منوّمٌ مغناطيسياً، حتى انتبهتُ إلى أنّه كان بدوره ينظرُ إلينا وفي حركته تكثرُ اللامبالاة، نوعٌ من البرودة سرعان ما بدت لي كريهة.

تفاديتُ بدءاً من تلك اللحظة النظرَ إليه.

قالت حنّة إنّها ستنتحر لو صارت مثله، مشوّهة بالنار. حنة فتاة حلوة، زرقاء العينين، كستنائيّة وفاتحة الشعر، كبيرة الثديين ـ لا حنّة ولا إنجيبورغ كانتا ترتديان حمّالتي الصدر ـ حسني التكوين، لكنّني تخيّلتُها، دون جهد كبير، محروقة، تصرخ وتسير بلا اتجاه في غرفة فندقها. (لماذا، بالضبط، في غرفة الفندق؟)

ـ ربّما كانت علامة ولادة ـ قالت إنجيبورغ.

ـ ممكن، تظهر أشياء غريبة جدّاً ـ قالت حنّة ـ. تعرّف تشارلي في إيطاليا إلى امرأة وُلِدت من دون يدين.

ـ حقّاً؟

ـ أقسم لك. اسأليه. ناما معاً.

ضحكت حنّة وإنجيبورغ. لا أعرف أحياناً كيف تجدُ إنجيبورغ ظرافةً في مثل تلك التأكيدات.

ـ ربّما تكون الأمّ قد تناولت مُنْتَجاً ما كيميائياً خلال الحمل.

لم أعرف ما إذا كانت إنجيبورغ تتكلّم عن المرأة التي بلا يدين، أم عن مسؤول الزلاجات. على كلّ الأحوال حاولتُ أن أُخرِجَها من خطئها. لا أحد يولد هكذا، بجلد مُرَوِّع. حسن، لا شكّ في أنّ الحروق لم تكن حديثة، ربّما تعود إلى ما قبل خمس سنوات، بل وإلى أكثر من ذلك بالحكم من موقفِ المسكينِ (أنا لم أكن أنظر إليه) المعتادِ على إثارةِ الفضول والاهتمام الخاص بالمسوخ والمعوقين، على نظراتِ النفور اللاإرادية، على الشفقة على الفاجعة الكبيرة. أن يفقد المرءُ ذراعاً أو يداً

يعني أنّه يفقد جزءاً منه، لكن أن يعاني من مثل تلك الحروق، يعني أنه يتحوّل ويصير آخر.

حين استيقظ تشارلي أخيراً قالت حنّة إنّ المسؤول يبدو لها جذّاباً. مفتول العضلات! ضحك تشارلي ومضينا جميعاً إلى الماء.

في المساء وبعد الغداء نشرتُ اللعبة، بينما ذهبت إنجيبورغ وحنّة وتشارلي إلى القسم القديم من البلدة للقيام ببعض المشتريات. في أثناء الغداء اقتربت فراو إلسي من طاولتنا لتسأل كيف نقضي وقتنا. سلّمت على إنجيبورغ بابتسامة صريحة ومفتوحة، على الرغم من أنها حين توجّهت إليّ اعتقدتُ أنّني لاحظتُ بعض السخرية، كما لو أنّها تقول لي، ها أنت ترى، أهتمّ براحتك، لا أنساك. بدت لإنجيبورغ امرأة جميلة. سألتني كم عمرها، قلت لها إنّني لا أعرف.

كم عمر فراو إلسي؟ أتذكّر أنّ والديَّ كانا يقولان إنّها تزوجت شابّة جدّاً، من الإسباني، الذي بالمناسبة لم أره حتى الآن. في آخر صيف قضيناه هنا لا بدّ كانت في الخامسة والعشرين، بعمري وعمر حنّة وتشارلي الآن. لا بدّ أنّها تحوم الآن حول الخامسة والثلاثين.

يدخل الفندقُ بعد الغداء في خمول غريب، الذين لا يذهبون إلى الشاطئ، أو يخرجون ليقوموا بجولة في المحيط، ينامون، مغلوبين بالحر. المستخدمون، باستثناء من يقومون على طاولة عرض البار بصبرٍ، يختفون ولا يعودون ليظهروا في الفندق ومحيطه حتى ما بعد السادسة مساء. يسود جميعَ الطوابق صمتٌ دَبِق، تقطعه بين الحين والآخر أصواتُ أطفالٍ مطفأةٌ ودويّ المصعد. للحظة يتولّد لدى المرء انطباعٌ بأنّ مجموعة من أطفالٍ قد ضاعت، لكنَّ الأمرَ ليس كذلك، الشيء الوحيد الذي يحدث هو أنّ الآباء يُفضّلون ألا يتكلّموا..

لولا الحرّ، الذي لا يكاد يخفّف منه هواءُ المكيّف، لكانت أفضل

ساعة للعمل. هناك نور طبيعي، حُميّا الصباح هدأت وما تزال هناك ساعات كثيرة أمامنا. كونراد، عزيزي كونراد، يُفَضل الليل، لذلك ليست غريبة عنه الهالات الزرقاء حول العينين، والشحوب الأقصى الذي يخيفنا به أحياناً، معتبرين مرضاً ما هو ليس أكثر من مجرّد نقص في النوم. لكنّه لا يستطيع أن يعمل، لا يستطيع أن يُفكّر، لا يستطيع أن ينام، ومع ذلك فقد أهدى لنا كثيراً من أفضل تنويعاتِ بعض الحملات، إضافة إلى ما لا نهاية له من الأعمال التحليلية، التاريخية، المنهجيّة بل وحتى المقدّمات والتعريفات البسيطة ببعض الألعاب الجديدة. لولاه لكانت الهواية في ستوتغارت مختلفة، ولكان ناسها ونوعياتها أدنى. كان بطريقة ما حامينا، حاميَ حامي ألفريد، وفرانز، يكتشف لنا كتباً لولاه ما كنّا لنقرأها أبداً ويُكلّمنا باهتمامٍ وحماس عن موضوعات أكثر تنوّعاً. ما يجعله يضيع هو انعدام الطموحِ عنده. منذ أن عرفته، وبحسب ما أعرف، قبل ذلك بكثير، كونراد يعمل في مكتبِ بناءٍ ليس ذا أهمية كبيرة، في إحدى أسوأ الوظائف، تحت مستوى جميع المستخدمين والعمال تقريباً، يقوم عملياً بالأعمال التي كان يقوم بها في الماضي صِبْيَةُ المكاتب، والسُّعاة ـ دون دراجات نارية، هذه التسمية الأخيرة كان يُحبُّ أن يميّز به نفسه. ما يكسبه يدفع منه أجرة الغرفة، ويأكل في حانة صار يعتبرونه فيها من الأسرة تقريباً، ويشتري من حين لآخر ثياباً. الباقي يصرفه على الألعاب وعلى الاكتتاب في مجلات أوروبية وأمريكية شمالية واشتراكِ النادي، بعض الكتب (قليلة، فهو بشكل عام يستخدم المكتبة، فيوفّر بعض المال الذي يخصّصه لشراء مزيد من الألعاب) والتبرعات الطوعية لبعض لنشرات المدينة المتخصصة، التي كان يُساهم فيها، فرضياً جميعها، دون استثناء. من نافلةِ القول إنّه لولا كرم كونراد لكان اختفى الكثير من هذه النشرات، وفي هذا يمكن أن يرى انعدام طموحه: أقل ما يستحقّه بعضها هو أن يختفي غير مأسوف عليه، وريقات منسوخة منتنة، منسوخة

من قبل مراهقين أكثر ميلاً لألعابِ الأدوارِ، حين لا يكونوا أكثر ميلاً لألعاب الحاسوب، مما إلى صرامة رقعة مقطّعة إلى سداسيات أضلاع. لكن بالنسبة إلى كونراد لا يبدو أن هذا يهمّه، ويدعمها. كثير من أفضل مقالاته، بما في ذلك الغامبيتو الأوكراني ـ الذي يُسميه كونراد حلم الجنرال ماركس ـ، لم تُنْشَر فيها وحسب، بل وكُتِبَتْ خصّيصاً لهذا النوع من المجلات.

هو من شجّعني بشكل متناقض على الكتابة في نشرات ذات إصدارات كبيرة بل ومَنْ أصرّ وأقنعني كي أمتهن ذلك شبه امتهان. أنا مدين له باتصالاتي الأولى مع *الخطّ الأمامي* (فرونت لاين)، *لعبة المحاكاة* (جو دي سيموليشن)، *الحظيرة* (ستوكيد)، دوافع الحروب (كاسوس بيلي)، *الجنرال*، إلخ. بحسب كونراد ـ وبقينا مساء كاملاً نعمل حسابات حول هذا ـ إذا ما تعاونتُ بشكلٍ نظامي مع عشر مجلات، بعضها شهري وأغلبها يصدر كلّ شهرين وبعضها الآخر فصليّ، أستطيع أن أترك عملي الحالي بطريقة مفيدة، كي أتفرّغَ للكتابة فقط. حين سألته، لماذا لا يفعل هذا هو الذي كان عمله أسوأ من عملي ويُتقن الكتابةَ أفضل منّي، أجابني أنّه بالنظر إلى طبيعته الجبانة فإن إقامة علاقات تجارية مع ناس لا يعرفهم هي بالنتيجة شيء عنيف، كيلا يقول مستحيلاً. إضافة إلى أنّ مثل هذه الأعمال تحتاج إلى مستوى معين من التمكن من الإنكليزية، اللغة التي كان يكتفي كونراد بأن يفكّ ألغازها.

في ذلك اليوم الذي لا يُنسى وضعنا أهدافَ أحلامنا وشرعنا على الفور بالعمل. تعزّزت صداقتنا.

جاءت بعدها مسابقة ستوتغارت، السابقة على التصفيات ما بين المناطق (المساوية لبطولة ألمانيا) التي نُظّمت بعد أشهر في كولونيا. تعارفنا متعهِّدَين، نصف جدّيين ونصف مازحين، بأنّه إذا ما جعلنا القدر نتواجه فيما بيننا، على الرغم من صداقتنا المتينة فإنّنا لن يهادن أحدنا

الآخر. كان كونراد وقتها قد نشر للتوّ غامبيتو الأوكراني في النشرة الدورية توتِنكوبف[1].

سارت المباريات في البداية بشكل جيّد، كلانا عبرَ التصفية الأولى دون أوجاع رأس مفرطة، في المباراة الثانية كان من نصيب كونراد أن يلعب ضدّ ماثياس مولير، طفل ستوتغارت العجيب، ابن الثامنة عشرة، ناشر المجلة المتخصّصة بخطى حثيثة، وأحد أسرع اللاعبين الذين كنّا نعرفهم. كانت المباراة قاسية، واحدة من أقسى مباريات تلك البطولة، وفي النهاية هُزِم كونراد. لكنّ هذا لم يثبط عزيمته: وضّح لي بحماسِ عالم ينجح بعد فشل مدوٍّ في أن يرى بوضوح، عيوبَ غامبيتو الأوكراني الأوّلية وميزاته السرية، طريقة الاستخدام المبدئية للفيالق المدرعة والجبال والأماكن التي يمكن ولا يمكن أن يطبق فيها مركز الجاذبية، إلخ. بكلمة واحدة تحوّل إلى مساعدٍ لي.

اضطررت لأن أواجه ماثياس مولير، في الدور نصف النهائي وأقصيته. النهائي تنافست عليها مع فرانز غرابوفسكي من نادي التصاميم، وهو صديق جيّد لي ولكونراد. وهكذا حصلت على حقّ تمثيل ستوتغارت. ذهبتُ بعدها إلى كولونيا، حيث لعبتُ مع ناس من قامة بول هوشيل أو هايميتو غيرهاردت، هذا الأخير هو أقدم لاعبي ألعاب الحرب في ألمانيا، خمسة وسبعون عاماً، مثال كامل للهواية. كونراد الذي جاء معي تسلّى بأن أعطى لقباً كلّ الذين جاؤوا إلى كولونيا في تلك الأيام، لكنّه مع هايميتو غيرهاردت كان يشعر بأنه مشلول، فقد كانت عبقريته واستعداده الطيب يتبخران؛ حين كان يتكلّم عنه كان يسميه العجوز أو السيّد غيرهاردت، بالكاد كان يفتح فمه أمام هايميتو. طبعاً كان يتفادى أن يقول ترهاتٍ.

---

(١) ومعناها رأس الميّت، (الجمجمة) هي شعار تستخدمه بعض الجيوش وبعض الميليشيات.

سألته ذات يوم لماذا كان يحترم هايميتو كلَّ ذلك الاحترام. أجابني بأنّه يعتبره رجلاً من حديد. كان هذا كلّ شيء. حديد صدئ، قال بعدها مبتسماً، لكنّه أوّلاً وأخيراً حديد. فكّرت في أنّه كان يقصد ماضي هايميتو العسكري وهكذا أعلمته. لا، قال كونراد، أقصد شجاعته في اللعب. الشيوخ عادة ما يقضون الساعات في مشاهدة التلفزيون، أو وهم يتنزّهون مع نسائهم. على العكس منهم كان هايميتو، كان يجرؤ على الدخول إلى قاعة مزدحمة بالشباب، يتجرّأ على الجلوس على طاولة أمام لعبة معقدة وكان يجرؤ على تجاهل النظرات الساخرة التي كان يتأمّله بها الشباب. شيوخ بهذه الطبيعة، بهذا النقاء، فقط يمكن أن يوجدوا، بحسب كونراد، في ألمانيا، وهم ينقرضون. يمكن أن يكون كذلك ويمكن ألا يكون. على كلّ الأحوال كان هايميتو كما تبيّنتُ لاحقاً لاعباً رائعاً. تواجهنا قليلاً قبل نهاية البطولة، في جولة كانت قاسية بما يكفي، في لعبة غير متوازنة كان من نصيبي فيها أسوأ فريق. كان الأمر يتعلّق بحصن أوروبا وأنا لعبتُ مع قوات الدفاع. ولدهشة جميع من كانوا يحيطون بطاولتنا تقريباً ربحتُ.

بعد الجولة دعا هايميتو عدداً منّا إلى بيته. حضّرت زوجتُهُ بعضَ الشطائر والبيرة والسهرة التي امتدّت حتى ساعات متأخّرة من الليل، كانت لطيفة ومليئة بالنكات البديعة. كان هايميتو قد خدم في الفرقة ٣٥٢ مشاة، الفوج ٩١٥، الكتيبة الثانية، لكنّ قائده لم يعرف، بحسب ما أكّد، أن يناور جيّداً كما فعلت أنا بالفيش التي تمثّلها في اللعب. ومع أنّني كنتُ مبتهجاً وجدتُ نفسي مجبراً على أن أنبهه إلى أنّ مفتاح الجولة قام على وضعية فرقي المتحرّكة. شربنا نخب الجنرال كاركس والجنرال إيبرباخ والجيش الخامس مدرعات. في نهاية السهرة تقريباً أكّد هايميتو أنّني سأكون بطل ألمانيا المقبل. أعتقد أنّ مجموعة كولونيا بدأت تكرهني منذ تلك اللحظة. من ناحيتي شعرت بالسعادة، على وجه الخصوص لأنّني أدركتُ أنّني كسبتُ صديقاً.

ثمّ إنّني فزت أيضاً بالبطولة، نصفَ النهائية، وتنافستُ على النهائية مع بليتزكريغ دي تورنيو، لعبة متوازنة كفايةً حيث الخرائط كما القوى التي تتواجه خيالية (غريت بلو وبيغ ريد) وهو ما ينتج عنه، إذا كان كلا المتعاركين جيّدين، جولات طويلة إلى أقص حدّ ونزعة إلى الركود. لم تكن تلك حالتي، تخلّصت من بول هوشيل في ستّ ساعات وفي اللعبة الأخيرة كفتني ثلاث ساعات ونصف، قام بقياسها كونراد، كي يُعلن خصمي بنّه في المرتبة الثانية ويستسلمَ بشكل ظريف.

مكثنا يوماً آخر في كولونيا؛ اقترحوا عليّ في المجلة أن أكتب مقالاً وتفرّغ كونراد للسياحة وتصوير الشوارع والكنائس. لم أكن قد تعرّفت إلى إنجيبورغ بعد وكانت الحياة تبدو لي جميلة، دون أن يخطر ببالي أنّ الجمال سيجعلني أنتظر أكثر قليلاً. لكن وقتها كان كلّ شيء يبدو لي جميلاً. اتحاد لاعبي *ألعاب الحرب* ربّما كان أصغر اتحاد رياضي في ألمانيا، لكنّني كنتُ البطل ولم يكن هناك من يستطيع أن يشكّ في ذلك. كانت الشمس تلمع لي.

منحنا ذلك اليومُ الأخير في كولونيا شيئاً آخر، ستكون له لاحقاً نتائج مهمّة. هايميتو غيرهاردت، المتحمّس للعب بالمراسلة، أهدى لكلّ منا، أنا وكونراد، مجموعة ألعاب عن طريق البريد، بينما كان يرافقنا إلى محطة الحافلات. حدث أنّ هايميتو كان يتكاتب مع ريكس دوغلاس (أحد معبودي كونراد) اللاعب الأمريكي الشمالي العظيم والمحرر النجم لأعلى المجلات المتخصّصة مكانة: الجنرال. وبعد أن أسرّ إلينا أنّه لم يستطع قط أن يهزمه (كانا قد لعبا بالمراسلة ثلاث مباريات في ستّ سنوات). انتهى الأمر بهايميتو إلى أن يقترح عليّ أن أكتب لِريكس وأن أتفق معه على مباراة. عليّ أن أعترف أنّ الفكرة لم تهمّني كثيراً في البداية. في حال أنّني سألعب بالمراسلة كنتُ أُفضّل أن ألعب مع أشخاص من أمثال هايميتو، أو مع أشخاص منتمين إلى دائرتي، ومع

ذلك وقبل أن تصل الحافلة إلى ستوتغارد، كان كونراد قد أقنعني بأهمّية أن أكتب إلى ريكس دوغلاس وأن ألعب ضدّه.

إنجيبورغ نائمةٌ الآن. قبلها كانت قد طلبت منّي ألا أنهض من الفراش وأن أبقى معانقاً إياها طوال الليل. سألتها عمّا إذا كانت خائفة. كان شيئاً طبيعياً، لم يكن شيئاً متعمّداً، ببساطة قلتُ لها: هل أنتِ خائفة؟ وهي أجابتني بلى. لماذا؟ ومِمَّ؟ لم تكن تعرف. أنا بجانبك، قلتُ لها، يجب ألاّ تخافي.

غفتْ بعدها ونهضتُ. جميع أضواء الغرفة كانت مُطفأة باستثناء المصباح الذي وضعته على الطاولة، بجانب اللعبة. بالكاد عملتُ في هذا المساء. اشترت إنجيبورغ من البلدة طوقَ حجارة صفراء، يُسمونه هنا الفيليبّيني، ويستخدمه الشبابُ على الشاطئ وفي المراقص. تناولنا عشاءنا مع حنّة وتشارلي في مطعم صيني في منطقة المخيّمات. غادرنا حين بدأ تشارلي يسكر. في الحقيقة كان مساء غير ذي أهمّية، طبعاً كان المطعم غاصّاً بالناس والجوّ حارّاً، والنادل يتصبّب عرقاً والطعام جيّداً لكنّه ليس شيئاً استثنائياً. دار الحديث حول الموضوعات المفضّلة لِحنّة وتشارلي، أي حول الحبّ والجنس على التوالي. حنّة امرأة جاهزة للحب، بحسب كلماتها ذاتها، على الرغم من أنّها حين تتكلّم عن الحبّ ينتاب مخاطبها إحساس بأنّها تتكلّم عن الأمان، بل وأكثر عن ماركات سيارات وأدوات كهربائية منزلية. تشارلي من ناحيته يتكلّم عن السيقان، الأوراك، الأثداء، شعر العانة، الأعناق، السرر والمَصرّات وغيرها، لمزيد من السعادة لحنّة وإنجيبورغ، اللتين ينتزع منهما باستمرار قهقهات. الحقيقة أنّني لا أعرف ما الذي يُثيرُ عندهما كلّ ذلك الضحك. ربّما هي ضحكات عصبية. بالنسبة إليّ يمكنني أن أقول إنّني أكلتُ بصمتٍ وكان عقلي في مكان آخر.

رأينا عند العودة إلى الفندق فراو إلسي. كانت في صدر المطعم الذي

يتحوّل ليلاً إلى صالة للرقص، بجانب منصة الأركسترا، تتكلّم مع رجلين بملابس بيضاء. لم تكن إنجيبورغ تشعر بأنّ معدتها بخير، ربّما بسبب الطعام الصيني، لذلك طلبنا مغلي البابونج على طاولة عرض البار. رأينا من هناك فراو إلسي، كانت تومئ وتحرّكُ رأسَها مثلَ إسبانية، بالمقابل لم يكن رجلا الملابس البيضاء يحرّكان ولا حتى إصبعاً. إنّهما الموسيقيان، قالت إنجيبورغ، إنّها توبِّخهما. في الحقيقة لم يكن يهمّني من كانا، على الرغم من أنّني كنتُ أعرف أنّهما لم يكونا الموسيقيين، اللذين أتيحت لي ليلة البارحة فرصة أن أراهما وكانا أفتى من هذين. حين غادرنا كانت فراو إلسي ما تزال هناك: امرأة تامّة ملفوفة في تنورة خضراء وبلوزة سوداء، رجلا الملابس البيضاء، جامدان، حنيا رأسيهما فقط.

٢٣ آب

كان يوماً وديعاً نسبياً. في الصباح وبعد الإفطار غادرت إنجيبورغ إلى الشاطئ وأنا أغلقت على نفسي الغرفة مستعدّاً لأن أبدأ العملَ بجدّية. أجبرني الحرُّ بعد برهة على أن أرتدي ثياب السباحة وأخرج إلى الشرفة، حيث كان يوجد سريران قابلان للطي مريحان تماماً. كان الشاطئ على الرغم من الساعة مزدحماً بالناس. حين عدتُ ودخلتُ وجدتُ السريرَ قد سوّي للتوّ وجلبةً صادرةً عن الحمام تدلّ على أنّ النادلة ما تزال هناك. كانت نفسها التي طلبتُ منها الطاولة. لم تَبْدُ لي هذه المرّة شابّة جدّاً. كان التعب يرشح من وجهها وكانت عيناها الناعستان تشبهان عيني حيوان غير معتاد على نور النهار. طبعاً لم تتوقّع أن تراني. تولّد لديّ انطباع للحظة بأنّها تمنّت لو تغادر راكضة. سألتها قبلَ أن تفعل ذلك عن اسمها. قالت إنّها تُدعى كلاريتا وابتسمت بطريقة أقلّ ما يمكن أن يقال عنها إنّها مُقلِقة. أظنّ أنّها كانت المرّة الأولى التي أرى فيها أحداً يبتسم بتلك الطريقة.

أمرتها، ربّما بإيماءة فظّةٍ أكثر من اللازم، أن تنتظر، ثمّ بحثت عن ورقة نقدية من ألف بيزيتا ووضعتها في يدها.. نظرت الفتاةُ المسكينةُ إليّ مرتبكةً، دون أن تعرف ما إذا كان عليها أن تقبل النقود أو الدافعَ الذي يجعلني أعطيها لها. هذا إكرامية، قلتُ لها، وبعدها حدث أكثر ما يذهل: أوّلاً عضّت على شفتها السفلى، مثل طالبة مدرسة عصبية، ثمّ انحنت انحناء احترام صغيرة، مقلّدة دون شكّ أحد أفلام الفرسان الثلاثة.

لم أعرف ماذا أفعل، الطريقة التي سأفسّر بها حركتها، شكرتها وقلتُ لها إنّه صار باستطاعتها أن تذهب، لكن ليس بالإسبانية كما فعلت حتى تلك اللحظة بل بالألمانية. أطاعتني الفتاة على الفور. غادرت صامتة كما جاءت.

شغلت بقية النهار بتسجيل الأسطر الأولية لكتابتي في ما يسميه كونراد دفتر الحملة.

في الثانية عشرة اجتمعت بإنجيبورغ على الشاطئ. كنت، عليّ أن أعترف بذلك، في حالة نشوة ناتجة عن الساعات المفيدة التي قضيتها أمام الرقعة والتي على عكس عادتي عملت لأجلها رواية مفصّلة عن انفتاحي، الحكاية التي قاطعتها إنجيبورغ قائلة إنّهم يسمعوننا.

اعترضتُ قائلاً إنّ هذا ليس صعباً إطلاقاً على الشاطئ، حيث يكادُ يتجمّع آلاف الأشخاص كتفاً إلى كتف.

أدركتُ بعدها أنّ إنجيبورغ شعرتْ بالخجل منّي، من الكلمات التي كنتُ أقولها (فيالق مشاة، فيالق مدرعة، عوامل المعركة الجوية، عوامل المعركة البحرية، غزو النرويج الوقائي، احتمالات القيام بهجوم ضدّ الاتحاد السوفييتي في شتاء ٣٩، احتمال هزيمة فرنسا تماماً في ربيع ٤٠)، وكان كما لو أنّ هوّة سحيقة انفتحت تحت قدميّ.

تناولنا الغداء في الفندق، اقترحت إنجيبورغ بعد العقبة مشواراً في سفينة؛ في مكتب الاستقبال سهّلوا لها مواعيد السفنِ الصغيرة التي تقطع الطريق بين منتجعنا وبلدتين مجاورتين. رفضتُ متذرّعاً بعمل عالِق. حين قلتُ لها إنّني أُفكر في أن أنتهي من وضع الخطوط العامة للدورين الأوّلين هذا المساء رمقتني بالتعبير الأوّل الذي سبق أن لاحظته على الشاطئ.

بذعر حقيقيّ أنتبهُ إلى أنّ شيئاً بدأ يقف بيننا.

فضلاً عن ذلك كان مساء مملاً. في الفندق لم يعد يُرى زبائنُ بيض تقريباً. الجميع، بمن فيهم من لم يمض عليهم غير يومين هنا، كانوا يظهرون سمرة تامّة، ثمرة ساعاتٍ كثيرة على الشاطئ والمراهم والكريمات المُسَمِّرة التي تنتجها تكنولوجيتنا بوفرة. عملياً الزبون الوحيد الذي ما يزال يُحافظ على لونه الطبيعي هو أنا. وهكذا فأنا من يُمضي أكبرَ وقت في الفندق، أنا وعجوز لا تكاد تتحرّك من الشرفة. الاحتمال الذي يبدو أنّه يوقظُ فضولَ العمّال، الذين يبدؤون بمراقبتي باهتمامٍ هو في كلّ مرّة أكبر، صحيح أنّهم يفعلون ذلك عن مسافة مدروسة وبشيٍ سأسميه مجازِفاً بالمبالغة خوفاً. أظنّ أنّ حادث الطاولة انتشر بسرعة عجيبة. الفارق بيني وبين العجوز، هو أنّها ساكنة في الشرفة، تنظر إلى السماء والشاطئ وأنا أغادر باستمرار الغرفة، مثل متسرنم، كي أذهب إلى الشاطئ وأرى إنجيبورغ أو كي أتناول زجاجةَ بيرة على طاولة عرضِ بار الفندق.

شيء غريب، أتيقّن أحياناً من أنّ العجوزَ كانت هنا حين كنتُ آتي مع والديَّ إلى فندق البحر. لكن عشر سنوات شيء كثير، على الأقل في هذه الحالة ولا أستطيع أن أتعرّف إلى وجهها. ربّما إذا ما اقتربت منها وسألتها عمّا إذا كانت تتذكّرني...

احتمال ضئيل. على كلّ حال لا أعرف ما إذا كنتُ قادراً على أن أكلّمها. فيها شيء يثير اشمئزازي. ومع ذلك فهي من النظرة البسيطة عجوز مثل الكثيرات: نحيلة أكثر مما هي بدينة، مليئة بالتجاعيد، ترتدي البياضَ، تضع نظارة شمسيّة وتعتمرُ قبعةَ قشّ. بقيتُ هذا المساء بعد أن ذهبت إنجيبورغ أنظر إليها من الشرفة. مكانها على شرفة الفندق هو نفسه لا يتبدّل في زاوية بجانب الرصيف. هكذا شبه متخفية تحت شمسية هائلة، تترك الساعات تمرّ وهي تتأمّل السيارات القليلة التي تمرّ على الكورنيش، مثل دمية متحرّكة، سعيدة. ويا للغرابة ضرورية لسعادتي

ذاتها؛ حين كنتُ لا أعود أطيق هواء الغرفة المخلخل أخرج وأجدها هناك، نوعاً من مصدر للطاقة يمدّني بعزيمة كافية كي أعود وأجلس بجانب الطاولة وأتابع عملي.

وماذا لو أنّها رأتني بدورها في كلّ مرّة أُطلّ فيها على الشرفة؟ ماذا ستظنّ بي؟ من ستعتقد أنّني أكون؟ ما من مرّة رفعت فيها نظرها، لكن بهاتين العدستين السوداوين لا أحد يعرف متى هم ينظرون أو لا ينظرون إليه. يمكن أن تكون قد رأت ظلّي على أرضية بلاط الشرفة؛ كان في الفندق ناس قليلون، ولا شكّ في أنّها ستعتبر من غير اللائق أن يظهر شاب ويختفي بين وقت وآخر. في آخر مرّة خرجتُ فيها كانت تكتب بطاقة بريدية. هل من الممكن أن تَذْكُرني؟ لا أعرف. لكنّها إذا فعلت فبأي كلمات ومن أيّ منظور ستفعل ذلك؟ شابّ شاحب، صافي الجبين. أو شاب عصبيّ، لا شكّ عاشق، أو ربّما شاب عاديّ وبسيط، عنده مشاكل جلدية.

لا أعرف. ما أعرفهُ هو أنّني أَمضي فوق السحاب، أضيع بين الافتراضات العبثية التي لا تحقق شيئاً غير أنّها تعكّر مزاجي. لا أفهم كيف أنّ صديقيَ الطيب كونراد استطاع أن يقول إنّني أكتب مثل كارل بروجير. ماذا أريد أكثر من ذلك.

تعرّفت بفضل كونراد إلى مجموعة عمّال بيت نيلاند الأدبية. هو من وضع بين يديّ كتاب جنود *الأرض* لكارل بروجير، ومن دفعني، بعد الانتهاء من القراءة، لأن أبحث في مكتبات ستوتغارت بسرعة هي في كلّ مرّة مدوّخة وشاقّة أكثر، *الملجأ السابع عشر*، لبروجير نفسه، *طرقة* لهينريخ ليرش، *الأرض المحرّمة* لماكس بارتهيل، *إيقاع أوروبا الجديدة* لغيريت إنجيلكي، *الرجل الحديدي* لليرش، إلخ.

يعرف كونراد أدب وطننا. ألقى عليّ ذات ليلة في غرفته عن ظهر

قلب أسماء مئتي كاتب ألماني. سألته عمّا إذا كان قرأهم جميعاً. قال بلى. كان يُحبّ على وجه الخصوص غوته وبين الحديثين إرنست جونجر. كان عنده كتابان لهذا يعيد قراءتهما دائماً *المعركة كتجربة داخلية* و*نار ودم*. ومع ذلك لم يكن يزدري المنسيين، من هناك جاء حماسه، الذي سرعان ما شاركنا فيه، لدائرة نيلاند.

كم من الليالي نمتُ منذ ذلك الوقت متأخّراً، مأخوذاً ليس فقط بفكّ رموز قواعد ألعاب جديدة شائكة، بل مأخوذاً بالفرح والشقاء، بهوّاتِ وقممِ الأدب الألماني!

طبعاً أقصد الأدب الذي يُكتب بالدم وليس كتب فلوريان ليندين، التي هي، بحسب ما تحكي إنجيبورغ، في كلّ مرّة أكثر سطحيّة. لهذا الغرض ليس من فائض القول أن نسجّل هنا ظلماً: عاشت إنجيبورغ زعلاً أو خجلاً في المرات المعدودة التي كلّمتها فيها أمام الناس بالتفصيل إلى هذه الحدّ أو ذاك، عن متواليات لعبة، ومع ذلك كانت هي في مرات لا تُحصى وفي لحظات كثيرة كما خلال الفطور، في المرقص، في السيارة، في السرير، خلال العشاء بل وعلى الهاتف، تحكي لي عن الألغاز التي على فلوريان ليندين أن يحلّها. وأنا لم أزعل ولم أشعر بالخجل من أنّ أحداً كان يسمع ما عليها أن تقوله هي لي، على العكس؛ حاولتُ أن أفهم المسألة بطريقة شاملة وموضوعية (جهد عبثي) وحققت بعدها حلولاً منطقية محتملة، لأحاجي رجلِ تَحَرّيْها.

منذ شهر، دون أن أذهب أبعد، حلمت مع فلوريان ليندين. كانت الطامة. أتذكّره بوضوح، كنتُ مستلقياً، وأشعر ببرد شديد، وإنجيبورغ تقول لي: «الغرفة مقفلة بشكل مُحكم»؛ عندها رحنا نشعرُ بصوت المُحقّق فلوريان ليندين، الذي كان يُحذّرنا من وجود عنكبوت سامّة في الغرفة، عنكبوت يمكن أن تلدغنا وتنسلّ بعدها، بالرغم من أنّ الغرفة «مغلقة بشكل محكم». راحت إنجيبورغ تبكي ورحتُ أعانقها. بعد برهة

قالت: «من المحال، كيف تدبّر فلوريان أمره هذه المرّة؟» كنتُ أنهض وأدور وأفتّش في الأدراج بحثاً عن العنكبوت، لكنّني لا أجد شيئاً بالرغم من وجود أماكن كثيرة يمكن أن تختبئ فيها. كانت إنجيبورغ تصرخُ: فلوريان، يا فلوريان، يا فلوريان، ماذا علينا أن نفعل، دون أن يجيبها أحد. أعتقدّ أنّ كلينا كان يعرف أنّنا وحدنا.

هذا كلّ شيء. كان كابوساً أكثر مما هو حلم. إذا كان يعني شيئاً فأنا أجهله. أنا عادةً لا أرى كوابيس. خلال مراهقتي، بلى، كانت الكوابيس كثيرة ومتنوّعة المشاهد جدّاً. لكن ليس إلى الحدِّ الذي يُقلق والديَّ أو طبيبَ المدرسة النفسي. في الحقيقة دائماً كنتُ شخصاً متوازناً.

سيكون من المهمّ تذكّرُ الأحلام التي رأيتها هنا، في فندق البحر، منذ عشر سنوات. بالتأكيد كنتُ أحلم بفتيات وعقوبات، مثل كلّ المراهقين. حكى لي أخي ذات مرّة حلماً. لا أدري ما إذا كنّا وحدنا، أنا وهو، أو كان معنا والدانا أيضاً. أنا لم أفعل مثل هذا قط. حين كانت إنجيبورغ صغيرة كانت تستيقظ مرات كثيرة باكيةً وتحتاج إلى من يواسيها. أي أنّها كانت تستيقظ على خوفٍ وشعورٍ بالوحشة كبير. أنا لم يحدث معي هذا قط، أو أنّه حدث معي مرّاتٍ كانت قليلة إلى حدّ أنّني نسيتُها.

منذ ما يقارب السنتين أحلم بألعابِ. أستلقي، أُغمض عينيّ فتشتعل رقعةٌ مليئة بالفيش الغامضة، وهكذا أهدهد لنفسي شيئاً فشيئاً، حتى أنام. لكنّ الحلم فعلاً يجب أن يكون مختلفاً، أنا لا أتذكّره.

قليلة هي المرّات التي حلمتُ فيها بإنجيبورغ، ومع ذلك فهي الشخص الرئيسي لواحد من أكثف أحلامي. إنّه حلم قصير كي يحكى، قصير ظاهرياً وربّما هنا تكمن فضيلته. هي جالسة على مقعد حجريّ تسرّح شعرها بفرشاة شعر بلورية، شعرها ذهب خالص، يصل إلى

خصرها. يحل الليل. في العمق، بعيداً جدّاً تُلمَحُ سحابةُ غبار. فجأة أنتبه إلى أنه يوجد إلى جانبها كلب خشبي ضخم وأستيقظ. أعتقد أنّني حلمت بذلك بعد تعارفنا بوقت قصير. حين قصصته عليها قالت إن سحابة الغبار تعني لقاء الحبّ. قلتُ لها كنتُ أعتقد الشيء ذاته. كلانا كان يشعر بالسعادة. كلّ ذلك حدث في مرقص ديتروَات في ستوتغارت. ومن المحتمل أنّني ما أزال أذكر هذا الحلمَ لأنّني قصصتُه عليها وهي فهمته.

تهتف لي إنجيبورغ أحياناً في ساعة متقدّمة من الفجر. تعترف أنّ هذا هو أحد أسباب حبّها لي. بعض خطابها السابقين لم يكن يتحمّل تلك المكالمات. واحد منهم يُدعى إريك قطع علاقته بها بالضبط لأنّها كانت توقظه في الثالثة فجراً. حاول بعد أسبوع أن يتصالح معها، لكنّ إنجيبورغ رفضته. ما من أحد فهمَ أنّها تحتاجُ إلى أن تتكلّم مع أحد بعد أن تستيقظ من كابوس، خاصّة إذا كانت لوحدها وكان الكابوس مرعباً بشكل خاصّ. أنا، بالنسبة إلى هذه الحالات، الشخصُ المثالي: نومي خفيف، أستطيع في لحظة أن أبدأ أتكلّم كما لو أنّ المكالمة كانت في الخامسة مساء (شيء غير محتمل، فأنا في تلك الساعة أكون ما أزال أعمل)؛ لا يزعجني أن يهتفوا لي ليلاً، وأخيراً، حين يرنّ الهاتف أحياناً لا أكون قد نمتُ بعد.

وغنيّ عن القول إنّ المكالمات تملؤني سعادة. سعادة رزينة لا تمنعني من أن أعود لأنام بالسرعة ذاتها التي استيقظتُ بها، وكلمات وداع إنجيبورغ ترنّ في مسمعي: «لتحلم بأحبّ الأشياء إليك، عزيزي أودو».

عزيزتي إنجيبورغ، ما أحببتُ قط أحداً كما أحببتك. لماذا، إذن، نظرات عدم الثقة المتبادلة تلك؟ لماذا لا نتحابب وكفى، مثل طفلين، قابلاً الواحد منّا للآخر بكلّيته؟

حين تعودُ سأقولُ لها إنّني أُحبّها، اشتقتُ إليها، لتعذرني.

هذه هي المرّة الأولى التي نخرج فيها معاً. نشترك في إجازة ونجد صعوبة في تكيّف الواحد منّا مع الآخر كما هو طبيعي. عليّ أن أتحاشى الكلام عن الألعاب، وخاصّة ألعاب الحرب، وأن أبقى مشدوداً إليها. إذا ملكت وقتاً ما إن أكتب هذه الأسطر سأهبط إلى حانوت الهدايا في الفندق وسأشتري لها شيئاً، لفتة تجعلها تبتسم وتغفر لي. لا أتحمّل التفكير في أنّني أفقدها. لا أتحمّل التفكير في أنّني أسبّب لها أذى.

اشتريتُ طوقاً فضياً معشّقاً بالأبنوس. أربعة آلاف بيزيتا. آمل أن يعجبها. أيضاً اقتنيت تمثالاً من الصلصال، صغيراً جدّاً لفلاح يضع قبعة حمراء، مطعوناً وهو يتغوّط، بحسب ما وضّحت البائعة هو تمثال تقليدي في المنطقة أو شيء من هذا القبيل. أنا واثق من أنّ إنجيبورغ ستستظرفه.

رأيتُ فراو إلسي في الاستقبال. اقتربتُ بحذرٍ ثمّ وقبل أن أُلقي عليها تحية المساء استطعت أن أرى من فوق كتفها كتاب مُحاسبة تكثر فيه الأصفار. لا بدّ أنّ شيئاً كان يُقلقها، فامتعضت عندما انتبهت إلى وجودي. أردتُ أن أُريها الطوقَ لكنّها لم تسمح لي. متكئة إلى طاولة الاستقبال وشعرها مضاء بآخر الأنوار التي كانت تدخل من نافذة الممر الواسعة، سألت عن إنجيبورغ وعن «أصدقائي». كذبتُ عليها قائلاً إنّه ليس عندي أدنى فكرة عمن يكون الأصدقاء الذين تشير إليهم. الزوجان الألمانيان الشابان، قالت فراو إلسي. قلتُ لها لم يكونا صديقين، بل من معارفنا، صداقة صيف، كما أنّهما، قلتُ، من زبائن المنافسة. لم يبدُ أنّ فراو إلسي قدّرت تعليقي الساخر. كما كان واضحاً أنّها لا تريد أن تقول شيئاً آخر ولم يكن بي رغبة بعد في الصعود إلى الغرفة، أخرجتُ على وجه السرعة تمثال الصلصال وأريتُها إيّاه. ابتسمت فراو إلسي وقالت:

ـ أنت طفل، يا أودو.

لا أدري لماذا كانت هذه الجملة البسيطة، المنطوقة بنبرة تامّة، كافيةً كي تُخْجِلَني. ثمّ أشارت إلى أنّ لديها عملاً وطلبت منّي أن أتركها لوحدها. سألتُها قبل أن أُغادر في أيّ ساعة تُعتم الدنيا عادة. في العاشرة ليلاً، قالت فراو إلسي.

من الشرفة أستطيع أن أرى السفنَ الصغيرة التي تقوم بالنزهة السياحية، تخرج كلّ ساعة من ميناء الصيادين القديم، وتمضي نحو الشرق، ثمّ تنعطف نحو الشمال وتضيع خلف جرف صخري كبير يسمونه هنا بونتا دِ لا بيرخِن. الساعة الآن التاسعة وبدأ الليل يتسلَّلُ توّاً بطيئاً وبراقاً.

يكادُ الشاطئ يكونُ مقفراً، فقط يُمَيَّز أطفالٌ وكلاب يتنقلون على الرمل الأصفر الداكن. الكلاب في البداية منفردة، لكنّها سرعان ما تجتمع في سربٍ وتجري نحو منطقة الصنوبر والمخيّمات، ثمّ تعود وينفرط السربُ شيئاً فشيئاً. الأطفال يلعبون دون أن يتحرّكوا. على الطرف الآخر من البلدة من جهة الأحياء القديمة والجروف، تظهر سفينة صغيرة بيضاء. هناك تأتي إنجيبورغ، أنا واثق. لكنّ السفينة توحي بأنّها لا تكاد تتحرّك من مكانها، على الشاطئ بين فندق البحر وفندق كوستا برافا، يبدأ مسؤول الزلاجات بسحب هذه عن الشاطئ. وعلى الرغم من أنّ العمل لا شكّ ثقيل إلا أنّ أحداً لا يُساعده. ومع ذلك ونظراً للسهولة التي ينقل بها الزلاجات، التي تتركُ أثراً على الرمل عميقاً، يتضح أنّه يكفي ذاته بذاته. من على هذا البعد لا أحد سيتوقّع أنّ قسماً كبيراً من جسده محروق بشكل مريع. لا يرتدي غير بنطلون قصير، والريح التي تجري على الشاطئ تعبثُ بشعره الطويل أكثر من اللازم. لا يمكن نكران أنّه شخصيّة أصيلة. وأنا لا أقول هذا بسبب الحروق بل بسبب الطريقة الفريدة التي يرتّب بها الزلاجات. ما اكتشفته في الليلة التي هرب فيها منّا تشارلي على الشاطئ أعود لأراه الآن، مع فارق أنّ العملية ومنذ البداية

كما تصوّرتها في تلك الليلة، بطيئة، معقّدة، غير معقولة وخالية من الفائدة العملية. تقوم على تجميع الزلاجات الموجهة باتجاهات مختلفة، والربط فيما بينها حتى تشكلَ ليس صفّاً أو صفّاً تقليدياً مزدوجاً بل دائرة، أو بالأحرى نجمة رؤوسها غير واضحة. إنّه عمل شاقّ يُترجم في أنّه حين يكون هو قد وصل إلى متصف عمله يكون بقيةُ المسؤولين قد أنهوا عملهم. ومع ذلك فهذا لم يكن يبدو أنّه يهمّه. لا بدّ أنّه يشعر بالراحة وهو يعمل، ترطّبه نسمة المساء والشاطئ مقفر إلا من بعض الأطفال الذين يلعبون على الرمل دون أن يقتربوا من الزلاجات. حسن، لو كنتُ طفلاً أيضاً ما كنتُ لأقترب.

شيء غريب: تولّد عندي لثانيةٍ انطباعٌ بأنّه كان يبني بالزلاجات حصناً؛ حصناً كذاك الذي يبنيه الأطفال بالتحديد. الفارق هو أنّ هذا البائس الفقير ليس طفلاً. حسن، بناء حصن، لماذا؟ أعتقد أنّ الأمر واضح: كي يقضي الليل هناك في داخله.

سفينة إنجيبورغ الصغيرة رست. لا بدّ أنّها الآن قادمة باتجاه الفندق: أتصوّر جلدها المشدود، شعرها الرطب والفوّاح، خطواتها الواثقة تعبر الحيَّ القديم. قريباً سيصيرُ الظلامُ تامّاً.

مسؤول الزلاجات لم يُنهِ بعدُ بناءَ نجمتِهِ. أتساءل كيف لم يلفت أحد انتباهه: هذه الزلاجات مثل كوخ سوقيّ، تكسر كلّ سحر الشاطئ، على الرغم من أنّني أعتقدُ أنّ هذا البائس ليس له أي ذنب، وربّما أنّ هذا التأثير، الإحساس العميق بأنّ ذلك يُشبه كوخاً أو وكراً، فقط يحدث من هذا المنظور. ترى ألا يحسّ أحد من الكورنيش بالفوضى التي تحدثها هذه الزلاجات على الشاطئ؟

أغلقتُ الشرفة. لماذا تتأخّر إنجيبورغ كلّ هذا الوقت في الوصول؟



٢٤ آب

كثير هو ما عليّ أن أكتبه. تعرّفت إلى المحروق. سأُحاول أن أختصر ما حدث في الساعات الأخيرة.

وصلت إنجيبورغ ليلاً مشعّة وحسنة المزاج. شكّلت النزهةُ نجاحاً ولم نحتج لأن نقول شيئاً لنشرع في مصالحة كانت أجمل لأنّها تمت بشكل طبيعي. تناولنا عشاءنا في الفندق واجتمعنا بعدها بحنّة وتشارلي في بار بجانب الكورنيش، يُسمى ركن الأندلسيين. في أعماقي كنتُ أفضّل أن أُمضي بقيّةَ الليل على انفراد مع إنجيبورغ. لكنّني لم أستطع أن أرفض، خشية أنِ أعكّر سلامنا الذي دشّناه توّاً.

كان تشارلي سعيداً وعصبياً، ولم أتأخّر في اكتشاف السبب: في تلك الليلة كانوا ينقلون مباراة لكرة القدم بين المنتخب الألماني وإسبانيا، وكان يريدنا أن نراها، أربعتنا، داخل البار مختلطين بالإسبانيين الكثيرين الذين كانوا ينتظرون أن يبدأ اللقاء. حين جعلته يلاحظ أنّنا سنكون مرتاحين أكثر في الفندق تذرّع بأن الأمر ليس نفسه؛ في الفندق يكاد يكون الجميع بكلّ ثقة ألماناً، سنكون في البار محاطين بـ«الأعداء» وهو ما يُضاعف من حرارة المباراة. وللدهشة وقفت حنّة وإنجيبورغ إلى جانبه.

على الرغم من أنّني لم أكن راضياً إلاّ أنّني لم أُصر وذهبنا بعد برهة قصيرة من الشرفة واتخذنا أماكننا بالقرب من التلفاز.

هكذا كان أن تعرّفنا إلى الذئب والخروف.

لن أصف داخلَ ركنِ الأندلسيين؛ فقط سأقولُ إنّه كان واسعاً، ورائحته سيّئة وإنّ نظرة واحدة كفت كي تؤكّد مخاوفي: كنّا الأجانب الوحيدين.

كان الجمهور، الموزّع بطريقة فوضوية على شكل هلال أمام التلفاز، مؤلّفاً أساساً من شبّان، غالبيتهم ذكور وتعلوهم جميعهم ملامحُ العمال الذين انتهوا توّاً من يوم عملهم ولم يملكوا بعدُ الوقت كي يذهبوا ليستحمّوا. ومع ذلك فالمشهد ما كان ليكون غريباً في الشتاء أما في الصيف فقد كان صادماً.

ولكي يبرز الاختلاف بينهم وبيننا، بدا أنّ الذين كانوا حاضرين هناك يعرفون بعضهم بعضاً منذ نعومة أظافرهم ويبرهنون على ذلك بربتِ بعضهم على ظهور بعض صارخين من زاوية إلى أخرى، يتبادلون المزاح الذي ترتفع نبرته شيئاً فشيئاً. كانت الضجّة مُصِمّةً، والطاولات مليئة بقناني البيرة. كانت هناك مجموعة تلعبُ بكرة قدم طاولةٍ متداعية، وكانت ضجة الضربات المعدنية تنضاف إلى الجلبة العامة مثل طلقات قنّاص وسط معركة ميدان بالسيوف والسكاكين. كان واضحاً أنّ وجودنا يسبّب حالة لا علاقة لها من قريب ولا من بعيد بالمباراة. النظرة المختلسة إلى هذه الدرجة أو تلك كانت تصبّ على إنجيبورغ وحنّة، اللتين، لا داعي لأن نقوله، كانتا تبدوان على النقيض منهم أميرتين من قصص الجنيات، وبخاصّة إنجيبورغ.

كان تشارلي مغتبطاً. في الحقيقة كان ذلك جوّه، فهو يحبّ الصراخ، والمزاحَ المُبتَذل، الجوَّ المليء بالدخان والروائح المثيرة للغثيان، وأفضل إذا كان علاوة على ذلك يستطيع أن يُشاهد منتخبَنا يلعب. لكن ما من شيء كامل. بالضبط عندما كانوا يُقدّمون لنا السانغريا[١] لأربعة

(١) نبيذ أحمر بالفاكهة وقد يُضاف إليه الجنّ، ويشرب مبرّداً.

أشخاص اكتشفنا أنّ ذلك الفريق الذي يلعب كان ألمانياً شرقياً. شعر تشارلي بما يُشبه الرفسة وصار مزاجه منذ تلك اللحظة أكثر تقلقلاً، سرعان ما أراد أن يُغادر. بعدها أُتيحت له فرصة أن يتأكّد من أنّ مخاوفه، ودون مبالغة، كانت هائلة وغير منطقية. برز بينها الخوف التالي: كان الإسبان يظنوننا ألماناً شرقيين.

قرّرنا أخيراً ما إن انتبهنا إلى السانغريا أن نغادر. بقي أن نقول إنّنا لم نعر المباراة أدنى انتباهاً، كنّا مشغولين فقط بالشرب والضحك. عندها كان أن جلس إلى طاولتنا الذئبُ والخروف.

ما الطريقة التي جرى بها ذلك، لا أعرف كيف أقوله. ببساطة ومن دون أيّ ذريعة جلسا معنا وراحا يتكلّمان. كانا يعرفان بعض الكلمات الإنكليزية، غير الكافية من أيّ وجهة نظر كانت، وإن كانا يعوّضان الفقرَ اللغوي بقدرة إيمائيّة هائلة. دار الحديث في البداية حول الموضوعات العامّة الدائمة (العمل، الطقس، الرواتب، إلخ.) وقمت أنا بدور المترجم. كانا، اعتقدتُ أنّني فهمتُ، دليلَيْن محلّيين مهنيين، لا شكّ كانت مزحة. بعدها ومع تقدّم الليل والألفة في التعامل لم يحتاجوا إلى معارفي اللغوية إلا في اللحظات الصعبة. لا شكّ في أنّ الكحول يعمل المعجزات.

ذهبنا جميعاً من ركن الأندلسيين في سيارة تشارلي إلى مرقص في ضواحي البلدة، في منطقة مقفرة على طريق برشلونة. كانت الأسعار أرخص بكثير من المنطقة السياحية. كان الزبائن في غالبيتهم ناساً شبيهين بصديقينا الجديدين وكان الجوّ احتفالياً، مواتياً للرفاقية، وإن كان هناك شيء غامض وعكر، كما لا يحدث إلا في إسبانيا وللتناقض لا يوحي بعدم الثقة. كما يحدث دائماً لم يتأخّر تشارلي في أن سكر. في لحظة من الليل عرفنا، لا أدري بأيّ طريقة، أنّ فريق ألمانيا الشرقية خسرَ اثنين مقابل صفر. أتذكّر ذلك كشيء غريب فأنا لا تهمّني كرة القدم وشعرت

بإعلان النتيجة كأنه انعطاف في الليل، كما لو أنّ كلّ صخب المرقص يمكن أن يتحوّل إلى شيء مختلف، إلى مشهد مرعب.

عدنا في الرابعة فجراً، كان يقود السيارة أحد الإسبانيين لأنّ تشارلي كان في المقعد الخلفي ورأسه خارج النافذة يتقيّأ طوال الطريق. الحقيقة أنّ وضعه كان محزناً. عندما وصلنا إلى الفندق أخذني جانباً وراح يبكي. كانت إنجيبورغ وحنّة والإسبانيان يتأملوننا بفضول بالرغم من الإشارات التي قمت بها كي يبتعدوا. بين فواق وآخر كان تشارلي يعترف لي بأنه كان خائفاً من أن يموت، كان كلامه بعامة غير مفهوم، على الرغم من أنّه كان واضحاً أنّه يخلو من الأسباب التي تُبرّر تلك الوساوس. بعدها راح يضحك ويلاكم الخروف دون مقدّمات. واقتصر هذا، الأقصر والأنحل منه، على تفاديه، لكنّ تشارلي كان سكران أكثر من اللازم وفقد توازنه وسقط أو ترك نفسه يسقط عمداً. بينما رحنا نرفعه اقترح أحد الإسبانيّيْن أن نذهب ونتناول قهوة في ركن الأندلسيين.

كان لشرفة البار من الكورنيش هالة كهفِ لصوص، جوّ متردّد لخمارة نائمة وغامضة وسط الرطوبة وضباب الصباح. وضّح الذئبُ أنّه، وإن كان يبدو مغلقاً، فإنّ صاحبه عادة ما يكون في الداخل يُشاهد أفلاماً في جهاز الفيديو الجديد عنده حتى ينبلج الصبح. قرّرنا أن نُجرّب. بعد لحظة فتح الباب رجلٌورديّ الوجه له لحية لم تُحلق منذ أسبوع.

الذئب نفسه هو من حضّر القهوة. في منطقة الطاولات كان هناك شخصان فقط يديران ظهريهما إلينا وينظران إلى التلفاز: المالك وشخص آخر، كانا جالسين إلى طاولتين منفصلتين. تأخّرت برهة حتى عرفت الآخر. شيء غامض هو ما دفعني لأن أجلس بجانبه. أيضاً من المحتمل أنّني كنتُ سكران قليلاً. المسألة أنّني أخذت فنجان قهوتي وجلست إلى طاولته. ملكتُ وقتاً فقط كي أتبادل معه عبارتين تقليديتين (وشعرتُ فجأة

بأنّني مرتبك وعصبيّ) إلى أن انضمّ إلينا البقيّة. طبعاً كان الذئب والخروف يعرفانه. تمّ التعريف بشكل رسميّ تماماً.

ـ هُنا، إنجيبورغ، حنّة، تشارلي، وأودو، أصدقاء ألمان.

ـ هُنا، زميلنا المحروق.

ترجمتُ التعريف لحنّة.

ـ كيف يمكن أن يُسمّوهُ المحروق؟ ـ سألتْ.

ـ لأنّه محروق. ثمّ إنّهم لا يدعونه هكذا فقط. يمكنك أن تناديه عضلات. كلا اللقبين يناسبانه.

ـ أعتقد أنّ هذا عدم لباقة مريعة ـ قالت إنجيبورغ.

قال تشارلي، الذي كان حتى تلك اللحظة متلعثماً:

ـ أو إفراط بالصراحة. هم فقط لا يواربون المشكلة. في الحرب كان الأمر كذلك، كان الرفاق يسمّون الأشياء بمسمياتها وببساطة. وهذا لا يعني تحقيراً ولا عدم لباقة ـ، طبعاً وإن كان...

ـ رهيب ـ ردّت إنجيبورغ ناظرة إليّ بانزعاج.

بالكاد توقّف الذئبُ والخروف عند تبادلنا للكلمات، لأنّهما كانا مشغولين يوضّحان لحنّة أنّ من الصعب أن يُساهم كأس من الكونياك في تفاقم سكرة تشارلي. كانت حنّة تبدو بين الاثنين للحظاتٍ مثارةً جدّاً، للحظات متضايقة وراغبة بأن تخرج راكضةً، وإن لم تكن بها في أعماقها رغبة زائدة في العودة إلى الفندق، على الأقل مع تشارلي، الذي وصل إلى حدّ أنّه فقط يستطيع أن يتعتع بكلمات غير متسقة. الوحيد المعتدل كان المحروق ونظر إلينا كما لو أنّه يفهم الألمانية. إنجيبورغ لاحظت ذلك مثلي، فتوترت. إنّها ردّة فعل معتادة عندها، لا تتحمّل أن توقع بشكلٍ مقصود أذى بأحد. لكن في الحقيقة ما الأذى الذي كان باستطاعتنا أن نتسبب له به بكلماتنا؟

بعدها سألتُهُ عمّا إذا كان يعرف لغتنا فقال لا.

في السابعة صباحاً وقد اعتلت الشمس في السماء، دخلنا في الفراش. كانت الغرفة باردة ومارسنا الحبَّ. بعدها سرقنا النومُ والنوافذ مفتوحة والستائر مسدلة... لكنّنا قبلَ ذلك... اضطررنا لأن نجرَّ إلى فندقِ كوستا برافا تشارلي المصرّ على أن يُغني أغنيات كان يدندن له بها في أذنه الذئبُ والخروف (وكان هذان يضحكان مثل مجنونين ويضربان كفاً بكف)، أصر في الطريق إلى الفندق على أن يسبح برهة. وبعكس رأيي ورأي حنّة أيّده الإسبانيان ودخل الثلاثة في الماء. تردّدت المسكينة حنّة برهة بين أن تستحمّ هي أيضاً وبين أن تنتظره معنا على الضفة، أخيراً وقع قرارها على الانتظار.

ظهر المحروق، الذي كان قد غادر البار دون أن ننتبه، وهو يسير على الشاطئ وتوقّف على بعد ما يُقارب الخمسين متراً من حيث كنّا. بقي هناك مقرفصاً يتأمّل البحر.

وضّحتْ حنّة أنّها كانت خائفة من أن يحدث لتشارلي شيء سيّئ. كانت سبّاحة رائعة، ولهذا السبب كانت تُفكّر في أنّ عليها أن تُرافقه، لكنّها قالت بابتسامة ملتوية إنّها لم تبغِ أن تتعرّى أمام صديقينا الجديدين.

كان البحر منبسطاً مثل سجادة. راح السبّاحون الثلاثة يبتعدون في كلّ مرّة أكثر. سرعان ما لم نعد نعرف أحدهم من الآخر. لم يعد من الممكن التمييز بين شعر تشارلي الأشقر وشعر الإسبانيين الداكن.

ـ تشارلي هو الأبعد ـ قالت حنّة.

رأسان بدأا يتراجعان إلى الشاطئ. الثالث تابع تقدّمه داخل البحر.

ذاك هو تشارلي ـ قالت حنّة.

ـ اضطُرِرْنا لأنّ نقنعها بألا تتعرّى وتذهب خلفه. نظرت إليّ إنجيبورغ كما لو أنّني أنا المناسب لمثل تلك المهمّة، لكنّها لم تقل شيئاً. شكرتُها.

السباحة ليست نقطة قوّتي، ثمّ إنّه أصبح بعيداً أكثر من أن أستطيع أن أدركه. العائدان كانا يفعلان ذلك ببطء أقصى. كان واحد منهما يلتفت بعد عدّة تذريعات، كما لو كي يتأكّد مما إذا كان تشارلي يظهر خلفه. فكّرتُ للحظة في ما كان قد قاله لي هذا: الخوف من الموت. كان شيئاً مضحكاً. في تلك اللحظة نظرتُ إلى حيث كان المحروق ولم أره. إلى اليسار من حيث كنّا، وسط الطريق بين البحر والكورنيش، كانت تنتصب الزلاجات مستحمّة بنور أزرق خفيف، فعرفت أنّه هناك داخل حصنه، ربّما كان نائماً وربّما كان يُراقبنا، ومجرد فكرة أنّه كان متخفياً بدت لي أكثر إثارة من عرض السباحة الذي كان يفرضه علينا الأحمق تشارلي.

أخيراً أدرك الذئبُ والخروفُ الشاطئ، حيث ارتميا مُسْتَنْفَدَيْن، الواحد منهما بجانب الآخر، غير قادرين على النهوض. ركضت حنّة باتجاههما دون أن تهتمّ لعريهما وبدأت تستنطقهما بالألمانية. ضحك الإسبانيان مُتْعَبَيْن وقالا لها إنّهما لا يفهمان شيئاً. حاول الذئب أن يرميها ثمّ رشّها بالماء. قفزت حنّة قفزة (قفزة كهربائية) إلى الخلف وغطّت وجهها بيديها. فكّرتُ في أنّها ستبكي أو أنّها ستضربهما، لكنّها لم تفعل شيئاً. عادت إلى جانبنا وجلست على الرمل بجانب كومة الثياب التي تركها تشارلي مبعثرة وجمعتها ثمّ طوتها.

ـ ابن العاهرة ـ سمعتُها تتمتم.

ثم نهضت بعد تنهيدة طويلة وبدأت تسبر الأفق. لم يكن تشارلي يُرى في أيّ مكان. اقترحت إنجيبورغ أن نستدعي الشرطة. اقتربت من الإسبانِيَّيْن وسألتهما كيف نستطيع أن نتصل بالشرطة أو بفريق من فرق الإنقاذ في الميناء.

ـ الشرطة لا ـ قال الخروفُ.

ـ لم يحدث شيء؛ هذا الرجل مزّاح، سوف يأتي. لا شكّ في أنّه يريد أن يمازحنا.

ـ لكن لا تستدعي الشرطةَ ـ أصرَّ الخروف.

أعلمتُ إنجيبورغ وحنّة أنّنا في حال طلبنا المساعدة لا يمكننا أن نعتمد على الإسبانيَّيْن، وهذا من ناحيةٍ أخرى لا يخلو من بعض المبالغة. في الحقيقة يمكن أن يظهر تشارلي في أيّ لحظة.

ارتدى الإسبانيان ملابسهما بسرعة وانضمّا إلينا. كان الشاطئ قد راح ينتقل من اللون الأزرق إلى اللون الضارب إلى الحمرة، وعلى الكورنيش بعض السياح المُبَكِّرين يجرون. جميعنا بقينا واقفين باستثناء حنّة، التي عادت وجلست بجانب ثياب تشارلي وقد صغرت عيناها، كما لو أنّ النور، الذي كان في كلّ مرّة أقوى، يؤذيها.

كان الخروف أوّل من لمحه. راح تشارلي يقتربُ من الضفة على بعد قرابة المئة متر من حيث كنّا، بأسلوبٍ موقَّع وتامّ، دون أن يخبط الماء. ركض الإسبانيان صارخَيْن بسعادة لاستقبالَه دون أن يهمّهما أن يتبلل بنطلونيهما. على العكس منهما راحت حنّة تبكي معانقة إنجيبورغ وتقول إنّها تشعر بأنها مريضة. خرج تشارلي من الماء شبه واعٍ. قبّل حنّة وإنجيبورغ وشدّ على أيدينا، نحن الباقين. كان في المشهَد شيء من الخيال.

ودّع بعضنا بعضاً أمام فندق كوستا برافا. رأيتُ، بينما نحن عائدان وحدنا إلى فندقنا، المحروقَ يخرج من تحت الزلاجات ويبدأ بعدها يفصلُ بعضها عن بعض، مستعداً ليومِ عملٍ آخر.

استيقظنا بعد الثالثة مساء. استحممنا وأكلنا شيئاً خفيفاً في مطعم الفندق. رحنا نتأمل، جالسَيْن أمام طاولة العرض، منظرَ الكورنيش، من خلال الزجاج المُدَخّن. كان مثل بطاقة بريدية. شيوخ مرتاحون عند حاجز الشارع بجانب الرصيف، نصفهم يعتمر قبعات بيضاء وعجائز شمّرن تنوراتهنّ إلى ما فوق الركبة، كي تلعق الشمسُ أفخاذهنّ. كان هذا

كلّ شيء. تناولنا مرطّباً وصعدنا إلى الغرفة كي نرتدي ثياب السباحة. كان تشارلي وحنّة في مكانهما المعتاد، بالقرب من الزلاجات. أفسح حادث ذلك الصباح المجالَ للحديثِ بُرهةً. قالت حنّة إنّها حين كانت في الثانية عشرة من عمرها مات أفضل أصدقائها بسكتة قلبية بينما كان يسبح؛ تشارلي الذي استعاد نفسه تماماً من السكرة حكى أنّه في زمن ما كان هو وشخص يدعى هانز كريبز بَطَلَي مسبح بلديةِ أوبرهاوزن. كانا قد تعلّما السباحة في نهر، وبرأيهِ من يتعلّم في هذا الوسط لا يمكن أن يهزمه البحرُ أبداً. في النهر يجب أن يسبح المرء مستنفراً عضلاته ومغلقاً فمه، قال، خاصّة إذا كان النهر مشعّاً. كان يشعر بالسعادة لأنّه أثبت للإسبانيَّيْن قدرتَه على التحمّل. قال إنّ هذين رجواه في لحظة معيّنة أن يعود؛ على الأقل كان هذا ما اعتقده تشارلي؛ على كلّ الأحوال حتى ولو كانا قد قالا له شيئاً آخر فهو قد فهم من نبرة صوتيهما أنّهما كانا خائفين. أنت لم تخف لأنّك كنتَ سكران، قالت حنّة بينما هي تُقبّله. ابتسم تشارلي مظهراً صفين من الأسنان البيضاء والكبيرة. لا، قال، أنا لم أخف لأنّني أتقن السباحة.

طبعاً رأينا المحروق. كان يتحرّك ببطء ولا يرتدي غير بنطلون جينز قصير، كبنطلون بيرمودا. رفعت إنجيبورغ وحنّة ذراعيهما وحيّتاه. لم يقترب منّا.

ـ منذ متى أنتما صديقتان لهذا الرجل؟ ـ سأل تشارلي.

ردّ المحروق بالطريقة ذاتها وعاد إلى الضفة جارّاً زلاجة. سألت حنّة عمّا إذا كانوا حقيقة ينادونه بالمحروق. قلتُ بلى. قال تشارلي إنّه لا يكاد يتذكّره. لماذا لم يدخل إلى البحر معي، للسبب ذاته الذي لم يدخل لأجله أودو، قالت إنجيبورغ، لأنّه ليس غبيّاً. هزّ تشارلي كتفيه (أعتقد أنّه يُسْعَدُ حين تؤنّبه النساء) ربّما كان سبّاحاً أفضل منك، قالت حنّة. لا أظنّ، قال تشارلي، أراهن على أيّ شيء. لاحظ تشارلي عند ذلك أنَّ

عضلات المحروق أكبر من عضلاتنا نحن الاثنين، في الحقيقة أفضل من عضلات أيّ كان من الذين كانوا يتشمسون في تلك اللحظة. تراه لاعب كمال جسماني؟ راحتْ إنجيبورغ وحنّة تضحكان. اعترف لنا تشارلي بعدها بأنّه لم يكن يتذكّرُ أيّ شيء من ليلة البارحة. انمحت رحلةُ العودةِ من المرقص والتقيّؤُ والدموعُ من ذاكرته. على العكس كان يعرف أكثر عن الذئب والخروف منّا جميعاً. واحد منهما كان يعمل في سوبر ماركت في منطقة المخيمات والآخر كان نادلاً في بار في المنطقة القديمة. شابان رائعان.

في السابعة غادرنا الشاطئ وذهبنا لنشرب بيرة في شرفة ركن الأندلسيين. كان المالكُ وراء طاولة العرض يتحدّث مع شيخين من البلدة، وكلاهما كان قصير القامة، يكادان يكونان قزمين. حين رآنا حيّانا بإيماءة. يرتاح المرء هناك. كانت تجري نسمة ناعمة ورطبة، ومع أنّ جميع الطاولات كانت مشغولة إلاّ أنّ الناس لم يتفرّغوا بعد روحاً وجسداً للصخب، كانوا مثلنا، أشخاصاً عائدين من الشاطئ، مُتْعَبين من السباحة والتشمّس.

افترقنا دون أن نضع خططاً للّيل.

حين وصلنا إلى الفندق تحمّمنا بعدها وقرّرت إنجيبورغ أن تجلس في سرير شرفة الغرفة كي تكتب بطاقات بريدية وتنتهي من قراءة رواية فلوريان ليندين. بقيت أنا برهة أنظر إلى لعبتي ونزلت بعدها إلى المطعم لأتناول زجاجة بيرة. بعد برهة صعدتُ لأبحثَ عن الدفتر فوجدت إنجيبورغ نائمة، ملفوفة بدثار أسود تشدّ بقوّة على البطاقات البريدية بين يدها ووركها. قبّلتها واقترحت عليها أن تذهب إلى السرير لكنّها لم تقبل. أظنّ أنّه كان بها بعض الحرارة. قرّرتُ أن أنزل مرّة أخرى إلى البار. على الشاطئ كان المحروق يُكَرّر طقس كلّ المساءات. كانت الزلاجات تعود واحدة فواحدة لتتراكب، والكوخ يأخذ شكله وهو يعلو، هذا إذا كان

باستطاعة الكوخ أن يعلو. (الكوخ لا، الحصن بلى). باللاشعور رفعت يدي وحييته. لم يرني.

وجدت في البار فراو إلسي. سألتني ماذا أكتب. لا شيء مهمّاً، قلتُ، مسودة دراسة. آه، أنت كاتب، قالت هي.. لا، لا، قلتْ، بينما الألوان راحتْ تصعد إلى وجهي. سألتُها، كي أُغيِّرَ الموضوع، عن زوجها، الذي لم أحصل بعد على شرف السلام عليه.

ـ إنّه مريض.

قالت ذلك بابتسامة ناعمة جدّاً بينما هي تنظر إليّ وتنظر في الوقت ذاته حولها، كما لو أنّها لا تريد أن يفوتها شيء مما كان يحدث في البار.

ـ كم يحزنني ذلك.

ـ ليس شيئاً خطيراً.

قلت شيئاً عن أمراض الصيف، لا شكّ كانت تُرَّهة. نهضت بعدها وسألت عمّا إذا كانت تقبل أن تتناول معي قدحاً.

ـ لا، شكراً، أنا مرتاحة هكذا، ثمّ إنّ عندي عملاً. دائماً عندي عمل!

لكنّها لم تتحرّك من حيث كانت.

ـ أمن زمن طويل لم تزوري ألمانيا؟ ـ قلتُ كيلا أبقى ساكتاً.

ـ لا، يا عزيزي، في كانون الثاني قضيُت هناك أسابيع قليلة.

ـ وكيف وجدت البلد؟ ـ وانتبهتُ على الفور إلى أنّني قلتُ حماقة فعدت فاحمررتُ خجلاً.

ـ كما هو دائماً.

ـ بلى، صحيح ـ تمتمتُ.

نظرت فراو إلسي إليّ لأوّل مرّة بلطف ثم غادرت. رأيتُ كيف دنا منها نادل، ثمّ زبونةٌ ثمّ عجوزان إلى أن اختفت خلف الدرج.

٢٥ آب

راحت صداقة تشارلي وحنّة تُثقِلُ عليّ مثل لوح حجريّ. البارحة بعد أن أنهيتُ كتابةَ اليومية، حين اعتقدت أنّني سأُمضي سهرةً هادئة على انفراد مع إنجيبورغ، ظهرا. كانت العاشرة ليلاً؛ وإنجيبورغ استيقظت توّاً. قلتُ لها إنّني أفضّل أن أبقى في الفندق، لكنّها قرّرت، بعد أن تكلّمت بالهاتف مع حنّة (كان تشارلي وحنّة في مكتب الاستقبال)، أنّ من الأفضل أن نخرج. بقينا نتجادل في الغرفة طيلة الوقت الذي استغرقهُ تبديلُ ملابسها. حين هبطنا كانت مفاجأتي كبيرة حين رأيت الذئب والخروف. كان ذاك متكئاً بمرفقه على طاولة مكتب الاستقبال ويحكي لعاملته شيئاً، هامساً في أذنها، يجعلها تضحك دون تحفّظ. أزعجتني من أعماقي، افترضت أنّها كانت نفسها التي ذهبت بالقيل والقال إلى فراو إلسي حين وقع سوء الفهم حول الطاولة، بالرغم من أنّنا إذا أخذنا بالاعتبار الساعة وإمكانية أن يكون هناك ورديتان في الاستقبال، يمكن أن تكون أخرى. على كلّ الأحوال كانت شابّة جدّاً وبلهاء: حين رأتنا قامت بحركة احترام كما لو أنّها تشاطرنا سرّاً. الآخرون استحسنوا الأمر. تلك كانت الطامّة.

خرجنا من البلدة في سيارة تشارلي، بجانبه كانت تذهب حنّة والذئبُ الذي كان يدلّه على الطريق. خلال الطريق إلى المرقص، هذا إذا كان من الممكن أن نسمي تلك المغارة بهذا الاسم، رأيتُ معاملَ سيراميك منشأة بطريقة بدائية على جانبَي الطريق. في الحقيقة يجب أن تكون

مخامرَ أو مخازنَ للبيع بالجملة، تبقى طوال الليل منارة بالأنوار الكاشفة مثل ملعب كرة القدم وكان باستطاعة سائقي السيارات أن يروا أوعيةً فخارية لا حصر لها وجراراً وأصصاً من كلّ الأحجام وهذه وتلك المنحوتة خلف السياج. تقليداً فظّاً لتماثيل يونانية يعلوها الغبار. مصنوعات يدوية متوسطية زائفة متوقفة في ساعة لا هي نهارية ولا هي ليلية، في الفناءات فقط رأيت كلاب حراسة تمرّ.

كان الليل بشكل عام مثله مثل كلّ الليالي السابقة تقريباً. لم يكن للمرقص اسم على الرغم من أنّ الخروف قال إنّه يُسمى مرقص ترابّرا، ومصّمماً، مثل المرقص الآخر، لعمّالِ المنطقة المحيطة به أكثر مما للسياح. كانت الموسيقى والإضاءة مؤسفتين؛ تفرّغ تشارلي للشرب وحنّة وإنجيبورغ للرقص مع الإسبانيّيّن. كلّ شيء كان سينتهي بالطريقة ذاتها لو لم يقع حادثٌ من تلك الحوادث المعتادة في ذلك المكان، بحسب الذئب الذي نصحنا بأن نغادر على وجه السرعة. سأحاولُ أن أُعيد بناء القصّة: بدأتْ بشخص كان يتظاهر بأنّه يرقص بين الطاولات وعلى حافة الحلبة. يبدو أنّه لم يسدّد ثمنَ ما استهلكه وكان مُحَشّشاً، بخصوصِ هذا الموضوع الأخير لا يوجدُ أيّ شيء أكيد. العلامة الأكثر تمييزاً له والتي توقّفتُ عندها قبل أن يقع الشجارُ كانت تشكلها عصاً ذات ثخانة معتبرة راح يهزّها في يدٍ، على الرغم من أنّ الذئب كان يؤكّد أنّ المسألة تتعلّق بعكاز من أحشاء الخنزير، تترك الضربة به على اللحم ندبة تدوم مدى الحياة. على كلّ الأحوال كان موقف الراقص الخبير متحدّياً وسرعان ما اقترب منه اثنان من نُدُل المرقص، لم يكونا من ناحية أخرى يرتديان لباساً موحّداً ولا يُمَيَّزان بشيء عن بقية الزبائن ما لم يكن بآدابهما ووجهيهما المريعين تماماً، تبادلا مع رجل العصا بعضَ الكلمات التي راحت تصعد نبرتها شيئاً فشيئاً.

استطعتُ أن أسمع صاحبَ العصا يقول:

ـ سيفي يذهب معي إلى كلّ مكان ـ كان يشير بهذه الطريقة العجيبة إلى عصاه وجواباً على منع وجودها معه في المرقص.

ـ أجابه النادل:

ـ عندي شيء أقسى من سيفك بكثير ـ وعلى الفور انهال سيل من الكلمات البذيئة لم أفهمها وأخيراً قال النادل ـ: هل تُريد أن تراه؟

أصاب الخرسُ صاحب العصا؛ وأجرؤ على القول بأنّه جبن فجأةً.

عندها رفع النادل ساعده المفتول والمشعر كساعد غوريلا وقال:

ـ أرأيت؟ هذا أقسى.

ضحك صاحب العصا ليس بنبرة تَحدٍّ بل بنبرة ارتياح، مع أنّني أشكّ في أن يكون النادلان قد التقطا الفرق، ورفع عصاه ماسكاً إيّاها من طرفيها حتى شدّها كأنّها قوس. كانت ضحكته تافهة، ضحكة سكران وشقيّ. في تلك اللحظة خرجت الذراع التي أظهرها النادل منطلقةً إلى الأمام واستولت على العصا. كلّ شيء كان سريعاً جدّاً. وكسرها إلى قسمين على الفور واحمرّ من الجهد. انبثق تصفيق من إحدى الطاولات.

بالسرعة ذاتها ارتمى صاحب العصا فوق النادل وثبّت ذراعه خلف ظهره دون أن يستطيع أحد أن يمنعه وبحركة سريعة كسرها له. أعتقد أنّني، على الرغم من الموسيقى التي لم تنقطع طوال الحادث، سمعتُ صوت العظام المكسورة.

بدأ الناس يصرخون. أولاً جاء زعيق النادل الذي كُسِرَ ذراعُهُ توّاً، ثم صيحات الذين اشتبكوا في الشجار، إذ لم يكن أحدٌ يَعرف، على الأقل من طاولتي، مَنْ هو حليفُ من وأخيراً الزعيق العام لكلّ الحضور، بما في ذلك أولئك الذين لم يكونوا يعرفون ما المسألة.

قرّرنا أن نشرع في الانسحاب.

في طريق العودة عبرنا بسيارَتَي شرطة. الذئب لم يأت معنا، كان من

المحال العثور عليه في فوضى الخروج، والخروف، الذي تبعنا دون أن يحتجّ، يتأسّف الآن لأنّه ترك صديقه ويريد أن يرجع. كان تشارلي في هذا حاسماً، إذا كان يريد أن يعود فليعد بالأوتوستوب. اتفقنا على أن ننتظر الذئب في ركن الأندلسيين.

كان البار مفتوحاً حين وصلنا، أُريد أن أقول مفتوحاً للجميع وكانت شرفته مضاءة ومليئة بالناس على الرغم من تأخّر الساعة؛ حضّر لنا صاحبه بناء على طلب الخروف فرّوجين، المطبخ فعلاً كان مغلقاً، أرفقناهما بزجاجة نبيذ أحمر. بعدها ونظراً لأنّ شهيّتنا كانت ما تزال مفتوحة أتينا على طبق من السجق وأحشاء الخنزير المقلية والخبز مع البندورة والزيت. حين أُغلقت الشرفة وفي الداخل لم يبق غيرنا مع المالك، الذي يستسلم في تلك الساعات إلى هوايته المفضّلة، وهي مشاهدة أفلام الكوبوي وتناول العشاء دون عجلة، ظهر الذئب.

حين رآنا ركب مزاجَهُ الشيطان وصب تأنيباته علينا، «تركتموني مهجوراً»، نسيتموني»، «لا يستطيع المرء أن يثق بالأصدقاء»، إلخ، كانت موجّهة بشكلٍ مفاجئ إلى تشارلي. الخروف الذي كان بكل المعايير صديقه الوحيد، اتخذ موقفَ الخجل والإذعان الأخرس أمام الكلمات التي قالها رفيقه. وتشارلي بطريقة مفاجِئة أكثرَ راح يوافقه ويعتذر منه، ويأخذ كلامه مأخذ المزاح، لكنّه كان يوضّح، بكلمة واحدة، كان يشعر بأنّه مُشَرّف بالذكاء المهان الذي كان يعرضه الإسبانيّ بسخاء بالإيماءات والذوق البائس. بلى، كان هذا يعجب تشارلي! ربّما رأى في ذلك المشهد صداقة حقيقيّة! كان أمراً مضحكاً! عليّ أن أبيّن بدقة أنّ الذئب لم يُوجّه إليّ أدنى تأنيب وحافظ على رصانته المعتادة مع المرأتين، بين الهادئ والبذيء.

أعتقد أنّني كنتُ مستعدّاً للذهاب حين دخل المحروق. حيّانا بحركة من رأسه وجلس إلى طاولة العرض وظهره إلينا. تركتُ الذئب ينهي

توضيحه لأحداث مرقص تروبّيرا، ربّما مضيفاً من عنده أحداثَ الدم والتوقيفات، واقتربت من حيث كان المحروق. كان نصف شفته العليا قشرة عديمة الشكل، لكن المرءَ بعد برهة يعتاد. سألته عمّا إذا كان يعاني من الأرق فضحك. لا، لستُ أرقاً. كانت تكفيه بضع ساعات من النوم كي يتحمّل العمل. عمل خفيف ومسلّ. لم يكن ثرثاراً وإن كان أقل صمتاً بكثير مما تخيّلته. كانت أسنانه صغيرة كأنّها مسنونة وفي حالة يُرثى لها، لم أعرف نظراً لجهلي ما إذا كنتُ سأعزوها إلى النار أم إلى نقص في النظافة الفموية. أعتقد أنّ شخصاً وجهه محروق لا يهتمّ كثيراً بحالة أسنانه.

سألني من أين أنا. كان يتكلّم بصوت غامض وحسن التوقيع، بيقين تام بأنّه مفهوم. أجبتُ بأنّني من ستوتغارت، وافق بحركة من رأسه كما لو أنّه يعرف المدينة على الرغم من أنّه لم يكن هناك قط. كان يرتدي كما يفعل خلال النهار بنطلوناً قصيراً وقميصاً شيالاً وخفاً، بنيته الجسدية بارزة، وعريض الصدر والكتفين، وعضلات ذراعيه أكبر من اللازم، على الرغم من أنه كان يبدو وهو جالس إلى طاولة العرض يشرب الشاي أنحلَ منّي. أو أكثر خجلاً. الصحيح هو أنّه يُلاحظ، بالرغم من قلّة ملابسه، أنّه يعتني على الأقل بمظهره إن كان بأبسط الطرق: كان مسرّح الشعر ولم يكن سيّئ الرائحة. هذه الأخيرة كانت بمعنى من المعاني مأثرة صغيرة، إذ وبعيشه على الشاطئ كانت حَمّاماته الوحيدة هي حمّامات البحر (إذا ما أرهف المرء أنفه فإنّ الرائحة التي تصدر عنه هي رائحة ماء مالح). تخيّلته للحظة يغسل ثيابه (البنطلون القصير وبعض القمصان الشيالة)، يوماً بعد يوم، أو ليلة بعد ليلة في البحر، يقضي حاجاته في البحر أو على الشاطئ الذي كان يرتاح فيه بعدها مئات السياح، بينهم إنجيبورغ. تصوّرتُ نفسي وسطَ إحساس عميق بالقرف أنّني أُبَلّغ الشرطةَ عن سلوكه السوقيّ... لكن بالطبع لن أكون أنا. ومع ذلك، كيف يُفَسّر

أنّ شخصاً عنده عمل مدفوع الأجر لم يكن قادراً على أن يُؤَمّن لنفسه مكاناً لائقاً ينام فيه؟ هل يا ترى جميع لإيجارات في هذه البلدة في السحاب؟ ألا توجد نزل أو مخيمات رخيصة ليست على خطّ البحر الأوّل؟ أم أنّ صديقنا المحروق يريد، عندما لا يدفع إيجاراً، أن يوفّر بعض البيزيتات لما بعد الصيف؟

شيء من الوحش الطيّب فيه؛ لكن أيضاً أستطيع أن أرى المتوحش الطيّب في الذئب والخروف وهما يتدبّران أمرهما بطريقة أخرى. ربّما هذا البيت المجاني يعني في الوقت ذاته بيتاً معزولاً، بعيداً عن عيون الناس. إذا كان الأمر كذلك فإنّني أتفهّمه. كذلك هناك منافع العيش في الهواء الطلق، على الرغم من أنّ حياته، كما أتصوّرها، قليل ما فيها من الهواء الطلق، المرادف للحياة الصحية، المتخاصمة حتى الموت مع رطوبة الشاطئ والشطائر التي أنا واثق من أنّها تشكّل وجبته اليومية. كيف يعيش المحروق؟ أعرف فقط أنّه يشبه في النهار زومبياً يجرّ زلاجات من الضفة وحتى المكان الصغير المخصّص لها ومن هناك إلى الضفّة مرّة أخرى. لا أكثر. لا بد أنّه يجب أن تكون لديه ساعة كي يأكلَ ويجتمعَ في لحظة معيّنة مع رئيسه كي يُسلِّمه الغلّة. هل يعرف هذا الرئيسُ، الذي لم أره قط، أنّ المحروق ينام على الشاطئ؟ دون أن نذهب بعيداً هل يعرف هذا صاحبُ ركن الأندلسيين؟ هل الذئب والخروف على معرفة بالسرّ، أم أنّني الوحيد الذي اكتشف مأواه؟ لا أجرؤ على سؤاله.

في الليل يفعل المحروق ما يشاء، أو على الأقل يُحاول ذلك. لكن ماذا يفعل، بالتحديد، غير النوم؟ يبقى حتى ساعة متأخرة في ركن الأندلسيين، يتنزّه على الشاطئ، وربّما عنده أصدقاء يتكلّم معهم، يشرب الشاي ويقبر نفسه تحت حصنه... بلى، أرى أحياناً حصنَ الزلاجات كنوع من الضريح. لا شكّ في أنّ انطباع الكوخ يبقى قائماً

عندما يكون هناك ضوء، في الليل وتحت ضوء القمر يمكن لروحٍ وقّادةٍ أن تخلط بينه وبين شاهدة قبر بربري.

ما من شيء آخر جدير بالذكر جرى في ليلة الرابع والعشرين. غادرنا ركنَ الأندلسيين صاحين نسبياً. بقي هناك المحروقُ وصاحبُ المحل؛ ذاك أمام فنجانِ شايهِ الفارغِ وهذا يُشاهدُ فيلم كابوي آخر.

اليوم، كما هو متوقّع، رأيته على الشاطئ. كانت إنجيبورغ وحنّة مستلقيَتَيْن بجانب الزلاجات والمحروق على الجانب الآخر مستنداً بظهره إلى عوّامة بلاستيكية، يتأمّل الأفق، حيث بالكاد كانت ترى أطياف بعض زبائنه. لم يلتفت في أيّ لحظة ليتأمّل إنجيبورغ، التي كانت للإنصافِ كما لو كي تؤكل بالنظر. كلا الفتاتين كانت تُدشّن سروالاً خيطياً جديداً برتقاليَّ اللون. لكنّ المحروق تفادى النظر إليهما.

أنا لم أذهب إلى الشاطئ. بقيتُ في الغرفة - إلا أنّني كنتُ أُطلّ بين برهة وأخرى من الشرفة أو النافذة، أُراجع لعبتي المهجورة. الحب، معروف أنّه عاطفة نابذة، على الرغم من أنّني آمل في حالتي أن أستطيع أن أصالح بين عاطفتي تجاه إنجيبورغ وتفرّغي للألعاب. بحسبِ المخططات التي وضعتها في ستوتغارت، كان عليّ في ذلك التاريخ أن أكون قد أنجزتُ نصف تصميم وكتابة نسختي الاستراتيجية ومسودّة المداخلة التي سألقيها في باريس على الأقل. ومع ذلك لم أكتب بعد كلمة واحدة. لو رآني كونراد لا شكّ في أنه سيسخر منّي. لكن على كونراد أن يفهم أنّني لا أستطيع في إجازتي *الأولى* مع إنجيبورغ أن أتجاهلها وأتفرّغ روحاً وجسداً للنسخة المعدلة. وبالرغم من كلّ شيء لا أقنط من أن تكون منتهية حين سنعود إلى ألمانيا.

في المساء حدث شيء غريب. كنتُ جالساً في الغرفة حين شعرتُ فجأة بصوت بوق. لا أستطيع أن أُؤكّده مئة بالمئة، يا للمسألة، أنا قادر

على أن أميّز صوت البوق عن صوت آخر، الغريب هو أنّني كنتُ أُفكّر، صحيح أنّني كنتُ أفعل ذلك بشكل مشوّش، بسيبّ ديتريك، الذي تكلّمَ ذات مرّة عن بوق الخطر. على كلّ الأحوال أنا واثق من أنّني لم أتخيّله. أكّد سيب أنّه سمعه في مناسبتين وفي كليهما كانت لهذه الموسيقى الغامضة فضيلة التغلّبِ على تعب جسدي مريع، المرّة الأولى في روسيا والثانية في نورماندِيا. البوق، بحسب سيب، الذي وصل لأن يقود جيشاً بعد أن بدأ كصبيٍ ساعٍ وسائق، هو رسالة الأسلاف، صوت الدم الذي يستنفرك. أنا، كما أقول، كنتُ جالساً شارداً حين اعتقدت فجأة أنّني سمعته. نهضتُ وخرجتُ إلى الشرفة. في الخارج فقط كان يُدوّي صخب المساءات المعتاد، حتى صخب البحر لم يكن يُسْمَع، على العكس في الممرّ كان يخيم صمتٌ مُصِمٌّ. دوّى البوق، وقتها، في ذهني؟ تراه دوّى لأنّني كنتُ أُفكّر في سيب ديتريك، أم لكي يحذّرني من خطر؟ إذا ما تروّيتُ أجدُ أنّني أيضاً فكّرت بِهاوزر وبيتريخ ومايندل... تراه نُفخ لأجلي؟ وإذا كان كذلك، فضدّ أيّ خطر أراد أن يستنفرني؟

حين حكيته لإنجيبورغ نصحتني ألا أبقى حابساً نفسي في الغرفة كلّ ذلك الوقت. بحسبها علينا أن نكتتب في دورات المشي السريع والجمباز التي يُنظّمها الفندق. مسكينة إنجيبورغ، لا تفهم شيئاً. وعدتُها أن أُكلّم فراو إلسي بهذا الخصوص. قبل عشر سنوات لم يكن يوجد هنا أيّ دورات من أيّ نوع. قالت إنجيبورغ إنّها سوف تأخذ على عاتقها موضوع التسجيل، وإنّه لا حاجة لن أتكلّم مع فراو إلسي من أجل مسألة تُحلّ مع عاملة الاستقبال. قلتُ لها موافق، ولتفعل ما تعتقد أنّه مناسب.

عملت قبل أن أدخل في الفراش شيئين هما:

١ ـ أعددتُ الفيالق المدرّعة للهجوم الخاطف على فرنسا.

٢ ـ خرجتُ إلى الشرفة وبحثتُ عن ضوء ما على الشاطئ يدلّ على وجود المحروق، لكنّ كلّ شيء كان مظلماً.

٢٦ آب

اتبعت تعليمات إنجيبورغ. اليوم قضيت وقتاً أطول من المعتاد على الشاطئ، والنتيجة هي أنّ كتفيّ احمرّتا من كثرة الشمس وفي المساء اضطررت لأن أخرج لأشتري مرهماً كي أخفّف من التهاب جلدي. طبعاً كنّا بجانب الزلاجات، وبما أنّه لم يكن عندي شيء آخر أفعله تفرّغت للكلام مع المحروق. على كلّ الأحوال حمل إلينا النهار بضعة أخبار. الرئيسي هو أنّ تشارلي سكر البارحة سكرة فاضحة برفقة الذئب والخروف. قالت حنّة لإنجيبورغ وهي تئنّ إنّها لم تعرف ماذا تفعل، هل تتركه أم لا تتركه؟ فكرة أن تغادر وحدها إلى ألمانيا لا تغيب عنها لحظة واحدة؛ تشتاق لابنها، كانت سئمة ومتعبة. الشيء الوحيد الذي يواسيها هو لونها البرونزي التام. تؤكّد إنجيبورغ أنّ كلّ شيء يكمنُ فيما إذا كان حبّها لتشارلي حقيقيّاً أم لا. حنة لا تعرف بماذا تجيب، الخبر الثاني هو أنّ مدير فندق كوستا برافا طلب منهما أن يُغادرا الفندق. يبدو أن تشارلي والإسبانيين حاولوا ليلة أمس أن يضربوا الحارس الليلي. إنجيبورغ، وعلى الرغم من الإشارات التي أرسلتها إليها خفيةً، اقترحت عليهما أن ينتقلا إلى فندق البحر. لحسن الحظّ أنّ حنّة مصمّمة على أن يُفكّر المديرُ في الأمر جيداً أو أن يُعيد إليهما النقود التي دفعاها مقدَّماً. أعتقد أنّ كلّ شيء سوف يقتصر على توضيحات واعتذارات. وردّاً على سؤال إنجيبورغ أين كانت حين وقعت المشادة، أجابت حنّة أنّها كانت نائمة في غرفتها. لم يظهر تشارلي على الشاطئ حتى منتصف النهار، وقد

ساءت حالته كثيراً وهو يجرّ لوح زلاجته الشراعية. حين رأته حنّة همست في أذن إنجيبورغ:

ـ إنّه ينتحر.

كانت رواية تشارلي مختلفة في كلّ شيء. لم يكن يشغله المدير ولا تهديداته. يقول بأهدابٍ نصف مغلقة وملامحِ أرقٍ كما لو أنّه قفز من السرير توّاً:

ـ نستطيع أن ننتقل إلى بيت الذئب. فهو أرخص وأكثر أصالة. هكذا ستتعرّفين إلى إسبانيا الحقيقيّة. ـ وغمزني بعينه.

إنها نصف مزحة، أمّ الذئب تؤجّر غرفاً في الصيف، مع الطعام وبدونه، بأسعار متواضعة. تولّد عندي لبرهة انطباع بأنّ حنّة سوف تنفجر بالبكاء. تتدخّل إنجيبورغ وتهدّئها. بنبرة المزاح ذاتها سألت تشارلي ما إذا لم يكن الذئب والخروف عاشقين له. لكنّ السؤال كان جدّياً. يضحك تشارلي ويقول لا. بعدها وحين استعادت حنّة هدوءها أكّدت أنّها هي من تريد أن يحملها الذئبُ والخروفُ إلى الفراش.

ـ في ليلة أمس لم يتوقّفوا عن لمسي ـ تقول بمزيج فريد من غنج المرأة وشعورها بالإهانة.

ـ لأنّك حلوة ـ وضّح تشارلي بهدوء ـ لو لم أكن أعرفكِ لحاولتُ ذلك معك، أليس صحيحاً؟

وفجأة ينتقل الحديث إلى أماكن بعيدة مثل المرقص ٣٣ في أوبرهاوزن وشركة الهواتف. بدأت حنّة وتشارلي يصبحان عاطفيين ويتذكّران الأماكن التي يحتفظان عنها بذكريات رومانسية. ومع ذلك تُصرّ حنّة بعد برهة:

ـ إنّك تنتحر.

يضع تشارلي نهاية للاتهامات آخذاً لوحَ زلاجته وداخلاً في البحر.

في البداية دار حديثي مع المحروق حول موضوعات مثل ما إذا كانوا قد سرقوا له ذات مرّة زلاّجة، ما إذا كان العمل قاسياً، ما إذا كان يُضجره قضاء كلِّ تلك الساعات على الشاطئ تحت تلك الشمس التي لا ترحم، ما إذا كان يملك الوقت ليأكل، حول ما إذا كان يعرف مَنْ مِنْ بين زبائنه الأجانب كانوا زبائنه الأفضل، إلخ. كانت الأجوبة الحذرة جدّاً هي التالية: سرقوا له زلاّجة مرّتين، أو بالأحرى تركوها على الطرف الآخر من الشاطئ؛ العمل لم يكن قاسياً؛ أحياناً كان يصاب بالسأم، ليس كثيراً، كان يأكل، تماماً كما ظننت، شطائر؛ لم يكن عنده فكرة عن جنسية من كانوا يستأجرون الزلاجات أكثر من غيرهم. اعتبرت الإجابات جيّدة وتحمّلت فترات الصمت التي تتالت. لا شكّ في أنّ الأمر كان يتعلّق بشخص غير معتاد كثيراً على الحوار، وكان، كما استطعتُ أن أُقدّر، معدومَ الثقة إلى حدّ ما. على بعد خطوات قليلة كان جسدا إنجيبورغ وحنّة يمتصّان أشعة الشمس اللامعة. قلت له فجأة أُفضل لو أنّني لم أخرج من الفندق. نظر إليّ بفضول، وتابع تأمّله للأفق، حيث كانت تختلط زلاجاته بزلاجات محلاتٍ أخرى. في البعيد رأيتُ متزلجاً شراعياً يفقد توازنه مرّة بعد أخرى. عرفت من لون الشراع أنّه لم يكن تشارلي. قلتُ المفضّل عندي هو الجبل وليس البحر. أحبّ البحر، لكنّني أحبُّ الجبل أكثر. لم يصدر عن المحروق أيُّ تعليق.

بقينا صامتين برهة أخرى. شعرتُ بالشمس تحرق كتفيّ، لكنّني لم أتحرّك ولم أفعل أيّ شيء كي أحمي نفسي. جانبياً كان المحروق يبدو آخر. لا أعني أنّه كان بهذا الشكل أقلّ تشوّهاً (بالضبط كان يُقدّم لي جانبه الأكثر تشوّهاً)، وإنّما ببساطة كان يبدو آخر؛ شبيهاً بتمثال نصفيّ من الحجر الإسفنجي مؤطراً بشعرٍ غليظ وداكن.

أجهل الدافع الذي جعلني أعترف له بأنّني أُريد أن أكون كاتباً. استدار

المحروقُ وقال بعد تردّد إنّها مهنة مهمّة. جعلته يُكَرّرها فقد اعتقدتُ في البداية أنّني أسأت تفسير كلامه.

ـ لكن ليس كاتب رواياتِ ولا أعمالٍ مسرحية ـ وضّحت.

شقّ المحروق شفتيه وقال شيئاً لم أستطِع سماعه.

ـ ماذا؟

ـ شاعر؟

اعتقدت أنّني رأيت تحت ندوبه نوعاً من الابتسامة المريعة. اعتقدت أنّ الشمسَ كانت تخبلني.

ـ لا، لا، بالتأكيد شاعر لا.

وضّحتُ، طالما أنّه منحني الفرصة لذلك، أنّني لم أكن ازدري الشعر. كان باستطاعتي أن ألقي أبياتاً لكلوبستوك أو لشيلر، لكن كتابة الشعر في تلك الأزمنة، إن لم تكن للحبيبة، بالنتيجة عبثيّة إلى حدّ ما. ألم يكن يراها هو كذلك؟

ـ أو بذيئاً ـ قال المسكين الشقيّ، موافقاً بحركة من رأسه.

كيف يمكن لمُشَوَّهٍ إلى ذلك الحدّ أنْ يعتبر شيئاً بشعاً دون أن يشعر أنّه معنيّ؟ لغز. على كلّ الأحوال راح الإحساس بأنّ المحروق يبتسم خفية يزداد. ربّما كانت عيناه هما اللتان تمنحانه ظلّ الابتسامة تلك. نادراً ما كان ينظر إليّ. لكنّه عندما كان يفعل كنتُ أكتشف فيهما ومضة فرح وقوّة.

ـ كاتب متخصّص ـ قلتُ ـ كاتب دراسات مبدع.

وعلى الفور وضعتُ بخطوط عريضة مشهداً بانورامياً لعالم ألعاب الحرب، مع المجلات، المُنافَسات، النوادي المحلية، إلخ. في برشلونة، وضّحتُ، تعملُ جمعيتان أو ثلاث جمعيات، مثلاً، ومع أنّني

لا أملك أخباراً عن وجود اتحاد، إلاّ أنّ اللاعبين الإسبان بدؤوا ينشطون كفايةً في المنافَسات الأوروبية. تعرّفت إلى اثنين منهم في باريس.

ـ إنّها رياضة ناهضة ـ أكّدتُ.

اجترّ المحروق كلماتي، نهض بعدها لاستقبال زلاجةٍ وصلت إلى الضفة وصعد بها دون أيّ صعوبة إلى المكان المخصص لها.

ـ قرأتُ مرّةً شيئاً عن ناس يلعبون بجنودٍ من رصاص ـ قال ـ. أعتقد أنّ هذا كان منذ وقت قصير، في بداية الصيف...

ـ بلى، هو ذاته إلى هذا الحدّ أو ذاك. مثل الركبي وكرة القدم الأمريكية. لكنّ أنا لا يهمّني جنود الرصاص كثيراً. وإن كانت جيّدة... جميلة... فنية... ـ ضحكتُ ـ أُفضّل ألعابَ الرقع.

ـ أنتَ عَمَّ تكتب؟

ـ عن أيّ شيء. أعطني الحرب أو الحملة التي تريد وأنا سأقول لك كيف يمكن أن تفوز أو تخسر، ما أخطاء اللعبة، أين أصاب المُصمِّمُ وأين أخطأ، ما هي أخطاء تطور اللعبة، ما سلم القياس الصحيح، ما هو ترتيب المعركة الأصلي...

ينظر المحروق إلى الأفق. يعملُ بإبهامِ قدمهِ حفرةً صغيرة في الرمل. خلفنا خلدتْ حنّة إلى النوم وإنجيبورغ تقرأ الصفحات الأخيرة من كتاب فلوريان ليندين؛ حين تلتقي نظراتنا تبتسِمُ وترسل لي قبلة.

أُفكّرُ للحظة في ما إذا كان المحروق يملك خطيبة أم لا؟

ما الفتاة التي يمكن أن تكون قادرة على أن تُقبِّل هذا القناع المريع؟ لكنّني، أعرف، هناك نساء لجميع الأذواق.

بعد برهة:

ـ لا بدّ أنّك تستمتع كثيراً ـ قال.

سمعتُ صوته كما لو أنّه يصل من بعيد. على سطح البحر كان النور

يقفز مشكّلاً نوعاً من السور الذي راح يتنامى حتى يُلامس الغيوم. تلك البدينة الثقيلة الحليبية والقذرة، لم تكن بالكاد تتحرّك باتجاه الجروف الشمالية. مظلة كانت تقترب تحت الغيوم من الشاطئ يجرّها زورق. قلتُ إنّني أشعر بأنّني دائخ قليلاً. لا بد أنّه العمل العالق، قلتُ، ستبقى أعصابي تضغط عليّ أن أضع نقطة النهاية.. وضّحتُ كيفما استطعتُ أنّ كونَ المرء كاتباً متخصّصاً يتطلّب تركيب جهاز معقّد ومزعج (تلك كانت الميّزة الرئيسية التي يعزوها لاعبو ألعابِ الحرب المؤتمتة لصالحهم: اقتصاد المكان والزمان). اعترفتُ أن في غرفتي في الفندق لعبة هائلة منشورة منذ أيام وعليّ الآن في الحقيقة أن أكون أعمل فيها.

ـ وعدتُ بأن أسلّم الدراسة في أوائل أيلول، وها أنت ترى، أنا هنا أعيش الحياة بطولها وعرضها.

لم يدلِ المحروقُ بأيّ تعليق. أضفت أنّها كانت لمجلة أمريكية شمالية.

ـ إنّها لعبة بديلة لا تخطر ببال. لم تخطر لأحد.

ربّما تمكّنت الشمس من إثارتي. في تبيان أسبابي عليّ أن أقول إنّني منذ أن غادرت ستوتغارت لم تسنح لي فرصة لأن أتكلّم عن ألعاب الحرب مع أحد. لا بدّ للاعب أن يتفهّمني. الكلام عن الألعاب بالنسبة إلينا متعة. على الرغم من أنّني اخترتُ، كما هو واضح، المتحدّثَ الأكثر فرادة بين عدد ممن استطعت أن أجدهم.

بدا أنّ المحروق فهم أنّني لا بدّ كنتُ ألعب مع سيرورة الكتابة.

ـ لكنّك هكذا ستربح دائماً ـ قال كاشفاً عن أسنانه المكسرة.

ـ ولا بشكل من الأشكال. إذا ما لعب المرء لوحده لا توجد طريقة كي يخدع نفسه بالغش أو بخداع العدو. جميع الأوراق على الطاولة، إذا كانت لعبتي البديلة تعمل فلأنّها رياضياً لا تستطيع ألاّ تعمل. بين

قوسين، لقد تدرّبتُ عليها مرّتين وفزت في المرّتين، لكن يجب صقلها ولذلك ألعب وحدي.

ـ لا بدّ أنّك تكتب ببطء شديد ـ قال.

ـ لا ـ ضحكتُ ـ أكتبُ مثل البرق، ألعب ببطء شديد، لكنّني أكتب بسرعة كبيرة. يقولون إنّني عصبي وهذا ليس صحيحاً؛ يقولون ذلك بسبب كتابتي. أكتبُ دون أن أتوقّف!

ـ أنا أيضاً أكتب بسرعة كبيرة ـ تمتم المحروق.

ـ نعم، كنتُ أفترض ذلك ـ قلت.

ـ فاجأتني كلماتي ذاتها. في الحقيقة لم أكن حتى لأتوقّع أنّ المحروق يعرف الكتابة.. لكن عندما قال ذلك، أو ربّما قبلها، حين أكّدتُه أنا، حدستُ أنّ كتابتَهُ سريعة أيضاً. نظر واحدنا إلى الآخر لبضع ثوان دون أن نقول شيئاً. كان من الصعب تأمّل وجهه برهة طويلة، على الرغم من أنّني رحتُ أعتاد. ابتسامة المحروق السرّية كانت ما تزال هناك، قابعة، ربّما ساخرة منّي ومن لعبتنا البديلة المكتشفة توّاً. كنتُ في كلّ مرّة أشعر بأنني أسوأ. كنتُ أتصبّب عرقاً. لم أكن أفهم كيف كان باستطاعة المحروق أن يُقاوم كلَّ تلك الشمس. لحمه الجلف، المليء بالطيّات الشائطة، كان يكتسب للحظات تدرجات نار موقد الغاز الزرقاء، أو السوداء الضاربة إلى الصفرة ويوشك على الانفجار. ومع ذلك كان قادراً على أن يمكث جالساً على الرمل ويداه على ركبتيه وعيناه مغروزتان في البحر لا يشفّ عنه أدنى انزعاج. بحركة غير معهودة عنده، عادة ما تكون متحفظة جداً، سألني إذا كنتُ أحبّ أن أُساعده على إخراج زلاجة وصلت توّاً. شبهَ مصعوقٍ وافقتُ. كان ثنائيّ الزلاجة الإيطالي غيرَ قادرٍ على أن يناور وصولاً إلى الضفة. دخلنا في الماء ودفعناها بنعومة. كان الإيطاليان جالسين يتمازحان ويقومان بحركات من سيقع قفزا قبل أن يصلا إلى

الضفة. شعرت بالراحة حين رأيتهما يبتعدان، باتجاه الكورنيش. قال المحروق بعد أن تركنا الزلاجة إنّ عليّ أن أسبح برهة.

ـ لماذا؟

ـ الشمس تصهر دماغك ـ أكّد.

ضحكتُ ودعوته ليرافقني إلى البحر.

سبحنا مسافة مشغولَيْن فقط بالتقدّم حتى خرجنا من أوّل منطقة السابحين. عندها توجّهنا نحو الشاطئ، من هناك، وبجانبي المحروق، كان الشاطئ والناس المحتشدون يبدون مختلفين.

نصحني حين عدنا بصوت غريب أن أضعَ مرهمَ جوز الهند على جلدي.

ـ عليك بمرهم جوز الهند والظلمة ـ تمتم.

أيقظتُ إنجيبورغ بفظاظةٍ مقصودة وغادرنا.

في ذلك المساء ارتفعت حرارتي. قلت ذلك لإنجيبورغ. لم تُصدِّقني. وحين أريتها كتفيّ قالت لي أن أضع على نفسي منشفة مبلّلة أو أن أستحمّ بماء بارد. كانت حنّة تنتظرها وبدا أنّها كانت مستعجلة كي تتركني لوحدي.

تأمّلتُ اللعبة برهة دون حماس لشيء: كان النور يؤذي النظرَ وطنينُ الفندق يُنَعّسني. نجحت في الخروج إلى الشارع لكن ليس دون جهد والبحث عن صيدلية. همتُ على وجهي تحت شمس مريعة في الشوارع العتيقة داخل البلدة. لا أتذكّر أنّني رأيتُ سياحاً. في الحقيقة لا أتذكّر أنّني رأيتُ أحداً. رأيت كلبين نائمين، الفتاةَ التي اهتمّت بي في الصيدلية؛ عجوزاً جالساً في ظلّ بوّابة. على العكس من الكورنيش، حيث كان الناس يحتشدون إلى حدّ أنّه كان من المحال السير دون الاعتماد على الكوعين والدفع. أشادوا بالقرب من الميناء مدينة ملاهٍ وكان الجميع هناك

ذاهلين. بدا عمل مجانين. كانت تنتشر محلات بيع جوالة صغيرة، كان الدفق البشري يُهدّد بسحقها في كلّ لحظة. عدتُ كيفما استطعتُ لأضيع في شوارع البلدة القديمة وعدتُ التفافاً إلى الفندق.

تعرّيتُ، أغلقتُ الستائر ودهنت جسدي بالمرهم، كنتُ أحترق.

حاولتُ مستلقياً على السرير، من دون نور، لكنّني مُغمَض العينين، أن أُفكّر في أحداث الأيام الأخيرة قبل أن يأخذني النوم.. حلمتُ بعدها أنّني ما عدتُ محموماً وأنّني كنتُ مع إنجيبورغ في هذه الغرفة ذاتها، في السرير يقرأُ كلٌّ منّا كتاباً. لكنّنا في الوقت ذاته معاً تماماً، أعني أنّنا كنّا متأكّدَيْن من أنّنا معاً وإن بقي كلّ منا غارقاً في كتابه، ويعرف أنّنا نحبّ بعضنا بعضاً. عندها خربش أحد على الباب وبعد برهة سمعنا صوتاً على الطرف الآخر يقول: «أنا فلوريان ليندين، اخرج بسرعة، حياتك في خطر شديد». رمت إنجيبورغ كتابَها على الفور وغرزت عينيها في الباب، من ناحيتي بالكاد تحرّكتُ. الحقيقة أنّني كنتُ أشعر بأني مرتاح هناك وجلدي رطب إلى حدّ أنّني كنتُ أفكّر في أن لا شيء يستحقّ الخوف. «حياتك في خطر»، كان صوت فلوريان ليندين يُردّد، وهو في كلّ مرّة أبعد، كما لو أنّه يتكلّم من نهاية الممرّ. وبالفعل سمعنا بعدها صوت المصعد، الأبواب تُفتح بصرير معدني ثمّ تنغلق حاملة فلوريان ليندين إلى الطابق السفلي. «ذهب إلى الشاطئ أو إلى مدينة الملاهي»، قالت إنجيبورغ وهي ترتدي ملابسها بسرعة، «عليّ أن أعثر عليه، انتظرني هنا، عليّ أن أتكلّم معه». بالطبع لم أُقدّم أيّ اعتراض. لكنّني عندما بقيت لوحدي لم يعد باستطاعتي أن أستمرّ بالقراءة. «كيف يمكن لأحد أن يكون في خطر وهو في هذه الغرفة المقفلة» سألتُ نفسي بصوت عالٍ. «ما الذي يبغيه رجل التحرّي التافه ذاك؟»، صرتُ أقترب من النافذة مثاراً في كلّ مرّة أكثر وأتأمّل الشاطئ، آملاً أن أرى إنجيبورغ وفلوريان ليندين. كان المساءُ يحلّ ولا أحد غير المحروق هناك، يرتّب زلاجاته،

تحت غيوم حمراء وقمر بلون عدس يغلي، لا يرتدي غير بنطلون قصير، غريباً عن كلّ ما يحيط به، أي غريباً عن البحر والشاطئ، على العكس من الرصيف البحري وظلال الفنادق. للحظةٍ سيطر عليّ الخوفُ، عرفت أنّ الخطر والموت هناك. استيقظتُ مُتصبّباً عرقاً. كانت الحمّى قد اختفت.

٢٧ آب

هذا الصباح، بعد أن أنجزتُ جولتين وسجّلتهما، دمرت فيهما دراسات بنجامين كلارك (واترلو رقم ١٤) وجاك كورسو (الجنرال، رقم ٣، المجلد ١٧) حيث الاثنان ينصحان بعدم فتحِ أكثر من جبهة في السنة الأولى، نزلتُ إلى بار الفندق أسيرَ حالة نفسية رائعة وجسدي يفور رغبةً في القراءة، في الكتابة، في السباحة، في الضحك، يعني كلّ ذلك الذي هو علامة صحة وسعادة مرئية. البار في الصباح لا يكون عادة مليئاً جدّاً، لذلك آخذ معي رواية ووراقة فيها نسخ عن المقالات التي لا غنى لي عنها للعمل. الرواية هي *ويلي الذي يرتاب* لكارل غوتزكو، لكن ربّما بسبب إثارتي الداخلية، سعادةِ صباحٍ مفيد، لم يكن ممكناً لي أن أُركّز على القراءة ولا على دراسة المقالات، التي أريد أن أناقشها. وهكذا كرّستُ نفسي لمراقبة ذهاب وإياب الناس بين المطعم والشرفة والاستمتاع ببيرتي. حين كنتُ أستعدُّ للعودة إلى الغرفة، حيث وبقليل من الحظ كان باستطاعتي أن أضع مسودة الجولة الثالثة (ربيع ١٩٤٠، لا شكّ هو واحد من أهم الربيعات)، ظهرت غراو إلسي. حين رأتني ابتسمت. كانت ابتسامة غريبة. انفصلت بعدها عن بعض الزبائن، يمكن أن أقول تاركةً إيّاهم والكلمة على أفواههم وجاءت لتجلس إلى طاولتي.

بدت متعبة، على الرغم من أنّ هذا لم يُفْقِد وجهَها خطوطَهُ العامّة ولا نظرتها الوضّاءة.

ـ لم يحدث أن قرأتُهُ قط ـ قالت، فاحصة الكتاب ـ، بل ولا أعرف

من يكون. هل هو حديث؟ نفيتُ بابتسامة، قلت إنّه كان مؤلفاً من القرن الماضي. ميت. أمعنّا النظر في بعضنا بعضاً برهة، دون أن نبعد عيناً أو نخفّف منه بالكلمات.

ـ ما القصة؟ احكها لي ـ أشارت إلى رواية غوتزكو.

ـ إن أردتِ، أستطيعُ أن أعيرها لكِ.

ـ لا وقت لديّ للقراءة. ليس في الصيف. لكنّك تستطيع أن تحكيها لي.

راح صوتُها يحرز نبرةً أمّارة، دون أن يتخلى عن كونه ناعماً.

ـ إنّها يوميات فتاة. ويلي ينتحر في النهاية.

ـ هل هذا هو كلّ شيء. يا للهول.

ضحكتُ:

ـ أنتَ طلبت مني موجزاً. خذي، لاحقاً ستعيدينه لي.

أخذتْ الكتابَ بتعبير تأمّلي.

ـ الطفلات يُحببن أن يكتبن في يومياتهن... أكره هذه المسرحيات... لا، لن أقرأه. أليس عندك شيء آخر أكثر فرحاً؟ ـ فتحت الوراقة وتأمّلت نسخَ المقالات.

ـ هذا شيء آخر ـ سارعتُ للتوضيح ـ غير ذي أهمّية!

ـ أرى ذلك. هل تقرأ أنت الإنكليزية؟

ـ بلى.

قامت بحركة من رأسها وكأنّها تقول هذا ممتاز. أغلقت بعدها الوراقة وبقينا برهة لم نقل فيها شيئاً. كان الوضع على الأقل بالنسبة إليّ مُحرجاً إلى حدّ ما. أروع ما في الأمر هو أنّها لم تبد مستعجلةً على الذهاب. بحثتُ ذهنياً عن موضوع كي أبدأ حديثاً إلا أنّه لم يخطر لي شيء.

فجأة تذكّرتُ مشهداً حدث منذ عشر أو إحدى عشرة سنة: فراو

إلسي كانت تبتعد عن الناس وسط حفل مُقام على شرفِ مَنْ لا أدري مَنْ وبعد أن عبرت الكورنيش ضاعت على الشاطئ. لم تكن وقتها المصابيح الكهربائية الموجودة الآن موجودةً، وتكفي خطوتان للدخول في منطقة تامّة الظلمة. أجهل ما إذا كان هناك آخر انتبه إلى هربها، أعتقد أنّه ما من أحد، كان الحفل صاخباً والجميع يشربون ويرقصون في الشرفة، بمن فيهم مارّة مرّوا من هناك ولا علاقة لهم بالفندق. الصحيح هو أنّه ما من أحدٍ غيري افتقدها. لا أدري كم من الوقت مضى حتى عادت وظهرت، أفترض كثيراً. وحين فعلت ذلك لم تعد وحدها، فإلى جانبها كان هناك رجل طويل ونحيل جداً، آخذاً إياها من يدها، يرتدي قميصاً أبيض يخفق مع النسيم كما لو أنّ في داخله لا يوجد غير العظام، أو بالأحرى عظم واحد، طويل كسارية علم. عرفته حين عبرا الكورنيش، إنّه صاحب الفندق؛ زوج فراو إلسي. حيّتني هذه حين عبرت بجانبي ببعض الكلمات الألمانية. لم أرَ قط ابتسامة بمثل ذلك الحزن.

الآن وبعد عشر سنوات كانت تبتسم بالطريقة ذاتها.

قلتُ لها دون أن أُفكّر في الأمر مرّتين إنّها تبدو امرأة جميلة جدّاً.

نظرت فراو إلسي إليّ كما لو أنّها لم تفهم ثمّ ضحكت، لكن بصوت خافت جدّاً، بحيث إنّ شخصاً موجوداً على الطاولة المجاورة قد لا يسمعها إلا بصعوبة كبيرة.

صحيح ـ قلتُ. كان الخوف من أن أصير مسخرةً، كما كنتُ أشعر عامّة في كلّ مرّة أكون فيها معها، قد اختفى.

فجأة قالت جدّيةً، ربّما مدركةً أنّني أنا أيضاً كنتُ أتكلّم بجدّية:

ـ لستَ الوحيد الذي يُفكّر في هذه الطريقة. لا بدّ أنّني مدينة لك بكوني كذلك.

ـ دائماً كنتِ كذلك ـ قلتُ متشجّعاً ـ، وإن لم أكن أشير فقط إلى

جمالها الجسدي، الظاهر للعيان بكلّ وضوح، بل إلى... هالتها؛ الجوّ الذي ينبثق من أدقّ أعمالها. صمتها...

ضحكت فراو إلسي، هذه المرّة بطريقة مفتوحة، كما لو أنّها سمعت توّاً نكتةً.

ـ اعذرني ـ قالت ـ. لستَ أنت من أضحك منه.

ـ منّي لا، من كلماتي ـ قلتُ ضاحكاً أيضاً، دون أن أشعر إطلاقاً بالإهانة. (على الرغم من أنّني شعرتُ في الحقيقة بقليل من الإهانة).

بدا هذا الموقف مفرحاً لفراو إلسي. فكّرتُ في أنّني لامستُ، دون قصدٍ، جرحاً خفيّاً. تصوّرتُ فراو إلسي يهمّ بها إسباني، ربّما داخلة في علاقة سرّية. لا شكّ في أنّ الزوج كان يشكّ ويعاني، هي غير قادرة على أن تهجر عشيقها، كما أنّها لم تجد في نفسها القوّة كي تُقرّر أن تهجر الزوج. محصورة بين وفاءيْن وتعزو محنها لجمالها. رأيتُ فراو إلسي مثل لهبٍ، لهب يُنير لنا وإن كان يستنفد نفسه ويستهلكها في مغامرته، إلخ.، أو مثل نبيذ حين ينصهر في دمنا يختفي كنبيذ. جميلة وبعيدة. ومنفية... هذه الصفة الأخيرة هي ميّزتها الأكثر غموضاً.

أخرجني صوتها من شرودي:

ـ يبدو أنّكَ بعيدٌ عن هنا.

ـ كنتُ أُفكّر فيك.

ـ بالله عليك، يا أودو، سأحمرّ خجلاً.

ـ كنتُ أفكّر في الشخص الذي كنتِه منذ عشر سنوات. لم تتغيّري أبداً.

ـ كيف كنتُ قبل عشر سنوات؟

ـ كما أنت الآن، جذّابة. نشيطة.

ـ نشيطة، بلى، ما حيلتي، لكن جذّابة؟ ـ عادت ضحكتها، ضحكة الرفيقة الطيبة لتدوّي في المطعم.

ـ بلى، جذّابة؛ هل تتذكّرين ذلك الحفل في الشرفة، حين غادرتِ إلى الشاطئ. كان الشاطئ مظلماً مثل فم ذئب على الرغم من أنّه كانت هناك أنوار كثيرة في الشرفة. وحدي أنا انتبهتُ إلى ذهابك وانتظرت عودتك. هناك، على هذا الدرج، عدتِ بعد برهة، لكن ليس وحدك، بل برفقة زوجك. حين عبرت بجانبي ابتسمتِ لي. كنتِ جميلة جدّاً. لا أتذكّر أنّني رأيت زوجك يخرج خلفك. ولذلك أستنتج أنّه كان قبلك على الشاطئ. هذا النوع من الجاذبية هو الذي أقصده. أنتِ تجذبين الناس.

ـ عزيزي، أودو، لا أتذكّر هذا الحفل على الإطلاق؛ كثيرة هي الحفلات؛ ثمّ إنّه مرّ زمن طويل. على كلّ الأحوال من تبدو مجذوبة في قصّتك هي أنا، مجذوبة إلى زوجي، لا أكثر ولا أقل. إذا كنت تؤكّد أنّك لم تره يخرج، فهذا يعني أنّه كان على الشاطئ، لكن إذا كان الشاطئ، كما تقول، مظلماً وأنا أعطيك كلَّ الحقّ في هذا، فأنا لا يمكن أن أعرف أنّه كان هناك، وبالتالي عندما توغلتُ في الشاطئ فعلت ذلك مجذوبة بمغناطيسه. ألا ترى ذلك؟

لم أبغِ أن أردّ. كان قد قام بيننا نحن الاثنين تيار من التفهم، كان يعفينا من الأعذار، على الرغم من أنّ فراو إلسي كانت تُحاول أن تدمره.

ـ كم كان عمرك وقتذاك؟ طبيعي أن يشعر ابن خمسة عشر عاماً بانجذاب نحو امرأة أكبر منه بقليل. الحقيقة أنّني لا أكاد أتذكّرك، يا أودو. كانت اهتماماتي في اتجاهات أخرى. أعتقد أنّني كنتُ فتاة طائشة؛ طائشة مثلهن جميعاً، ومتردّدة كثيراً. لا أحبّ الفندق. طبعاً عانيت كثيراً. حسن، في البداية جميع الأجنبيات يعانين كثيراً.

ـ بالنسبة إليّ كان شيئاً... جميلاً.

ـ لا تنظر إليّ بهذا الوجه.

ـ أيّ وجه؟

ـ وجه الفقمة المضروبة، يا أودو.

ـ هذا ما تقوله لي إنجيبورغ.

ـ حقّاً؟ لا أصدِّق.

ـ لا، تستخدمُ كلماتٍ أخرى، لكن تشبهها. إنّها فتاة جميلة جدّاً.

ـ بلى، هي كذلك.

فجأة لزمنا الصمت. راحت أصابع يدها اليسرى تنقر على سطح الطاولة البلاستيكي. وددت لو أسألها عن زوجها، الذي لم أره بعد ولا حتى من بعيد، والذي كنتُ أحدس أنّه يلعب دوراً مهمّاً في ذلك الذي لا اسم له ويشعّ من فراو إلسي، لكن لم تُتَح لي الفرصة.

ـ لماذا لا نغيّر الموضوع؟ لنتكلَّمْ عن الأدب، أو بالأحرى تكلّمْ أنت عن الأدب وأنا سأصغي. أنا جاهلة بالنسبة إلى الكتب، لكنّني أحبّ القراءة، صدّقني.

انتابني إحساس بأنّها تسخر منّي فقمتُ بحركة استنكار برأسي، بدا أنّ عيْنَي فراو إلسي تنكشان في جلدي. بل وأستطيع أن أؤكّد أنّ عينيها كانتا تبحثان عن عينيَّ كما لو أنّها بفحصِها لهما تستطيع أن تقرأ أكثرَ أفكاري حميميّةً. ومع ذلك كانت تلك الحركة تستند إلى شيء شبيه بالألفة.

ـ إذن لنتكلَّمْ عن السينما. هل تُحبّ السينما؟ ـ هزت كتفيّ ـ سيبثون هذه الليلةَ فيلماً لجودي غارلَند. هل تحبها أنت؟

ـ لا أعرف. لم يحدث أن رأيتُ شيئاً لها.

ـ ألم ترَ *ساحر أوز*؟

ـ بلى، لكنّه كان رسوماً متحرّكة كما أتذكّره، كان رسوماً متحرّكة.

قامت بحركة تعبّر عن إحباط. من زاوية من زوايا المطعم كانت تخرج موسيقى ناعمة جداً. كلانا كان يتصبّب عرقاً.

ـ ليس هناك نقطة للمقارنة ـ قالت فراو إلسي ـ. على الرغم من أنّني أفترض أنّه يجب أن يكون عندك أنت وصديقتك أشياء أفضل تفعلانها من أن تنزلا في الليل لتشاهدا التلفزيون في قاعة الفندق.

ـ ليست أفضل بكثير. نخرج إلى المراقص. في النهاية شيء مملّ.

ـ هل ترقص جيّداً؟ بلى، أعتقد أنّك راقص جيّد. من الجدّيين الذين لا يتعبون.

ـ وكيف هم هؤلاء؟

ـ راقصون لا شيء يبدّلهم، مستعدون لأن يصلوا إلى حيث يتطلب الأمر.

ـ لا، أنا لستُ من هؤلاء.

ـ ما هي طريقتك، إذن؟

ـ أقرب إلى الحماقة.

وافقت فراو إلسي بحركة غامضة تدلّ على أنّها تأخذ الأمر على عاتقها. كان المطعم، دون أن ننتبه، قد راح يمتلئ بناس عائدين من الشاطئ. في القاعة المجاورة كان هناك ناس جلسوا إلى الطاولات مستعدين لتناول طعامهم. فكّرتُ في أنّ إنجيبورغ لن تتأخّر في الوصول.

ـ ما عدت أفعل هذا كثيراً: حين وصلتُ إلى إسبانيا كنتُ أرقص مع زوجي كلّ ليلة تقريباً. دائماً في المحلّ ذاته، لأنّه لم يكن هناك في ذلك الزمن مراقص كثيرة، إضافة إلى أنّ ذلك المحلّ كان الأفضلَ، الأحدثَ. لا، لم يكن هنا، بل في إكس.... كان المرقص الوحيد الذي يعجب

زوجي. ربّما بالضبط لأنّه يقع خارج البلدة. لم يعد موجوداً. أغلقوه منذ سنوات.

استغللتُ المناسبة لأحكي لها عن حوادث آخر زيارة لنا إلى مرقص. أصغت فراو إلسي إلى التفاصيل دون أن تتبدّل ولا حتى عندما ذكرت لها بالتفصيل الجدل بين النادل ورجل العصا الذي انتهى إلى شجار تَعَمّم. بدا أنّه يهمّها أكثر الجزء من القصّة المتعلّق بمرافقَيْنا الإسبانيين الذئب والخروف. ظننتُ أنّها تعرفهما أو أنّها سمعتهم يتكلّمون عنهما وهكذا أخبرتها. لا، لا أعرفهما، لكن يمكن ألا يكونا الرفقة الأنسب لزوجين شابّين يمضيان إجازتهما الأولى معاً، كما لو قلنا في شهر العسل. لكن بأيّ طريقة يمكن أن يحشرا نفسيهما؟ مرّت على محيّا فراو إلسي علامات قلق. تراها كانت تعرف شيئاً كنتُ أجهله؟ قلتُ لها إنّ الذئب والخروفَ كانا صديقَي تشارلي وحنّة أكثر مما هما صديقان لي وإنّني كنتُ أعرف في ستوتغارت أشخاصاً أسوأ بما لا يُقاس. طبعاً كنتُ أكذب. أخيراً أكدتُ أنّ الإسبانيَّيْن كانا يهمّانني فقط بقدر ما أستطيع أن أتدرّب على اللغة.

ـ عليك أن تُفكّر في صديقتك ـ قالت ـ عليك أن تكون نبيلاً معها.

على وجهها ارتسم شيء شبيه بالقرف.

ـ لا عليك، لن يحدث لنا شيء. فأنا شخص حكيم وأعرف جيّداً إلى أيّ حدّ أعمّق علاقتي بحسب من يكون الشخص. ثمّ إنّ إنجيبورغ تستلطف هذه العلاقات. أعتقد أنّها لا تتعامل كثيراً مع كائنات مماثلة. من المفروغ منه أنّه لا أنا ولا هي نعتبرهما شيئاً جدّياً.

ـ لكنّهما حقيقيّان.

أوشكتُ أن أقول لها إنّ كلّ شيء كان يبدو لي في تلك اللحظة غير حقيقيّ: الذئب والخروف، الفندق، الصيف، المحروق، الذي لم أذكره

والسياح، كلّ شيء باستثنائها، فروا إلسي، الجذّابة والمتوحدة؛ لكنّني لِحُسن الحظّ سكتُّ. بالتأكيد ما كان هذا ليعجبها.

بقينا برهة أخرى لم نقل فيها شيئاً على الرغم من أنّني شعرتُ وسطَ ذلك الصمت بأنّني أقرب إليها من أيّ وقت آخر. ثمّ وبجهد ظاهر نهضت، شدّت على يدي وغادرت.

بينما كنتُ أصعد إلى الغرفة علّق مجهول في المصعد قائلاً بأنّ المدير مريض. «محزن أن يكون المدير مريضاً، يا لوسي»، كانت هذه كلماته. عرفت دون أيّ نوع من الشك أنّه كان يقصد زوجَ فراو إلسي.

عندما وصلت إلى الغرفة فوجئت بنفسي أُردّد: إنّه مريض، إنّه مريض، إنَّهُ مريض... فعلاً، كان صحيحاً. على الخريطة كان يبدو أنّ الفيشَ تذوب. كانت الشمسُ تسقط مائلةَ على الطاولة والمحاسبون الذين يمثلون وحدات مدرّعة ألمانية كانوا يومِضون كما لو أنّهم أحياء.

اليوم أكلنا فروّجاً مع البطاطا المقلية والسلطة، بوظة شوكولاتة وقهوة. طعام أقرب إلى البائس (البارحة كان الطعام شرائحَ ميلانية وسلطة وبوظة شوكولاتة وقهوة). قالت لي إنجيبورغ إنّها كانت مع حنّة في حديقة البلدية، الموجودة خلف الميناء، بين جرفين صخريين ينحدران مباشرة نحو البحر. التقطتا صوراً كثيرة، اشتريتا بطاقات بريدية وقرّرتا أن تعودا إلى البلدة مشياً. صباح بكامله. من ناحيتي بالكاد تكلّمتُ. كان صخب المطعم يصعد إلى رأسي ويحدث عندي دوخة خفيفة لكنّها متواصلة. قبل الانتهاء من الطعام بقليل ظهرت حنّة، لا ترتدي غير البكيني وقميص بحر أصفر. حين جلستْ وجّهتْ لي ابتسامة مفتعلة قليلاً، كما لو أنّها تعتذر عن شيء، أو كما لو أنّها تشعر بالخجل. ممَّ؟ لا أتمكّن من إدراكه. تناولت معنا فنجان قهوة ولم تتكلّم تقريباً. الحقيقة أنّ ظهورها لم يسرّني إطلاقاً على الرغم من أنّني حذرت من أن أُظْهِرَ

ذلك. أخيراً صعدنا نحن الثلاثة إلى الغرفة، حيث ارتدت إنجيبورغ ثياب البحر. ذهبتا بعدها إلى الشاطئ.

سألت حنّة: لـ«ماذا يبقى أودو محبوساً كلّ هذا الوقت؟» ثمّ وبعد وقفة: «ما هذه الرقعة المليئة بالفيش الموجودة على الطاولة؟ تأخّرت إنجيبورغ حتى عثرت على جواب؛ نظرتْ إليّ مرتبكة كما لو أنّني المسؤول عن فضول صديقتها التافه. كانت حنّة تنتظر. وضّحتُ لها بصوت هادئ وبارد إلى حدّ أنّه أربكني، أنّني أُفضّل مؤقتاً الظلّ والقراءةَ في الشرفة نظراً لوضعِ كَتِفَيّ. إنّه مهدّئ، أكّدتُ لها، يجب أن تجرّبيه. يُساعد على التفكير. ضحكت حنّة، غير واثقة جدّاً من معنى كلماتي. ثمّ أضفتُ:

ـ هذه الرقعة، كما يمكن أن تُقدّري، هي خريطة أوروبا. إنّها لعبة. وتحدٍّ أيضاً. إنّها جزء من عملي.

تمتمت حنّة مشوّشة قائلة إنّها سمعت أنّني أعمل في شركة كهرباء ستوتغارت، وهكذا اضطررت لأن أوضّح لها أنّه إذا كان حقيقة أنّ كاملَ دخلي تقريباً مصدره شركة الكهرباء إلا أنّه لا ميولي ولا القسم المعتبر من ساعات عملي مكرَسان له، بل وأكثر من ذلك قسم صغير من دخلي الإضافي مصدره ألعاب مثل هذه الموجودة على الطاولة. لا أدري ما إذا كان ذكرُ المال أم لمعانُ الرقعةِ والفيش، هما السبب، لكنّ حنّة اقتربت وبدأت بكلّ جدّية توجّه أسئلة متعلّقة بالخريطة. كانت اللحظة المناسبة كي أدخلها في القضية... عندها بالضبط قالت إنجيبورغ إنّ عليهما أن تذهبا. رأيتهما من الشرفة تعبران الكورنيش وتنشران حصيرتيهما على بعد بضعة أمتار من زلاجات المحروق.

آلمتني بطريقة غير معهودةٍ إيماءاتُها، حركاتها، الناعمة، الأنثوية بكثافة. شعرتُ لبضع ثوانٍ بأنّني لستُ على ما يرام، غير قادر على فعل

شيء آخر غير البقاء مستلقياً على بطني في السرير، أتصبّب عرقاً. مرّت في ذهني صور غير معقولة كانت تؤذيني. فكّرتُ في أن أقترحَ على إنجيبورغ أن نُغادر نحو الجنوب، نحو الأندلس، أو أن نذهب إلى البرتغال، أو أن نضيع، دون أن نخطَّ أيَّ طريق، في دروب إسبانيا الداخلية، أو أن نقفز نحو المغرب... تذكّرتُ بعدها أنّ عليها أن تعود إلى العمل في الثالث من أيلول وأنّنا في الحقيقة لا نملك وقتاً. نهضتُ أخيراً، استحممتُ ووجدتُ نفسي في اللعبة.

(مظاهر عامة لجولة الربيع، ١٩٤٠. فرنسا تُحافظ على الجبهة الكلاسيكية، على سداسي الأضلاع ٢٤ وخطّ ثانٍ للصدِّ على الخط ٢٣. من فيالق المشاة الأربعة عشر، اثنا عشر منها على الأقل يجب أن يُغطي سداسيات الأضلاع كيو ٢٤، بّي ٢٤، أو ٢٤، إنْ ٢٤، إم ٢٤، إل ٢٤، كيو ٢٣ وإم ٢٣. الفيلقان الآخران يجب أن يُغَطيا سداسيّي الأضلاع أو ٢٢ وبّي ٢٢. من بين الألوية المدرعة الثلاثة ربّما سيكون واحد منها في سداسيّ الأضلاع أو ٢٢، وآخر في سداسيّ الأضلاع تي ٢٠ والأخير في الضلع أو ٢٣. الوحدات البديلة ستكون في سداسيات الأضلاع كيو ٢٢، تي ٢١، يو ٢٠ وفي ٢٠. الوحدات الجوّية في سداسيّي الأضلاع كيو بي ٢١ وكيو ٢٠ على قواعد جوّية. قوة الحملة البريطانية، المؤلّفة في أحسن الحالات من ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدرّع ـ طبعاً إذا ما أرسل الإنكليزي قوات أكثر إلى فرنسا فإنّ خيار الاستخدام سيكون خيار الضربة المباشرة ضدّ بريطانيا العظمى ولهذا الهدف فإنّ الفيلق الألماني المجوقل يجب أن يكون في سداسي الأضلاع كي ٢٨ ـ، سينتشر في سداسيّي الأضلاع إن ٢٣، فيلقا مشاة ولّي ٢٣ فيلق مشاة وآخر مدرّع. وكخيار دفاعي محتمل يمكن نقل القوات الإنكليزية من سداسيّ الأضلاع بّي ٢٣ إلى سداسيّ الأضلاع أُو ٢٣، والقوات الفرنسية فيلق مدرّع وفيلق مشاة، من سداسيّ الأضلاع أُو ٢٣ إلى

سداسيّ الأضلاع بّي ٢٣. في أيّ عملية انتشار سداسي الأضلاع الأقوى سيكون ذاك الذي يوجد فيه الفيلق المدرع الإنكليزي، سواء كان سداسيّ الأضلاع بّي ٢٣ أَوْ أُو ٢٣، وسيُحَدِّد محور الهجوم الألماني. وسيُنفَذ هذا بعدد قليل جداً من الوحدات. إذا كان الفيلق المدرّع الإنكليزي في سداسيّ الأضلاع بّي ٢٣، فإنّ الهجوم الألماني سوف يتمّ في أُو ٢٤، وعلى العكس إذا كان الفيلق المدرّع الإنكليزي في أُو ٢٣، فإنّ الهجوم يجب أن يبدأ في إنْ ٢٤، في جنوب بلجيكا. ومن أجل تأمين التوغّل يجب على الفيلق المجوقل أن يهجم على سداسيّ الأضلاع أُو ٢٣، إذا كان الفيلق المدرّع الإنكليزي في بّي ٢٣، أو في إنْ ٢٣ أو في أُو ٢٣. الضربة على الخط الدفاعي الأوّل سوف يقوم به فيلقان مدرّعان وسيقع التوغّل على عاتق فيلقين مدرّعين أو ثلاثة فيالق، يجب أن تصل إلى سداسيّ الأضلاع أُو ٢٣ أو إنْ ٢٢، بحسب أين يوجد الفيلق الإنكليزي المدرّع، واستغلال الفرصة للشروع بهجوم فوري على سداسي الأضلاع أُو ٢٢، باريس. ولمنع هجوم مضاد بتفوق ١ـ٢، يجب أن يتركوا بعضَ العوامل الجوّية للتطورات، إلخ).

تناولنا في المساء أقداحاً في منطقة المخيمات وذهبنا بعدها لنلعب لعبةَ الغولف الصغرى. كان تشارلي أهدأ مما كان في أيام سابقة. وجهه نظيف وهادئ، كما لو أنّ سكينة كانت مجهولة حتى ذلك الوقت قد حلّت فيه. المظاهر تخدع. سرعان ما راح يتكلّم بشكل مُتعب كما يفعل دائماً وحكى لنا قصّة. توضَح هذه حماقته أو الحماقة التي يزعم أنّها فينا أو كلا الشيئين. باختصار: بقي النهارَ بكامله يمارس التزلج الشراعي وفي لحظة معينة ابتعد إلى حدّ أنّه ضاع عن ناظره خط لشاطئ. ملاحة قصّته كانت تكمن في أنّه عند العودة إلى الشاطئ خلط بين بلدتنا والبلدة المجاورة، جعلته الأبنيةُ والفنادقُ بل شكلُ الشاطئ يرتاب، لكنّه لم يول ذلك أهمّية. تائهاً سأل سابحاً ألمانياً عن فندق كوستا برافا فأرسله هذا

دون أي تردّد إلى فندق كان يسمى بالفعل كوستا برافا، لكنّ لم يكن يشبه في شيء فندق كوستا برافا الذي ينزل فيه تشارلي. ومع ذلك دخل تشارلي وطلب مفتاح غرفته. طبعاً رفض عامل الاستقبال أن يعطيه له، غير آبه بتهديدات تشارلي. أخيراً وبما أنّه لم يكن في الاستقبال عمل كثير، فقد انتقلا من الشتائم إلى الحوار وإلى تناول البيرة في بار الفندق، ولدهشة كلّ من سمعهما توضّحَ كلُّ شيء وكسب تشارلي صديقاً وإعجاباً عامّاً.

ـ ماذا فعلت بعدها ـ سألت حنّة على الرغم من أنّه كان واضحاً أنّها تعرف الجواب.

ـ أخذتُ لوحي وعدتُ. في البحر طبعاً.

تشارلي متبجّحٌ يجب الحذر منه كثيراً، أو أبلهُ يجب الحذر منه كثيراً.

لماذا ينتابني أحياناً كلّ هذا الخوف؟ لماذا كلّما كان خوفي أكبر بدا أن روحي تنتفخ، تعلو وتراقب الكوكبَ كلَّهُ من علٍ. (أرى فراو إلسي من علٍ فأخاف. أرى إنجيبورغ من علٍ وأعرف أنّها هي أيضاً تنظر إليّ وأخاف وأرغب بالبكاء). أرغبُ بالبكاء حبّاً؟ تراني أرغب في الحقيقة بأن أهرب معها ليس فقط من هذه البلدة وهذا الحرّ، بل أيضاً مما يخبّئه لنا المستقبل، من الضحالة ومن اللامعقول؟ آخرون يهدؤون بالجنس أو بالسنين. تشارلي تكفيه رجلا حنّة وثدياها. يرتاح. أنا على العكس منه. جمال إنجيبورغ يجبرني على أن أفتح عينيّ وأفقد هدوئي. أنا حزمة أعصاب. تنتابني رغبةٌ بالبكاء وأضرب حين أُفكّر في كونراد، الذي ليس عنده إجازات أو أمضى إجازته في ستوتغارت دون أن يخرج حتى لأن يستحمّ في المسبح. لكن وجهي لا يتبدّل لهذا السبب. ونبضي يبقى على حاله. لا أتحرّك حتى ولو كنتُ أتمزّق في داخلي.

علّقت إنجيبورغ حين استلقينا لننام قائلةً كَمْ كان تشارلي يبدو في

حالة حسنة. كنّا في مرقص يسمى أدانْس حتى الثالثة صباحاً. إنجيبورغ تنام الآن وأنا أكتب والشرفة مفتوحة وأدخّن سيجارة بعد أخرى. حنّة كانت بدورها تبدو في حالة حسنة، حتى إنّها رقصت معي عدداً من المقطوعات البطيئة. كان الحديث كما هو دائماً غير ذي أهمّية. عمَّ تتكلّم حنّة وإنجيبورغ؟ هل من الممكن أنّهما تتحوّلان حقيقةً إلى صديقتين. تناولنا عشاءنا في مطعم فندق كوستا برافا بدعوة من تشارلي. كان العشاء بائيّا[1]، سلطة، نبيذ، بوظة وقهوة. ذهبنا بعدها في سيّارتي إلى المرقص. لم يكن عند تشارلي رغبة بقيادة السيارة ولا رغبة بالمشي، ربّما أبالغ لكّنه ولّد عندي انطباعاً أنّه لم يكن يرغب ولا حتى بالظهور. لم أره قَطّ بمثل تلك الرصانة والتحفّظ. كانت حنّة تنحني فوقه كلّ برهة وتُقبّله. أعتقد أنّها كانت تُقبّل ابنها في أوبرهاوزن بالطريقة ذاتها. عندما عدنا رأيتُ المحروق في ركن الأندلسيين. كانت الشرفة مقفرة والنُدُل يُلَملِمون الطاولات. مجموعة من صبية البلدة كانوا يتحدّثون متكئين على الدرابزين. بدا أنّ المحروق، الموجود على بعد بضعة أمتار عنهم، يُصغي إليهم. عندما قلتُ لتشارلي نصف مازح هو ذا هناك صديقك أجاب بطريقة سيّئة: وماذا يهمّني، تابع. أعتقد أنّه ظنّ أنّني أقصد الذئبَ أو الخروف. كان من الصعب تمييزهما في الظلمة. تابعْ، تابع قالت إنجيبورغ وحنّة.

---

(١) طبق إسباني وأندلسي علو وجه الخصوص، قوامه الأرز والزعفران والبحريات والدجاج.

٢٨ آب

اليوم جاء الصباح لأوّلِ مرّة غائماً. بدا الشاطئ من نافذتنا جليلاً ومقفراً. بعض الأطفال يلعبون على الرمل، لكنّها بدأت بعد قليل تُمطر فراحوا يختفون الواحد تلو الآخر. كان الجوّ في المطعم خلال الإفطار أيضاً مختلفاً. الناس الذين لا يستطيعون أن يجلسوا في الشرفة بسبب المطر، يتكوّمون حول طاولات الداخل ويمتدّ وقت الإفطار ويفسح المجال لإقامة صداقات جديدة وسريعة. الجميع يتكلّمون. يبدأ الرجال بالشرب قبل النساء، النساء يذهبن باستمرار إلى غرفهنّ بحثاً عن ثياب تُدثرهن وفي أغلب الحالات لا يجدنها. تُلقى نكات. بعد برهة قصيرة يصير الجوّ مزعجاً. ومع ذلك وبما أنّهم لا يستطيعون أن يبقوا اليوم بكامله في الفندق فإنّهم يُنظّمون غزوات إلى الخارج، مجموعات من خمس وستّة أشخاص، محميين تحت مظلّتين، يكرّسون وقتهم للطواف على المحلات ويدخلون بعدها إلى مقهى أو إلى محل ألعاب فيديوهات. الشوارع التي كنستها الأمطار، تتبدّى غريبة عن الضوضاء اليومية، غارقة في نوع آخر من الحياة اليومية.

وصل تشارلي وحنّة في منتصف الإفطار، قرّرا الذهاب إلى برشلونة ترافقهم إنجيبورغ. أميل للذهاب معهم. سيكون اليوم كلّه لي. أتفرّغ بعد أن ذهبوا لمراقبة الناس الذين يخرجون ويدخلون إلى المطعم. فراو إلسي، بعكس المتوقّع، لا تظهر. على كلّ الأحوال المكان هادئ ومريح. أُشَغّل دماغي. أتذكّر مبادئ مباريات، حركاتٍ تحضيرية وجسّ

نبض...سبات معمّم يغزو كلَّ شيء.. فجأة الوحيدون السعداء حقيقة هم النُدُل. يعملون ضعف ما يعملونه في يوم عاديّ، لكنّهم يتمازحون فيما بينهم ويضحكون. عجوز بجانبي، رأى أنّهم يضحكون منّا.

ـ أنت تُخطئ ـ أجبته. يضحكون لأنّهم يرون نهاية الصيف قريبة وبالتالي نهاية عملهم.

ـ إذن يجب أن يكونوا حزينين. سوف يدخلون في العطالة قليلو الحياء هؤلاء.

ـ خرجتُ من الفندق عند الظهيرة.

استقللت السيارة وسرتُ بها حتى ركن الأندلسيين. كنتُ سأصل أسرع مشياً، لكن لم تكن بي رغبة بالمشي.

كان البار في الخارج مثل كلّ البارات التي تملك شرفات، كراسي محنية وقطرات تسقط من حواف المظلات، كان النشاط في الداخل، كما لو أنّ المطر جعل الحجوزات، السيّاح وأبناء البلد يختفون في تجمّع فيه شيء من الكارثة، يُحاولون أن يقيموا حواراً إيمائياً غير مفهوم ولا نهاية له. في العمق وبجانب التلفاز رأيت الخروف. أشار إليّ أن أقترب. انتظرتُ حتى صّبوا لي فنجان قهوة بالحليب وذهبت لأجلس إلى طاولته. كانت الكلماتُ الأولى كلماتِ مجاملة خالصة. (كان الخروف حزيناً لأنّها تمطر، لكن ليس من أجله بل من أجلي، فأنا جئت أبحث عن أيّام مشمسة وعن شاطئ، إلخ). لم أزعج نفسي بأن أقول له إنّني كنتُ في الحقيقة مسحوراً بالمطر. سأل بعد برهة عن تشارلي. قلتُ له إنّه في برشلونة. مع من؟ استقصى. طبعاً فاجأني السؤالُ، بكل أريحية كنتُ سأقول له إنّ هذا ليس من شأنه. قرّرتُ بعد تردّد أنّه لا يستحق الردّ.

ـ طبعاً مع حنّة وإنجيبورغ، مع من كنت تعتقد أنّه كان؟

بدا الفتى المسكين مرتبكاً. ليس مع أحد، ابتسم. في النافذة المغطاة

بالبخار رسم أحد قلباً تخترقه مِحقنة. فيما وراء ذلك يظهر الكورنيش وبعض الصفائح الرمادية. طاولات عمق البار القليلة يشغلها شبّان وكان هؤلاء هم الوحيدون الذين يبقون على مسافة عن السياح جدار مقبول ضمناً سواء من الناس المحتشدة على امتداد طاولة العرض ـ أسر، رجال كبار في السن، أو من الموجودين في العمق، يفصل وسط البار بين المجموعتين. فجأة بدأ الخروفُ يوضّح لي قصّة غريبة، لا معنى لها. كان يتكلّم بسرعة وسرّية، منحنياً فوق الطاولة. بالكاد فهمت منه شيئاً. كانت القصّة تدور حول تشارلي والذئب. لكنّ كلماته قيلت كما لو في حلم: جدل، شقراء (حنّة؟)، مُدى، الصداقة فوق كلّ اعتبار... «الذئب شخص طيّب، أنا أعرفه، له قلب من ذهب. تشارلي أيضاً، لكن عندما يسكران ما من إله يستطيع أن يتحمّلهما». وافقت. كان الأمر سِيّاً عندي. إلى جانبنا فتاة كانت تنظر بثبات إلى المدخنة المطفأة، التي صارت الآن مرمدة هائلة. في الخارج كان المطرُ يشتدّ. دعاني الخروفُ إلى قدح كونياك. ظهر في تلك اللحظة المالكُ ووضع فيديو. ولكي يفعل ذلك اضطرّ لأن يصعد على كرسِيّ. من هناك أعلن: «يا أولادي سأضع لكم فيديو». ما من أحد أولاه انتباهاً. «أنتم عصابة من الخمولين»، قال على طريقة الوداع. كان الفيلم عن راكبي دراجاتِ ما بعد الحقبة النووية. «شاهدتها»، قال الخروفُ حين عاد بقدحَي كونياك. كونياك جيّد، بجانب المدخنة راحت الفتاة تبكي. لا أعرف كيف أوضّح الأمر، لكنّها بدت الوحيدة في كلّ البار التي تبدو كأنّها غير موجودة هناك. سألتُ الخروفَ لماذا كانت تبكي؟ كيف تعرف أنّها تبكي؟ أجابني، أنا بالكاد أرى وجهها. هززتُ كتفيّ، في التلفاز؛ زوج من راكبي الدراجات يتقدّمان في الصحراء؛ واحد منهما أعور؛ في الأفق تنتشر بقايا مدينة: محطة وقود مدمرة، سوبر ماركت، بنك، سينما، فندق... «متحولون»، قال الخروف وقد جلس جانباً كي يستطيع أن يرى شيئاً.

إلى جانب فتاة المدخنة كان هناك فتاة أخرى وفتى يمكن أن يكون في الثالثة عشرة كما في الثامنة عشرة من عمره. كلاهما كان ينظر إليها وهي تبكي، ويداعب ظهرها من حين إلى آخر. كان وجه الفتى مليئاً بالحبوب؛ ويقول بصوت خافت كلماتٍ في أذن الفتاة، كما لو أنّه أراد أن يقنعها بشيء ما، أكثر مما يواسيها، ولا يُضيع بطرف عينه مشاهد الفيلم الأكثر عنفاً والتي كانت تتتالى في كلّ لحظة. عملياً كانت وجوه كلّ الشباب، باستثناء التي كانت تبكي، ترتفع باتجاه التلفاز، يشدّهم ضجيج الصراع أو الموسيقى التي كانت تسبق لحظات المعارك المناخية. بقية الفيلم إمّا أنّها لم تكن تهمّهم وإمّا أنّهم سبق أن شاهدوها.

لم يكن المطر في الخارج يخفّ.

عندها فكّرت في المحروق. أين كان؟ تراه كان قادراً على أن يمضي نهاره على الشاطئ مطموراً تحت الزلاجات؟ رغبتُ للحظةٍ، كما لو أنّه كان ينقصني الهواءُ، بأن أخرج راكضاً لأتأكّد من ذلك.

وشيئاً فشيئاً راحت فكرةُ زيارته تأخذ شكلها. أكثر ما كان يشدّني هو أن أرى بأمّ عينيّ ما سبق أن تخيّلته: نصف ملاذ طفولي، نصف كوخ من العالم الثالث. ماذا كنتُ أنتظر أن أجد أخيراً داخل الزلاجات. في ذهني كان يظهر المحروق جالساً كساكن كِهفٍ إلى جانب مصباحِ مخيم غازيّ؛ حين أدخل يرفع بصره ويتأمّل الواحدُ منّا الآخر. لكن من أينَ يدخل، هل من ثقب كثقب جحر الأرانب؟ كان احتمالاً. وفي نهاية النفق يبدو المحروقُ، وهو يقرأ صحيفة، أرنباً. أرنباً هائلاً، مذعوراً حتى الموت. طبعاً، إذا كنتُ لا أريد إخافته سيكون عليّ أن أناديه قبل ذلك. مرحباً، هذا أنا، أودو، هل أنت هنا، كما كنتُ أظنُّ؟... وماذا أفعل إذا لم يُجبني أحدٌ؟ تصوّرتُ نفسي حول الزلاجات أبحثُ عن ثقب الدخول؛ الصغير جدّاً. بمشقة كبيرة رحتُ أدخل زاحفاً. كلّ شيءٍ كان في الداخل معتماً. لماذا؟

ـ هل تريد أن أحكي لك نهايةَ الفيلم؟ ـ سأل الخروف.

فتاة المدخنة ما عادت تبكي. في التلفاز نوع من الجلّاد يحفر حفرة كبيرة بما يكفي كي يدخل فيها جسم رجل مع دراجته النارية. بعد انتهاء العملية يضحك الفتية على الرغم من أنّ في الفيلم شيئاً غير ملموس، مأساوياً أكثر مما هو كوميدي.

ـ حرّكت رأسي موافقاً. كيف ينتهي؟

ـ يتمكّن البطل من الخروج بالكنز من منطقة الإشعاعات. لا أدري ما إذا كانت صيغة لصناعة البترول الصناعي أو الماء الصناعي، أو ما أدراني. حسن. إنّه فيلم مثل كلّ الأفلام، أليس كذلك؟

ـ بلى ـ قلتُ.

أردتُ أن أدفع لكنّ الخروف رفض بقوّة. «هذه الليلة تدفع أنت»، ابتسم. لم أستلطف الفكرة إطلاقاً. لكن على كلّ الأحوال لا أحد يستطيع أن يجبرني على الخروج معهما وإن خفت أن يكون الأبله تشارلي قد التزم معهما. وإذا ما خرج تشارلي معهما فستخرج حنّة أيضاً، وإذا ما ذهبت حنّة فمن المحتمل أن تذهب إنجيبورغ أيضاً. سألتُ بينما رحتُ أنهض عن المحروق كما لو كان بالمصادفة.

ـ ليس لديّ أدنى فكرة ـ قال الخروفُ ـ هذا الرجل مجنون قليلاً. هل تريد أن تقابله؟ هل تبحث عنه؟ إذا أردتَ رافقتك. ربّما يكون الآن في بار بِّب، في هذا المطر لا أعتقد أنّه يعمل.

شكرته؛ قلتُ له ليس ضرورياً. لم أكن أبحث عنه.

ـ إنّه شخص غريب الأطوار ـ قال الخروفُ.

ـ ما السبب؟ هل بسبب حروقه؟ هل تعرف كيف أصيب بها؟

ـ لا، ليس لهذا السبب، لا أدخل ولا أخرج في هذا. أقول ذلك لأنّه

يبدو لي غريب الأطوار. لا، ليس غريب الأطوار، غير مألوف، تعرفُ ما أريد أن أقول.

ـ لا، ماذا تريد أن تقول؟

ـ إنّ له نزواته، مثل كلّ العالم. مُعَذّب. لا أعرف. الجميع عندهم نزواتهم، أليس كذلك؟ انظر إلى تشارلي، دون أن نذهب بعيداً، فقط يُحب المصَّ وزلاجة البيض الشراعية.

ـ يا رجل، لا تُبالغ، يُحبّ أشياء أخرى أيضاً.

ـ النساء؟ ـ قال الخروف بابتسامة خبيثة ـ. حنّة مشتهاة، يجب الاعتراف بذلك، أليس صحيحاً؟

ـ بلى ـ قلتُ ـ. لا بأس بها.

ـ وعندها ابن، أليس كذلك؟

ـ أظنّ ذلك ـ قلتُ.

ـ أرتني صورة. إنّه طفل جميل جداً، أشقر وكلّ شيء، يُشبهها.

ـ لا أعرف. أنا لم أرَ أيّ صورة.

غادرتُ قبل أن أوضّح له أنّني كنتُ أعرف حنّة كما يعرفها هو تقريباً. من المحتمل أنّه عرفها في بعض المراحل أفضل منّي، لكن أن أقول له ذلك لا يفيد في شيء.

في الخارج كانت ما تزال تُمطر، وإن كان بغزارة أقل. على أرصفة الكورنيش كان يُشاهد بعض السياح يتنزهون متدثرين بمشمعات ملونة. دخلتُ إلى السيارة وأشعلتُ سيجارة. من هناك كان باستطاعتي أن أرى حصنَ الزلاجات وستارة البخار والزبد التي كانت ترفعها الريح. من نافذة في البار كانت فتاة المدخنة تنظرُ أيضاً إلى الشاطئ. شغّلت السيارة وابتعدتُ. طفتُ في البلدة مدّةَ نصف ساعة. كان السير في القسم القديم مستحيلاً. كان الماء يخرج فوّاراً من بالوعات الصرف وبخار فاتر ونتن

يتسرب إلى السيارة مع دخان العادم وأبواق السيارات وصراخ الأطفال. نجحت أخيراً في الخروج. كنتُ جائعاً جوعاً ضارياً، لكن وبدل أن أبحث عن مكان آكل فيه ابتعدتُ عن البلدة.

قدتُ السيارةَ على غير هدى، دون أن أدري إلى أين كنتُ أتّجه. وكنتُ أتقدّم من حين إلى آخر على سيارات سياح مقطورة. كان الطقس ينبئ بنهاية الصيف. كانت الأراضي على هذا الجانب وذاك من الطريق مغطاة بالبلاستيك والأخاديد الداكنة؛ في الأفق كانت تنقطع بعض التلال الجرداء والفطساء إلى حيث كانت تجري السحبُ. رأيتُ داخلَ بستان تحت أغصان شجرة مجموعة من الزنوج يحتمون من المطر.

فجأة ظهر معمل سيراميك، إذن كان ذاك هو الطريق الذي يقود إلى المرقص الذي لا اسم له والذي كنّا فيه. أوقفت السيارةَ في الفناء ونزلتُ. من بيت صغير نظر إليّ عجوزٌ دون أن يقولَ لي شيئاً. كلُّ شيء كان مختلفاً: لم تكن هناك عاكسات ضوئية ولا كلاب، ولا بريق وهمياً يصدر عن تماثيل الجصّ التي كان يرتطم بها المطر.

أخذت أصيصين واقتربت من وجار العجوز.

ـ ثمانمئة بيزيتا ـ قال دون أن يخرج.

بحثت عن النقود وأعطيتها له.

ـ طقس سيّئ ـ قلتُ بينما كنتُ أنتظر أن يعيد إليّ الباقي والمطر يسقط على وجهي.

ـ نعم ـ قال العجوز.

وضعت الأصيصين في صندوق الأمتعة وغادرتُ.

أكلتُ في صومعة في قمة الجبل الذي يهيمن على كلّ منطقة المنتجعات. منذ قرون كان هناك حصن حجري كحماية ضدّ القراصنة. ربّما لم تكن البلدة موجودة عندما أشادوا الحصنَ. لا أعرف. على كلّ

الأحوال من الحصن لم يبق غير بضع أحجار مغطاة بالأسماء، والقلوب والرسوم البذيئة. إلى جانب هذه الأطلال تنهض الصومعة، الأحدث عمارة. المنظر رائع: الميناء، نادي اليخوت، البلدة القديمة، المركز السكني، المخيمات، فنادق خط البحر الأوّل، وعندما يكون الطقس جيّداً يمكن أن ترى بعض البلدات الساحلية وشبكة من الطرق الثانوية وعدداً لا حصر له من قرى وضِيع الداخل، صاعدة إلى هيكل الحصن. في ملحق بالصومعة يوجد نوع من المطعم. أجهل ما إذا كان من يديرونه ينتمون إلى جمعية دينية أم أنّهم ببساطة حصلوا على الترخيص بالطريقة العادية. طباخون جيّدون، وهذا هو المهم. أهل البلدة وخاصّة المثنيات يصعدون عادة إلى الصومعة، وإن لم يكن كي يتأملوا المنظر بالتحديد. عندما وصلت وجدت عدّة سيارات متوقّفة تحت الأشجار. بعض السائقين باقون داخل سياراتهم. وآخرون جالسون إلى طاولات المطعم. كان الصمت شبه مُطلق. قمت بجولة في نوع من المطلّ له درابزين معدني؛ في كلا الجانبين كانت هناك مناظير، من النوع الذي يعمل بالنقود. اقتربتُ من واحدٍ منها وأدخلت خمسين بيزيتا. لم أرَ شيئاً. كانت العتمة مطلقة. ضربته ضربتين وابتعدتُ. في المطعم طلبتُ طبق أرانب وزجاجة نبيذ.

ماذا رأيتُ أكثر؟

١ ـ شجرة عالقة فوق الجرف. جذورها كانت تتشبّث كالمجنونة بين الحجارة والهواء. (لكن هذه الأشياء لا ترى فقط في إسبانيا؛ كذلك في ألمانيا رأيتُ أشجاراً بهذا الشكل).

٢ ـ مراهق يتقيّأ على طرف الطريق. والداه داخل سيارةٍ لوحتها بريطانية، ينتظران والمذياع بأعلى صوته.

٣ ـ فتاة سوداء العينين في مطبخ مطعم الصومعة. بالكاد رأينا بعضنا بعضاً لثانية، لكنّ شيئاً فيّ جعلها تبتسم.

٤ ـ تمثال رجل نصفي برونزي أصلع في ساحة صغيرة معزولة. على القاعدة قصيدة مكتوبة باللغة الكتلانية والتي فقط استطعتُ أن أعرف منها كلمات «أرض»، «رجل»، «موت».

٥ ـ مجموعة من الشباب يصطادون البحريات بين الصخور شمال البلدة. وكانوا يصيحون بين وقت وآخر، دون سبب ظاهر صيحاتِ استحسانٍ ويعيش. كانت صيحاتهم تصعد الصخور بدويّ طبول.

٦ ـ سحابة حمراء داكنة اللون، دم وسخ، بدأت تظهر من الشرق، وبدت بين الغيوم الداكنة التي تغطي السماء كوعد بنهاية المطر.

عدتُ بعد الغداء إلى الفندق. استحممتُ. بدّلتُ ثيابي وعدتُ وخرجتُ. في الاستقبال كانت توجد رسالة لي. كانت من كونراد. تردّدتُ برهة في أن أقرأها فوراً أو أن أؤجّل متعة قراءتها إلى ما بعد. قرّرتُ أنّني سأفعل ذلك بعد رؤيتي المحروق. خبّأت الرسالة في جيبٍ وتوجّهت نحو الزلاجات.

كان الرملُ مُبلّلاً على الرغم من أنّها ما عادت تمطر. كان من الممكن أن تُقَدّر أطياف في بعض نقاط الشاطئ تسير مُجانِبَةً الأمواجَ، منحنيةَ الرؤوس كما لو أنّها تبحث عن زجاجات فيها رسائل أو مجوهرات أعادها البحر. أوشكت مرّتين أن أعود إلى الفندق. ومع ذلك فالإحساس بأنّني كنتُ أتحوّل إلى مهزأة كان أقلّ من إلى فضولّي.

سمعتُ قبل أن أصل بكثير الضوضاء التي يحدثها ارتطام الخيش بالطافيات. لا بدّ أن أحد الحبال قد أُفلت. طفت حول الزلاجات بخطوات حذرة. بالفعل كان هناك حبل مفلوت يجعل الريحَ تُحرّك الخيش بعنف هو في كلّ مرّة أكبر. أتذكّر أنّ الحبل كان يتحرّك مثل أفعى، أفعى نهر. كان الشراع مبلّلاً وثقيلاً بفعل المطر. أخذت الحبل دون أن أفكّر وربطته كيفما استطعتُ.

ـ ماذا تفعل؟ ـ سألني المحروق من داخل الزلاجات.

قفزتُ قفزةً إلى الوراء. وأُفلتت العقدة على الفور، طقطق الشراع مثل نبتة مقتلعة من جذورها، كشيءٍ حيّ ورطب.

ـ لا شيء ـ قلتُ.

وعلى الفور فكّرت في أنّه كان عليّ أن أضيف: «أين أنت؟». يستطيع المحروق الآن أن يستنتج أنّني كنتُ أعرف سرّه ولذلك لن يفاجئني سماع صوته الذي كان يأتي من الداخل. تأخّر الوقت أكثر من اللازم.

ـ كيف لا شيء؟

ـ لا شيء ـ صحتُ ـ كنتُ أتمشّى ورأيت أنّ الريح توشك أن تقتلع الشراع. ألم تنتبه؟

صمت.

تقدّمتُ خطوةً وبحركات واثقة عدتُ وربطت الحبل اللعين.

ـ انتهى ـ قلتُ ـ الآن فعلاً صارت الزلاجات محمية. لا ينقص غير أن تطلع الشمس!

ـ زمجرة غير مفهومة وصلت من الداخل.

ـ هل أستطيع أن أدخل؟

لم يُجِب المحروق. خفتُ للحظةٍ أن يخرجَ وينتهرني وسط الشاطئ بقوله ما الذي تريده. ما كنتُ لأعرف بماذا سأجيبه. (تقتل الوقت؟ تُذهب الشكّ باليقين؟ دراسة صغيرة للعادات؟).

ـ هل تسمعني؟ ـ صرختُ ـ هل أستطيع أن أدخل، قل، نعم أم لا؟

ـ نعم ـ بالكاد كان صوت المحروق مسموعاً.

بحثتُ بعناية عن المدخل. طبعاً لم يكن هناك أيّ ثقب محفور في الرمل، الزلاجات المتراكبة بشكل لا يُصدّق، لا يبدو أنّها تركت فجوة

يمكن أن يمر منها المرء، نظرت إلى الجزء العلوي: بين الشراع والعوّامة كان هناك فضاء يستطيع أن ينسلَّ جسم عبره. صعدت بحذر.

ـ مِنْ هنا؟ ـ سألتُ.

زمجر المحروق بشيء اعتبرته إشارة تأكيدية. في الأعلى كان الثقب أكبر. أغمضتُ عينيّ وتركتُ نفسي أسقط.

صدمتني في أنفي رائحة خشب متعفّن وملح. أخيراً أصبحتُ داخل الحصن.

بقي المحروق جالساً على شراع شبيه بذلك الذي يغطي الزلاجات. بجانبه كان يوجد كيس بحجم حقيبة. على ورقة صحيفة كانت هناك قطعة خبز وعلبة تونا. كان النور بعكس توقعاتي مقبولاً، خاصّة إذا ما أخذنا بالاعتبار أنّ الطقس كان غائماً في الخارج، إلى جانب النور كان يدخل الهواءُ من الفجوات التي لا تُحصى. كان الرمل جافّاً أو هذا ما بدا لي، على كلّ الأحوال كان الجوّ هناك في الداخل بارداً. قلت له ذلك: الجوّ بارد. أخرج المحروق من الكيس قنينة وناولني إيّاها. أخذتُ جرعة طويلة. كان نبيذاً.

ـ شكراً ـ قلتُ.

أخذ المحروقُ القنينةَ وشرب بدوره؛ قطع بعدها قطعة خبز، فتحها نصفين ووضع بين النصفين قطع تونا وشرّبها بالزيت وراح يأكلها. كانت الفجوة داخل الزلاجات بعرض مترين وارتفاع أكثر من متر بقليل. سرعان ما اكتشفت أشياء أخرى: منشفة لونها محيّر، الخفّ (كان المحروق حافياً)، علبة تونا أخرى، فارغة، كيس بلاستيكي عليه علامات سوبر ماركت. بعامة كان الترتيب يسود الحصنَ.

ـ ألا تستغرب أنّني أعرف أين كنت؟

ـ لا ـ قال المحروق.

ـ أساعد أحياناً إنجيبورغ مستنتجاً أشياء... حين تقرأُ رواياتِ ألغازٍ... أستطيع أن أكتشف القتلة قبل فلوريان ليندين... ـ انحسر صوتي حتى قارب الهمس.

وضع بعد أن بلع الخبز بحركات معتدلة كلا العلبتين في الكيس البلاستيكي. كانت يداه الضخمتان تتحرّكان بسرعة وصمت. يدا مُجرم، فكّرتُ. خلال ثانية لم يبق أثر للطعام وحدها قنينة النبيذ بيني وبينه.

ـ المطر... هل أزعجك؟... لكن أرى أن الوضع هنا جيّد. أن تُمطر من حين آخر لا بدّ أنّه جيّد بالنسبة إليك. اليوم كنتَ سائحاً، مثل الجميع.

نظر المحروق إليّ بصمت. اعتقدت أنّني رأيت في عجينة قسماته تعبيرَ استهزاء. هل تأخذ أنت أيضاً إجازات؟ قال. اليوم أنا وحدي، وضّحتُ، ذهبت إنجيبورغ وحنّة وتشارلي إلى برشلونة. ما الذي أراد أن يُلمّح إليه بقوله إنّني أنا آخذ أيضاً إجازات؟ هل إلى أنّني لن أكتب مقالتي؟ هل إلى أنّني لست حبيسَ الفندق؟

ـ كيف خطر لك أن تعيش هنا؟

هزّ المحروق كتفيه وتنهّد.

ـ بلى، أُدرك، لا بدّ أنّ النومَ تحت النجوم، في الهواء الطلق، جميلٌ جدّاً، على الرغم من أنّك من هنا لا يبدو أنّك ترى نجوماً كثيرة ـ ابتسمتُ وربتّ بيدي على جبيني، الحركة غير المعهودة عندي ـ. على كلّ الأحوال أنت تقيم أقرب إلى البحر من أيّ سائح. بعضهم يدفع مقابل أن يكون مكانك!

بحث المحروق عن شيء في الرمل، انطمرت أصابع قدميه وخرجت ببطء، كانت كبيرة، مفرطة بكبرها وكانت بشكل مدهِش، وإن لم يكن عليها في الواقع أن تكون مختلفة، خالية من أيّ حرق، سليمةً، غير

ممسوسة بل وخالية من الكنب الذي لا بدَّ أنّ يأخذ الاحتكاك اليومي بالبحر على عاتقه إزالته.

ـ بودّي أن أعرف لماذا قرّرت أن تقيم هنا، كيف خطر لك أنّك بجمع الزلاجات تستطيع أن تبني هذا المأوى. إنّها فكرة جيّدة، لكن لماذا؟ كان هذا كيلا تدفع إيجاراً؟ هل لأنّ الإيجارات غالية جداً. اعذرني إذا لم يكن هذا من اختصاصي. إنّه فضول منّي. هل تعلم؟ هل تريد أن نذهب لنتناول فنجان قهوة؟

أخذ المحروق القنينة ثمّ ناولني إيّاها بعد أن قرّبها من شفتيه.

ـ إنّه رخيص. مجاني ـ تمتم حين عدت لأضع القنينة بيننا.

ـ هل هو قانونيّ أيضاً؟ هل من أحدٍ غيري يعرف أنّك تنام هنا؟ مالك الزلاجات مثلاً، هل يعرف أين تقضي لياليك؟

ـ أنا صاحب هذه الزلاجات ـ قال المحروق.

ـ خطّ من نور كان يسقط على جبينه تماماً. بدا أنّ اللحم الشائط وقد لامسه النور يصفو، يتحرّك.

ـ ليست لها قيمة كبيرة ـ أضاف ـ جميع زلاجات البلدة أجدُّ من زلاجاتي. لكنّها ما تزال تطفو وتعجب الناس.

ـ أجدها رائعة ـ قلتُ بهبّة حماس ـ أنا لن أصعد أبداً على زلاجة لها شكل بجعة أو قارب فيكينغ. مرعبة. بالمقابل زلاجاتك تبدو لي، لا أعرف، أكثر كلاسيكية، أكثر ثقة.

شعرتُ بأنني تافه.

ـ لا تصدّق. الزلاجات الأحدث أسرع.

وضّح بشكل متقطع أنّ سير الزوارق وسفن الرحلات والزلاجات الشراعية على مقربة من الشاطئ مزدحم في بعض المناسبات مثله مثل الطرق البرّية السريعة. السرعة التي يمكن أن تستخدمها الزلاجات لتفادي

المراكب تصير وقتها شيئاً مهمّاً. حتى الآن لم يكن هناك حادث يُؤسف عليه باستثناء صدمات برؤوس سبّاحين، لكن حتى في هذا لم تكن الزلاجات الجديدة تتفوّق عليها: فصدمة بعوامة زلاجة من زلاجاته القديمة يمكن أن تشقّ رأس أيّ شخص.

ـ إنّها ثقيلة ـ قال.

ـ بلى، بلى، مثل الدبابات.

ابتسم المحروقُ لأوّل مرّة في ذلك المساء.

ـ دائماً تُفكِّر في هذا ـ قال.

ـ بلى، دائماً، دائماً.

رسم دون أن يتوقّف عن الابتسام رسماً على الرمل ومحاه على الفور. ما عدا ذلك كانت حركاته القليلة غامضة.

ـ كيف تسير لعبتُك؟

ـ تمام. الريح في الكوثل. سأحطّم كلَّ الخطط.

ـ كلّ الخطط؟

ـ بلى، كلّ الطرق القديمة في اللعب. مع نظاميَ يجب إعادة النظر باللعبة.

عند خروجي كانت السماء بلون الرماد المعدني وتُعلن عن وابل جديد. قلتُ للمحروق إنّني رأيتُ قبل ساعات سحابة حمراء في الشرق، فكّرتُ في أنّها دليل على الطقس الجيد. في البار كان الخروف يقرأ الصحيفة على الطاولة ذاتها التي تركته عليها. حين رآنا أومأ إلينا كي نجلس إلى جانبه. يجري الحديث في مجالات كانت ستسحر تشارلي، لكّنها بالنسبة إليّ لا تنجح إلا في جعلي أضجر. بايرين، ميونيخ، شوستير، هامبورغ، رومينيج هي الموضوعات والذرائع. من المفروغ منه أنّ الخروفَ يعرف عن هذه الأندية والشخصيات أكثر منّي. لدهشتي

شارك المحروق في الحديث (الذي يُقام على شرفي، إذ لا يتكلم عن رياضيين إسبانيين بل عن ألمان، وهو ما أعرف أن أقدّره التقدير العادل ويُحدث عندي في الوقت ذاته عدم ثقة) ويبرهن على أنّه يملك معرفة مقبولة بكرة القدم الألمانية. مثلاً يسألُ الخروفُ: من هو لاعبك المُفضّل؟ وبعد جوابي: (شومانير، مثلاً، كي أقول شيئاً) وجواب الخروف (كلاوس ألوفز) يقول المحروق: «أوي سيلير»، الذي لا أنا ولا الخروف كنّا نعرفه. فهذا وتيلكوفسكي هما أكثر من يشغل مكانة في ذاكرة المحروق. لم نعرف أنا والمحروق عمّا كان يتكلّم. في الإجابة عن أسئلتنا يجيب بأنّه رأى في طفولته الاثنين في ملعب كرة قدم. أعتقد أنّه عندما سيتذكّر المحروق طفولته سيخرس هذا فجأة. تمرّ الساعات وعلى الرغم من أنّ النهار غائم إلاّ أنّ الليلَ يتأخّر في الوصول. في الثامنة أودّعهما وأعود إلى الفندق. جالساً على كرسيّ كبير في الطابق الأرضي بجانب نافذة طولية أستطيع أن أرى من خلالها الكورنيش وجزءاً من المرآب، أستعدّ لقراءة رسالة كونراد. تقول ما يلي:

عزيزي أودو

استلمت بطاقتك البريدية. آمل أن تترك لك السباحة وإنجيبورغ وقتاً كي تنهي المقال في التاريخ المرتقب. البارحة أنهينا رايشاً ثالثاً في بيت فولفغانغ. فالتر وفولفغانغ (محور) ضدّ فرانز (حلفاء) وأنا (روسيا) لعبنا ثلاث فرق وكانت النتيجة النهائية: ف وف، ٤ أهداف؛ فرانز، ١٨؛ وأنا، ١٩، بينها برلين وستوكهولم (يمكنك أن تتصوّر الآن الحالة التي ترك فيها ف وف كرايجسمارين). مفاجآت في القطاع الدبلوماسي: في خريف ١٩٤١ تنتقل إسبانيا إلى المحور. استحالة تحويل تركيا إلى حليف أصغر بفضل النقاط الدبلوماسية التي أسرفنا في تبذيرها أنا وفرانز. الإسكندرية والسويس لا تُمسان. مالطا مسحوقة لكنّها واقفة. أراد ف وف

أن يتأكّدا من بعض جوانب استراتيجيّتك المتوسّطية. واستراتيجية ريكس دوغلاس المتوسّطية. أكبر من اللازم بالنسبة إليهما. انهارا. مناورة دافيد هبالانيان الإسبانية يمكن أن تنجح مرّة كلّ عشرين مرّة. خسر فرانز فرنسا في صيف ١٩٤٠ وتحمّل غزواً لإنكلترا عام ١٩٤١. كلّ ألوية جيشه كانت تقريباً في المتوسّط ولم يستطع ف وف أن يُقاوِما الإغواء. طبّقنا نسخة بيما. في عام ١٩٤١ أنقذني الثلج وإصرار ف وف على فتح جبهات بنفقات نقطة الموارد الاستراتيجية الهائلة، دائماً كانوا يصلون مفلسين إلى النوبة السنوية الأخيرة. عن استراتيجيتك: يقول فرانز إنّها لا تتميّز كثيراً عن استراتيجية أنتشورز. قلتُ له أنت كنتَ تتكاتب مع أنتشورز وإنّ استراتيجيته ليس فيها أيّ شيء مشترك مع استراتيجيتك. ف وف مستعدان لأن يركبا لعبة رايش ثالث عملاقة ما إن تعود. في البداية اقترحا سلسلةَ أوروبا لِ ج دي دبليو لكنّني ثنيتهما. لا أعتقد أنّك موافق على أن تلعب أكثر من شهر متواصل. اتفقنا على أنّ ف وف وفرانز وأوتو فولف سوف يلعبون مع الحلفاء والروس على التوالي وأنّنا أنا وأنت سوف نمسك بزمام ألمانيا، ما رأيك؟ تكلّمنا أيضاً عن لقاء باريس من ٢٣ وحتى ٢٨ كانون الأوّل. أُكّد أنّ ريكس دوغلاس سوف يحضر شخصياً. أعرف أنّه يُحبّ أن يتعرّف إليك. في واترلو ظهرت صورة لك: هي تلك التي تلعب فيها ضدّ راندي ويلسون، وخبر عن مجموعتنا في ستوتغارت. تلقيت رسالة من مارتي، هل تتذكّره؟ يريدون مقالاً منك (سيظهر أيضاً مقال ماتياس مولير، شيء لا يُصدّق!) لعددٍ استثنائي باللاعبين المتخصّصين بالحرب العالمية الثانية. غالبية المشاركين فرنسيون وسويسريون. ومزيد من الأخبار أُفضّل أن أعطيها لك عندما تعود من الإجازة. من تظنّ أنّها كانت سداسيات الأضلاع، الأهداف التي أوقفها ف وف؟ لايبزيغ، أوسلو، جنيف وميلان. أراد فرانز أن يضربني. عملياً لاحقني حول الطاولة. تركنا لعبة العلبة البيضاء منشورة. سوف نبدأ غداً

ليلاً. أطفال النار والفولاذ اكتشفوا الأحذية والسروج والقوات الألمانية الموحّدة وقيادتها المدنية (بونديسويهر) من سلسلة هجوم. يُفكّرون الآن في بيع ألعاب قائد الفرقة القديمة وصاروا يتكلمون الآن عن أنّهم سيصدرون نشرة تسمى هجومات أو معارك إشعاعية أو شيئاً من هذا القبيل. إنّهم يُضحكونني. تشمّس كثيراً. تحياتي إلى إنجيبورغ. عناق من صديقك.

كونراد

يصطبغ المساء في فندق البحر بعد المطر بزرقة داكنة تتخلّلها عروق ذهبيّة. أبقى برهة طويلة في المطعم دون أن أفعل شيئاً آخر غير النظر إلى الناس الذين يعودون إلى الفندق بوجوه متعبة وجائعة. لم أرَ فراو إلسي في أيّ مكان. أكتشف أنّني بارد، أنا في طوق القميص ثمّ إنّ رسالة كونراد تركت عندي مسحة حزن. فولفغانغ أبله: أتصوّر بطأهُ، تردّدَهُ وهو يُحرّك كلّ محاسب، انعدام الخيال عنده. إذا لم تستطع أن تتحكّم بتركيا عن طريق الدبلوماسية، اغزها، أيّها الأحمق. نيكي بالمِر قالها ألف مرّة. أنا قلتها ألف مرّة. فجأة ودونما سبب ظاهر فكّرتُ في أنّني وحدي. وأنّ كونراد وريكس دوغلاس (اللذين أعرفهما عبر الرسائل) وحدهما صديقاي. الباقي فارغ ومعتم. مكالمات لا أحد يردّ عليها. نباتات. «وحيد في بلد ممحوق، تذكّرتُ. في أوروبا فاقد الذاكرة، بلا ملحمة ولا بطولة. (لا أستغرب أن يُكرّس المراهقون أنفسهم لدونجيونز أند دراغونز وألعاب أدوار أخرى).

كيف اشترى المحروق زلاجاته؟ بلى، قاله لي. من توفيره في موسم قطاف العنب. لكن كيف استطاع أن يشتري كلّ المجموعة، ستّ أو سبع زلاجات بنقود موسم قطاف عنب واحد. كانت هذه الدفعة الأولى،

والباقي يدفع أقساطاً صغيرة. مالكها السابق كان عجوزاً ومتعباً. لا يكسب ما يكفي في الصيف، وخاصّة إذا كان على المرء أن يدفع راتباً. عندها قرّر أن يبيعها واشتراها المحروق. هل عملت قبلها في تأجير الزلاجات؟ إطلاقاً. ليس صعباً التعلّم، سخر الخروف. هل أستطيع أن أقوم به أنا؟ (سؤال أبله). طبعاً، قال الخروف والمحروق بصوتٍ واحد. أيّ واحد يستطيع. في الحقيقة كان عملاً لا يحتاج إلا إلى صبر وعينٍ سليمة كيلا تغيب الزلاجات الفرورةُ عن النظر. لم يكن هناك حاجة ولا حتى لأن يعرف المرء السباحة.

وصل المحروق إلى الفندق. صعدنا دون أن يرانا أحد. أريته اللعبة. الأسئلة التي وجّهها كانت ذكية. سرعان ما امتلأ الشارع بضجيج صفارات الإنذار. خرج المحروق إلى الشرفة وقال إن الحادث وقع في منطقة المخيمات. ما أسخفَ أن يموتَ المرءُ في إجازة، قلتُ. هزّ المحروقُ بكتفيه. كان يرتدي قميصاً شيالاً أبيضَ ونظيفاً. كان باستطاعته أن يُراقب كتلة زلاجاته الهلامية من حيث كان. اقتربتُ وسألته إلى ماذا كان ينظر. إلى الشاطئ، قال. أعتقد أنّه يستطيع أن يتعلّم اللعب بسرعة.

تمرّ الساعات وما من أثر لإنجيبورغ. انتظرتُ حتى التاسعة في الغرفة وأنا أُسجّل تحرّكاتٍ.

العشاء في مطعم الفندق: كريم الهليوم، برك، قهوة وبوظة. لم أرَ فراو إلسي بعد العشاء أيضاً (اختفت اليوم بتصميم). شاركني في الطاولة زوجان هولنديان يقاربان الخمسين من العمر. كان موضوع الحديث، سواء على طاولتي أو كما في بقية المطعم، هو الطقس السيّئ. بين الندماء كانت هناك آراء متباينة، كان النُدُلُ ـ المُتوّجون بمعرفة مزعومةٍ بالطقس، وهم أولاً وأخيراً أبناء البلد ـ يأخذون على عاتقهم البتّ فيها. أخيراً فازت الفئة التي كانت تتنبأ بالطقس الحسن لليوم التالي.

في الحادية عشرة قمت بجولة على مختلف قاعات الطابق الأرضي. لم أجد فراو إلسي وغادرت سيراً على قدّمي إلى ركن الأندلسيين. لم يكن الخروف هناك، لكنّه ظهر بعد نصف ساعة. سألته عن الذئب. لم يرَهُ طوال اليوم.

ـ أفترض أنّه ليس في برشلونة ـ قلتُ.

نظر إليّ الخروف مذعوراً. طبعاً لا، اليوم يعمل حتى ساعة متأخّرة، ما هذه الأشياء التي تخطر لي. كيف كان سيذهب الذئب المسكين إلى برشلونة؟ شربنا قدح كونياك وشاهدنا لبرهة برنامج مسابقات كانوا يعرضونه في التلفزيون. كان الخروف يتكلّم متلعثماً، وهذا ما جعلني أستنتج أنّه كان متوتّراً. لا أتذكّر لماذا خرج ذلك الموضوع، لكنّه في لحظة ما اعترفَ، دون أن أسأله، بأنَّ المحروق لم يكن إسبانيّاً. ربّما كنّا نتكلّم عن القسوة والحياة والحوادث. (في المسابقة كانت تحدث مئات الحوادث الصغيرة، البسيطة وغير الدموية ظاهرياً). قد أكون أكّدت شيئاً حول المزاج الإسباني. وقد أكون تكلمت بعدها مباشرة عن النار والحروق. لا أدري. الصحيح هو أنّ الخروفَ قال إنّ المحروق لم يكن إسبانياً. من أين كان إذن؟ أمريكي جنوبي، من أيّ بلدٍ بالتحديد، لم يكن يعرف.

كان وقع اعتراف الخروف عليّ كصفعة. إذن المحروق لم يكن إسبانياً. ولم يكن قد قاله لي. هذا الحدث الذي لم يكن بحدّ ذاته ذا أهمّية بدا لي مُقلقاً ومهمّاً جدّاً. ما الأسباب التي تجعل المحروق يخفي عنّي جنسيته الحقيقيّة؟ لم أشعر بأنّني مخدوع. شعرتُ بأنني مُراقَب (ليس من قبل المحروق، في الحقيقة ليس من قبل أحدٍ بحد ذاته، مراقب من فجوة ونقصٍ) بعد برهة دفعتُ ثمنَ القدحين وغادرت. كنتُ آملُ أن أجد إنجيبورغ في الفندق.

لا أحد في الغرفة. عدتُ ونزلتُ: أشباح، في الشرفة أميّز بعض الأطياف التي لا تكاد تتكلّم: عجوز، آخرُ زبونٍ يشربُ بصمت متكئاً بمرافقه على طاولة العرض. في الاستقبال حارس الليل المناوب يُعلمني بأنّه ما من أحد هتف لي.

ـ هل تعرف أين أستطيع أن أجد فراو إلسي.

لا يعرف. في البداية لم يفهم ولا حتى عمّن أتكلّم. فراو إلسي، أصرخُ، مالكة الفندق. يفتح المستخدَم عينيه كثيراً ويعود لينفي برأسه. لم يرها.

شكرته وذهبت لأشرب كونياك على طاولة العرض. في الواحدة صباحاً قرّرتُ أنّ من الأفضل لي أن أصعد وأنام. لم يبقَ أحد في الشرفة على الرغم من أنّ بعض الزبائن الذين وصلوا توّاً وقفوا أمام طاولة العرض وراحوا يتمازحون مع النُدُل.

لا أستطيعُ أن أنام؛ لستُ نعساً.

في الرابعة صباحاً تظهر أخيراً إنجيبورغ. مكالمة هاتفية من الحارس تعلمني أنّ هناك آنسة تريدُ أن تراني. أهبط جرياً. في الاستقبال أجد إنجيبورغ وحنّة والحارس متورّطين في شيء، بدا من على الدرج اجتماعاً غير شرعي. عندما أصل إلى جانبهم أول شيء أراه هو وجه حنّة: كدمة بنفسجية مائلة إلى الوردية تغطي خدّها الأيسر وجزءاً من عينها، وكذلك يُمكن أن تُقدّر في الخدّ الأيمن والشفة العليا كدمة، لكنّها أخفّ. من ناحية أخرى لا تتوقّف عن البكاء. عندما أسأل عن سبب مثل تلك الحالة، تُجبرني إنجيبورغ على السكوت بطريقة فجّة. أعصابها في زهرة أنفها؛ تكرّر باستمرار أنّ ذلك فقط يمكن أن يحدث في إسبانيا. يقترح الحارس المتعب أن تُستدعى سيارة إسعاف. أتشاور أنا وإنجيبورغ، لكن حنّة هي التي ترفض رفضاً باتّاً. (تقول أشياء مثل: «هو

جسدي»، «هي جراحي»، إلخ). يستمرّ الجدل وبكاء حنّة يزداد قوّة. حتى تلك اللحظة لم يُفكّر أحد في تشارلي، أين هو؟ عند ذكره تطلق إنجيبورغ، غير القادرة على كبح نفسها، سيلاً من الكلمات البذيئة. انتابني إحساس للحظة بأنّ تشارلي قد *ضاع إلى الأبد*. أشعر بشكل غير متوقّع بأنّ تياراً من التعاطف يربطني به. شيء لا أعرف تسميته ويربط بيننا بطريقة مؤلمة. بينما يخرج الحارس بحثاً عن حقيبة إسعافات أوّلية ـ وهو الحل الوسط الذي توصّلنا إليه مع حنّة ـ، تضعني إنجيبورغ في صورة الأحداث الأخيرة التي كنتُ من جهة أخرى قد تكهنتُ بها.

لم يكن من الممكن للرحلة أن تكون أسوأ. بعد يوم عادي وهادئ ظاهريّاً، بل وهادئ أكثر من اللازم، مشغول بالتجوال في الحيّ القوطيّ ولاس رمبلاس، يلتقطون صوراً ويشترون تذكارات، السكينة الأوّلية انهارت حتى أصبحت مزقاً. كلّ شيء بدأ، بحسب إنجيبورغ، بعد تناول العقبة: تشارلي ودون أن يتوسّط ذلك تحريض مرّ بتغيّر ظاهر، كما لو أنّ شيئاً في الطعام سمّمه. في البداية تُرْجِمَ كلُّ شيء في موقف عدائي ضدّ حنّة، ومزاحات مبتذلة. حدث تبادل للشتائم ولم تتجاوز المسألة هذا. الانفجار، الإنذار الأوّل، حدث لاحقاً، بعد أن أقدمت إنجيبورغ وحنّة، وإن فعلتا ذلك على مضض، على الدخول إلى بار قريب من الميناء، كانوا سيشربون آخر كأس بيرة قبل أن يعودوا. ربّما ما كان الحادث ليذهب أبعد من ذلك لولا أنّ حنّة أنّبته في سياق الحديث على مسألة تمّت في أوبرهاوزن ولم تكن إنجيبورغ تعرف عنها شيئاً. كانت كلمات حنّة غامضة ومبهمة. في البداية استمع تشارلي إلى الاتهامات بصمت. «كان وجهه أبيض مثل الورق وبدا خائفاً»، قالت إنجيبورغ. نهض بعدها وأخذ حنّة من ذراعها واختفى في المغاسل. قرّرت إنجيبورغ بعد دقائق من التوتّر أن تناديهما، غير واثقة تماماً مما كان يحدث. كانا قد أغلقا على نفسيهما مغاسل النساء ولم يقاوما عندما سمعا صوت

إنجيبورغ. عندما خرجا كانا يبكيان. لم تقل حنّة كلمة واحدة. دفع تشارلي الحساب وغادروا برشلونة. بعد نصف ساعة توقّفوا في واحدة من البلدات الكثيرة التي تنتصب على طريق الساحل. البار الذي دخلوا إليه كان يُسمى البحر المالح. هذه المرّة لم يحاول تشارلي ولا حتى أن يقنعهما؛ ببساطة تجاهلهما وراح يشرب. بعد كأس البيرة الخامس أو السادس انفجر بالبكاء. إنجيبورغ التي كانت تفكّر في أن تتعشّى معي طلبت لائحة الطعام وأقنعت تشارلي بأن يأكل شيئاً. للحظة بدا أنّ كلّ شيء يعود إلى طبيعته. تعشى الثلاثةُ وأقاموا، وإن كان بصعوبة، حديثاً حضارياً مصطنعاً. حين حانت ساعة المغادرة عاد الجدلُ ليثِب. كان تشارلي عازماً على الاستمرار هناك وإنجيبورغ وحنّة على أن يُعطيهما مفتاحَ السيارة كي تعودا. بحسب إنجيبورغ شكّلت الكلماتُ التي قيلت زقاقاً مسدوداً كان فيه تشارلي مرتاحاً تماماً. أخيراً نهض هذا وقام بحركة كما لو أنّه مستعد لإعطائهما المفتاح أو أن يقلّهما. تبعته إنجيبورغ وحنّة. عندما وصلوا إلى الباب استدار تشارلي بفظاظة وضرب حنّة على وجهها. ردّت حنّة بأنْ خرجت تركض نحو الشاطئ. خرج تشارلي مثل الرمح وراءها وبعد ثوانٍ قليلة سمعت إنجيبورغ صرخات حنّة، منطفئة ومنتحبة مثل صرخات طفلة. حين وصلت إلى جانبهما كان تشارلي قد توقّف عن ضربها وإن كان بين الحين والآخر يرفسها أو يبصق عليها. إنجيبورغ فكّرت في اندفاعةٍ أولى أن تتدخّل بين الاثنين، لكنّها عندما رأت صديقتها على الأرض ووجهها مليء بالدم فقدت الهدوء القليل المتبقي لديها وراحت تصرخ طالبةً النجدة. طبعاً ما من أحدٍ لبى. انتهت الفضيحة بذهاب تشارلي في السيارة؛ وحنّة تنزف وليس لديها قوّة إلا كي ترفض أيّ تدخّل من الشرطة أو الطبيب؛ وإنجيبورغ مهجورة في مكان تجهله وعلى عاتقها أن تُخرج صديقتها من هناك. من حسن الحظ أنّ صاحب البار الذي كانوا فيه اعتنى بحنّة وساعدها على تنظيف نفسها دون أن

يوجّه أسئلة ثمّ استدعى سيارة أجرى عادت بهما. المشكلة الآن ماذا يجب أن تفعل حنّة. أين ستنام؟ في فندقها أم في فندقنا. إذا نامت في فندقها ما احتمال أن يضربها تشارلي من جديد؟ هل عليها أن تذهب إلى مشفى. هل من الممكن أن الضربة على عظم الخدّ أخطر مما كنّا نُفكّر. حسم الحارس المسألة: بحسب قوله لم يكن هناك أي أذى في العظم، والمسألة تتعلّق بضربة قويّة لا أكثر. بالنسبة إلى النوم في الفندق، غداً بكلّ تأكيد سيكون هناك شواغر، لكن في هذه الليلة للأسف لم يبقَ شاغر واحد. أظهرت حنّة علامات الراحة حين رأت أنّه لم يكن أمامها خيارات. «الذنب ذنبي»، تمتمت. «تشارلي عصبيّ جدّاً وأنا استفززته، ماذا سنفعل، هو ابن العاهرة هكذا ولا أستطيع أن أغيّره». أعتقد أنّنا، أنا وإنجيبورغ، شعرنا بأننا صرنا أحسن حالاً عند سماعنا لها؛ كان يفضل أن تكون الأمور هكذا. شكرنا الحارس على اهتماماته وذهبنا لنودعها في فندقها. كان الليل رائعاً. المطر لم يغسل الأبنية وحسب بل والجوَّ أيضاً. كانت تجري نسمة رطبة وكان الصمت مطلقاً. رافقناها حتى باب فندق كوستا برافا وانتظرنا وسط الشارع. بعد برهة قصيرة خرجت حنّة إلى الشرفة وأبلغتنا بأنّ تشارلي لم يعد بعد. «نامي ولا تُفكّري في شيء، صاحت لها إنجيبورغ قبل أن نعود إلى فندق البحر. في غرفتنا تكلّمنا عن تشارلي وحنّة (يمكنني أن أقول إنّنا انتقدناهما) ومارسنا الحبَّ. أخذت بعدها إنجيبورغ روايتَها رواية فلوريان ليندين وما هي إلا لحظات حتى غفت. خرجتُ إلى الشرفة لأدخّن سيجارة ولأرى ما إذا كنتُ سألمح سيارة تشارلي.

٢٩ آب

في الفجر الشاطئ مليء بالنوارس. إلى جانب النوارس هناك حمائم. النوارس والحمائم على ضفة البحر، تنظر إلى البحر، لا تتحرّك، باستثناء واحدة تُقلع في طيران قصير. النوارس نوعان: كبيرة وصغيرة. الحمائم أيضاً تبدو من بعيد نوارس. نوارس من نوع ثالث أصغر. من فتحة الميناء تبدأ الزوارق بالخروج وبمرورها تترك خلفها أخاديد داكنة على سطح البحر المنبسط. اليوم لم أنم. تحافظ السماءُ على لون أزرق شاحبٍ وسائلٍ. قطّاعُ الأفقِ أبيضُ، رمل الشاطئ بنّيٌّ، مبقّعٌ بشاماتٍ من قمامة صغيرة. يُتَوَقّع من الشرفة التي لم يصل النُّدُل بعدُ لترتيب طاولاتها، أن يكون يوماً وديعاً وصافياً. يمكن القولُ إنّ النوارس المشكلة في صفّ تتأمّل غير خائفة الزوارق التي تبتعد حتى تكاد تضيع عن النظر. ممرات الفندق في هذه الساعات حارّة ومقفرة. في المطعم يسحب نادل شبه نائمٍ الستائرَ بوحشية؛ ومع ذلك فالبريق الذي يغمرُ كلَّ شيء لطيفٌ وبارد؛ نور خفيف، مكبوح، المقهى لا يعمل بعد. أتوقّعُ من خلال حركةِ النادل أنّه سيتأخر كفاية. في الغرفة تنام إنجيبورغ مع رواية فلوريان ليندين متشابكة مع الملاحف. تضعها بنعومة على طاولة السرير، ليس دون أن تلفت انتباهي جملةٌ. فلوريان ليندين (أعتقد) يقول: «أنت تؤكّد أنّك كرّرت الجريمة ذاتها عدّة مرّات. لا. لستَ مجنوناً. في هذا، بالتحديد، يكمن الشرّ». أضع بحذر العلامة بين الصفحتين وأغلق الكتاب. عند خروجي مرّت بخاطر الفكرة الغريبة بأن أحداً في فندق

البحر لم يكن يُخطّط للنهوض. لكنّ الشوارع لم تكن خاوية تماماً. أمام الكشك، على الحدّ بين القسم القديم والمنطقة السياحية، في موقف الحافلات، توجد شاحنة يُنزلون منها رزمَ مجلاتٍ وصحفٍ يومية. أشتري صحيفتين ألمانيتين قبل أن أتوغّل في شوارع ضيقة، باتجاه الميناء بحثاً عن بار مفتوح.

في إطار الباب ترتسم صورتا تشارلي والذئب. ما من أحد منهما بدا مندهشاً من رؤيتي. توجّه تشارلي مباشرة إلى طاولتي بينما راح الذئبُ يطلب فطورين على طاولة العرض. لم أنجح بقول شيء. كانت حركات تشارلي والإسباني مغطاة بقناع من السكينة على الرغم من أن وراء ذلك الهدوء الظاهري كانا ما يزالان متحفّزين.

ـ تبعناك ـ قال تشارلي؛ رأيناك تخرج من الفندق...، بدوتَ مُتعباً جدّاً لذلك فضّلنا أن نتركك تمشي برهة.

لاحظتُ أنّ يدي اليسرى كانت ترتجف، فقط قليلاً ـ هما لم ينتبهـ أخفيتها على الفور تحت الطاولة. في داخلي بدأت أُحَضِّرُ نفسي لما هو أسوأ.

ـ أعتقد أنّك أنت أيضاً لم تنم ـ قال تشارلي.

هززتُ كتفيّ.

ـ أنا لم أستطع أن أنام ـ قال تشارليـ، أعتقد أنّك تعرف الآن كلّ القصّة. سيّان عندي، أعني لا يهمّني يوم أكثر أو يوم أقل دون نوم. يخزني ضميري قليلاً لأنّني أيقظت الذئب. هو أيضاً لم ينم بسببي، أليس كذلك، يا ذئب؟

ابتسم الذئب دون أن يفهم كلمةً واحدة. للحظة خطرت ببالي فكرة أن أُترجِمَ ما انتهى تشارلي من قوله، لكنّني سكتّ. شيء غامض نبّهني إلى أن هذا أفضل.

ـ الأصدقاء وُجِدوا كي يسندوا أصدقاءهم حين يحتاجونهم ـ قال تشارليـ على الأقل هذا ما يبدو لي. هل كنتَ تعرف، يا أودو، أنّ الذئب صديقٌ حقيقيّ. الصداقة بالنسبة إليه مقدَّسة. مثلاً، الآن كان يجب أن يذهب إلى العمل، لكّني أعرف أنّه لن يفعل ذلك حتى يتركني آمناً في الفندق أو في أيّ مكان آمن. يمكن أن يخسر عمله، لكن لا يهمّه. ولماذا يحدث هذا؟ يحدث هذا لأنّ إحساسه بالصداقة كما يجب أن يكون: مقدّس. لا يمزح مع الصداقة!

كانت عينا تشارلي تبرقان بإفراط؛ فكّرت في أنه كان سيبكي. نظر إلى كرواسانهِ بحركة قرف وأبعده بيده. أشار الذئب إلى أنّه سيأكله هو إن كان لا يريده. بلى، بلى، قال تشارلي.

ـ ذهبت في طلبه إلى بيته في الرابعة صباحاً. هل تعتقد أنّني كنتُ قادراً على أن أفعل هذا مع مجهول؟ طبعاً كل الناس مجهولون، في العمق كلّهم مقرفون، ومع ذلك فأمّ الذئب، التي كانت هي من فتح لي الباب، ظنّت أنّه وقع معي حادث وكان أوّل شيء فعلته هو أنّها قدّمت لي قدح كونياك، الذي قبلته طبعاً على الرغم من أنّني كنتُ ثملاً جدّاً. يا لها من امرأة رائعة. حين نهض الذئب وجدني جالساً على أحد كراسيه وأتناول الكونياك. ما الذي أستطيع فعله غير ذلك!

ـ لا أفهم شيئاً ـ قلتُ ـ. يبدو لي أنّك ما تزال سكران.

ـ لا، أقسم لك... شيء بسيط: ذهبتُ بحثاً عن الذئب في الرابعة صباحاً؛ استُقبِلْتُ من قبل أمّه كأمير؛ حاولنا بعدها أنا والذئب أن نتكلّم. خرجنا بعدها لنتجوّل في السيارة؛ دخلنا بارَيْن؛ اشترينا زجاجتين؛ ثمَّ ذهبنا إلى الشاطئ، لنشرب مع المحروق...

ـ مع المحروق؟ على الشاطئ؟

ـ الرجل ينام أحياناً على الشاطئ كيلا يسرقوا له زلاجاته المقرفة.

هكذا قرّرنا أن نتقاسم معه كحولنا. انظرْ، يا أودو، يا للغرابة: من هناك كانت تُرى شرفتك وأستطيع أن أؤكّد أنّك لم تُطفئ الضوء طوال الليل. أخطئ أم لا أخطئ؟ لا، لا أخطئ، كانت شرفتك ونوافذك ونورك اللعين. ماذا كنتَ تفعل؟ هل كنت تلعب لعبة الحربِ أم أنّك كنت تمارس وساختك مع إنجيبورغ؟ هه! لا تنظر إليّ هكذا، هي مزحة، أنا ماذا يهمّني. كانت غرفتك، بلى انتبهتُ على الفور والمحروق أيضاً انتبه. في النهاية كانت ليلة مضطربة، يبدو أنّنا جميعاً أرقنا قليلاً، أليس كذلك؟

ـ بمعزلٍ عن الخجل والغضب اللذين شعرت بهما عندما عرفت أنّ تشارلي لم يكن يجهل هوايتي بالألعاب والتي لا شكّ كانت إنجيبورغ من حكتها أو أساءت حكايتها له (بل باستطاعتي أن أتخيّلهم ثلاثتهم على الشاطئ يحتفلون بنكاتهم في هذا المجال: «أودو يفوز، لكن أيضاً أودو يخسر»؛ «هكذا يقضي جنرالات رئاسة الأركان الإجازة، محبوسين»؛ «أودو مقتنع بأنّه تجسيد لفون مانشتاين»؛ «ماذا ستهدينه في عيد ميلاده؟ مسدّس ماء؟») أقول بمعزل عن الخجلِ والغضب من تشارلي، من إنجيبورغ ومن حنّة، ساد شعورٌ بالرعب ناعم ومتدرّج عندما سمعتُ أنّ المحروقَ «كان أيضاً يعرف أيّها شرفتي».

ـ كان من الأفضل أن تسألني عن حنّة ـ قلتُ، محاولاً أن يخرج صوتي طبيعياً.

ـ لماذا؟ بالتأكيد هي في وضع جيّد. حنّة دائماً في وضع جيّد.

ـ ماذا ستفعل الآن؟

ـ مع حنّة؟ لا أدري، أعتقد أنّني سأذهب بعد برهة لآخذ الذئب إلى عمله وأذهب بعدها إلى الفندق. آمل أن تكون حنّة على الشاطئ إذ بي رغبة بأن أنام بعمق... كانت ليلة مضطربة، يا أودو. حتى على الشاطئ. لن تُصدّق. هنا لا أحد يتوقّف لحظة، يا أودو، لا أحد. من جانب

الزلاجات كنّا نسمع ضجيجاً. وكان غريباً أن تسمع ضجيجاً على الشاطئ في تلك الساعات. ذهبنا أنا والذئب لنتحقّق وماذا تظنّ أنّنا وجدنا؟ ثنائي يمارس الجنس. ثنائي ألماني، أعتقد، لأنّني عندما قلت لهما أن يستمتعا ردّا عليّ بالألمانية. لم أمعن النظر في الرجل، لكن هي كانت جميلة ترتدي طقم احتفال أبيض، مثل طقم إنجي، هناك مرمية على الشاطئ بطقم مجعد وكل هذه الأشياء الشعرية.

ـ إنجي؟ هل تقصد إنجيبورغ؟ ـ عادت يدي لترتجف، استطعتُ تماماً أن أشمّ رائحة العنف الذي كان يحيط بنا.

ـ إنجي لا، يا رجل، طقمها الأبيض، عندها طقم أبيض، أليس صحيحاً، هذا ما قصدته. هل تعرف ماذا قال الذئب وقتها؟ أن نقف في الصف. أن نقف في الصف بانتظار أن ينتهي الرجل. يا إلهي، كم ضحكتُ! كان يريد أن نبطحها بعد ذلك البائس الشقيّ! اغتصاب بكلّ مواصفاته! يا للمزاج. الرغبة الوحيدة التي كانت عندي هي أن أشرب، وأن أتأمّل النجوم! البارحةِ أمطرت، هل تتذكّر. على كلّ الأحوال كان في السماء نجمان وربّما ثلاثة، وأنا كنتُ أشعر بأنّني في أحسن حال. لو أنّ الظروف كانت أخرى، يا أودو، لكان من الممكن أن أقبل اقتراحَ الذئب. ربّما كانت الفتاة تُحبّ ذلك. وربّما لا. أعتقد أنّ الذئب حاول عندما عدنا إلى جانب الزلاجات أن يقنعَ المحروق بأن يُرافقه. المحروق أيضاً لم يبغ أن يذهب. لكنّني لستُ متأكّداً، فأنت تعرف أنّني لا أُجيد الإسبانية.

ـ لا تُجيدها بالمطلق ـ قلتُ.

أطلق تشارلي قهقهة دون قناعة كبيرة.

ـ هل تريدني أن أسأله وبذلك تقطع الشك باليقين؟ ـ أضفتُ.

ـ لا، ليست قضيتي... على كلّ الأحوال، صدّقني، أتفاهم مع أصدقائي والذئب صديقي ونتفاهم.

ـ لا شكّ عندي في ذلك.

ـ حسناً تفعل... كانت ليلة حلوة، يا أودو... ليلة هادئة بأفكار سيّئة لكن بلا أفعال سيّئة... ليلة هادئة، كيف سأوضّح لك، هادئة ودون أن أتوقّف لحظة واحدة. بل وحين طلع الفجرُ وكان باستطاعتي أن أُفكّر في أنّ كلّ شيء قد انتهى، خرجتَ أنتَ من الفندق... في اللحظة الأولى فكّرت في أنّنا رأينا بعضنا من الشرفة وجئت لتنضمّ إلى التسلية معنا؛ عندما ابتعدت باتجاه الميناء أنهضتُ الذئب وتبعناك... دون عجلة، كما رأيت. كما لو أنّنا نتنزّه.

ـ حنّة ليست بخير. عليك أن تراها.

ـ إنجيبورغ أيضاً ليست بخير، يا أودو. ولا أنا. ولا الذئب، صديقي. ولا أنت، إذا سمحت لي أن أقول لك ذلك. وحدها أمّ الذئب بخير وابن حنّة في أوبيرهاوزين، وحدهما بـ... ليسا بخير تماماً، لا، لكن بالمقارنة بآخرين، هما بخير، نعم، بخير.

كان سماعه يُسَمّي إنجيبورغ بإنجي ينطوي على صفاقة. من المؤسف أنّ أصدقاءها، بعض رفاق عملها، أيضاً ينادونها هكذا. كان هذا عاديّاً ومع ذلك لم أفكّر فيه قط فأنا لم أكن أعرف أيّاً من أصدقاء إنجيبورغ. شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي. طلبتُ فنجانَ قهوةٍ بحليبٍ آخرَ. تناول الذئب قهوة بالروم (إذا كان يريد أن يذهب إلى العمل فهو في الحقيقة لم يبدِ أدنى قلق). تشارلي لم يبغِ شيئاً. فقط كانت به رغبة في التدخين وكان يفعل ذلك بنهمٍ، سيجارة بعد أخرى. لكنّه أكّد أنّه سيدفع هو الحساب.

ـ ماذا حدث في برشلونة؟ ـكنتُ سأقول: «أنت تغيّرت» لكن بدا لي ذلك مضحكاً، فأنا بالكاد أعرفه.

ـ لا شيء. تنزّهنا. اشترينا تذكارات. مدينة جميلة، لكنّها مزدحمة أكثر من اللازم، هذا صحيح. كنت خلال بعض الوقت متابعاً لكرة قدم نادي برشلونة، حين كان لاتيك هو المدرّب ويلعب فيه شوستِر وسيمونسِن. الآن لا. لا يهمّني نادي برشلونة، لكنَّ المدينة ما تزال تعجبني. هل زرت العائلة المقدّسة؟ هل أعجبتك؟ بلى، إنّها جميلة. شربنا أيضاً في بار قديم جدّاً، مليء بملصقات مصارعي الثيران والغجر. بدا لحنّة وإنجيبورغ أصيلاً جدّاً. وكان رخيصاً، أرخص بكثير من البارات هنا.

ـ لو أنّك رأيتَ وجه حنّة ما كنت لتكون بهذا الهدوء. فكّرت إنجيبورغ أن تبلغ عنك الشرطة. لو حدث هذا في ألمانيا لكانت فعلت ذلك بالتأكيد.

ـ تُبالِغ... في ألمانيا، في ألمانيا ـ قام بحركة عجز ـ لا أعرف، ربّما هناك أيضاً لا تتوقّف الأشياء ولا لحظة واحدة. خراء. لا يهمّني. ثمّ إنّني لا أصدّقك، لا أصدّق أنّه مرّ بخاطر إنجيبورغ أن تستدعي الشرطة.

هززت كتفيّ، مهاناً: يمكن أن يكون تشارلي على حقّ، يمكن أنّه يعرف قلبَ إنجيبورغ أفضل منّي.

ـ أنت ماذا كنت ستفعل؟ ـ برقت عينا تشارلي مليئتان بالخبث.

ـ لو كنت مكانك؟

ـ لا، مكان إنجي.

ـ لا أعرف. أرفسك. أكسر ظهرك.

أغمض تشارلي عينيه. آلمه جوابي بشكل مدهش.

ـ أنا لا. ـ حرّك يديه في الهواء كما لو أنّ شيئاً مهمّاً جدّاً يفلت منه ـ. أنا لو كنت في مكان إنجي ما كنتُ لأفعل.

ـ واضح.

ـ أيضاً لم أبغ أن أغتصب ألمانيةَ الشاطئ. كان باستطاعتي أن أفعل ذلك، لكنّني لم أفعل. هل تفهم؟ كان باستطاعتي أن أحطّم وجه حنة، أحطّمه حقيقة، ولم أفعل. كان باستطاعتي أن أرمي نافذتك بحجر أو أن أصفعك، بعد أن اشتريت تلكما الصحيفتين القذرتين. لم أفعل شيئاً. أتكلّم وأدخّن لا أكثر.

ـ لماذا كنت ستحطم زجاج نافذتي أو تضربني يا أبله؟

ـ لا أدري. خطر بذهني. سريعاً، سريعاً بحجر بحجم القبضة ـ تهشّم صوته، كما لو أنّه تذكّر على الفور كابوساً ـ إنّه المحروق؛ بينما كان ينظر إلى نور نافذتك؛ رغبة بلفت الانتباه، كما أظنّ.

ـ هل المحروق هو من اقترح عليك أن ترمي نافذتي بالحجارة؟

ـ لا، يا أودو، لا. أنت لا تفهم شيئاً، يا رجل. المحروق كان يمصّ معنا، بما هو أقرب إلى الصمت، بالأحرى ثلاثتنا بصمت، نصغي إلى البحر، لا أكثر، ونمصّ، لكن بعيون مفتوحة، أليس صحيحاً، وأنا والمحروق ننظر إلى نافذتك. أريد أن أقول: عندما نظرتُ إلى نافذتك كان المحروق قد ثبّت عينيه فيها وأنا انتبهتُ وهو انتبه إلى أنّني فهمتُ. لكنّه لم يقل شيئاً عن رمي الحجارة. أنا من ملك هذه الفكرة. فكّرتُ في أنّ عليّ أن *أخبرك*... هل تفهم؟

ـ لا.

قام تشارلي بحركة سأم، أخذ الصحيفتين ومرّر الصفحات بسرعة غير معهودة، كما لو أنّه كان أمين صندوق في مصرف قبل أن يكون ميكانيكياً؛ أنا واثق من أنّه لم يقرأ جملة واحدة كاملة؛ بعدها تركهما بتنهيدة جانباً، بهذه الحركة بدا أنّه يقول إنّ الأخبار كانت لي وليست له. مكثنا بضع ثوانٍ صامتَيْن. في الخارج راح الشارعُ يستعيد شيئاً فشيئاً إيقاعَهُ اليوميّ؛ في البار لم نعد وحدنا.

ـ في أعماقي أحبّ حنّة.

ـ عليك أن تذهب الآن لتراها.

ـ إنّها فتاة طيّبة، نعم. وحالفها الحظّ كثيراً في حياتها وإن كانت هي تعتقد العكس.

ـ عليك أن تذهب إلى الفندق، يا تشارلي...

ـ أولاً سنحمل الذئب إلى عمله، اتفقنا؟

ـ حسن، هيّا بنا فوراً.

حين نهض عن الطاولة كان أبيضَ، كما لو أنّه لم يبق دمٌ في جسده. اقترب من طاولة العرض دون أن يتعثّر ولا مرّة، ولذلك استنتجت أنّه لم يكن سكران جدّاً كما ظننتُ، دفع وغادرنا. كانت سيارة تشارلي مصفوفة بجانب البحر، على حاملة الأمتعة رأيتُ الزلاجة الشراعية. تراه أخذها معه إلى برشلونة؟ لا. لا بدّ أنّه وضعها هناك عندما عاد وهذا يعني أنّه كان في الفندق. قطعنا المسافةَ التي كانت تفصلنا عن السوبر ماركت الذي يعمل فيه الذئب ببطء. قبل أن ينزل هذا قال له تشارلي أن يذهب ليراه في الفندق إذا طردوه من العمل، وسيرى هو الطريقة لحلّ المشكلة. ترجمتُ. ابتسم الذئبُ وقال إنّهم لا يجرؤون أن يفعلوا ذلك معه. وافق تشارلي بجهامة وعندما خلّفنا وراءنا السوبر ماركت قال إنّها حقيقةٍ، أيّ خلاف مع الذئب يمكن أن يكون معقّداً، كيلا يقول خطيراً. تكلّم بعدها عن الكلاب المهجورة وهي تموت جوعاً في الشوارع. «وخاصّة هنا»، قال.

ـ البارحة حين كنتُ أبحث عن بيت الذئب صدمت واحداً.

انتظر أن أُدلي بتعليق ما وتابع:

ـ كلب صغير وأسود، سبق أن رأيته في الكورنيش، باحثاً عن

أصحابه الخنازير أو عن قليل من الطعام... لا أعرف... هل تعرف قصّةَ الكلب الذي مات جوعاً بجانب جثّة صاحبه؟

ـ نعم.

ـ فكّرتُ في هذا. في البداية لا تعرف هذه الحيوانات المسكينة إلى أين ستذهب، تكتفي الانتظار. هذا فعلاً وفاء، أليس كذلك، يا أودو. إذا تجاوزت هذه المرحلة تتفرّغ إلى التشرّد والبحث في أوعية القمامة. كلب البارحة الأسود الصغير ولّد عندي انطباعاً بأنّه كان ما يزال ينتظر. كيف يمكن فهم هذا، يا أودو؟

ـ كيف يمكن أن تكون واثقاً إلى هذا الحدّ بأنّك شاهدته قبل ذلك أو أنّه كان كلباً شارداً؟

ـ لأنّني نزلتُ من السيارة وتأمّلته بعناية. كان نفسه.

بدأ الضوء داخل السيارة ينعسني. اعتقدتُ للحظةٍ أنّني رأيت عيني تشارلي مليئتين بالدموع. «كلانا متعب»، فكّرتُ.

نصحته في باب الفندق أن يستحمّ ويأوي إلى فراشه ويترك التوضيحات حول حنة حتى ينهض. بدأ بعض النزلاء يتراتلون باتجاه الشاطئ. ابتسم تشارلي وضاع داخل الممر. عدتُ إلى فندق البحر قلقَ الروح.

وجدتُ فراو إلسي على السّطح، بعد أن تجاهلت بكبرياء العلامات التي تدل على المناطق المفتوحة للسياح والمناطق المحجوزة للعاملين في الفندق. من ناحية أخرى عليّ أن أعترف أنّني لم أكن أبحث عنها. الذي حدث هو أنّ إنجيبورغ كانت ما تزال نائمة، وكنتُ أختنق في البار، ولم يكن بي رغبة لأن أخرج، كما لم أكن نعساً. كانت فراو إلسي تقرأ، مستلقية على سرير سماوي وكأس عصير بجانبها. لم تُفاجأ حين رأتني أظهر، بل على العكس هنّأتني بصوتها الرصين دائماً لأنّني

اكتشفت مدخل السّطح. «امتيازات المُتسرنمين»، أجبتُها مائلاً برأسي كي أمعن في الكتاب الذي كان بين يديها. كان دليلاً سياحياً لجنوب إسبانيا. سألتني بعدها إن كنتُ أريد أن أشرب شيئاً. وأمام نظرتي الاستفسارية وضّحت أنّه حتى على السطح يوجد جرسٌ لإعلام الخدمة. وللفضول قبلتُ. سألتُها بعد برهة عن نشاطاتها البارحة. وأضفت أنّني بحثت عنها في كلّ الفندق دون جدوى. «أنت تختفين مع المطر»، قلتُ. تَكدّر وجهُ فراو إلسي. وأخرجتْ بحركة مدروسة ظاهرياً (لكنّني أعرف أنّها لم تكن كذلك، وأنّها تُشكل جزءاً من تلقائيتها وطاقتها) النظارةَ الشمسية وتأمّلتني بثبات قبل أن تجيبني بأنّها قضت البارحةَ محبوسةً في غرفة زوجها. تُراهُ مريض؟ إنّه الطقس السيّئ، الغيوم المشحونة بالكهرباء تؤذيه؛ عنده آلام مريعة في الرأس تؤثّر على نظره وأعصابه؛ في بعض الحالات عانى من عمى عابر. حمى دماغية، تقول شفتا فراو إلسي التامّتان (بحسب معرفتي لا وجود لهذا المرض) بعدها وبمسحة من ابتسامة جعلتني أعدها بألا أبحث عنها أبداً بعد الآن. نلتقي فقط حين يُهيّئ لنا القدر ذلك. وماذا لو رفضتُ؟ سأجبرك على أن تعدني، همست فراو إلسي. تظهر في تلك اللحظة خادمة مع كأس من العصير مماثل في كلّ شيء للكأس الذي في يد فراو إلسي. ولثوانٍ ترفُّ الفتاةُ المسكينة أهدابَها وقد بهرها الضوء فلا تعرف أين تذهب؛ تضع بعدها الكأس على الطاولة وتُغادر.

ـ أعدُكِ ـ قلتُ وقد أدرتُ لها ظهري وذهبت إلى حافّة السطح.

كان النهار أصفر وفي كلّ مكان يتوهّج لونُ لحم بشريٍّ يُسَبّب غثياناً.

عدتُ إليها واعترفتُ لها بأنّه لم تُغمَض لي عينٌ طوال الليل. «لا حاجة لأن تُقْسِم»، أجابت دون أن ترفع نظرها عن الكتاب الذي كان من جديد بين يديها. حكيتُ لها أنّ تشارلي ضرب حنّة. «عادةً ما يفعل ذلك بعضُ الرجال» كان جوابُها. ضحكتُ. «دون شك أنتِ لست من أنصار المرأة!» قلبت فراو إلسي الصفحة دون أن تُجيبني. عندئذٍ قلتُ لها ما

وضّحه لي تشارلي حول الكلاب، الكلاب التي يهجرها الناس قبل أو خلال الإجازات. لاحظتُ أن فراو إلسي كانت تُصغي باهتمام. حين أنهيتُ قصّتي رأيت علامةَ ذعر في عيني فراو إلسي: خفت أن تنهض وتتقدّم نحوي. خفت أن تلفظ الكلمات التي لم أكن أرغب في سماعها إطلاقاً. لكنّها لم تُدْلِ بأي تعليق وبعد قليل اعتبرتُ أنّ من الحكمة أن أنسحب.

في هذه الليلة عاد كلّ شيء إلى طبيعته. في مرقص في منطقة المخيمات شربنا أنا وحنّة وتشارلي وإنجيبورغ والذئب والخروف نخبَ الصداقة، نخب النبيذ، نخب البيرة، نخب إسبانيا، نخب ألمانيا، نخب ريال مدريد (لم يكن الذئب والخروف من المتحمّسين لنادي برشلونة، كما كان يعتقد تشارلي بل لريال مدريد) نخب النساء الجميلات، نخب الإجازات. سلام تامّ. طبعاً حنّة وتشارلي تصالحا. يعود تشارلي ليكون الجلف العادي إلى هذا الحدّ أو ذاك، ذاته الذي عرفناه في الحادي والعشرين من آب وارتدت حنّة ألمع فساتينها وأوسعها تقويرة للصدر للاحتفال بذلك. حتى وجنتها المُزرقّة كانت تمنحها بعضَ السحرِ المتراوحِ ما بين الشهواني والسافل. (وجنتها المزرقّة خبّأتها طوال صحوها تحت النظارة الشمسية، لكنّ لمعان المرقص عرضها دون تورية، سعيدة كما لو أنّها عثرت على نفسها ومُبَرِّرِ عيشها) إنجيبورغ غفرت رسمياً لتشارلي، الذي ركع أمام الجميع عند قدميها ومدح فضائلها لسعادة كلّ الذين يمكن أن يسمعوه ويفهموا الألمانية. في لفت الانتباه لم يتخلّف الذئب والخروف عن الركب، فنحن مدينون لهما بالعثور على أعرق مطعم إسبانيّ رأيناه حتى اليوم. المطعم الذي بالإضافة إلى أن طعامه جيّد ورخيص والشراب فيه وفير وأرخص منحنا الفرصة لأن نسمع مُغَنِّية فلامنكو (أو أغان تقليدية)، كانت بالنتيجة مخنّثاً يُدعى اندروميدا، معروفاً جيّداً من قبل صديقينا الإسبانيَّيْن. حديث ما بعد

الطعام كان طويلاً ومريحاً، مليئاً بالنكات والأغاني والرقصات. أندروميدا الجالسة إلى جانبنا علّمت المرأتين التصفيق الإيقاعي ورقصت بعدها مع تشارلي رقصة تُدعى الإشبيليَّة؛ بعد برهة قصيرة راح الجميع يقلِّدونهما، بما في ذلك ناس على طاولات أخرى، باستثنائي أنا الذي رفضتُ بطريقة جازمة وفظة إلى حدّ ما. لو فعلت لصرت مسخرة. يبدو أنّ فظاظتي أفرحت المُخنّث، الذي قرأ بعد انتهاء الرقص حظّي في راحة يدي. سيكون عندي مال وقوّة وحبّ؛ حياة مليئة بالعواطف؛ ابن (أو حفيد) لوطي. يقرأ أندروميدا المستقبل وتفسّر: في البداية لا يكاد صوته يُسمع، بالكاد كان همساً راح بعدها يرتفع ويتلو بطريقة يستطيع الجميع أن يسمعوه فيها ويحتفلوا بنكاته. من يقدم نفسه لهذه الألعاب يصير هدفاً لمزاح الحضور، لكن بشكل عام لم يقل لي شيئاً مزعجاً وأهدى كلاًّ منا قبل أن نغادر زهرة منثور ودعانا لنعود. ترك له تشارلي ألف بيزيتا إكرامية وأقسم أنّه سيفعل ذلك. جميعنا اتفقنا على أنّه مكان «جدير بالاهتمام»؛ تنهال التهاني على الذئب والخروف. الجوّ في المرقص مختلف، يوجد شباب أكثر والمحيط أكثر تكلّفاً، لكنّنا لم نتأخّر بالتقاط الموجة. إذعان. هناك، نعم أرقصُ؛ وأُقبّل إنجيبورغ وحنّة وأبحث عن المغاسل وأتقيّأ وأسرّح شعري وأخرج من جديد إلى الحلبة. على انفراد أمسك بتشارلي من قبته وأسأله: هل كلّ شيء على ما يرام؟ كلّ شيء على ما يرام بشكل رائع، أجاب. تعانقه حنّة من خلف وتُبعده عنّي. يريد تشارلي أن يقول لي أشياء أخرى لكنّني فقط أرى شفتيه تتحرّكان وابتسامته حين لا يعود هناك مجال لشيء آخر. إنجيبورغ بدورها عادت لتكون إنجيبورغ ليلة الحادي والعشرين من آب؛ إنجيبورغ ذاتها دائماً. تقبّلني، تعانقني، تطلب منّي أن نمارس الحبّ. عندما عدنا إلى غرفتنا في الخامسة صباحاً مارسنا الحب؛ رعشة إنجيبورغ سريعة، أنا أتماسك وأجامعها دقائق كثيرة بعدها. كلانا نعس، تؤكّد إنجيبورغ عارية فوق الملاحف أنّ كلّ

شيء بسيط، «بما في ذلك منمنماتك» تصرّ على هذا المصطلح قبل أن يسرقها النوم. «منمنمات» «كلّ شيء بسيط». بقيتُ برهة طويلة أتأمّل لعبتي وأُفكِّر.

٣٠ آب

أحداث اليوم ما تزال مشوّشة، ومع ذلك سأحاول أن أسجّلها بالترتيب، وهكذا سيكون من المحتمل أن أستطيع أن أكتشف فيها شيئاً مرَّ دون أن يلفت انتباهي، المهمّة الصعبة وربّما غير المجدية، فما حدث حدثَ لا مناص ولا يفيد أن نغذي آمالاً زائفة. لكن عليّ أن أفعل شيئاً كي أقتل الساعات.

سأبدأ بالفطور في شرفة الفندق، مرتدياً لباس السباحة في صباح بلا غيوم، تُلطفه نسمة ناعمة كانت تهبّ من البحر. كانت خطّتي الأوّلية أن أعود إلى الغرفة بعد أن تكون قد رُتِّبَت وأُمضي تلك الساعات مُستغرقاً في اللعبة، لكنّ إنجيبورغ تكفّلت بإقناعي: كان الصباح رائعاً أكثر مما يسمح بعدم الخروج من الفندق. على الشاطئ وجدنا حنّة وتشارلي مستلقيين على حصير هائلة، كانا نائمين. الحصيرة المشتراة توّاً كانت ما تزال تحتفظ في زاوية منها بملصق السعر. أتذكّره بوضوحٍ وشم: ٧٠٠ بيزيتا. فكّرتُ وقتها، أو ربّما فقط الآن أفكّر، في أنّ ذلكَ المشهد كان مألوفاً بالنسبة إليّ. هذا ما يحدث معي عندما أسهر، النجوم غير المهمّة تصبح رائعة وتدوم. أعني لا شيء غير عادي. ومع ذلك بدا لي مُقلقاً، أو أنّه الآن وقد اختفت الشمس يبدو لي كذلك.

مرّ الصباح تلفّه الحركات العبثية ذاتها دائماً: لا شي، نتكلّم، نقرأ مجلات، ندهن أجسادنا بالمراهم والمُسَمِّرات. أكلنا باكراً، في مطعم مزدحم بالسياح، الذين كانوا مثلنا في ثياب السباحة وتفوح منهم رائحة

الزيوت (ليست رائحة لطيفة ساعةَ الطعام) نجحتُ بعدها بالهرب؛ عادت إنجيبورغ وحنّة وتشارلي إلى الشاطئ وأنا عدتُ إلى الفندق. ماذا فعلتُ؟ لا شيء ذا أهمّية. نظرتُ إلى لعبتي، عاجزاً عن التركيز، بعدها نمت قيلولةً مأهولة بالكوابيس حتى السادسة مساء. عندما رأيت من شرفتي الكتلة الكبيرة من السابحين يشرعون في الانسحاب إلى فنادقهم ومخيماتهم نزلتُ إلى الشاطئ. حزينة تلك الساعة وحزانى هم السابحون: متعبون، متخمون بالشمس، يلتفتون بنظرهم إلى خطّ الأبنية، مثل جنود واثقين مقدّماً من انهيارهم، خطواتهم المتعبة التي تعبر الشاطئ والكورنيش، حذرون بمسحة من احتقار، والتبجّح أمام خطر بعيد، طريقته الغريبة في دخول الشوارع الجانبية حيث يبحثون على الفور عن الظلّ، وتقودهم مباشرة ـ إنّها نوع من التكريم ـ إلى الفراغ.

يبدو اليوم، إذا ما نظرنا إليه من منظور رجعي خالياً من الأشخاص والشكوك. لا فراو إلسي ولا الذئب ولا الخروف، ولا رسالة من ألمانيا، لا مكالمة هاتفية، ولا أيّ شيء يمكن أن يكون مهمّاً. وحدنا أنا وحنّة وتشارلي وإنجيبورغ، أربعتنا بسلام، والمحروق أيضاً، لكنّه بعيد، مشغول بزلاجاته (لم يبق زبائن كثر)، على الرغم من أنّ حنّة اقتربت منه، لا أدري لماذا، لتُكلِّمه، قليلاً، أقل من دقيقة، نوع من المجاملة، قالت بعد ذلك. بالمختصر المفيد كان يوماً هادئاً للتشمّس لا أكثر.

أتذكّر أنّه عندما نزلتُ إلى الشاطئ للمرّةِ الثانية امتلأت السماءُ بما لا نهاية له من الغيوم، بغيوم صغيرة راحت تجري نحو الشرق أو نحو الشمال الغربي وأنّ إنجيبورغ وحنّة كانتا تسبحان وأنّهما عندما رأتاني خرجتا، أوّلاً إنجيبورغ التي قبّلتني، ثمَّ حنّة. تشارلي كان مستلقياً ووجهه باتجاه أشعة الشمس الواهنة وبدا نائماً. إلى يسارنا كان المحروقُ يُشيد حصنَ كلِّ ليلةٍ بصبرٍ، غريباً عن كلّ شيء، في الساعة التي كان مظهره المريع يتبدّى من دون حجبٍ. أتذكّر لون المساء الأصفر الرمادي،

حديثنا العاديّ وغير المهم (لا أستطيع أن أُحدّد الموضوعات) شعر الفتاتين المبلل، صوت تشارلي الذي كان يحكي قصّة تافهة عن طفل كان يتعلّم ركوب الدراجة. كلّ شيءٍ كان يدلّ على أنّ ذلك المساء سيكون ممتعاً مثل أيّ مساء آخر وأنّنا سنعود قريباً إلى فندقينا لنستحمّ ونختم ليلتنا في أحد المراقص.

عندها قفز تشارلي قفزةً، أخذ زلاجته الشراعية ودخل في البحر. لم أنتبه حتى تلك اللحظة إلى أنّ الزلاجة كانت هناك وأنّها كانت طوال الوقت هناك.

ـ عُدْ سريعاً ـ صاحت حنّة.

لا أعتقد أنّه سمعها.

سبح الأمتار الأولى جاراً الزلاجة؛ بعدها اعتلاها، رفع الشراع، أشار إلينا بيده مودّعاً، وتوغّل في البحر مستغلاً ضربة ريح مواتية. لا بدّ أنّها السابعة مساء، ليس أكثر بكثير. لم تكن الزلاجة الشراعية الوحيدة. أنا واثق من هذا.

ذهبنا بعد ساعة متعبين من الانتظار لنشرب في شرفة فندق كوستا برافا، من حيث نشرف تماماً على الشاطئ والمكان الذي كان يجب أن يظهر فيه بكلّ منطق تشارلي. كنّا نشعر بأنّنا متسخون وعطشى. أتذكّر أنّ المحروقَ، الذي كنتُ أراه كلّما استدرتُ محاولاً أن أعثر على شراع تشارلي، لم يتوقّف لحظة عن التحرّك حول زلاجاته، كان نوعاً من الغولم المشغول، إلى أن اختفى ببساطة فجأةً (داخل كوخه، جحيمه)، لكن بطريقة مباغتة وفجّة تركتْ على الشاطئ فراغاً مضاعفاً: غياب تشارلي وغياب المحروق الآن. أعتقد أنّني خفت وقتها من وقوع كارثة.

في التاسعة ليلاً، ولم تكن قد أعتمت بعد، قرّرنا أن نطلب نصيحة من عامل استقبال فندق كوستا برافا. أرسلنا هذا إلى الصليب الأحمر

البحري، الذي توجد مكاتبه في الكورنيش، قبل الوصول إلى الجزء القديم من البلدة بقليل. هناك وبعد شرح معقّد اتصلوا باللاسلكي مع زورق إنقاذ. اتصل زورق الإنقاذ بعد نصف ساعة ونصح بدوره بأن ينقلوا المشكلة إلى سلطات الشرطة البحرية في الميناء. راح الليل يحل بسرعة؛ أتذكّر أنّني نظرتُ عبر النافذة ورأيت لثانية زورق الإنقاذ الذي تكلّمنا مع المنقذين فيه. وضّح لنا الموظف أنّ الأفضل لنا أن نعود إلى الفندق ونهتف من هناك إلى قيادة البحرية، إلى الشرطة وإلى الحماية المدنية؛ على مدير الفندق أن يُساعدنا في كلّ شيء. قلنا إنّنا سنفعل هذا وغادرنا. قطعنا نصفَ الطريق صامتين والنصف الآخر متناقشين. بحسب إنجيبورغ جميعهم كانوا غير أكفاء. حنّة لم تكن مقتنعة جدّاً، لكنّها استنبطت من ناحية أخرى أنّ مدير فندق كوستا برافا كان يكره تشارلي؛ أيضاً هناك احتمال أن يكون هذا في قرية مجاورة، كما فعل مرّة، ألا نتذكّر؟ عبّرتُ لها عن رأيي وهو أن نعمل تماماً ما أملوه علينا. وعندها قالت حنّة، نعم، إنّني كنتُ على حق وانهارت.

في الفندق، وضّح لحنّة عاملُ الاستقبال وكذلك فعل بعده المديرُ أن غرقى الزلاجات الشراعية في تلك الأيام كثيرون وأنّه عموماً لا يحدث لهم مكروه. في أسوأ الحالات يقضون ثماني وأربعين ساعة تتقاذفهم الأمواج، لكن الإنقاذ أكيد، إلخ. توقّفت حنّة بعد هذه الكلمات عن البكاء وبدت أكثر هدوءاً. عرض المدير أن يأخذنا في سيارته إلى قيادة البحرية. هناك سجّلوا تصريح حنّة، اتصلوا بالميناء ثمّ مرّة أخرى بالصليب الأحمر البحري. وصل بعدها بقليل شرطيان. كانا بحاجة إلى وصف تفصيلي للزلاجة، سوف يبدؤون مسحاً بالمروحية، وعلى سؤال ما إذا كانت الزلاجة تحمل معها جهاز نجاة، صرّحنا جميعنا بأنّنا نجهل بالمطلق وجود هذا الجهاز. قال أحد الشرطيّين: «المسألة أنّه اختراع إسبانيّ». أضاف الشرطيّ الآخر: «إذاً كلّ شيء يتوقّف على مدى

نعاسه». إذا ما نام ساءت حالته. أزعجني أن يتكلّما بمثل تلك الطريقة أمامنا، على الرغم من أنهما لم يكونا يجهلان أنّني أفهم لغتهما. طبعاً لم أُترجم لحنّة ما قالاه. على العكس منهما كان المدير، لم يُظهر أدنى علامة تدلّ على التوتّر، بل إنّه حين عدنا إلى الفندق سمح لنفسه أن يمزح حول القضية. «هل أنت راضٍ؟»، سألتُ. «بلى، كلّ شيء يجري كما يرام»، أجاب. «صديقك لن يتأخّر في الظهور. هل تعلم جميعنا منهمكون في المسألة. لا نستطيع أن نفشل».

تعشينا في فندق كوستا برافا. لم يكن العشاء كما كان متوقّعاً حيوياً. فروج مع بوريه البطاطا وبيض مقلي، سلطة، قهوة وبوظة، قدمها لنا النُّدُل، العارفون بما كان يجري (في الحقيقة كنّا محطّ أنظار الجميع)، بلطف خارج المألوف. شهيّتنا لم تعانِ من انكماش. كنّا بالضبط نتناول العقبة حين رأيت وجهَ الذئب ملتصقاً بالزجاج الذي يفصل الشرفة عن المطعم. كان يؤشّر لي. عندما أعلنت عن حضوره احمرّ وجهُ حنّة فجأة وخفضت نظرها. طلبتْ منّي بخيطٍ من صوتٍ أن أتخلّصَ منهما، وأن يأتيا غداً، وهو ما قدّرت أنّه مناسب. هززت كتفيّ وخرجت، في الشرفة كان الذئب والخروف ينتظرانني. حكيتُ لهما ما حدث. كلاهما تأثّر بالخبر (أعتقد أنّني رأيتُ دموعاً في عيني الذئب، لكنّني لا أستطيع أن أقسم على ذلك). وضّحتُ بعدها أنّ حنّة متوتّرة جدّاً وأنّنا ننتظر بين لحظة وأخرى أخباراً جديدة من الشرطة. لم أملك حججاً أعترض بها عندما اقترحا أن يعودا خلال ساعة. انتظرتُ في الشرفة حتى ذهبا؛ واحد منهما كانت تفوح منه رائحة عطر، ضمن طريقتهما بالإهمال كانا حسني اللباس؛ حين صارا على الرصيف راحا يتجادلان؛ عندما انعطفا عند الزاوية كانا ما يزالان يومئان.

أعتقد أن الأحداث التي تتالت بعدها تشكّل جزءاً من الروتين في حالات مشابهة، على الرغم من أنّها عادة ما تكون مزعجة. أولاً ظهر

شرطيّ؛ تلاه آخر، لكن بلباس موحّد مختلف، يرافقه مدنيّ كان يتكلّم الألمانية وبحّار، بلباس بحري موحّد كامل! من حسن الحظ أنّهم لم يمكثوا طويلاً (كان البحّار، كما أعلمنا المدير، على وشك أن ينضمّ إلى عملية البحث في زورق مجهّز بعاكسات ضوئية). حين ذهبوا وعدونا بأن يُخبرونا عن النتائج التي سيحصلون عليها في أيّ ساعة كانت. كان من الممكن أن يُرى في وجوههم أنّ إمكانيّة العثور على تشارلي هي في كلّ مرّة أقل. أخيراً ظهر عضوُ ـ سكرتير، أعتقد أنّني فهمت ـ نادي الزلاجات الشراعية في البلدة كي يؤكّد لنا دعم أعضائه المادّي والمعنوي، هم أيضاً وضعوا في الخدمة قاربَ إنقاذ، على أمل التعاون مع قيادة البحرية والحماية المدنية، منذ اللحظة التي علموا فيها بالغرق. هكذا سماه: غرق. حنّة التي أظهرت خلال العشاء رصانة وقوّة عادت أمام هذا البرهان عن التضامن لتقع في نحيبٍ راحَ يتحوّل بالتدريج إلى نوبة هستيريا.

صعدنا بها بمساعدة نادل إلى الغرفة ونوّمناها. سألتها إنجيبورغ عمّا إذا كان عندها مُهَدّئ ما. قالت حنّة لا، فالطبيب كان قد منعها عنه. أخيراً قرّرنا أنّ من الأفضل أن تبقى إنجيبورغ هناك لتقضي معها الليلة.

مررتُ بركن الأندلسيين قبل أن أعود إلى فندق البحر. كنتُ آمل أن أجد الذئب والخروفَ، أو المحروقَ، لكنّني لم أرَ أحداً. كان المالك يجلس إلى الطاولة الأولى بجانب التلفاز يشاهد كما هي العادة دائماً فيلمَ كوبوي. غادرت على الفور. هو لم يلتفت. من فندق البحر اتصلت هاتفياً بإنجيبورغ. لا جديد. كانتا مستلقيتين على الرغم من أنّه ما من واحدة منهما كانت تستطيع أن تنام. ببلاهة قلتُ لها: «واسيها». لم تردّ إنجيبورغ عليّ. اعتقدتُ للحظة أنّ المكالمة قد قُطعت.

ـ أنا هنا ـ قالت إنجيبورغ ـ، أفكّر.

ـ نعم، أنا أيضاً أُفكّر ـ قلتُ.

تمنى بعدها كلّ منا للآخر ليلة سعيدة وأغلق.

بقيت برهة مستلقياً على السرير والنور مُطْفَأ أفكّر قلقاً في ما قد يكون قد حدث لتشارلي. في رأسي فقط كانت تتشكّل صورٌ غير مترابطة: الحصيرة الجديدة وبطاقة السعر لم تنزع منها، طعام الغداء الذي كان مشبعاً بروائح منفّرة، الماء، الغيوم، صوت تشارلي... فكّرت في أنّ من الغريب أن أحداً لم يسأل حنّة عن خدّها المُزرقّ. فكّرت في مظهر الغرقى؛ فكّرتُ في أنّ إجازتنا قد ذهبت بطريقة ما إلى الشيطان. هذه الفكرة الأخيرة جعلتني أنهض قافزاً وأعمل بِطاقةٍ غيرِ معهودة.

في الرابعة صباحاً أنهيت جولة ربيع ١٩٤١. كانت عيناي تُغمضان من النعاس، لكنّني شعرت بالرضا.

٣١ آب

في العاشرة صباحاً هتفت لي إنجيبورغ تعلمني بأنّنا على موعد في قيادة البحرية. انتظرتهما في السيارة أمام فندق كوستا برافا وانطلقنا. كانت حنّة أكثر حيوية من الليلة السابقة. كانت قد كحّلت عينيها وطلت شفتيها وخصَّتني حين رأتني بابتسامة. على العكس منها كانت سحنة إنجيبورغ لا تبشّر بأيّ شيء حسن. كانت قيادة البحرية على بعد أمتار قليلة من المرفأ الرياضي، في شارع ضيق من المنطقة القديمة، للوصول إلى المكاتب يجب عبور فناء داخلي مغطى ببلاط متسخ وفي وسطه نافورة جافة. هناك اكتشفنا زلاجة تشارلي مستندة إلى النافورة. عرفنا ذلك دون أن يقوله لنا أحدٌ وبقينا لحظة، كنّا فيها غير قادرين على الكلام ولا على الاستمرار بالمشي. «اصعدوا، من فضلكم، اصعدوا»، قال شابّ عرفتُ بعدها أنّه من الصليب الأحمر، من نافذة من الطابق الثاني. صعدنا، بعد الارتباك الأوّلي. في بسطة السلم كان ينتظرنا رئيس الحماية المدنية وسكرتير نادي الزلاجات الشراعية، توجّها إلينا بحركات لطيفة وتودّدٍ. طلبا منّا أن ندخل: في المكتب كان هناك مدنيان آخران، وفتى الصليب الأحمر وشرطيان. سأل أحد المدنيَّيْن ما إذا كنّا نعرف الزلاجة الموجودة في الفناء. حنّة، التي شحبت بشرتُها المسْمَرّة، هزّت كتفيها. سألوني. قلتُ لا أستطيع أن أؤكّد ذلك، أجابت إنجيبورغ بالشيء ذاته. راح سكرتير نادي الزلاجات الشراعية ينظر من النافذة. الشرطيان بدا عليهما أنّهما ضجران. تولّد عندي انطباع بأنّه ما من أحد منهم كان يُريد أن يتكلّم.

كان الطقس حاراً. حنّة هي التي كسرت الصمت. «هل عثرتم عليه؟»، قالت بصوت كان من الحِدَّة بحيث إنّه جعلنا جميعاً نقفز. سارع الذي كان يتكلّم الألمانية ليجيب بلا، فقط عثرنا على الزلاجة وعارضة الشراع، وهو شيء، كما يمكن أن تُدركي، مهمّ كفاية... عادت حنّة لتهزّ كتفيها. «بالتأكيد عرف أنّه سينام فقرّر أن يربط نفسه»... «أو توقّع أنّ قواه لن تقاومَ البحرَ، الضيقَ، الظلمةَ، تفهمينني»... «على كلّ الأحوال عمل الأنسب: فكّ الحبال التي تشد الشراع وربط نفسه إلى اللوح، عملٌ حسن، طبعاً هذه افتراضات»... «لم نوفّر وسيلة: كان البحث مُكلفاً جدّاً ومحفوفاً بالمخاطر»... «هذا الفجر عثر زورق من جمعية الصيادين على اللوح والعارضة»... «من الضروري الآن أن نتواصل مع القنصلية الألمانية»... كانت حنّة مغمضة العينين. انتبهتُ بعدها إلى أنّها كانت تبكي. نظر بعضنا إلى بعض محزوناً. فتى الصليب الأحمر تبجّحَ: «لم أنم طوال الليل». بدا مثاراً. وعلى الفور أخرجوا بعض الأوراق كي تُوقّعها حنّة. أجهل بماذا كانت تتعلّق. عندما خرجنا توجّهنا لنتناول مرطبات في بار في مركز البلدة. تكلّمنا عن الطقس، عن الموظّفين الإسبان، الناس الذين يملكون الإرادة لكنّ الوسائل قليلة. كان المكان مليئاً بسياح عابرين، أقرب إلى الوسخين، وتفوح فيه رائحة عرق وتبغ قوية. غادرنا بعد منتصف النهار. إنجيبورغ قرّرت البقاء مع حنّة وأنا صعدت إلى الغرفة؛ كانت عيناي تُغمضان تلقائياً ولم أتأخر في النوم.

حلمتُ بأنّ أحداً يطرق على الباب. كان الوقت ليلاً وحين فتحتُ رأيتُ هيئة كانت تتسلّل في عمق الممر. تبعتها؛ وصلنا بشكل غير متوقّع إلى غرفة هائلة، معتمة تبرز فيها هيئات أثاث قديم. كانت تسود فيها رائحة عفن ورطوبة. على سرير كان يتلوّى طيف. فكّرتُ في البداية أنّه حيوان. بعدها عرفت فيه زوجَ فراو إلسي. أخيراً!

حين أيقظتني إنجيبورغ كانت الغرفة مفعمة بالنور وكنتُ أتصبّب

عرقاً. أول شيء أحسست به متغيّراً نهائياً هو وجهها: كان سوء المزاج مرسوماً على جبينها وأجفانها وبقينا ينظر بعضنا إلى بعضٍ للحظات دون أن يعرف الواحد منّا الآخر، كما لو أنّ كلينا استيقظ توّاً. أدارت لي بعدها ظهرها وراحت تنظر إلى الخزائن والسقف؛ أضاعت نصف ساعة، بحسب ما أكّدت، محاولة أن تهتف لي من فندق كوستا برافا ولم يجب أحد. ألاحظ حنقاً وحزناً في صوتها؛ توضيح المصالحة الذي قدمته لا يحدث عندها غير الازدراء. أخيراً وبعد صمت طويل أَسْتَخْدِمُه في الاستحمام، تعترفُ: «كنتَ نائماً، لكنّني ظننتُ أنّك كنت قد ذهبت».

ـ لماذا لم تصعدي لتتأكّدي بأمّ عينيك؟

تحمرُّ إنجيبورغ.

ـ لم يكن ضرورياً... ثمّ إنّ هذا الفندق يُخيفني. كلّ البلدة تُخيفني.

ـ فكّرتُ، أجهل الأسباب الغامضة لهذا التفكير، في أنّها كانت على حقّ؛ لم أقل لها هذا.

ـ يا للحماقة...

ـ أعارتني حنّة ثياباً، ناسبتني تماماً. يكاد يكون لنا القياس ذاته ـ تتكلّم إنجيبورغ بسرعة وتنظر لأوّلِ مرّةٍ إلى عينيّ.

بالفعل الثياب التي كانت ترتديها لم تكن ثيابها. فجأة ألاحظ ذوق حنّة، أحلام حنّة، إرادة حنّة الصيفية الحديدية، والنتيجة مُقلقة.

ـ هل عُرف شيء عن تشارلي؟

ـ لا شيء. بعض الصحافيين كانوا في الفندق.

ـ إذن هو ميت.

ـ محتمل، الأفضل ألا تتكلّمي بهذا مع حنّة.

ـ لا، طبعاً، ستكون حماقة.

عند خروجي من الحمّام بدت لي صورة إنجيبورغ، الجالسة بجانبي، لعبتي في حالة شرود، تامّة. اقترحتُ عليها أن نمارس الحبّ. رفضت بحركة خفيفةٍ من رأسها دون أن تلتفت.

ـ لا أعرف ما الذي يشدّك في هذه ـ قالت إنجيبورغ منحنيةً فوق الخريطة.

ـ وضوحها ـ أجبتُ بينما أنا أرتدي ملابسي.

ـ أعتقد أنّني أكرهها.

ـ لأنّك لا تعرفين اللعب. لو عرفت لأعجبتك.

ـ هل توجد نساء يهمّهن هذا النوع من الألعاب؟ هل لعبتَ مع إحداهنّ؟

ـ لا، أنا لا. لكنّهن موجودات. قليلات، هذا صحيح. ليست لعبة تشدّ الفتيات على وجه الخصوص.

نظرت إنجيبورغ إليّ بعينين بائستين.

ـ الجميع جسّوها حنّة ـ قالت فجأة.

ـ ماذا؟

ـ جميعهم جسّوها ـ قامت بإيماءة رهيبة. لأنّ هذا حدث. أنا لا أفهمه، يا أودو.

ـ ماذا تعنين؟ هل أنَّ الجميع ناموا معها؟ ومن هم الجميع. الذئب والخروف؟ ـ لا أنجح في استيضاح كيف يحدث هذا ولا لماذا رحت أرتعد. في البداية ركبتاي ثم يداي. كان من المحال إخفاؤه.

نهضت إنجيبورغ بعد أن تردّدت للحظة قافزة، وضعت البكيني والمنشفة في كيس القشّ وخرجت من الغرفة هاربة بكلّ معنى الكلمة. قالت من الباب الذي لم تزعج نفسها بإغلاقه:

ـ جميعهم لمسوها، لكنك كنت محبوساً مع حربكَ في الغرفة.

ـ وما هذا؟ ـ صرختُ ـ هل لي علاقة بهذه المسألة؟ هل هو ذنبي؟

استخدمتُ ما تبقى من المساءِ في كتابة بطاقات بريدية وشرب البيرة. لم يؤثّر عليّ اختفاء تشارلي، كما يُفترض أنه يجب أن تؤثّر هذه الأحداث؛ في كلّ مرّة كنتُ فيها أفكّر فيه ـ أعترفُ أنّ هذا كان يحدث كثيراً ـ كنتُ أشعر بنوع من الفجوة، لا أكثر. مررت على فندق كوستا برافا في السابعة لألقي نظرة. وجدتُ إنجيبورغ وحنّة في قاعة التلفاز، وهي غرفة ضيقة وطويلة، خضراء الجدران وفيها نافذة تطلّ على فناء داخلي مليء بالنباتات المُحْتَضَرة. كان المكان موحشاً وهذا ما أبديته. نظرت المسكينة حنّة إليّ باستلطاف، كانت قد وضعت نظارة سوداء وابتسمتْ حين قلتُ إنّ هذا هو السبب الذي لا يذهب لأجله أحدٌ إلى تلك الغرفة، فالنزلاء يُفضّلون أن يروا التلفزيون في بار الفندق؛ كان المدير يُؤكّد أنّه مكان هادئ. وهل أنتما مرتاحتان هنا؟ قلتُ ببلاهة بل وتأتأةٍ. بلى، مرتاحتان، أجابت حنّة عن الاثنتين. إنجيبورغ لم تُكلّف خاطرها بالنظر إلي، فقد أبقت على عينيها ثابتتين على شاشة الجهاز، متظاهرة باهتمام لم يكن باستطاعتها أن تشعر به، فالأمر كان يتعلّق بمسلسل أمريكي مُدبلج بالإسبانية وبوضوح لم تكن تفهم منه كلمة واحدة. إلى جانبها كانت عجوزٌ تغفو على كرسيّ. سألتُ بإيماءة من كانت. أمّ أحدهم، قالت حنّة، وضحكت. لم تُبديا مانعاً عندما دعوتهما لتناول قدح، لكنّهما رفضتا الخروج من الفندق، فبحسب حنّة يمكن أن تصل أخبار جديدة في أقل اللحظات توقّعاً. هكذا بقينا حتى الحادية عشرة ليلاً نتكلّم فيما بيننا ومع النُّدُل. لا شكّ أنّ حنّة صارت شهيرة في الفندق، فالجميع كانوا على معرفة بكارثتها وكانت على الأقلّ ظاهرياً محطَّ إعجابهم. وكان خدّها المُزرقّ يُساهم في تضخيم قصّة مأساوية ملتبسة. كما لو أنّها أفلتت بدورها من غرق ما.

الحياة في أوبرهاوزن، كيف لا، خطأ، جنّة في تمتمة متواصلة،

تتذكّر حركاتٍ أوّلية لرجلٍ وطفلةٍ، لامرأة وعجوز، لعجوزَيْن، لطفلٍ وامرأة، مثنى، جميعهم كارثيون، وعلاقتهم بتشارلي غير واضحة. الحقيقة أنّ حنّة لا تعرف نصفهم إلا سماعاً. إلى جانب كلّ هذه الأقنعة يسطع وجه تشارلي عفيفاً: كان له قلب من ذهب، كان يبحث دائماً عن الحقيقة والمغامرة (أيّ حقيقة وأيّ مغامرة، فضّلتُ ألا أتحقّق)، كان يعرف كيف يُضحك امرأةً، لم يكن عنده أحكام مسبقة تافهة، كان شجاعاً بعقلانية، وكان يُحب الأطفالَ. وعند سؤالها إلامَ كانت تشير حين قالت لم يكن عنده أحكام مسبقة تافهة، أجابت حنّة: «كان يعرف كيف يجعلهم يغفرون له».

ـ هل انتبهت إلى أنّك بدأت تتكلّمين عنه بصيغة الماضي؟

مكثتْ حنّة لحظة بدا فيها أنّها كانت تُفكّر في كلماتي، راحت بعدها تبكي حانية جبينها. من حسن الحظّ أنّه لم يكن هناك نوبة هستيرية هذه المرّة.

ـ لا أعتقد أنّ تشارلي ميت ـ قالت في النهاية ـ، وإن كنتُ واثقة من أنّني لن أعود لأراه.

أكّدت حنّة أمام ريبتنا أنّها تعتقد أنَّ كلّ هذا كان مزحة من تشارلي. لا تستطيع أن تتصوّره غريقاً، لسبب بسيط وهو أنّه يسبح بشكل ممتاز. إذاً لماذا لا يظهر؟ ما الذي كان يدفعه إلى البقاء متخفّياً. كان جواب حنّة يستند إلى الجنون والصدود. قرأتْ في روايةٍ أمريكية شمالية قصّةً مشابهة، لكنّ السبب هناك كان الكراهية. تشارلي لا يكره أحداً. تشارلي مجنون. ثمّ إنّه ما عاد يُحبّها (يبدو أنّ هذا اليقين الأخير يُحصّن مزاج حنّة).

خرجنا بعد الغداء لنتحادث في شرفة فندق كوستا برافا. في الحقيقة حنّة هي التي تتكلّم ونحن نتابع طريق حديثها المتعرّج، كما لو أنّنا

نتناوب على العناية بمريضة. صوت حنّة ناعم وعلى الرغم من الترهات التي كانت تحيكها الواحدةَ بعد الأخرى فالاستماع إليها بالنتيجة مسكِّن. تحكي الحوار الذي أجرته مع موظّف في القنصلية الألمانية كما لو أنّ الأمر يتعلّق بلقاء غرامي؛ تحاضر حول «صوت القلب» و«صوت الطبيعة»؛ تحكي نكاتٍ عن ابنها وتتساءل من سيُشبِه حين يكبر، الآن هو نسخة طبق الأصل عنها، بكلمة واحدة أذعنت أمام الرعب، أو ربّما خلطت بمكرِ الرعب بالقطيعة. حين تمنينا لبعضنا بعضاً ليلة سعيدة لم يكن في الشرفة أحد وأنوار المطعم أُطفئت.

حنّة، بحسب إنجيبورغ، لا تكاد تعرف شيئاً عن تشارلي:

ـ حين تكلّمتْ مع موظّف القنصلية لم تعرف ولا حتى أن تعطيه عنوانَ أقارب قريبين أو بعيدين ليبلغوهم عن اختفائه. استطاعت فقط أن تُقَدّم اسم الشركة التي يعملُ كلاهما فيها. الحقيقة أنّها تجهل حياة تشارلي الماضية تماماً. على منضدة السرير في غرفتها كانت تملك هويّة تشارلي، مفتوحة وصورته تتقدّم كلّ شيء، إلى جانب الهويّة كومة من النقود وحنّة كانت واضحة جدّاً: إنّها نقوده.

لم تجرؤ إنجيبورغ على النظر إلى الحقيبة التي وضعت فيها حنة الأشياء التي جاء بها تشارلي إلى إسبانيا.

تاريخ المغادرة: الفندق مدفوع حتى الفاتح من أيلول، أي حتى الغد، قبل الثانية عشرة، عليها أن تقرّر ما إذا كانت ستغادر أم ستبقى. أفترض أنّها ستبقى، على الرغم من أنّها تبدأ العمل يوم الثالث من أيلول. يُذكّرني هذا أنّنا نبدأ أنا وإنجيبورغ في الخامس منه.

١ أيلول

في الثانية عشرة ظهراً غادرت حنّة إلى ألمانيا في سيّارة تشارلي. قال مدير فندق كوستا برافا ما إن عرف بذلك إنّ هذا كان حماقة لا تُغتفر؟ السبب الوحيد عند حنّة هو أنّها لم تكن تستطيع أن تتحمّل التوتّر. أصبحنا الآن بطريقة غامضة ولا مناص منها وحدنا، الأمر الذي حتى وقت قصير كنتُ أرغب به، لكن ليس بالطريقة التي حدث بها؛ كلّ شيء يبدو مماثلاً لما كان عليه البارحة، على الرغم من أنّ الحزن بدأ يغطي على المشهد. رجتني حنّة قبل أن تغادر أن أعتني بإنجيبورغ. طبعاً سأفعل، طمأنتُها، لكن من سيعتني بي؟ أنتَ أقوى منها، قالت من داخل السيارة. فاجأني هذا لأن غالبية الذين يعرفوننا نحن الاثنين يُفكّرون في أنّ إنجيبورغ أقوى منّي. استطعتُ أن أرى خلف عدستيها السوداوين نظرة قلق. ما من شيء سيّئ سيحدث لإنجيبورغ، وعدتُ. إلى جانبنا أطلقت إنجيبورغ زفرةً ساخرة. أُصَدّقك، قالت حنّة، شادّة على يدي. بعدها بدأ مدير فندق كوستا برافا يُضايقنا هاتفياً كما لو أنّه يحمّلنا مسؤولية رحيل حنّة. المكالمة الهاتفية الأولى وردت عندما كنّا نأكل، ذهب نادل إلى الطاولة ليبحث عنّا، فظننتُ ضدّ كلّ منطق أنّها حنّة تهتفُ من أوبرهاوزن لتخبرنا أنّها وصلت سالمة غانمة. إنّه المدير، يمنعه الاستياء من أن يتكلّم بطلاقة؛ يهتف ليتأكّد ممّا إذا كانت حنّة قد غادرت حقّاً. قلتُ له بلى، وعندها أعلمني أنّ حنّة قد تجاوزت بهذا «الهرب» كلَّ الشرعية الإسبانية. وضعها الآن حساس جدّاً. غامرت وقلتُ له من المحتمل جدّاً أن حنّة لم

تكن تعرف أنّها تخرق قانوناً. ليس واحداً بل عدد منها! قال المدير، والجهل، أيّها الشاب، لا يُبرّئ أحداً. لا. حساب الفندق كان مُسدّداً. المشكلة تكمن في تشارلي، حين تظهر جثّته، الأمر الذي لم يكن يشكّ فيه، يجب أن يكون هناك من يتعرّف إليه. طبعاً تستطيع الشرطة الإسبانية أن تبرق للشرطة الألمانية بالمعلومات التي سلّمها تشارلي في سجلّ الفندق؛ والباقي يقوم به الألمان بحواسبهم. إنّه تصرّف في غاية التهوّر، قال قبل أن يُغلق. جاءت المكالمة الثانية بعد دقائق قليلة كي يعلمنا مذهولاً أنّ سيارة تشارلي مع حنّة، العمل الذي يمكن أن يُعتبر جريمة. كانت إنجيبورغ من تكلّمت كي تقول إنّ حنّة لم تكن لصّةً وإنّها احتاجت السيارة لتعود إلى ألمانيا، لماذا إن لم يكن من أجل هذا؟ ما ستفعله لاحقاً بالسيارة اللعينة هي مسألتها حصراً. أصرّ المدير على أنّ المسألة تتعلق بسرقة وانتهت المحادثة بطريقة فظّة إلى حدّ كبير. المكالمة الثالثة، جاءت مُهَدّئة، كانت من أجل أن يسألنا ما إذا كان باستطاعتنا أن نُمَثّل الطرف «المتأثّر» بصفتنا أصدقاء (أعتقد أنّه كان يقصد بهذا المسكينَ تشارلي) في الأعمال التي تحيط بعملية البحث. قبلنا. تمثيل الجانب المتأثّر كان بعكس ما فكّرت فيه شيئاً قليلاً. عملية الإنقاذ، هذا صحيح، استمرّت، على الرغم من أنّه ما من أحدٍ عاد عنده أملٌ بالعثور على تشارلي حيّاً. سرعان ما فهمنا قرار حنة، فذلك كان لا يُحتمل.

لم يتغيّر شيء. هذا ما استغربته. في الصباح لا يمكن التجوّل في ممرات الفندق بسبب الناس الذين كانوا يُغادرون. لكن في هذا المساء رأيت في الشرفة وجوهاً جديدةً، بيضاء، متحمّسة، دفعة جديدة. حدث ارتفاع في الحرارة، كما لو كنّا في تموز، والنسمة التي كانت ترطّب في المساء شوارع البلدة الحارة اختفت. عرق دبِقٌ يجعل الملابسَ تلتصق بالجسد والخروجَ للمشي هلاك. أيضاً لمحتُ الذئبَ والخروف قرابة ثلاث ساعات قبل مغادرة حنّة، في ركن الأندلسيين، تظاهرا في البداية

أنّهما لم يرياني؛ اقتربا بعدها بوجهين مغمومين وشرعا يوجّهان لي الأسئلة التي يستدلّ منها على الصرامة. أجبت بأنّني لم أكن أعرف أيّ شيء جديد وأنّ حنّة الآن في طريقها إلى ألمانيا. تعرّض وجهاهما وموقفهما مع هذا الخبر الأخير إلى تبدّل ملحوظ. فاسترخت تقاسيمهما وصارت أكثر ودّية؛ كان الطقس حارّاً. أدركتُ بعد دقائق أنّ ذلك الثنائي من الخنازير لم يكن مستعداً لتركي؛ تجرى الدردشة في المجاري ذاتها، تسيطر عليها الرموز ذاتها التي اعتادا أن يجرياها مع تشارلي، مع فارق أنّني كنتُ أنا مكان تشارلي، وإنجيبورغ مكان حنّة!

بعدها سألتُ إنجيبورغ ماذا أرادت أن تقول حين قالت بأنّ الجميع كانوا يجسون حنّةَ. يمحو جوابها، على الأقل جزئياً، افتراضاتي. كانت المسألة مسألة تعميم، حنّة كضحية للرجال، امرأة قليلة الحظّ في بحث أبديٍّ عن التوازن والسعادة، إلخ. احتمال وجود حنّة المغتصبة من قبل الإسبانيِّين لا تخطر ببال، في الحقيقة إنجيبورغ لا تكاد تولي هذين أهمّية: تتكلّم عنهما كما لو أنّهما خَفيّان. فتيان عامّان وعاديان، وبالحكم عليهما من برنامجهما ليسا مجدّين في عملهما، يحبّان اللهو؛ وهي أيضاً، تؤكّد، تحبّ أن ترتاد المراقص وأن ترتكب جنوناً ما. ما نوع الجنون؟ أهتمُّ. ألا أنام، أن أشرب أكثر من اللازم، أن أغنّي فجراً في الشوارع، الجنون، جنون إنجيبورغ أقرب إلى الخفيف. جنون سَليم، تُدقِّق هي. هكذا إذن ليس عندها عدوانية ولا تحفّظ تجاه الإسبانيين، باستثناء العدوانية والتحفّظ الطبيعيين. في هذه الحالة يعود الذئب والخروف في العاشرة ليلاً ليظهرا على المسرح: الحديث، الذي كان في الحقيقة دعوة للخروج رفضناها، كان يدور معنا بطريقة سوقية جدّاً، ونحن جالسان إلى طاولة شرفة الفندق (جميع الطاولات كانت مليئة وفيها فيض من كؤوس المثلجات والمشروبات) وهما واقفان على الرصيف يفصل بيننا درابزين الحديد، الفاصل بين الشرفة وحشود

المتنزهين، الذين يجوبون في تلك الساعة الكورنيش مخنوقين بالقيظ. لم تكن كلماتنا وكلماتهم تتعدّى الرثاثة؛ أكثر من كان يتكلّم (ويومئ) هو الخروف؛ وقد نجحت ملاحظاته في أن تنتزع ابتسامة من إنجيبورغ، حتى قبل أن أُترجمها لها، بعكسها جاءت مداخلات الذئب، فهي موزونة ومتأنّية، يمكن القول إنّه يتحسّس الأرض تحته بينما هو يُعَبّر بإنكليزية تفوق تعلُّمَهُ، لكنّها منطبقة على نوع من الإرادة الحديدية، على نوع من الرغبة في أن يحشر رأسه في عالم يحدس به فقط. لم يحدث قط في تلك الأيام أن شابَهَ الذئبُ اسمَهُ كما في ذلك اليوم؛ وجه إنجيبورغ البراق النضر، المسمرّ، كان يشدّ نظرتَهُ كما يشدّ القمرُ الرجالَ الذئاب في أفلام الرعب القديمة. يصرّ أمام تحفّظنا على الخروج، ويبح صوته، يعد بمراقصَ جديرة بأن توطأ، يؤكّد أنّ التعب سيتبخر ما إن ندخل واحدةً من هذه الزرائب... كلّ ذلك لم يُجد. كان رفضنا قاطعاً ونُعبّر عنه من فوق رأسيهما بشبرين، فمستوى الرصيف أخفض من الشرفة. لا يصرّ الإسبانيان. يبدآن كمقدّمة للوداع يستذكران صورةَ تشارلي. الصديق مع التأكيد على الكلمة. يمكن لأيٍّ كان أن يُفكّر في أنّهما يشتاقان إليه فعلاً. صورتاهما، اللتان سرعان ما ستضيعان بين المارّة، تبدوان لي حزينتين جدّاً، هكذا أُعْلِمُ إنجيبورغ. تنظر هذه إليَّ لبضع ثوانٍ وتقول إنّها لا تفهم عليّ:

ـ منذ لحظة كنتَ تُفكّر في أنّهما اغتصبا حنّة والآن تحزن عليهما. في الحقيقة هذان الوغدان ليسا أكثر من عاشقين لاتينيين بائسين.

كلانا ضحك بلا كوابح إلى أن اقترحت إنجيبورغ أن ننام باكراً وننتهي. كنتُ موافقاً.

ـ بعد ممارسة الحبّ رحتُ أكتبُ في الغرفة بينما عادت إنجيبورغ وانهمكت في رواية فلوريان ليندين. لم تكتشفْ القاتلَ بعد ومن طريقتها في القراءة يمكن أن يقول المرءُ إنّه شيء لا يشغلها. تبدو متعبة؛ فهذه

الأيّام الأخيرة لم تكن لطيفة. لا أدري لماذا أُفكّر في حنة، داخل السيارة قبل أن أُقلِع تقدّم لي النصائح بصوتها المتهدّج...

ـ ترى هل وصلت حنة إلى أوبرهاوزن؟

ـ لا أدري. غداً ستهتف ـ تقول إنجيبورغ.

ـ وماذا لو لم تفعل؟

ـ هل تعني ماذا لو نسيتنا؟

لا، طبعاً، لن تنسى إنجيبورغ. لن تنساني أيضاً. فجأة شعرتُ بالخوف. بمزيج من الخوف والنشوة. لكن الخوف ممّ؟ أتذكّر كلمات كونراد: «العب في ملعبك وستربح دائماً». «لكن أيّها ملعبي؟» سألتُ. ضحك كونراد بطريقة غير معهودة عنده، دون أن يحرفَ نظره، عيناه لامعتان وثابتتان عليّ. الفريق الذي يختاره دمُك. أجبته أنّني بهذا الشكل لا أستطيع أن أفوز دائماً؛ مثلاً إذا اخترتُ الألمانَ في تدمير مجموعة جيوش المركز، فأقصى ما أستطيع أن أحاوله في أفضل الحالات هو أن أفوز مرّة من كلّ ثلاث مرّات. ما لم ألعب مع أبله. أنت لا تفهمني، قال كونراد. عليك أن تستخدم الاستراتيجية العظمى. عليك أن تكون أكثر دهاءً من أرنب. هل كان هذا حلماً؟ الحقيقة أنّني لا أعرفُ أيَّ لعبة تُدعى تدمير مجموعة جيوش المركز!

فيما عدا ذلك كان يوماً مضجراً وغير منتج. بقيتُ برهة على الشاطئ أتلقى أشعّةَ الشمسِ بصبرٍ وأُحاول أن أُفكّر بوضوح وعقلانية دون كبيرِ نجاح. في رأسي لا تتشكّل إلا صور مرّ عليها عقد: أبواي يلعبان الورقَ في شرفة الفندق. أخي يطفو مشكلاً بذراعيه صليباً. صبية إسبان (غجر؟) يجوبون الشاطئ مسلحين بالعصي، غرفة المستخدَمين، سيّئة الرائحة ومليئة بالأسرّة، جادّة مليئة بالمراقص، الواحد تلو الآخر، إلى أن تختلط بالشاطئ، شاطئ أسود الرمل أمام بحر أسود المياه، حيث إنّ

العلامة الملونة الوحيدة هي حصن زلاجات المحروق التي تظهر فجأة... مقالتي تنتظر. الكتب التي وعدتُ بقراءتها تنتظر. بينما الساعات والأيّام تجري سريعة، كما لو أنّ الزمن يجري هابطاً. لكنّ هذا مستحيل.

٢ أيلول

الشرطة... قلتُ لفراوا إلسي إنّنا سنُغادر غداً. فاجأها الخبرُ، بعكس ما كنتُ أتوقّع، لاحظت على وجهها علامة كدرٍ خفيفة سارعت لإخفائها بمرحِ امرأةِ أعمالٍ كفء. على كلّ الأحوال بدأ النهار بشكل سيّئ؛ كان يؤلمني رأسي وأتصبّب عرقاً كثيراً بالرغم من أنّني تناولتُ ثلاث حبات أسبرين وحمامَ ماءٍ بارد. سألتني فراو إلسي عمّا إذا كانت النتيجة مُرضِيَة. أيّ نتيجة؟ نتيجة الإجازة. هززتُ كتفيَّ وأخذتني هي من ذراعي وقادتني إلى مكتب صغير مخفي خلف مكتب الاستقبال. كانت تريد أن تعرف كلَّ شيء عن اختفاء تشارلي. قدّمت لها بصوت رتيب مُخْتَصَرَ ما جرى. خرج معي المختصرُ جيداً بما يكفي، مرتباً زمنياً.

ـ اليوم تكلّمتُ مع السيّد بيري، مدير فندق كوستا برافا؛ يعتقد أنّك أحمق.

ـ أنا؟ ما علاقتي بهذه القضيّة؟

ـ أعتقد أنّه لا علاقة لك بها أبداً. لكن سيكون من المناسب أن تستعدّ... الشرطة تريد أن تستجوبك.

ابيضَّ لوني. أنا! ربتت يدُ فراو إلسي عدّة ربتاتٍ على ركبتي.

ـ ليس هناك ما يشغل. فقط يريدون أن يعرفوا لماذا ذهبت الفتاة إلى ألمانيا. إنّه ردّ فعل متهوّر قليلاً، ألا يبدو لك ذلك؟

ـ أي فتاة؟

ـ صديقة الميّت.

ـ قلته لك للتو، سئمت من كثرة الفوضى. عندها مشاكل شخصية، آلاف الأشياء.

ـ حسن. لكن المسألة كانت تتعلّق بخطيبها. أقل ما كان من الممكن أن تفعله هو أن تنتظر حتى تنتهي عملية الإنقاذ.

ـ لا تقولي لي أنا هذا... هكذا إذن عليّ أن أبقى هنا حتى تظهر الشرطة؟

ـ لا، افعل ما يحلو لك؛ لو كنتُ مكانك لذهبت إلى الشاطئ. حين يصلون سأرسل أحدَ مستخدمي الفندق ليبحث عنك.

ـ وهل على إنجيبورغ أن تحضر أيضاً.

ـ لا، يكفي واحد.

فعلتُ ما نصحتني به فراو إلسي ومكثنا على الشاطئ حتى السادسة مساء، حين جاء ساعٍ ليبحث عنّا؛ الساعي، طفل يقارب الثانية عشرة من عمره، يرتدي مثل شحاذ فيتساءل المرء حكماً كيف يمكن أن يُشغّلوه في فندق. أصرّت إنجيبورغ على أن تذهب معي. كان لون الشاطئ ذهبيّاً داكناً ويبدو متوقّفاً في الزمن. الحقيقة أنّني ما كنتُ لأتحرّك من هناك. كان الشرطيون يرتدون لباسهم الموحّد وينتظرون على طاولة عرض البار يتحادثون مع نادل، وعلى الرغم من أنّه لم يكن هناك ضرورة إلاّ أنّ فراو إلسي أشارت إلينا تدلنا على المكان الذي ينتظروننا فيه. أتذكّر أنني فكّرت حين اقتربنا في أنهم لن يلتفتوا إلينا أبداً وأنّني سأجد نفسي مجبراً على أن أنقر على ظهرهم كمن يقرع باباً. لكن يبدو أن الشرطيين شعروا بنا من خلال نظرة النادل أو لسبب آخر أجهله، وقبل أن نصبح بجانبهم نهضوا على أقدامهم وحيّونا رافعين أيديهم حتى رفرف قبعاتهم، العمل الذي أحدث في نفسي تأثيراً معكراً. جلسنا إلى طاولة منعزلة وذهبوا مباشرة إلى صلب الموضوع: هل كانت حنة تعرف ما تفعله حين غادرت

إسبانيا؟ (لم نكن نعرف ما إذا كانت حنة تعرف)، ما العلاقة التي كانت تربطها بتشارلي؟ (الصداقة)، ما الدافع الذي دفعها كي تذهب؟ (نجهله)، ما عنوانها في ألمانيا؟ (نجهله ـ كذب سجّلته إنجيبورغ لنا ـ، لكن يستطيعون أن يتحقّقوا منه في القنصلية الألمانية في برشلونة، حيث أعطت، كنّا نفترض، كلّ معلوماتها الشخصية)، هل تعتقد حنّة أو نعتقد نحن أنّ تشارلي انتحر؟ (طبعاً نحن لا، حنّة هي من تعرف) وهكذا بضعة أسئلة أخرى غير مجدية إلى أن اعتبروا المقابلة منتهية. تصرّفوا طيلة الوقت بلباقة وحيونا عسكرياً مرّة أخرى عندما غادروا. خصّتهم إنجيبورغ بابتسامة مع أنّها حين أصبحنا لوحدنا قالت بأنّها لا تعرف الساعة التي تكون فيها في ستوتغارت، بعيداً عن هذه البلدة الكئيبة والفاسدة، وعندما سألتُها ماذا تعني بكلمة *فاسدة* نهضت وتركتني وحدي في المطعم. تماماً حين ذهبت هي خرجت فراو إلسي من مكتب الاستقبال وجاءت نحونا؛ ما من واحدة منهما توقّفت، ومع ذلك فقد ابتسمت لها فراو إلسي حين مرّت بجانبها، أنا واثق من أنّ إنجيبورغ لم تفعل الشيء ذاته. على كلّ الأحوال لم تُعطِ فراو إلسي أهمّية للمسألة. حين وصلتْ إلى جانبي أرادت أن تعرف كيف جرى الاستجواب. اعترفتُ أنّ حنة فاقمت الوضع بذهابها. كانت الشرطة الإسبانية بحسب فراو إلسي لطيفة. لم أناقضها. بقينا لحظة لم يُضف أحد منّا شيئاً، بالرغم من أنّ الصمت كان ذا معنى كبير. أخذتني بعدها فراو إلسي من ذراعي كما سبق أن فعلت وقادتني عبر سلسلة من الممرات في الطابق الأوّل؛ طيلة الطريق لم تفتح فمها إلاّ لتقول «ليس عليك أن تكتئب»؛ أعتقد أنّني وافقت معها. توقّفنا في غرفة بجانب المطبخ. يبدو أنّ المكان يقوم بدور مغسل الفندق. عبر نافذة يُرى فناء إسمنتي داخليّ مليء بالأصص الخشبية ومُغطّى بقطعة بلاستيك خضراء هائلة لا تكاد تمرّر نور المساء؛ في المطبخ الخالي من الهواء المُكيّف فتاة ورجل عجوز كانا ما يزالان

يغسلان أطباقَ الغداء. عندها قبّلتني فراو إلسي دون سابق إعلام. الحقيقة أنّها لم تأخذني على حين غرّة. كنتُ أرغب بها وأنتظرها. لكن إذا أردت أن أكون صريحاً، لم أكن أعتقد أنّ ذلك ممكن. بالطبع استجبتُ لقبلتِها بالحرارة التي تستحقها الحالة. أيضاً لم نفعل شيئاً خارقاً. كان باستطاعة غاسلا الأطباق أن يريانا من المطبخ. انفصلنا بعد خمس دقائق. كلانا كان مضطرباً وعدنا إلى المطعم دون أن نعلّق. هناك ودّعتني فراو إلسي شادّة على يدي. ما يزال يصعب عليّ تصديق ذلك.

أمضيتُ بقيّة المساء مع المحروق. صعدتُ أوّلاً إلى الغرفة ولم أجد إنجيبورغ. افترضتُ أنّها تقوم بجلب المشتريات. كان الشاطئ شبهَ مُقفر. اكتشفته جالساً إلى جانب الزلاجات المصفوفة لأوّل مرّة بوجهها نحو البحر، ونظره ثابت على الزلاجة الوحيدة المؤجَرة، التي بدت في تلك اللحظة بعيدة جدّاً عن الضفة. جلستُ بجانبه كما لو أنّ الأمر يتعلّق بأحد معارفي القدامى، وبعد برهة قصيرة رسمتُ على الرمل خريطةَ معركة لاس أردِناس (أحد اختصاصاتي) أو معركة البولج كما يُسميها الأمريكيون وشرحتُ له بالتفصيل خطط المعركة، ترتيب ظهور الوحدات، الطرق التي ستتبع، معابر الأنهار، تدمير وبناء الجسور، تفعيل هجوم الجيش الخامس عشر، التوغّل الحقيقيّ والتوغّل الصوري لمجموعة معركة بيبّر، إلخ. خرّبتُ بعدها الخريطة بقدمي، سوّيت الرمل ورسمت خريطة منطقة سمولينسك. هناك، قلتُ، قوات غوادريان المدرعة خاضت معركة مهمّة في عام ٤١، معركة حاسمة. أنا كسبتها دائماً. طبعاً مع الألمان. محوتُ الخريطة مرّة أخرى، سوّيت الرمل، رسمتُ وجهاً. عندها فقط ابتسم المحروق، دون أن يحيد انتباهه لوقت طويل عن الزلاجة التي كانت ما تزال ضائعة في البعيد. شعرتُ بقشعريرة خفيفة. لحم خدّه، قشرتان أو ثلاث قشرات سيئة التراكُب، تجعد فخفت لثوانٍ أن يستطيع من خلال هذا التأثير البصري ـ لا يمكن أن يكون شيئاً

آخر ـ أن يُنوّمني مغناطيسياً ويدمّر حياتي للأبد. صوت المحروق ذاته جاء لمساعدتي. كما لو أنه يتكلّم من مسافة لا يمكن إدراكها، قال: هل تعتقد أنّ الواحد منا يفهم الآخر؟ أجبته بالإيجاب بحركة متكرّرة من رأسي، سعيداً بأنّني استطعتُ أن أتحرّر من السحر الذي كان يمارسه عليّ خدّه المشوّه. بقي الوجه الذي رسمته هناك، بالكاد يشكل خربشة (على الرغم من أنّ عليّ أن أعترف بأنّني لستُ رسّاماً سيّئاً) إلى أن أدركتُ فجأة مذعوراً أنّه كان وجه تشارلي. الكشف تركني بلا كلام. كان كما لو أنّ أحداً كان يُوجّه يدي. سارعت لمحوه ورسمتُ على الفور خريطة أوروبا، شمال أفريقيا والشرق الأوسط ورسمت أسهماً ودوائر كثيرة، استراتيجيّتي الحاسمة كي يفوز الرايش الثالث. أخاف كثيراً ألا يكون المحروق قد فهم شيئاً.

الجديد في هذا المساء كان مكالمة حنّة. قبلها كانت قد هتفت مرّتين لكنّ لا أنا ولا إنجيبورغ كنّا في الفندق. حين وصلتُ سلّمني عامل الاستقبال الرسالةَ وأحبطني الخبر. لم أكن أريد أن أتكلّم مع حنة وتوسّلت الله أن تظهر إنجيبورغ قبل أن تحصل المكالمة الثالثة. انتظرت منزعجاً في الغرفة. حين عادت إنجيبورغ قرّرنا أن نبدّل خططنا، وهي ألا نأكل في مطعم في الميناء ونبقى منتظرين في فندق البحر. حسناً فعلنا. هتفت حنّة في اللحظة التي كنّا نستعد فيها للهجوم على عشائنا المتقشّف: شرائح لحم خنزير مع الجبن وبطاطا مقلية. أتذكّر أنّه جاء في طلبنا نادل وأنّنا حين نهضنا عن الطاولة أكّدت إنجيبورغ أنّه لم يكن ضرورياً أن يذهب كلانا. قلت لها لا يهم، على كلّ الأحوال لن يبرد الطعام. في الاستقبال وجدنا فراو إلسي. ترتدي فستاناً مختلفاً عن فستان المساء وتبدو خارجة توّاً من الحمّام، تبادلنا الابتسام وحاولنا أن نتحادث بينما إنجيبورغ تتمتم أبعد ما تستطيع وظهرها إلينا بجمل مثل «لماذا؟» «لا أستطيع أن أُصدّق» «يا للقرف» «يا إلهي»، «خنازير، عليهم اللعنة»،

«لماذا لم تقوليه لي من قبل» لم أستطع أن أتفادى سماعها وراحت شيئاً فشيئاً تستفزّ أعصابي. أيضاً لاحظت أنّ ظهر إنجيبورغ كان ينحني مع كلّ عبارة استغراب حتى تشبه المحارة؛ أحزنتني؛ كانت مرعوبة. على العكس منها فراو إلسي بمرفقيها المستندين بقوة إلى طاولة العرض لامعة الوجه، تكتسب بعكسها وضعية تمثال كلاسيكي، فقط شفتاها كانتا تتحرّكان عندما تتكلّم دون تستُّرٍ على ما حدث قبل ساعات في مغسل الثياب (أعتقد أنّها طلبت منّي ألاّ أُوسّس لتطلعات زائفة، لا أستطيع أن أؤكّد ذلك) بينما كانت فراو إلسي تتكلّم كنتُ أبتسم، لكنّ أحاسيسي كلّها كانت مصبوبة على كلمات إنجيبورغ. سلك الهاتف بدا أنّه مستعد ليقفز إلى رقبتها.

كان الحديث مع حنّة لا نهاية له. قالت إنجيبورغ بعد أن أغلقت الهاتف:

ـ من حسن الحظّ أنّنا سنذهب غداً.

عدنا إلى المطعم لكنّنا لم نلمس طبقينا. علّقت إنجيبورغ بخبث قائلة إنّ فراو إلسي كانت تذكّرها من دون مكياج بساحرة. ثمّ قالت إنّ حنّة مجنونة، وإنّها لم تكن تفهم شيئاً. كانت تتفادى نظرتي وتطرق بالشوكة على الطاولة، فكّرت في أنّ غريباً من بعيد ما كان ليعطيها أكثر من ستّة عشر عاماً. حنان لا يقاوم صعد تجاهها من معدتي. عندها بدأت تزعق، كيف أمكن هذا، كيف أمكن هذا. مكتئباً خفت أن تخرج عن طورها أمام الناس الذين كانوا ما يزالون في المطعم، لكنّ إنجيبورغ ابتسمت فجأة كما لو أنّها قرأت تفكيري وقالت إنّها لن تعود لتلتقي بحنّة. سألتُها ما الذي حكته لها هذه. ومستبقاً جوابها قلت لها إنّه كان منطقياً أن تكون حنّة فاقدة لعقلها قليلاً. أنكرت إنجيبورغ بحركة من رأسها. كنت مخطئاً، فحنّة كانت أكثر ذكاءً مما كنتُ أظنّ. جاء وقع صوتها غيرَ ودّي. أنهينا طبق العقبة بصمت وصعدنا إلى الغرفة.

٣ أيلول

رافقتُ إنجيبورغ إلى المحطّة. انتظرنا وصولَ القطار المتوجه إلى سيربير نصفَ ساعة، جالسَيْن على مقعدٍ. تقريباً لم يقل أحدنا للآخر شيئاً. على الأرصفة كان يتجوّل حشدٌ من السياح الذين انتهت إجازاتهم وما زالوا يصارعون كي يتوضعوا في الأماكن المشمسة. وحدهم كبار السن يجلسون على المقاعد في الظلّ. بينهم، بين من كان منهم مغادراً وبيني هوّة؛ على العكس لم تبدُ لي إنجيبورغ خارج السياق في ذلك القطار المزدحم بالناس. بل إنّنا أضعنا دقائقنا الأخيرة في تقديم التوجيهات: كثيرون منهم لم يكونوا يعرفون في أيّ خط يقفون ومستَخْدَمو المحطّة لم يكونوا يُساهمون بتوجيههم بالتحديد. كان الناس يتصرّفون مثل قطيع من الأغنام. كفى أن نشير لاثنين إلى المكان الدقيق حيث يجب أن يأخذا القطار (وهو أمر لم يكن صعباً على المرء أن يتحقق منه بنفسه، لم يكن يوجد غير أربعة خطوط) كي يقارن ألمان وإنكليز معلوماتهم بمعلوماتنا. من نافذة القطار سألت إنجيبورغ عمّا إذا كانت ستراني قريباً في ستوتغارت. قريباً جداً، قلتُ. حركة إنجيبورغ، انقباضٌ أدنى من شفتيها وأرنبة أنفها، توحي بأنّها لا تُصدّقني. لا يهمّني ذلك.

ظننتُ حتى آخر لحظة أنّها ستبقى. لا، ليس صحيحاً. فأنا دائماً عرفت أنّه ما من شيء كان قادراً على إيقافها، هناك أوّلاً عملها واستقلاليتها، هذا دون أن نأخذ بالحسبان أنّها فقط بعد مكالمة حنّة صارت تُفكّر في الرحيل. كان الوداع مؤسفاً. فقد فاجأ أكثر من واحدٍ،

بدءاً من فراو إلسي، على الرغم من أنّه من المحتمل أنّ المفاجأة أثارها قراري بالبقاء. الحقيقة أنّ أوّل من فوجئ كانت إنجيبورغ.

في أيّ لحظة عَرَفْتُ أنّها ستذهب؟

البارحة، بينما كانت تتحدّث مع حنّة. أُغلق كلّ شيء. كلُّ شيء واضح ونهائي. (لكنّنا لم ندلِ بأدنى تعليق).

في هذا الصباح دفعتُ حسابها، حسابها فقط، وأنزلتُ حقائبها. لم أكن أريد أن أضفي طابع المأساة على ما تفعله ولا أن يبدو ما تفعله هروباً. كنتُ أحمق. أعتقد أنّ عاملة الاستقبال هرعت لتحمل الخبر إلى فراو إلسي. أكلتُ والوقت ما يزال باكراً في الصومعة. كان الشاطئ يُرى من المطلّ مقفراً. أعني مقفراً بالمقارنة مع الأيام السابقة. أكلتُ من جديد يخنة أرانب وشربتُ زجاجةَ نبيذ ريوخا. أظنّ أنّني لم أكن أرغب بالعودة إلى الفندق. كان المطعم شبه فارغ، إلا من بعض التجار الذين كانوا يحتفلون بشيء على طاولة مزدوجة في الوسط. كانوا من جيروانا ويحكون نكاتٍ بالكتلانية، لا تكادُ نساؤهم يستسغنها. سبق أن قال ذلك كونراد: «إيّاك أن تأخذ معك صديقات إلى الاجتماعات». كان الجوّ جنائزياً، في الحقيقة بدوا جميعاً ذاهلين مثلي. نمت القيلولة في السيارة في خليج قريب من البلدة وأردت أن أتذكّر الإجازات مع والديَّ. استيقظتُ وأنا أتصبّب عرقاً ودون أيّ أثر للسكرة.

في المساء زرتُ مدير فندق كوستا برافا، السيّد بيري، وأكّدتُ له أنّني في فندق البحر تحت تصرّفه لكلّ ما يعتبره مناسباً. تبادلنا المجاملات اللطيفة وغادرتُ. ثمّ ذهبتُ إلى قيادة البحرية، حيث لم يعرف أحد أن يعطيني معلومات عن تشارلي. المرأة التي اهتمّت بي بدايةً لم تعرف عمّا كنتُ أُكلّمها، ومن حسن الحظ أنّه وصل موظّف كان يعرف القضيّة وتوضّحَ كلّ شيء. لم يكن هناك جديد. العمل متواصل.

صبراً. في الفناء راح يجتمع حشدٌ صغير. فتاة من الصليب الأحمر البحري قالت إنّهم أقارب غريق جديد. بقيت برهة هناك جالساً على الدرج إلى أن قرّرتُ العودة إلى الفندق. كان بي ألم رأس هائل. في فندق البحر بحثتُ دون جدوى عن فراو إلسي. لا أحد استطاع أن يمدني بخبر عنها. باب الممر المؤدّي إلى المغسل كان مغلقاً بالمفتاح. أعرف أنّه يمكن الدخول من طريق آخر لكنّني لم أستطع العثور عليه.

الفوضى في الغرفة تامّة، السرير مخرّب وملابسي مبعثرة على الأرض. أيضاً سقط عدد من محاسبي الرايش الثالث. الأكثر منطقية هو أن أعدّ حقائبي وأُولّي الأدبار. ومع ذلك هتفتُ إلى الاستقبال وطلبتُ منهم أن يُنظّفوا الغرفة. بعد برهة قصيرة ظهرت الفتاة التي كنتُ أعرفها، نفسها التي حاولت عبثاً أن تؤمن لي الطاولة. علامة حسنة. جلستُ في زاوية وقلت لها أن تجمع كلّ شيء. وفي دقيقة كانت الغرفة مرتّبة ومشعة (هذا الأخير كان بسيطاً) كفى أنها سحبت الستائر. حين انتهت وجّهت إليّ ابتسامة ملائكية. راضياً منحتها ألف بيزيتا. الفتاة ذكية: المحاسبون الساقطون الآن مصطفون بجانب الرقعة. لا ينقص أيّ منهم. بقية المساء قضيته حتى أعتمت على الشاطئ، بجانب المحروق أتكلّم عن ألعابي.

٤ أيلول

اشتريت الشطائر من بارٍ يُدعى لوليتا والبيرة من سوبر ماركت. حين وصل المحروق قلتُ له أن يجلس بجانب السرير وأنا اتخذت مقعداً لي على يمين الطاولة، مستنداً بيدٍ إلى الرقعة في وضعية مسترخية ومجالٍ بصريٍّ واسع: في جانبِ المحروق وخلفه السرير ومنضدة السرير، التي ما يزال عليها كتاب فلوريان ليندين، وفي الجانب الآخر على اليسار، الشرفة المفتوحة، الكراسي البيضاء، الكورنيش، الشاطئ وحصن الزلاجات. فكّرتُ في أن أتركه يتكلّم هو أوّلاً، لكنّ المحروق لم يكن شخصاً سهلَ الكلام، وهكذا تكلّمتُ أنا. بدأتُ بإخباره بطريقة بسيطة بمغادرة إنجيبورغ في القطار، بالعمل، نقطة وانتهى. أجهل ما إذا كان قد اقتنع. تابعت الكلام عن طبيعة اللعبة، لا أتذكّر بالضبط كم من الترهات قلتُ، بينها أنّ الحاجة إلى اللعب ليست غير نوع من الغناء وأنّ اللاعبين مغنّون يؤدّون مجموعة لا نهاية لها من المؤلّفات الموسيقية، المؤلفات ـ الأحلام، المؤلفات ـ الآبار، المؤلفات ـ الرغبات، على جغرافيا في تبدّلٍ دائم، مثل طعام يتفسّخ، هكذا كانت الخرائط والوحدات التي تعيش داخلها، القواعد ورمي الزهر، النصر أو الهزيمة الأخيرة. أطباق متفسخة. أعتقد أنّني وقتها أخرجت الشطائر والبيرة وبينما كان المحروق يأكل قفزت من فوق ساقيه بسرعة وأخذتُ كتابَ فلوريان ليندين، كما لو أنّه كنزٌ جاهزٌ للتبخّر. لم أجد بين صفحاته أي رسالة ولا ملاحظة ولا حتى أدنى إشارة تمدّني بالآمال. هي كلمات متفرقة فقط، استجوابات

شرطة واعترافات. في الخارج راح الليل يسيطر ببطء شديد على الشاطئ ويخلق وهمَ حركة زائفة، كثبان صغيرة وصدوع في الرمل. كان المحروق يأكلُ ببطءِ حيوانٍ مُجْتَرّ دون أن يتحرّك من حيث كان في منطقة هي في كلّ مرّة أكثر ظلمة، نظرته منخفضة مغروزة في الأرض أو في رؤوس أصابعه الهائلة، مصدراً أنّاتٍ عاديةً لا تكاد تُسمع. عليّ أن أعترف أنّني عشتُ شيئاً يُشبه القرف؛ إحساساً بالاختناق والحرّ. كانت أنّات المحروق في كلّ مرّةٍ يبلع فيها كرة جبن وخبز أو جامبو وخبز، بحسب أيّ من الشطيرتين اللتين اشتريتهما له كان يأكل، تضغط على صدري حتى تكاد تفلقه. وصلت بلا قوّة تقريباً إلى القاطع وأشعلتُ النور. على الفور شعرت بأنني أحسن على الرغم من أنّ أزيزاً كان ما يزال في صدغيّ ولم يمنعني من أن آخذ بالكلام دون أن أعود للجلوس سائراً مسافات قصيرة بين الطاولة وباب الحمّام (الذي أشعلتُ نوره أيضاً) كي أتكلّم عن توزيع فيالق الجيش، المآزق التي يمكن لجبهتين أو أكثر أن تقدمها للاعب الألماني مالك العدد المحدود من القوات، عن الصعوباتِ التي ينطوي عليها نقل الأعداد الهائلة من المشاة والمدرعات من الغرب إلى الشرق، من شمال أوروبا إلى شمال أفريقيا. وعن الاستنتاج الأخير الذي يصل إليه اللاعبون المتوسطون: النقص المشؤوم بالوحدات لتغطية كلّ شيء. هذه الفكرة الأخيرة جعلت المحروق يصوغ سؤالاً بفم ملآن أزعجتني الإجابة عنه، حتى إنّني لم أفهمه. أفترض أنّني كنتُ مندفعاً وفي داخلي لا أشعر بأنّني في وضع جيّد. هكذا وبدل أن أُجيبه قلتُ له أن يقترب من الخريطة ويراها بأمّ عينه. اقترب المحروقُ بوداعةٍ وأعطاني الحقّ: كان باستطاعة أي شخص أن يرى أنّ الأسهم السوداء لن تفوز. قفْ! مع استراتيجيّتي يختلف الوضع. وأعطيتُ أمثلة شارحاً مباراة لُعِبَتْ في ستوتغارت من زمن ليس بعيداً، على الرغم من أنّني في قرارة نفسي، انتبهت شيئاً فشيئاً إلى أنّه ليس هذا ما أردتُ قوله.

ما هو؟ لا أدري. لكنّه كان مُهمّاً. ساد بعدها صمت مطلق. عاد المحروق ليجلس بجانب السرير وقطعة صغيرة من الشطيرة بين أصابعه، مثل خاتم خطبة، وأنا خرجتُ إلى الشرفة بخطوات كأنّها بكاميرا بطيئة ورحتُ أتأمّل السيّاح الذين كانوا يتجرجرون في الأسفل. كان من الأفضل لو لم أفعل ذلك. كان الذئب والخروف يراقبان غرفتي جالِسَيْن على حافّة الكورنيش. حين رأياني رفعا أيديهما وراحا بعدها يصرخان. على الرغم من أنّني اعتقدتُ في البداية أنّهما يشتمانني، إلاّ أن الصرخات كانت ودّية. كانا يريدان أن ننزل لنتناول قدحاً معهما. (كيف كانا يعرفان أنّ المحروق كان هنا، هذا بالنسبة إليّ لغز) وكانت حركاتهما في كلّ مرّة أكثر إلحاحاً؛ لم أتأخّر في رؤية مارّة متنزهين يرفعون نظرهم باحثين عن الشرفة التي كانت تُثير كلّ ذلك الصخب. كان أمامي خياران، إمّا أن أتراجع وأُغلق الشرفة دون أن أنطق بكلمة واحدة أو أن أصرفهما بوعدٍ لن أفي به. كلا المنظورين كان مزعجاً بوجه محمرّ (التفصيل الذي لم يره الذئب والخروف من تلك المسافة التي كانا فيها) أكّدتُ لهما أنّني سأجتمع بهما بعد برهة في ركن الأندلسيين. لم أتحرّك من الشرفة حتى ضاعا عن ناظري. في الغرفة كان المحروق يدرس الفيش المنشورة في الجبهة الشرقية. مستغرقاً كان يبدو أنّه يفهم لماذا وكيف كانت القوات موزّعة في تلك الخطوط، على الرغم من أنّه كان من الواضح أنّه لا يستطيع أن يعرف. تركتُ جسدي يسقط على كرسيّ وقلتُ إنّني كنتُ متعباً. المحروق لم يرفّ له ولا حتى جفن واحد. ثمّ سأل كيف كان من الممكن لهذين البليدين أن يزعزعاني. ماذا يريدان؟ أن يلعبا؟ سأل المحروق. لاحظتُ على شفتيه إرادة سخرية مرتبكة. لا، أجبتُ، يريدان أن يشربا، يحتفلا بشيء، أيّ شيء يؤكّد لهما أنّهما ليسا مُحنّطيْن.

ـ حياة رتيبة، أليس كذلك؟ ـ نعق.

ـ الأسوأ هي الإجازة الرتيبة.

ـ هما ليسا في إجازة.

ـ سيّان هما يعيشان إجازات الآخرين، يمتصّان إجازات ولهوِ الغير وينغّصان حياة بعض السياح. إنّهما طفيليّا المسافرين.

نظر إليّ المحروق غير مُصدّق. طبعاً كان الذئب والخروف صديقيه على الرغم من المسافة الظاهرية التي تفصل بينهم. على كلّ الأحوال لم يهمّني أنّني قلتُ ما قلته. تذكّرت، أو بالأحرى رأيتُ، وجهَ إنجيبورغ، طرياً ومتورّداً والثقة الكلّية بأنّها تمنحني السعادة. كلّ شيء محطم. هذا الكم من الظلم جعل حركاتي تتسارع، أخذت الملاقط بالسرعة التي يعدّ فيها أمين صندوق أوراقه النقدية وضعت الفيش في تجمعات القوى، العلامات في خاناتها المناسبة. دعوته، متجنّباً أن أُضفي على كلماتي نبرة مأساوية، ليلعب مباراة أو شوطين على الرغم من أنّ تصميمي كان هو اللعب الكامل حتى التدمير العظيم. هزَّ المحروق كتفيه وابتسم عدّة مرّات، وهو ما يزال متردّداً. هذه الحركات كانت تُقبّح تعبيره تقريباً إلى الحدّ الذي لم يكن باستطاعتي أن أتحمّله. هكذا وبينما كنتُ أنتظر جوابَهُ رحتُ أنظر إلى أي نقطة لا على التعيين على الخريطة تماماً كما يحدث في البطولات حين يتواجه فيها لاعبان لم يسبق أن رأى أحدُهما الآخر، حين ينظر الواحد منهما إلى نقطة على الخريطة ويتفادى الوجود المادي للخصم حتى يبدأ الشوط الأول. حين رفعت نظري وجدتُ عيْنَيّ المحروق بريئتَيْن فعرفت أنّه كان يقبل. قرّبنا الكرسيين من الطاولة ونشرنا قواتنا. بقيت جيوش بولندا، فرنسا، الاتحاد سوفييتي في وضع أوّلي غير مواتٍ، وإن لم يكن سيّئاً تماماً آخذاً بالاعتبار غرارة المحروق. الجيش الإنكليزي على العكس كان يحتل مواقع معقولة والأساطيل موزّعة بتوازن ـ مدعومة في المتوسّط من قبل الأسطول الفرنسي ـ والفيالق القليلة من الجيش تُغطّي سداسيات أضلاع ذات أهمّية استراتيجية. الذي حدث هو أنّ المحروق كان تلميذاً متيقّظاً. الوضع الكلّي على الخريطة

كان يشبه بطريقة ما الوضع التاريخي، الأمر الذي لم يكن يحدث عادة، حين يكون اللاعبون المتقابلون مخضرمين: هؤلاء لن ينشرون أبداً الجيش البولندي على امتداد الجبهة، ولا الجيش الفرنسي على كلّ سداسيات أضلاع خطّ ماجينو. بينما الأكثر عملية بالنسبة للبولنديين أن يدافعوا عن وارسو دائرياً، وبالنسبة للفرنسيين أن يختصروا سداسيّ أضلاع من خطّ ماجينو. نفّذتُ الشوط الأوّل موضّحاً الخطوات التي كنتُ أخطوها، بهذه الطريقة فهم المحروق وعرف كيف يُقَدّر الأناقة التي حطّمتْ بها مدرّعاتي التنظيمَ البولندي (تفوّق جوّي، استعمال مؤلّل)، زيادة القوات على الحدود مع فرنسا، بلجيكا وهولندا وإعلان إيطاليا الحربَ وتحرّك الجسم الأكبر من القوات المتجمعة في ليبيا باتجاه تونس! (المتشدّدون ينصحون بدخول إيطاليا الحرب ليس قبل شتاء ١٩٣٩، وإن أمكن في ربيع ١٩٤٠، الاستراتيجية التي أرفضها بكلّ وضوح)، وصول فيلقين مدرّعين ألمانيين إلى جنيف، سداسي الأضلاع الرجراج (إيسين) حيث وضعتُ فيلق المظليين، إلخ، كل ذلك بأقل النفقات من نقطة الموارد الأساسية. لم يكن من الممكن أن يكون ردّ المحروق إلا متردّداً: على الجبهة الشرقية يغزو بلاد البلطيق والقسم المقابل من بولندا، لكنّه ينسى أن يحتلّ بيسارابيا. على الجبهة الغربية يختار أن يقوم بهجوم استنزافٍ وينزل فيلق الاستطلاع البريطاني (فيلقي مشاة) في فرنسا، في المتوسّط يُعزّز تونس وبيزرت. المبادرة ما تزال في يدي. في جولة شتاء ١٩٣٩ أطلقُ الهجومَ الشاملَ في الغرب؛ أحتلّ هولندا، بلجيكا، لوكسمبورغ، الدنمرك، من جنوب فرنسا يصل حتى مرسيليا ومن الشمال حتى سيدان وسداسي الأضلاع إن ٢٤. أعيدُ بناءَ مجموعة جيوشي في الشرق. أُنزل فيلقاً مدرّعاً ألمانياً في طرابلس الغرب خلال إعادة التوزيع الاستراتيجي. الخيار في المتوسّط هو الاستنزاف بالضبط إلى نتائج، لكنّ التهديد الآن ملموس: تونس وبيزرت

محاصرتان والفيلق الإيطالي الأوّل المتحرّك يتوغّل في الجزائر من دون أيّ حماية. على الحدود مع مصر القوى متعادلة. المشكلة بالنسبة إلى التحالف هي بالضبط إلى أين سيميل بثقله. جواب المحروق لا يمكن أن يكون بكلّ القوة التي يتطلبها الوضع؛ في الجبهة الغربية والمتوسّط يختار خيارَ الاستنزاف ويطلق للصدام كلّ ما يجده، لكنّه يلعب بطابورين صغيرين وللطامة الزهر ليس لصالحه. في الشرق يحتلّ بيساربيا ويضع مخطّطاً لخطٍّ جبهة من الحدود مع رومانيا وحتى بروسيا الشرقية، الجولة التالية ستكون حاسمةً، لكنّ الوقت تأخّر وعلينا أن نؤجّل اللعب. خرجنا من الفندق. في ركن الأندلسيين وجدنا الذئبَ والخروفَ برفقة ثلاث فتيات هولنديات. يبدو أنّ هؤلاء سعيدات لمعرفتي ويدهشن لكوني ألمانياً. اعتقدتُ في البداية أنّهنّ يهزأن منّي؛ في الحقيقة هنّ فوجئن بأنّ ألمانياً يقيم علاقة مع ذينك النصّابَيْن. في الثالثة صباحاً عدتُ إلى فندق البحر شاعراً بالرضا لأوّل مرّة منذ أيّام كثيرة. هل يا ترى كنتُ أعرف، أخيراً، أنّ بقائي لم يكن غير مجدٍ؟ ربّما.. في لحظة من لحظات الليل ومن عمق هزيمته (هل كنّا نتكلّم عن هجومي في الغرب؟) سأل المحروقُ إلى متى سأبقى في إسبانيا. أحسست بخوف في نبرته.

- حتى تظهر جثّة تشارلي - قلتُ.



٥ أيلول

اتجهت بعد تناول الفطور إلى فندق كوستا برافا. وجدتُ المدير في الاستقبال؛ حين رآني أنهي تصريف بعض المسائل وأشار إليّ كي أتبعه إلى مكتبه. لا أعرف كيف عرف بمغادرة إنجيبورغ. أفهمني ببعض الحركات التي كانت في غير مكانها أنّه يتفهّم وضعي. على الفور ودون أن يمنحني وقتاً كي أُجيب شرع يُقَدّم لي موجزاً عن حالة البحث: ما من تقدّم، كثيرون غادروا العمليات، إذا كان من الممكن أن نُسمّي هكذا عملَ قاربٍ أو قاربَي شرطةٍ مطّاطيَّيْن، وكان يبدو أنّه يُفضي إلى تقدّم بيروقراطي بطيء. قلتُ له إنّني كنتُ أُفكّر في أن أذهب شخصياً إلى قيادة البحرية لأستعلم، وإنّني كنتُ مستعدّاً إذا ما تطلّب الأمرُ لأن أوزّع رفساتي يمنةً ويسرةً. رفض السيّد بيري ذلك أبوياً بحركة من رأسه؛ لم يكن ضرورياً؛ عليّ ألا أنفعل. بالنسبة إلى أوراق معاملة الاختفاء تكفّلت القنصلية الألمانية بكل شيء. الحقيقة أنّك تستطيع أن تُغادر في اللحظة التي تراها مناسبة، طبعاً، هم كانوا يدركون أنّ تشارلي كان صديقي، شيء معروف، روابط الصداقة، لكن... حتى الشرطة الإسبانية المرتابة عادة أوشكت أن تُغلق الملفّ. بقي أن تظهر الجثّة فقط. بدا السيّد بيري أكثر استرخاءً بكثير مما كان في لقائنا السابق. الآن وبطريقة ما يتناول القضية كما لو أنّنا أنا وهو القريبان الوحيدان والمذعنان لموت غير مفهوم لكنّه طبيعي. (إذن هل الموت دائماً طبيعيّ؟ هو دائماً جزء جوهريّ من النظام؟ حتى على لوح زلاجة شراعية؟) لا شكّ في أن صديقك تعرّض

لحادث، أكّد، كما يحدث كثيراً خلال الصيف. ألمحتُ إلى احتمال الانتحار، لكنّ السيّد بيري ينفي بحركة من رأسه ويبتسم. طوال حياته كان فندقيّاً ويعتقد أنّه يعرف روحَ السيّاح؛ تشارلي، بائس مسكين، لم يكن ينطبق عليه تصنيف المنتحرين. على كلّ الأحوال، وإذا ما فكّرنا في الأمر جيّداً فإنّ الموت في الإجازة دائماً مرٌّ وصادم؛ كان قد سبق للسيّد بيري أن ملك فرصة أن يحضر حالات مشابهة في مسيرة عمله الطويلة: مسنون يتعرضون لنوبات قلبية في آب، أطفال غرقى في المسبح على مرأى من الجميع، عائلات ممزّقة على الطرقات السريعة، وسطّ الإجازات!... هكذا هي الحياة، يخلص، من المؤكّد أنّ صديقك لم يُفكّر قط في أنّه سيموت بعيداً عن وطنه. الموت والوطن، يهمس، يا للمآسي. في الحادية عشرة صباحاً كان عند السيّد بيري شيءٌ عليه أن يُنجزه. هو ذا رجل راضٍ، قال لي. شيء لطيف أن توجد هناك، وتتكلم معه بينما في الاستقبال يتناقش السياح مع عاملة الاستقبال وأصواتهم الغريبة عمّا يهمّ حقيقةً، تتسلل إلى المكتب، غير عدوانية وبينما نحن نتحدّث وجدتُ نفسي جالساً بارتياح داخل الفندق ورأيتُ السيّد بيري، ناسَاً في الممرات والقاعات، وجوهاً تنجذب أو تتظاهر بأنّها تنجذب وسط حوارات فارغة أو محتدمة، أزواجاً يتشمسون آخذين بأيدي بعضهم بعضاً، رجالاً وحيدين يعملون وحيدين، رجالاً لطيفين يعملون برفقة آخرين، جميعهم سعداء أو إن لم يكونوا كذلك فهم على الأقل في سلام مع أنفسهم. غير راضين! لكنّهم يعرفون أنّهم في مركز الكون. ما همّ أن يكون تشارلي حيّاً أم لا، أن أكون حيّا أم لا. كلّ شيء سيستمرّ هابطاً نحو موتٍ خاص. الجميع في مركز الكون! عصابة الأوغاد! لا شيء يبقى خارج سيطرتهم! حتى في نومهم يتحكّمون بكلّ شيء! بلامبالاتهم! عندها فكّرتُ في المحروق. كان في الخارج. رأيته كما لو أنّه تحت الماء: العدوّ.

حاولتُ أن أقضي بقية النهار في عمل شيء مفيد لكن بالنتيجة كان ذلك محالاً. كنتُ عاجزاً عن أن أرتدي لباس السباحة وأنزل إلى الشاطئ، وهكذا لذتُ ببار الفندق لأكتب بطاقات بريدية، كنتُ أُفكّر في أن أرسل واحدة منها إلى والديَّ، لكنّني في النهاية لم أكتب إلا لكونراد. بقيت برهة طويلة جالساً لا أعمل شيئاً آخر غير النظر إلى السياح والنُّدُل الذين كانوا يتجوّلون بين الطاولات بصينياتٍ مليئة بالمشروبات. لا أدري لماذا فكّرتُ في أنّ ذلك اليوم كان آخر الأيّام الحارّة. بالنسبة إليّ كان سيّان. كي أفعل شيئاً أكلتُ سلطة وشربتُ عصير بندورة. اعتقدّ أنّه أزعجني فقد بدأت أتصبّب عرقاً وأشعر بالغثيان، لذلك صعدت إلى غرفتي واستحممت بماء بارد؛ عدت بعدها وخرجتُ باتجاه قيادة البحرية، دون أن آخذ السيارة لكنّني حين وصلتُ قرّرتُ أنّه ليس هناك ما يستحقّ أن أتحمّل من أجله سلسلة جديدة من الأعذار، فتابعتُ طريقي.

كانت البلدة غارقة في نوع من الكرة البلورية؛ كان كلّ شيء يبدو نائماً (نائماً نوماً متعالياً) حتى وإن كانوا يمشون أو يجلسون في الشرفات. عند الخامسة مساء تقريباً غامت السماء وفي السادسة بدأت تُمطِر. أقفرت الشوارع فوراً، فكّرت في أنّ ذلك كان كما لو أنّ الخريف أدخل ظفره وراح يحكّ: كلّ شيءٍ كان يُرى في الأسفل. السياح يجرون على الأرصفة بحثاً عن ملاذ؛ التجار راحوا يُغطون بضائعهم المعروضة في الشارع بالأقمشة الكتانية، النوافذ راحت تُغلقُ، وهي في كلّ مرّة أكثر، حتى الصيف المقبل. لا أدري ما إذا كان ذلك يلهمني الحزنَ أم الاحتقار. منفصلاً عن أيّ شرط خارجي فقط كنتُ أستطيع أن أرى وأشعر بنفسي بوضوح. كلّ ما عدا ذلك كان قد قُصِف بشيء غامض؛ ديكورات أستوديو سينمائي بدا لي مصيرها مصير الغبار والنسيان الحتميّ؟

كان السؤال وقتها ماذا كنتُ أفعل وسط ذلك البؤس.

قضيتُ بقيّة المساء مستلقياً في السرير، منتظراً الساعة التي يصل فيها المحروقُ إلى الفندق.

عندما صعدتُ إلى الغرفة سألت عمّا إذا كنتُ قد تلقيت مكالمة هاتفيّة من ألمانية. جاء الجواب بالنفي؛ لا يوجد رسائل لي.

رأيتُ من الشرفة المحروقَ يخلّف وراءه الشاطئ ويعبر الكورنيش باتجاه الفندق. سارعتُ بالنزول، بحيث إنّه حين يصل إلى الباب أكون بانتظاره هناك، أعتقد أنّه كان يخاف ألاّ يسمحوا له بالدخول ما لم يكن معي. عندما مررت بمكتب الاستقبال جمّدني صوت فراو إلسي. كان أكثر من همس بقليل، لكنّه، ونظراً لأنّني كنت ساهياً، تردّد في رأسي بقوّة بوق.

ـ أنت هنا، يا أودو ـ قالت كما لو أنّها لا تعرف.

بقيت جامداً في الممر الرئيسي، في وضعية أقل ما يقال عنها إنّها حرجة. على الطرف الآخر، وخلف الأبواب البلورية كان المحروق ينتظر. للحظة رأيته كما لو أنه جزء من فيلم مسقط على الباب: المحروق والأفق الأزرق الداكن حيث تبرز سيارة مصطفة على الرصيف المقابل، رؤوس المارّة وصور طاولات الشرفة الناقصة. واقعي تماماً، فقط كانت فراو إلسي، جميلة وحيدة خلف طاولة المكتب.

ـ طبعاً، شيء طبيعي... يجب أن تكوني تعرفين ذلك ـ حين كلّمتها بصيغة الشخص الثاني احمرّت فراو إلسي. اعتقد أنّني رأيتها هكذا مفتوحة الدفاعات مرّة واحدة فقط. لا أدري ما إذا كان هذا يعجبني وقتها أم لا.

ـ لم أرك... هذا كلّ شيء. أنا لا أراقب كلّ خطوة تخطوها ـ قالت بنصف صوت.

ـ سأبقى هنا حتى تظهر جثّة صديقي. آمل ألا يكون عندك شيء ضدّ هذا.

أشاحت بنظرها بحركة انزعاج. خفت أن ترى المحروقَ وأن تستخدمه كذريعة لتغيير الموضوع.

ـ زوجي مريض ويحتاجني. بقيتُ في هذه الأيام إلى جانبه، دون أن أستطيع فعلَ شيء. هذا أنت لا تفهمه، أليس صحيحاً؟

ـ يحزنني.

ـ حسن لقد قيل كلّ شيء. لم أكن أنوي أن أزعجك، وداعاً.

لكن لا هي ولا أنا تحرّكنا.

كان المحروق يُراقبني من الجانب الآخر. وعليّ أن أتصوّر أنّ زبائن الفندق الجالسين في الشرفة أو الذين كانوا يمرّون على الرصيف كانوا ينظرون إليه أيضاً. فكّرتُ في أنّ أحداً سوف يقترب بين لحظة وأخرى ويطلب منه أن يُغادر؛ وعندها سيخنقه المحروق مستخدماً ذراعه الأيمن فقط ويخرب كلّ شيء.

ـ زو... زوجك هل هو أفضل. أتمنى له ذلك بصدق. أعتقدُ أنّني تصرّفت كأبله. اعذريني.

حنت فراو إلسي رأسها وقالت:

نعم. شكراً...

ـ بودي أن أتكلّم معك هذه الليلة، أن أراك على انفراد... لكنّني لا أريد أن أقسرك على أن تفعل شيئاً يمكن أن يضرّ بك لاحقاً...

شفتا فراو إلسي تأخرتا دهراً في رسم ابتسامة. وأنا لا أعرف لماذا كنتُ أرتجف.

ـ الآن لا تستطيع لأنّهم ينتظرونك، أليس كذلك؟

بلى، رفيق سلاح، فكّرتُ، لكنّني لم أقُلْ شيئاً ووافقت بإيماءة كانت تُعبّر عن حتمية الموعد. رفيق سلاح؟ عدوّ سلاح!

ـ تذكّر أنّه حتى ولو كنتَ صديقَ صاحبةِ الفندق عليك ألاّ تتمادى كثيراً مع النظام الداخلي.

ـ أيّ نظام داخليّ؟

ـ النظام الذي يمنع بين أشياء أخرى كثيرة بعض الزيارات إلى غرف النزلاء. عادت النبرةُ إلى طبيعتها الدائمة، ما بين الساخرة والتسلطية. لا شكّ كان ذلك مملكة فراو إلسي.

أردتُ أن أحتجّ لكنّ يدها ارتفعت وفرضت الصمت.

ـ لا أقترح ولا أقول شيئاً. لا أوجِّهُ تهمة. هذا الفتى المسكين ـ كانت تُشير إلى المحروق ـ يُحزنني أيضاً. لكن عليّ أن أسهر على راحة فندق البحر وزبائنه. عليّ أن أسهر على راحتك أيضاً. لا أريد أن يحدث لك أيّ شيء سيّئ.

ـ أيّ شياطين يمكن أن تحدث لي. نحن فقط نلعب.

ـ وماذا تلعبان؟

ـ آه، اللعبة التي أنت فيها بطل ـ حين ابتسمت لمعت أسنانها بشكلٍ خطير ـ هذه رياضة شتوية؛ من المناسب في هذه التواريخ السباحة أو لعب التنس.

ـ إذا أردت أن تسخري منّي فافعلي، فأنا أستحقّ ذلك.

ـ حسن، سنلتقي هذه الليلة، في الواحدة في ساحة الكنيسة. هل تعرف كيف تصل؟

ـ بلى.

تلاشت ابتسامة فراو إلسي. حاولت أن أقترب منها، لكنّني أدركتُ أنّها لم تكن اللحظة المناسبة. تودّعنا وخرجتُ. في الشرفة كان كلّ شيء

طبيعياً؛ إلى الأسفل من المحروق بدرجتين فتاتان كانتا تتكلّمان عن الطقس بينما هما تنتظران مرافقيهما. كان الناس كما في كلّ ليلة يضحكون ويضعون خططاً. تبادلت الكلمات الضرورية مع المحروق وعدنا ودخلنا.

حين مررنا بمكتب الاستقبال لم أرَ أحداً خلف طاولة المكتب على الرغم من أنّني فكّرتُ في أن فراو إلسي يمكن أن تكون مختبئة تحتها. كبحتُ بجهد دافعَ الاقتراب والنظر.

أعتقد أنّني لم أفعل ذلك لأنّه سيكون عليّ أن أوضّح كلّ شيء للمحروق.

فيما عدا ذلك تابعت مباراتنا مساراتها المرتقبة، في ربيع ١٩٤١ أعددت خياراً هجومياً في المتوسّط واحتللتُ تونس والجزائر؛ في الجبهة الغربية استهلكت ٢٥ من الموارد الاستراتيجية[١] قادتني إلى احتلال فرنسا، خلال إعادة التوزيع الاستراتيجي[٢] وضعت أربعة فيالق مدرعة مدعومة من المشاة والطيران على الحدود مع إسبانيا! على الجبهة الشرقية عزّزتُ قواتي.

كان ردّ المحروق دفاعياً خالصاً. حرّك القليل الذي كان باستطاعته أن يُحرِّكَهُ؛ عزّز بعض الدفاعات ووجّه على وجه الخصوص عدداً من الأسئلة. حركاته ما تزال تشفّ عن جدّته، لا يعرف كيف يضع الفيش فوق بعضها، يلعب بشكل فوضوي، لا وجود لاستراتيجيته الكلّية أو أنّها متصوّرة بخطط جامدة أكثر من اللازم، يؤمن بالحظّ ويُقدّر ويحسب بشكل سيئ نقاط الموارد الاستراتيجية، تختلط عليه مراحل تشكيل الوحدات مع إعادة التوزيع الاستراتيجي.

---

(١) BRP

(٢) SR

ومع ذلك فهو يبذل جهداً وأستطيع أن أؤكّد أنه بدأ ينفذ إلى روح اللعب. العلامات التي تحثُّ على التفكير بهذا الأخير هما عيناه اللتان لا يرفعهما عن الرقعة وطبقات لحمه المحروق تتلوى في إصراره المودع في حساب الانسحابات والتكاليف.

المجموع يُحدث عندي تحبُّباً وحزناً. يُحدث عندي حزناً، عليّ أن أُسَجّلَه حزناً كثيفاً، فقيرَ الألوان، قاسياً.

كانت ساحة الكنيسة موحشة وسيّئة الإضاءة. صففتُ السيارة في شارعٍ جانبيّ وتهيّأتُ كي أنتظر جالساً على مقعدٍ حجري؛ كنتُ أشعر بأنني مرتاح على الرغم من أنّه حين ظهرت فراو إلسي ـ متجسّدةً، بكل معنى الكلمة، من كتلة هيولية من ظلٍّ بجانب الشجرة الوحيدة في الساحة ـ لم أستطع أن أتفادى رعشة مباغتة واستنفاراً.

اقترحتُ أن نخرج من البلدة، ربّما نوقف السيارة في غابة أو ننظر إلى البحر، لكنّها رفضت.

تكلّمتْ. تكلّمتْ دون عجلة وبلا توقّف، كما لو أنّها بقيت أياماً صامتةً. كان الحديث توضيحاً مشوّشاً ومليئاً بالرموز لمرض زوجها. بعدها فقط سمحت لي أن أُقبّلها. ومع ذلك فإنّ يدينا تشابكتا منذ البداية بطريقة طبيعية.

وهكذا بقينا هناك ممسكاً كلّ منا بيد الآخر حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً. حين تعبنا من الجلوس رحنا نمشي حول الساحة ثمّ عدنا إلى المقعد وتابعنا كلامنا.

أعتقد أنّني أنا أيضاً قلتُ أشياء كثيرة.

صمت الساحة لم يقطعه غير تتالي صرخاتٍ بعيدة (صرخات فرح أم قنوط؟) تلاه صوت إقلاع درّاجات نارية.

أظنّ أننا قبّلنا بعضنا بعضاً خمس مرات.

عند العودة اقترحتُ أن أصفّ السيارة بعيداً عن الفندق؛ فكّرت في سمعتها.. رفضت هي ضاحكة؛ هي لا تخاف مما سيقولون. (الحقيقة أنّها لا تخاف شيئاً).

ساحة الكنيسة أقرب ما تكون إلى الكآبة، صغيرة، مُعتمة وصامتة. تنتصب في وسطها بركة حجرية ذات أصول قروسطيّة فيها نافورتان يتدفق ماؤهما. شربنا قبل أن نُغادر.

ـ حين تموت، هل ستكون قادراً، يا أودو، على أن تقول «أعود إلى المكان الذي جئتُ منه: «العدم».

ـ حين يُحْتَضَر المرء يكون قادراً على أن يقول أيَّ شيء ـ أجبتها.

كان وجه فراو إلسي يلمع بعد سماعها لسؤالها نفسه وجوابي، كما لو أنّني قبّلتها توّاً. هذا بالضبط ما فعلته بعدها؛ قبّلتُها. لكنّها حين حاولتُ أن أدخل لساني بين شفتيها سحبتْ رأسها.

٦ أيلول

أجهل ما إذا كان الذئب أو الخروف أو الاثنان معاً قد خسرا عملهما. يحتَجّان ويدمدمان لكنّني بالكاد أسمعهما. لكنّني فعلاً ألتقطُ عندهما الخوفَ والقليل من الحنق الذي كان يحدثه عندهما ذلك. يستهزئ صاحب ركن الأندلسيين منهما ومن مأساتهما بانعدام كلّي للكياسة. يسميهما بـ«الشقيين البائسين»، «النتنين»، الإيدزيين، «لوطِيَّي الشاطئ»، «غندورين». يأخذني بعدها جانباً ويحكي لي ضاحكاً قصّةَ اغتصابٍ لا أتمكّن من حلّ لغزها، لكّنهما بطريقة أو بأخرى متورّطان فيها. يصبّ الذئبُ والخروف اهتمامهما على برنامج رياضي في التلفاز دون أن يبديا أيّ فضول ـ بالرغم من أنّ المالك يتكلّم في الحقيقة بصوتٍ عالٍ بما يكفي كي يسمعه الجميع. هذا وأمثالهما سينهضون بالبلد. هذا القطيع من الزومبيين كان سينهض بإسبانيا، اللعنة على العذراء! ينهي المالكُ خطابه. لم يبقَ لي غير أن أوافقه وأعود إلى الطاولة إلى جانب الإسبانيَّيْن وأطلبُ زجاجةَ بيرة أخرى. بعدها أرى الخروف عبر باب الحمّام الموارب وهو ينزل بنطلونه.

توجّهت بعد الغداء إلى فندق كوستا برافا. استقبلني السيّد بيري كما لو أنّ لقاءنا الأخير تمّ قبل سنوات. جرى الحديث غير المهمّ هذه المرّة على طاولة عرض بار كوستا برافا، حيث أتيحت لي الفرصة للتعرّف على أكثر من عضوٍ من دائرة أصدقاء المدير. جميعهم كانت تعلوهم سمات تتراوح بين التميّز والسأم طبعاً وكانت أعمارهم تتجاوز الأربعين

عاماً، حين قُدِّمتُ لهم أظهروا لطفاً جماعياً. يمكن أن يُقال إنهم كانوا أمام أحد المشاهير، أو بالأحرى، أمام شخصية واعدة. طبعاً كنّا أنا والسيّد بيري سعيدين.

بعدها أخبروني في قيادة البحرية (كانت زياراتي إلى فندق كوستا برافا تصّبُ حتماً هناك) أنّه لا جديد بخصوص تشارلي. دون رغبة بالمجادلة قرّرتُ أن أطرح بعض الافتراضات. ألا يبدو غريباً أنّ جثّته لم تظهر حتى الآن؟ هل يمكن أن يكون حيّاً، يهيم على وجهه فاقداً الذاكرة في إحدى بلدات الشاطئ؟ أعتقد أنّ السكرتيرتين الضجرتين ذاتهما نظرتا إليّ بحزن.

عدت إلى فندق البحر متنزهاً واستطعتُ أن أتأكّد مما كنتُ أحدس به: بدأت البلدة تفرغ؛ صار السيّاح في كلّ مرّة أقل؛ حركات السكان الأصليين تُعَبّر عن تعب دوريّ. ومع ذلك تظهر السماء والبحر شفافين ونقيَّيْن. يشرح الصدر استنشاق الهواء. ثمّ إنّ المُتَنَزِّه يستطيع أن يتفرّغ لمراقبة أي نزوة دون أن يتعرّض لخطر أن يُدْفَعَ أو يُعْتَبَرَ سكران.

حين اختفى صاحبُ المحل في الغرفة الخلفية طرحت موضوع الاغتصاب.

أطلق الذئبُ والخروف قهقهتين وقالا إنّها من ترهات العجوز. تكهنت بأنهما يضحكان منّي.

حين غادرتُ دفعتُ ثمن ما استهلكتُهُ فقط. عندها علا وجهي الإسبانيين قناعٌ حجري. كلمات وداعنا كانت تشير إلى تاريخ مغادرتي. (يمكن أن يُقال إنّ الجميع كان يتلهف كي أغادر). عرضا في اللحظة الأخيرة مُصَالِحَيْن أن يرافقاني إلى قيادة البحرية، لكنّني رفضتُ.

صيف ١٩٤١. حميت المباراة. بعكس المتوقّع المحروق قادر على أن ينقل إلى المتوسّط قوات كافية كي يمتصَّ ضرباتي؛ بل وأكثر من

ذلك: عرف أنّ التهديد لا يحدق باتجاه الإسكندرية بل بمالطا، وبالنتيجة أنّه عزّز الجزيرة بالمشاة والطيران والبحرية الحربية. على الجبهة الغربية بقي الوضع مستقرّاً (يحتاج الأمر بعد احتلال فرنسا لجولةٍ كي تُعيد الجيوشُ الغربية تنظيمَ نفسها وتتلقى القوات البديلة والتعزيزات). قواتي هناك تُسدّد نحو إنكلترا ـ التي يتطلّب غزوها جهداً لوجستياً مهمّاً، لكنّ المحروق لا يعرف هذا ـ ونحو إسبانيا، الأسيرة التي يمكن الاستغناء عنها، لكنّها تتحكّم بطريق جبل طارق، الذي لولا موقعه لانعدم تقريباً تحكّم الإنكليز بالمتوسّط. اللعبة التي ينصح بها تيري بوتشير في *الجنرال* تقوم على إخراج الأسطول الإيطالي إلى الأطلسي. على أيّ حال لا يتوقّع المحروقُ هجوماً أرضياً على جبل طارق. على العكس كانت تحرّكاتي في الشرق والبلقان (بعد اللعبة الكلاسيكية: اكتساح يوغسلافيا واليونان) تجعله يخشى غزواً سريعاً للاتحاد السوفييتي ـ يبدو لي أنّ صديقي يستلطف الحمرَ ـ ويغفل جبهات أخرى. وضعي لا شكّ أُحْسَدُ عليه. إنّ عملية بربروسا، ربّما نسخة استراتيجية تركية، تعد بأن تكون مثيرة. معنويات المحروق لا تهن؛ ليس لاعباً لامعاً، لكنه أيضاً ليس متهوّراً، تحرّكاته رصينة ومنهجية. مرّت الساعات بصمت؛ تكلّمنا بما هو ضروري حصراً، أسئلة حول القواعد التي لقيت أجوبة واضحة ونزيهة، في انسجام نُحسد عليه. أكتبُ هذا بينما المحروق يلعبُ. غريب أنّ المباراة نجحت في جعلِهِ يسترخي، ألمس هذا في عضلات ذراعيه وصدره، كما لو أنّه يستطيع أخيراً أن ينظر إلى نفسه ولا يرى شيئاً. أو يرى فقط رقعة أوروبا المعذّبة والمناورات والمُناورات المضادّة الكبرى.

جرت المباراة بين تبادل المزاح. حين خرجنا من الغرفة، وجدنا في الممر خادمةً كتمت حين رأتنا صرخة وراحت تجري. نظرتُ إلى المحروق غيرَ قادر على أن أقول شيئاً. إحساس بالخجل الغريب أوجعني

حتى صعدنا في المصعد. عندها فكّرتُ في أنّ خوف الخادمة قد لا يكون سببه وجه المحروق. تفاقم الشكُّ في أنّني أدوس دوسةً ناقصة.

تودّعنا في شرفة الفندق. مصافحة وابتسامة وأخيراً اختفى المحروق مترنّحاً في الكورنيش.

كانت الشرفة فارغة. رأيتُ في المطعم الأكثر ازدحاماً من الشرفة فراو إلسي جالسةً إلى طاولة بالقرب من طاولة العرض، يرافقها رجلان أنيقان. لا أدري لماذا فكّرتُ في أنّ واحداً منهما كان زوجها، على الرغم من أنّ الصورة التي أحتفظ بها عن هذا لا تشبه إطلاقاً ذاك. لا شكّ كان اجتماع عمل ولم أبغ أن أزعجهم. كذلك لم أبغِ أن أظهر بمظهر الخجول وبهذا الهدف اقتربتُ من طاولة العرض وطلبتُ زجاجة بيرة. تأخّر النادلُ أكثر من خمس دقائق في تلبية طلبي. تأخره لم يكن ناجماً عن العمل الزائد، الذي كان بالأحرى قليلاً؛ ببساطة فضّلَ أن يُماطل هناك حتى يستنفد حدودَ صبري؛ عندها فقط أحضر البيرة واستطعت أن أتبيّن سوء نيته وهدف التحدّي الذي كانت تنطوي عليه حركته، كما لو أنّه ينتظر أدنى احتجاج كي يبدأ شجاراً. لكن هذا لم يكن ليخطر ببالي بوجود فراو إلسي بجانبي وهكذا رميت ببعض النقود على طاولة العرض وانتظرت. لم يحدث أي ردّ فعل من جانبه. التصق المسكين بخزانة الزجاجات ونظر بثبات إلى الأرض. بدا مستاء من جميع الناس بدءاً من ذاته.

تناولت البيرة بسلام. بقيت فراو إلسي للأسف منغمسة في الحديث مع مرافقَيْها وفضّلت التظاهر بأنّها لم ترني. افترضت أنّ عندها سبباً مقنعاً فقرّرتُ المغادرة.

فاجأتني رائحة التبغ والإغلاق في الغرفة. كان المصباح قد بقي مشتعلاً ففكرت للحظة في أنّ من الممكن أن تكون إنجيبورغ قد عادت، لكن الرائحة التي كادت تكون ملموسة كانت تستبعد احتمال أن تكون

امرأة. (غريب: لم أتوقّف قط عند الروائح). أعتقد أنّ كلّ هذا أغمّني فقررت الخروجَ لأقوم بجولة في السيارة.

جلتُ ببطء في شوارع البلدة المقفرة. ريح خفيفة فاترة كانت تكنس الأرصفةَ جارفة عبوات ورقية وأوراق دعاية.

فقط من حين لآخر كانت تنبثق ظلال سياح سكارى يسيرون على غير هدى باتجاه فنادقهم.

أجهل ما الذي دفعني كي أتوقّف في الكورنيش. الأكيد هو أنّني فعلت ذلك ودخلت بشكل طبيعي في الشاطئ، وسط الظلمة باتجاه مسكن المحروق.

ماذا كنتُ أنتظرُ أن أجدَ هناك؟

أوقفتني الأصواتُ حين لمحت حصنَ الزلاجات الطالع من الرمل.

كان عند المحروق زوار.

اقتربتُ بحذر شديد شبهَ زاحفٍ؛ كائن من كان هناك كنتُ أُفضّل أن أقيم الحديث في الخارج. سرعان ما استطعت أن أميّز بقعتين: كان المحروق ومدعّوه جالسين على الرمل وظهرهما باتجاهي، ينظران إلى البحر.

الذي يتحدّث كان الآخر: سلسلة من زمجراتٍ سريعة لم أستطع أن ألتقط منها غير كلمات متفرّقة مثل «حاجة» و«شجاعة».

لم أجرؤ على الاقتراب أكثر.

عندها. وبعد صمت طويل، توقّفت الريحُ وسقط فوق الشاطئ نوعٌ من البلاطة الفاترة.

واحد منهما، لا أعرف من، تكلّمَ بشكل غامض ومستهتر عن «رهان»، «مسألة منسية». ضحك بعدها ثمّ نهض وسار نحو ضفة الشاطئ ثمّ التفتَ وقال شيئاً غير مفهوم.

فكّرت للحظة ـ للحظة جنونٍ أوقفت شعري ـ في أنّه كان تشارلي، جانبه، طريقته في تركه لرأسه يسقط كما لو أنّ عنقه مكسور، خرسه المفاجئ، تشارلي الطيّب خارج من مياه المتوسّط القذرة كي... ينصحَ المحروقَ بشكل غامض. نوع من التخشّب انتشر من ذراعيَّ إلى بقيّة جسدي بينما عقلي يصارع كي يستعيد التحكّم. أكثر ما كنتُ أرغب به وقتذاك هو أن أولّي الأدبار من هناك. «هنا سمعتُ، كما لو أنّ الجنون توطّد مع استمرارية الحوار، نوعَ النصائح التي كان يعطيها الزائرُ للمحروق. «كيف توقف الهجوم؟» «لا تهتمّ بالهجوم؛ اهتمّ بالجيوب.» «كيف تتفادى الجيوب؟»، حافِظْ على خطّين» الغِ توغّل المدرعات؛ حافظْ دائماً على احتياطيّ عمليات».

تراها نصائح كي يهزمني في الرايش الثالث!

بتحديدٍ أكثر كان المحروق يتلقى تعليماتٍ ليُبطل مفعولَ ما كان يراه وشيكاً: غزو روسيا!

أغمضتُ عينيَّ وحاولتُ أن أُصلّي. لم أستطِع. فكّرتُ في أنّ الجنون لن يخرج أبداً من رأسي. كنتُ أتصبّبُ عرقاً والرمل يلتصق بوجهي بسهولة. كان جسدي كاملاً يخزني وكنتُ أخاف، هذا إذا كان باستطاعتي أن أسميه هكذا، أن أرى فجأة وجه تشارلي اللامع يظهر من فوقي. الخائن الملعون. هذا التفكير، نجح كتفريغ شحنة، في جعلي أفتح عينيّ؛ لم يكن هناك أحدٌ إلى جانب كوخ الزلاجات. تصوّرتُ أنّ الاثنين كانا في الداخل. أخطأتُ: الشبحان كانا ما يزالان على ضفّة البحر والأمواج تلعق كواحلهما. كانا بظهرهما إليّ. في السماء ابتعدت الغيوم للحظة فلمع القمر بشكل واهن. كان المحروق وزائره يتكلمان الآن عن الاغتصاب، كما لو أنّ الموضوع جذّاب جدّاً. ركعتُ على ركبتيَّ، لكن ليس دون جهدٍ، واستعدتُ بعضاً من هدوئي. لم يكن تشارلي، قلتُ لنفسي مرّتين. شيء أساسي: كان المحروق وزائره يقيمان حوارهما

بالإسبانية وتشارلي لم يكن قادراً حتى على أن يطلب زجاجة بيرة بهذه اللغة.

نهضتُ تماماً وأنا أشعر بالراحة، لكّنني كنتُ ما أزال مخدراً وأرتعش، وابتعدتُ عن الشاطئ.

في فندق البحر كانت فراو إلسي تجلس على كرسيّ خيزرانٍ كبير في نهاية الممر المؤدّي إلى المصعد. كانت أنوار المطعم مطفأة إلاّ واحداً غير مباشر ولا يضيء غير رفوف الزجاجات وجزء من طاولة العرض حيث كان نادل مُنكبّاً على شيء لا يمكن معرفة ماهيته. عند مروري بمكتب الاستقبال رأيتُ الحارسَ الليلي مُنهمكاً بقراءة صحيفةٍ رياضية. لم يكن جميع من في الفندق نائمين.

جلستُ بجانب فراو إلسي.

قالت هذه شيئاً عن وجهي. شاحب!

بالتأكيد أنّك تنام قليلاً وبشكل سيّئ. ليست دعاية حسنة للفندق. تشغلني صحّتُك.

وافقتُها. هي أيضاً وافقت. سألتها من تنتظر. هزّت فراو إلسي كتفيها؛ ابتسمت؛ قالت: أنت. بالطبع كانت تكذب. سألتُها عن الساعة. الرابعة صباحاً.

ـ عليك أن تعود إلى ألمانيا، يا أودو ـ قالت.

دعوتها لتصعد إلى غرفتي. لم تقبل. قالت: لا، لا *أستطيع*. قالتها وهي تنظر إلى عينيّ. كم كانت جميلة!

مكثنا برهة طويلة صامتَيْن. كان بودّي لو أقول لها: لا تنشغلي عليّ، حقيقة لا تنشغلي عليّ. لكنّه كان مضحكاً، طبعاً. في نهاية الممر رأيتُ رأسَ الحارس الليليّ يُطلّ ويختفي، خلصتُ إلى أنّ مستَخْدَمي فراو إلسي كانوا يعبدونها.

تظاهرتُ بالتعب ونهضتُ. لم أكن أريدُ أن أكون هناك حين يظهر الشخص الذي كانت فراو إلسي تنتظره.

مدّت هي إليَّ يدها دون أن تنهض عن كرسيّها وتمنى كلّ منا للآخر ليلةً سعيدة.

مشيت حتى المصعد؛ من حسن الحظ أنّه كان متوقّفاً في الطابق الأوّل ولم أحتج لأن أنتظر. ومن داخل المصعد عدّت وودّعتها. قلت وداعاً دون أن أصدر أيّ صوت، محرّكاً شفتيّ فقط. فراو إلسي حافظت على نظرتي وابتسامتي حتى أُغلقت درفتا الباب محدثتين حشرجة مطّاطيّة وبدأتُ أصعدُ.

كنتُ أشعر بشيء ثقيل يدور في رأسي.

دخلت في فراشي بعد أن تحمّمتُ. كان شعري مبلّلاً والنوم على كلّ الأحوال لا يظهر.

لا أدري لماذا، ربّما لأنّه كان أقرب إليّ أخذتُ كتاب فلوريان ليندين وفتحته عشوائياً:

«القاتل هو صاحب الفندق».

«هل أنت متأكّد؟»

أغلقتُ الكتاب.

٧ أيلول

حلمت أنّ مكالمة هاتفية أيقظتني. كان السيّد بيري الذي يرغب بأن أذهب ـ قدّم نفسه كي يرافقني ـ إلى الحرس المدني؛ هناك كانت عندهم جثّة ويأملون أن أستطيع التعرّف إليها. وهكذا استحممتُ وخرجتُ دون إفطار. كانت ممرّات الفندق تُقَدّم كآبة تضغط على الصدر. لا بدَّ أنّ الفجر يطلع. كانت سيارة السيّد بيري تنتظر عند الباب الرئيسي. خلال الطريق إلى الثكنة الواقعة في ضواحي البلدة على مفترق طريقين مليء باللافتات التي تشير باتجاه حدود متعدّدة، سارع السيّد بيري للكلام عن التغيّرات التي كانت تحدث بين أبناء البلد حين كان ينتهي الصيف أو بالأحرى موسم الصيف. انقباض نفسيّ عام! في الأساس لا نستطيع أن نعيش من دون سيّاح! اعتدنا عليهم! حارس مدني شاب يقودنا إلى مرآب حيث كان يوجد عدد من الطاولات الموضوعة أفقياً، مجموعة من إكسسوارات السيارات مكومة على الجدران. على لوح حجري أسود فيه عروق بيضاء بجانب الباب المعدني، حيث كانت سيارة نقل الموتى، كان يتمدّد جسد مسجى بلا روح، في حالة بدت لي أقرب إلى التفسخ. السيد بيري رفع يده خلفي إلى أنفه. لم يكن تشارلي. كان من العمر ذاته وربّما ألمانياً، لكنّه لم يكن تشارلي. قلتُ لا أعرفه وغادرنا. حين خلّفناه وراءنا وقف الحارس المدني باستعداد. عدنا إلى البلدة ونحن نضحك ونضع خططاً للموسم القادم. كان فندق البحر يُقدم مظهر الشيء النائم

ذاته، لكن هذه المرّة رأيتُ عبر الزجاج أنّ فراو إلسي كانت في مكتب الاستقبال. سألتُ السيّد بيري منذ كم من الزمن لم يرَ زوجَ فراو إلسي.

ـ منذ زمن طويل لم أغبط بذلك ـ قال السيّد بيري.

ـ يبدو أنّه مريض.

ـ هكذا يبدو ـ قال السيّد بيري مُكْفَهِرَّ الوجه بتعبير يمكن أن يعني أيّ شيء.

بدءاً من تلك اللحظة تقدّم الحلمُ (أو هكذا أتذكّر) بقفزات. تناولتُ فطوري في الشرفة بيضاً مقلياً وعصير بندورة. صعدتُ أدراجاً. أطفال إنكليز كانوا يأتون في الاتجاه المعاكس وكدنا نصطدمُ. راقبت المحروق من شرفة غرفتي أمام زلاجاته يجترُّ فقرَهُ ونهايةَ الصيف، كتبتُ رسائل ببطء متعمّد ومدروس. أخيراً دخلت في فراشي ونمتُ. مكالمة هاتفية أخرى، هذه المرّة حقيقيّة، اقتلعتني من حلمي. نظرتُ إلى ساعتي: الثانية مساء. كان كونراد وصوته يُردّد اسمي كما لو أنّه يعتقد أنّني لن أردّ عليه أبداً.

بعكس ما كنتُ سأتصور، ربّما بسبب خجل كونراد وأنّني كنتُ ما أزالُ نصفَ نائم، جرى الحديث ببرودة هي الآن ترعبني. الأسئلة، الأجوبة، تعرّجات الصوت، الرغبةُ بإنهاء الاتصال، التي لم يُحسن إخفاءها وتوفير بعض النقود، عبارات السخرية، كلّ شيء بدا مكسوّاً بالاستهتار المطلق. لا شيء من المُسارّات، باستثناء مُسارّة واحدة تافهة في النهاية، لكن فعلاً هناك صور ثابتة لبلدةٍ للفندق، لغرفتي، راحت تتراكم بإصرار فوق الصورة البانورامية التي رسمها صديقي كما لو أنّه يريد أن يُنبّهني إلى النظام الجديد الذي كنتُ منغمساً فيه وكانت إحداثياته المنقولة إليّ عبر الهاتف ضئيلة القيمة. ماذا تفعل؟ لماذا لا تعود؟ ما الذي يمنعك. في مكتبك مفاجؤون بك. السيّد إكس في كلِّ يومٍ يسأل

عنك، ومن غير المجدي أن يؤكّدوا له أنّك سرعان ما ستكون بيننا، ظل استقرّ في قلبه وينبئ بكوارث. ما نوع الكوارث؟ وأنا ماذا يهمّني. تلت ذلك أخبارٌ عن النادي، العملُ، الألعابُ، المجلات، روى كلّ ذلك بلا توقّف ولا رحمة.

ـ هل رأيت إنجيبورغ؟ ـ قلتُ.

ـ لا، لاَ، طبعاً لا.

مكثنا صامتين برهة قصيرة سبقت انهمار الأسئلة والتوسّلات: في مكتبي كانوا أكثر من قلقين بقليل، في المجموعة كان يسأل بعضهم بعضاً عمّا إذا كنتُ سأذهب إلى باريس لأستقبل ريكس دوغلاس في كانون الأوّل. هل سيطردونني من العمل؟ هل عندي مشاكل مع الشرطة؟ جميعهم كانوا يريدون أن يعرفوا ما هو الشيء الغامضُ والمُبْهَم الذي يحتجزني في إسبانيا. امرأة؟ الوفاء لميت؟ أيّ ميت؟ ثمّ وبين قوسين، كيف يسير مقالي؟ ذاك الذي سيضع أسسَ استراتيجية جديدة. بدا وكأنّ كونراد كان يسخر منّي. تصوّرته لثانية يُسجّل الحديثَ، بشفتين مقوّستين بابتسامة خبيثة. البطل المنفيّ! خارج التداول!

ـ اسمعني، يا كونراد، سأعطيك عنوان إنجيبورغ. أريدك أن تذهب لتراها وتهتف لي بعدها.

ـ حسن، موافق، ما تقوله سيصير.

ـ تمام. افعل ذلك اليوم. تهتف لي بعدها.

ـ حسن، حَسن، لكنّني لا أفهم شيئاً وأودّ لو أكون مفيداً بحدود إمكاناتي. لا أعرف ما إذا كنتُ أوضّح، يا أودو. هل تسمعني؟

ـ بلى. قل لي إنّك ستعمل ما قلته لك.

ـ بلى، طبعاً.

ـ حسن، هل استلمت رسالة منّي. أعتقد أنّني وضّحتُ لك كلَّ شيء في تلك الرسالة. ربّما لم تصلك بعد.

ـ فقط تلقيتُ بطاقتين بريديتين. في واحدة منها يظهر صفّ الفنادق بجانب الشاطئ وأخرى يظهر فيها جبل.

ـ جبل؟

ـ بلى.

ـ جبل بجانب البحر؟

ـ لا أعرف. يظهر الجبل ونوع من الدير المهدّم فقط.

ـ على كلّ ستصل. البريد يعمل بشكل بائس في هذا البلد.

فجأة يخطر ببالي أنّني لم أكتب أيّ رسالة إلى كونراد. لم يشغلني هذا كثيراً.

ـ هل عندك طقس جيّد على الأقل؟ هنا تُمطر.

ـ وبدل أن أردّ على سؤاله قلتُ كما لو أنّني أتابع شيئاً يُمْلَى عليّ:

ـ أنا ألعب...

ربّما بدا لي مهمّاً أن يعرف كونراد ذلك. يمكن أن يفيدني في المستقبل. على الجانب الآخر سمعت نوعاً من التنهيدة المضخّمة.

ـ الرايش الثالث؟

ـ بلى...

ـ حقيقة؟ احكِ لي كيف تسير أمورك. أنت رائع، يا أودو، وحدك من يخطر له أن يلعب *الآن*...

ـ بلى، أفهمك، بوجود إنجيبورغ بعيدة وكلّ شيء معلّق إلى خيط. ـ تثاءبتُ.

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله. كنتُ أقصد المخاطر. الاندفاع الخاصّ عندك. أنت فريد، يا فتى، أنت ملك التسليات.

ـ ليس إلى هذا الحدّ، لا تصرخْ، ستنجح في جعلي أطرش.

ـ ومن هو خصمك؟ ألمانيّ؟ هل أعرفه؟

مسكين كونراد، يعتبر تحصيل حاصل أنّ من الممكن أن يلتقي لاعبا حرب وفوق ذلك ألمانيان في بلدة صغيرة من كوستا برافا. كان واضحاً أنّه لم يذهب في إجازات أبداً، ووحده الله يعرف ما هو مفهومه للصيف في المتوسط أو أي مكان آخر.

ـ حسن، خصمي غريب قليلاً ـ قلت، ووصفت على الفور بخطوط عريضة المحروق.

بعد صمت قال كونراد:

ـ هذا لا يريحني. ليست قصّة واضحة. بأيّ لغة تتفاهمان؟

ـ بالإسبانية.

ـ وكيف استطاع أن يقرأ القواعد؟

ـ لم يقرأها. شرحتها له. في مساء واحد. ستُدهش من ذكائه. لا تحتاج لأنّ تقول له شيئاً مرّتين.

ـ هل هو كذلك في اللعب أيضاً؟

ـ دفاعه عن إنكلترا مقبول. لم يستطع منع سقوط فرنسا، لكن من يستطيع منع ذلك؟ لا بأس به. طبعاً أنت أفضل منه وفرانز أيضاً، لكن كلاعب للتدريب لا أستطيع أن أشكو منه.

ـ وصفه يقشعر البدن، ما كنتُ لألعب أنا مع شخص هكذا، قادر على أن يخيفني إذا ما ظهر فجأة. في مباراة متعدّدة اللاعبين، نعم، لكن لوحدنا... وتقول إنّه يعيش على الشاطئ؟

ـ هو كذلك.

ـ ترى أليس الشيطان؟

ـ هل أنت تتكلّم بجدّية؟

ـ بلى. الشيطان، إبليس، لوسيفر، خَنْزَب شمهروس، ميطرون، الخبيث...

ـ الخبيث... لا، يبدو أقرب إلى الفدان. أكثر من أيّ شيء آخر... قويّ ومتأمّل، المجترّ النموذجي. المكتئب. آه ثمّ إنّه ليس إسبانياً.

ـ وأنت كيف عرفت؟

ـ قاله لي صبية إسبان. من الطبيعي أنّني ظننته في البداية إسبانياً، لكنّه لم يكن كذلك.

ـ من أين هو؟

ـ لا أعرف.

من ستوتغارت، تأسّفَ كونراد بوهن.

ـ كان عليك أن تعرف؛ إنّه شيء أساسيّ من أجل أمنك بالذات...

بدا لي أنّه يُبالغ على الرغم من أنّني أكّدتُ له أنّني سأسأله. أغلقنا الهاتف بعدها بقليل وخرجتُ بعد أن تحمَّمْتُ لأمشي برهةً قبل أن أعود إلى الفندق للغداء. كنتُ أشعرُ بأنني مرتاح، في روحي لم أشعر بمرور الساعات وكان جسدي يستسلم دون تحفّظ لسعادة أنه موجود حيث هو، لا أكثر.

خريف ١٩٤٠. لعبتُ خيارَ الهجوم على الجبهة الشرقية. فيالقي المدرعة تحطّم جناحَي القطاع الروسي الأوسط، تتوغّل في العمق وتغلق على جيب هائل، سداسي أضلاع إلى الغرب من سمولينسك. إلى الخلف بين بريست ليتوفسك وريغا بقيت محاصرة أكثرُ من عشرة جيوش روسية. خسائري في حدودها الدنيا. على جبهة المتوسّط استهلكت نقاط موارد استراتيجية من أجل خيار هجومٍ آخر وغزوتُ إسبانيا. دهشة

المحروق كلّية، يرفع حاجبيه، ينتصب، تهتزّ نُدُبُه، يمكن أن يُقال إنّه يسمع خطو فرقي المدرّعة في الكورنيش، وارتباكه لا يُساعده على توزيعِ دفاعٍ جيّد (يختار، طبعاً باللاشعور، خيار دافيد هابلانيان للدفاع عن الحدود، لا شكّ أنّه الأسوأ لصدّ هجوم قادم من البيرينيه) هكذا أحتلُّ مدريد بفيلقين مدرعين وأربعة فيالق مشاة، إضافة إلى الدعم الجوّي فقط وتستسلم إسبانيا. خلال إعادة التوزيع الاستراتيجي أضع ثلاثة فيالق مشاة في إشبيلية وقادش وغرناطة وفيلقاً مدرّعاً في قرطبة. أضعُ في مدريد أسطولين جوّيين ألمانيّين وأسطولاً إيطاليّاً. المحروق صار يعرف الآن نواياي... ويبتسم. يُهنّئني! يقول: «ما كان ليخطر لي أبداً». أمام خاسر جيّد من الصعب حتى فهم تحامل وتخوّفات كونراد. يتكلّم المحروق منحنياً فوق الخريطة خلال جزء من اللعب ويُحاول أن يُصلح ما لم يعد يُصْلَح. ينقل في الاتحاد السوفييتي قوات من الجنوب، حيث لم تكد تقع صدامات، إلى الشمال وإلى الوسط، لكنّ قدرته على الحركة ضئيلة. في المتوسّط يحافظ على مصر ويُعزّز جبل طارق، وإن لم يكن بشكلٍ مُقنع، كما لو أنّه لا يثق بجهده. مفتول العضلات، متفحّم، يحلّق جذعه فوق أوروبا مثل كابوس. ويتكلّم دون أن ينظر إليّ، عن عمله، عن قلّة السياح، عن الزمن المتقلّب، عن المتقاعدين الذين يصلون حشوداً إلى بعض الفنادق، باحثاً دون أن يُبدي ظاهرياً اهتماماً، عملياً أكتب بينما أنا أصوغ الأسئلة، وأنجح في معرفة أنّه يعرف فراو إلسي، التي يُسمونها في الحيّ «الألمانية». يعترف، مُكْرِهاً على أن يعطي رأيه، بأنّها جميلة. أستقصي عندها عن زوجها. يجيب المحروقُ: إنّه مريض.

ـ كيف تعرف؟ ـ قلتُ تاركاً الملاحظات جانباً.

ـ كل الناس يعرفون ذلك. إنّه مرض طويل، منذ سنوات كثيرة، يعاني منه لكنّه لا يموت.

ـ تُغذّيه! ـ ابتسمتُ.

ـ إطلاقاً لا ـ يقول المحروق عائداً إلى هدف اللعبة، بكلّ شبكتها اللوجستية المحطّمة.

بعدها يتابع وداعُنا طقْسَهُ المعتاد: نشرب آخر عبوات البيرة التي اشتريتها للمناسبة وأخبّئها في الطشت المليء بالماء، نعلّق على المباراة (يذوب المحروق مديحاً لكنّه لا يعترف بعد بهزيمته) نهبط معاً في المصعد، نتمنى لبعضنا بعضاً ليلة سعيدة في باب الفندق...

عندها تماماً حين يختفي المحروقُ في الكورنيش يجعلني صوتٌ بجانبي أقفز فزعاً.

إنّها فراو إلسي جالسة في الظلّ في زاوية من الشرفة المقفرة لا تكاد تلامسها أضواءُ الفندق الداخلية والشارع.

أعترف أنني تقدّمتُ نحوها غاضباً (من نفسي على الأخص) من الخوف الذي حلّ بي توّاً. حين جلستُ أمامها لاحظتُ أنّها كانت تبكي. وجهها المليء بالألوان والحياة كان يعلوه شحوب شبحيّ تزيد من حدّته رؤيتها الناقصة يُغطيها الظل الهائل لشمسيتها التي كانت نسمة الليل تُحرّكها بشكلٍ إيقاعي. أخذت يديها دون تردّد وسألتها ما الذي كان يحزنها. ارتسمت كما لو بفعل سحر، على وجه فراو إلسي، ابتسامة. أنت النبيه جدّاً دائماً، قالت، نسيتَ بفعل التأثّر أنّنا نتعامل بلا تكلّف. أصررتُ. كانت مدهشة السرعة التي تنتقل بها فراو إلسي من حالة نفسية إلى أخرى: في أقلّ من دقيقة انتقلت من شبح مُعذّب إلى أخت كِبرى قلقة. أرادت أن تعرف ماذا كنتُ أفعل، «لكن حقيقة دون تكلّف»، في غرفتي مع المحروق. كانت تريدني أن أعدها بأن أعود بسرعة إلى ألمانيا أو أن أتصل هاتفياً مع المسؤولين عن عملي ومع إنجيبورغ. كانت تريدني ألاّ أسهر كثيراً وأن أستغلّ الصباحات كي أتشمّس، «بالقليل الذي بقي لنا من الشمس»، على الشاطئ. أنت أبيض أكثر من اللازم، يبدو لي

أنّك منذ أشهر لم تنظر إلى نفسك في المرآة، همستْ. في النهاية كانت تريدني أن أسبح وآكل جيّداً، وهذا الحضُّ الأخير كان يتعارض مع مصالحها، ذلك لأنّني كنتُ آكل في الفندق. عند هذه النقطة عادت لتبكي، لكن أقل بكثير من قبل، كما لو أنّ كلّ النصائح التي قدّمتها كانت حمّاماً يُنظّفها من ألمها ذاته، وشيئاً فشيئاً راحت تهدأ وتسكن.

كان الوضع مثالياً، لا أستطيع أن أطلب أكثر، والوقت مرّ دون أن أنتبه. أعتقد أنّه كان باستطاعتنا أن نمضي الليل كلّه هكذا، جالسين الواحد مقابل الآخر، لا نكاد نتكهن بنظراتنا ويدها بين يديّ، لكن لكلّ شيء نهاية وهذه وصلت في صورة الحارس الليلي، الذي بعد أن بحث عنّي في كلّ أنحاء الفندق، ظهر في الشرفة يُخبرني بأنّ لي مكالمة بعيدة.

نهضت فراو إلسي بحركة تعبٍ وتبعتني عبر الممر المقفر حتى مكتب الاستقبال؛ هناك أمرت الحارس أن يخرج آخر أكياس القمامة من المطبخ وبقينا وحدنا. الإحساس الفوري كان الإحساس بأنّنا أنا وهي فقط في جزيرة، أنّه كان باستطاعتي أن أقتلع السماعة، المتدلّية مثل زائدة سرطانية، وأسلّمها بكل سرور للحارس كشيء آخر كي يرميه في القمامة.

كان كونراد. حين سمعت صوته شعرتُ بإحباط كبير، لكنّني تذكّرتُ بعدها أنّني أنا من طلب منه أن يهتف لي.

جلست فراو إلسي على الجانب الآخر من طاولة العرض وحاولت أن تقرأ المجلّة التي أفترض أنّ الحارس نسيها. لم تستطع. أيضاً لم يكن هناك الكثير مما يُقرأ، فقد كانت كلّها صور تقريباً. وصلت بحركة آلية إلى رأس المكتب في توازن مُقلقل جدّاً وغرزت عينيها فيَّ. كان لزرقة عينيها صبغة قلمِ تلوين أطفال، قلم فابر رخيص وحميم.

شعرتُ برغبة في أن أغلق الهاتف وأمارس معها الحبَّ هناك

بالذات، تصوّرت، أو ربّما أتصوّر الآن، وهذا أسوأ، أنّني أجرّها إلى مكتبها الخاصّ وأضعها على الطاولة، أمزّق ملابسها وأقبّلها، أصعد فوقها وأُقبّلها، مطفئاً مرّة أخرى جميعَ الأنوار وأُقبّلها...

ـ إنجيبورغ في وضع جيّد. إنّها تعمل. ليست لديها رغبة بأن تهتف لك، لكنّها تقول إنّها تريد أن تتكلّم معك حين تعود. طلبت منّي أن أنقل إليك تحياتها ـ قال كونراد.

ـ حسن، شكراً. كان هذا ما أردتُ أن أعرفه.

كانت فراو إلسي متصالبة الساقين تنظر الآن إلى رأس حذائها وتبدو غارقة في أفكار شاقّة ومعقّدة.

ـ اسمعْ، لم تصلني منك أيّ رسالة، إنجيبورغ هي من وضّحت لي كلّ شيء هذا المساء. بحسب ما أرى ما من شيء يستوجب منك البقاء هناك.

ـ حسن، يا كونراد، ستصلك رسالتي وعندها ستفهم، الآن لا أستطيع أن أوضّح لك شيئاً.

ـ كيف تسير المباراة.

ـ إنّني ألوط به مباشرة ـ قلتُ، على الرغم من أنّ العبارة قد تكون «إنّه يرضع كلَّ حليبي»، أو «إنني أوسّع أسته»، أو «إنّني ألوط به وبعائلته كلّها»، أقسمُ أنّني لا أتذكّر.

ربّما قلتُ: إنّني أحرقه. رفعت فراو إلسي نظرها بنعومةٍ لم أرها قط في أيِّ امرأة وابتسمت لي.

شعرت بنوع من القشعريرة.

ـ ألم تراهنا على شيء؟

سمعت أصواتاً، ربّما بالألمانية، لا أستطيع أن أؤكّد، حواراتٍ غير مفهومة وأصوات حواسيب، بعيدة، بعيدة جدّاً.

ـ أبداً.

ـ يُسعدني ذلك. قضيت المساء كلّه في خوف من أن تكون قد راهنتَ على شيء. هل تتذكّر حديثنا قبل برهة؟

ـ بلى، كنتُ قد اعتبرته الشيطان. لم أفقد ذاكرتي بعد.

ـ لا تنفعل. أفكّر في مصلحتك فقط، أنت تعرف هذا.

ـ طبعاً.

ـ يسعدني أنّك لم تُراهِن على شيء.

ـ ما الذي كنت تظنّ أنّني أقامر به؟ روحي؟

ضحكتُ. أبقت فراو إلسي في الهواء على ذراعها المسمرّة والتامّة، المنتهية بيدٍ ناعمة وطويلة الأصابع التي انغلقت على مجلّة الحارس الليليّ. وقتها فقط انتبهتُ إلى أنّ المجلّة بورنوغرافية. فتحتْ درجاً وخبّأتها.

ـ إنّه فاوست ألعابِ الحرب ـ ضحك كونراد ضحكة كأنّها صدى لضحكتي جاء يتردّد من شتوتغارت.

شعرتُ بغضبٍ باردٍ صعد من كعبيّ، من خلف جسدي وحتى نقرة رقبتي ومن هناك انطلق باتجاه كلّ أركان مكتب الاستقبال.

ـ ليس في هذا ظرافة ـ قلتُ، لكنّ كونراد لم يسمعني. بالكاد استطعتُ أن أُصدر صوتاً ناحلاً.

ـ ماذا؟ مَاذا؟

نهضتْ فراو إلسي واقتربت من حيثُ كنتُ. كانت من القربِ بحيث أنّني فكّرت في أنّها تسمع قرقَ كونراد دون أن تتعمَّدَ ذلك. وضعت يداً على رأسي فشعرتْ على الفور بالغضب اِلذي كان يغلي هناك في الداخل. مسكين أودو، همستْ؛ ثمّ وبحركة مخملية، كما لو بكاميرا

بطيئة أشارت إلى الساعة وإلى أنّ عليها أن تذهب. لكنّها لم تفعل. ربّما كان القنوط الذي رأته في وجهي هو الذي أوقفها.

ـ يا كونراد، لا أريد مزاحاً، لا أتحملّه. تأخّر الوقت، يجب أن تكون في فراشك وألا تنشغل عليّ.

ـ أنتَ صديقي.

ـ اسمعني، سريعاً سيتقيّأ البحرُ لمرّةٍ واحدةٍ لعينة ما تبقى من تشارلي. عندها سأرتب حقائبي وأعود. لكي أتلهى بينما أنا أنتظر، ألعبُ لعبةَ الرايش الثالث فقط كي أتلهى وأستخرج أمثلة لمقالي؛ لو كنت مكاني لفعلت الشيء ذاته، أليس صحيحاً. على كلّ الأحوال أنا لا أُقامر إلاّ بعملي في المكتب وأنت تعرف أنّه مقرف. أستطيع أن أعثر على عملٍ أفضلَ في أقل من شهر. هكذا أم لا؟ أستطيع أن أتفرّغ حصراً لكتابة المقالات. يمكن أن أخرج رابحاً. من يدري، ربّما من الأفضل لي أن يطردوني.

ـ لكنّهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك. ثمّ إنّني أعرف أن المكتب يهمّك، على الأقل رفاقك في العمل؛ عندما ذهبتُ إلى هناك أَروني بطاقة بريدية أرسلتها لهم.

ـ أنت مخطئ، لا يهمّني قيد أنملة.

كتم كونراد أنّةً، أو هذا ما اعتقدتُ أنّني سمعته.

ـ ليس صحيحاً ـ شنّ هجوماً معاكساً، واثقاً جدّاً من نفسه.

ـ بحقّ الشياطين ما الذي تريده؟ الحقيقة، يا كونراد، أنّه ما من أحد يستطيع أن يتحمّلك أحياناً.

ـ أريدك أن تستعيد عقلك.

لامست فراو إلسي خدّي بشفتيها وقالت: تأخّر الوقت، عليّ أن

أذهب. أحسست بنفسها الفاتر في أذني ورقبتي، عناق عنكبوت، سريع ومُقلق. رأيتُ بطرف عيني الحارس الليليّ في نهاية الممر، ينتظر وديعاً.

ـ عليّ أن أغلق الخطّ ـ قلتُ.

ـ هل أهتف لك غداً؟

ـ لا، لا أريدك أن تنفق مالاً بلا جدوى.

ـ زوجي ينتظرني ـ قالت فراو إلسي.

ـ ليس له أهمّية.

ـ بلى له.

ـ إنّه غير قادر على أن ينام ما لم أصل ـ قالت فراو إلسي.

ـ كيف تسير المباراة؟ هل تقول إنّك الآن في خريف ١٩٤١؟ هل غزوتَ الاتحاد السوفييتي؟

ـ نعم! حرب خاطفة على كلّ الجبهات! ليس منافساً بالنسبة إليّ! خراء! لشيء ما أنا بطل، أليس كذلك؟

ـ صحيح، صحيح... وأنا أتمنى من كلّ قلبي أن تفوز... كيف هم الإنكليز؟

ـ اتركْ يدي ـ قالت فراو إلسي.

ـ عليّ أن أُغلق، يا كونراد، الإنكليز يمرّون في مأزق، كما هو الأمر دائماً.

ـ ومقالك؟ أفترض أنه يسير بشكل جيّد. تذكّر أنّ المثالي أن يُنشر قبل أن يصل ريكس دوغلاس.

ـ على الأقل سيكون مكتوباً. سوف يُسر به ريكس جدّاً.

حاولت فراو إلسي أن تخلّص يدها شادّةً إيّاها.

ـ لا تكُن طفولياً، يا أودو؛ وماذا لو ظهر زوجي الآن؟

غطّيتُ السماعة كيلا يسمع كونراد وقلتُ:

ـ زوجك في فراشه. أظن أنّ هذا هو مكانه المُفضّل. وإذا لم يكن في الفراش فإنّه سيكون على الشاطئ، هذا مكان آخر من أماكنه المفضّلة، خاصّة حين يحلّ الليل. دون ذكر غرف الزبائن. في الحقيقة زوجك يتدبّر أمره كي يكون في كلّ مكان؛ لا أستغرب أنّه يتجسّس علينا الآن، مختبئاً هناك، خلف الحارس. ليس عريض الكتفين، لكنّني أعتقد أنّ زوجك نحيل.

توّجهت نظرة فراو إلسي تلقائياً نحو نهاية الممر. كان الحارس ينتظر، مستنداً بكتفه إلى الجدار. أحسست في عيني فراو إلسي ببريقِ أمل.

أنت مجنون ـ قالت حين تأكّدت من أنه لم يكن يوجد أحد، قبل أن أجذبها نحوي وأُقبّلها.

لا أدري كم بقينا نقبّل بعضنا بعضاً، في البداية بعنفٍ ثمّ بخمولٍ. أعرف أنّه كان باستطاعتنا أن نستمرّ، لكنّني تذكّرتُ أنّ كونراد كان على الهاتف وأنّ الزمن يمضي ضدّ جيبه. حين رفعت السماعة إلى أذني سمعتُ دبيب آلاف الخطوط المتداخلة ثمّ الفراغ. كان كونراد قد أغلق الخطّ.

ـ لم يعد موجوداً ـ قلتُ، وحاولتُ أن أجرّ فراو إلسي معي نحو المصعد.

ـ لا، يا أودو، ليلة سعيدة ـ رفضتني بابتسامة مقحمة.

أصررتُ على أن ترافقني، الحقيقة دون قناعة كبيرة، بحركةٍ لم أفهمها في لحظتها حركة جافّة وتسلطية، جعلت فراو إلسي الحارس الليليّ يدخل بيننا. عندها وبنبرة صوت أخرى عادت وقالت لي ليلة سعيدة واختفت... باتجاه المطبخ!

ـ يا لها من امرأة ـ قال الحارسُ.

دخل هذا خلف طاولة العرض وبحث عن المجلّة الإباحية في أدراج المكتب. راقبته بصمت إلى أن صارت بين يديه وراح يجلس على كرسيّ مكتب الاستقبال الجلديّ. تنهّدتُ ومرفقاي على المكتب وسألتُ عمّا إذا بقي سياح كثيرون في فندق البحر. كثيرون، أجابني دون أن ينظر إلي. فوق خزانة المفاتيح كانت توجد مرآة ذات أبعاد كبيرة، طولية بإطار ذهبيّ وسميك يبدو كأنّه استخرج من حانوت أثريات. على الزئبق كانت تلمع أضواء الممر وفي الجزء الأسفل منها تنعكس نقرة رقبة الحارس. شعرت بشيء من الانزعاج في معدتي حين تبيّنتُ أنّ صورتي على العكس لم تظهر. تحرّكت ببطء وبشيء من الخوف نحو اليسار، دون أن أنفصل عن طاولة المكتب. نظر إليّ الحارسُ وسأل بعد تردّدٍ، لماذا كنتُ أقول «تلك الأشياء» لفراو إلسي.

ـ ليس شيئاً يعنيك ـ قلتُ

ـ هذا صحيح ـ ابتسم ـ، لكن لا أحب أن أراها تُعاني، هي طيّبة جدّاً معنا.

ـ ما الذي يجعلك تُفكّر في أنّها تُعاني ـ قلتُ دون أن أتوقّف عن التسلل نحو اليسار. كانت يداي مغطاتين بالعرق.

ـ لا أعرف... الطريقة التي تعاملها بها.

ـ أنا أودّها وأحترمها كثيراً ـ أكّدتُ بينما راحت صورتي تظهر بالتدريج في المرآة، وعلى الرغم من أنّ ما كنتُ أراه كان كريهاً (ثياب مجعدة، خدان ملتهبان، شعر أشعث) ليس لهذا السبب لا أكون أنا، حيّاً وملموساً. خوف تافه، أعترف.

ـ هزّ الحارس كتفيه وقام بحركة من يعود ليركّز على مجلته. شعرتُ براحة وتعب عميق.

ـ هذه المرآة... هل فيها خدعة؟

ـ كيف؟

ـ المرآة؛ منذ لحظة كنتُ أمامها ولم أكن أرى نفسي. الآن فقط، جانبياً يمكن أن أنعكس فيها. بالمقابل أنت، الموجود في الأسفل نعم ترى نفسك.

لوى الحارس عنقه، دون أن ينهض عن الكرسيّ، ونظر إلى نفسه في المرآة، اعوجاج فم قرد: يراه ولا يعجبه وبدا له هذا ظريفاً.

ـ إنّها محنية قليلاً، لكنّها ليست مرآة زائفة؛ انظرْ، هنا يوجد جدار، هل ترى. ـ رفع المرآة مبتسماً ولمس الجدار كما لو أنّه يلمس جسداً.

بقي برهة صامتاً يفكّر في المسألة. ثمّ قال بعد تردّد:

ـ لنرَ. قفْ هنا ـ قلتُ مشيراً إلى المكان الدقيق حيث لم أكن أنعكس.

خرج الحارس ووقف حيث أمرته.

ـ لا أرى نفسي ـ اعترف ـ، لكن هذا لأنّني لست أمامها.

ـ بلى أنت أمامها، اللعنة ـ قلتُ، واقفاً خلفه ومواجهاً المرآة.

من فوق كتفه رأيتُ شيئاً سَرَّع نبضي: كنتُ أسمع أصواتنا لكنّني لا أرى جسدينا. أشياء الممر، الأريكة، الإبريق، الأضواء غير المباشرة التي كانت تخرج من زوايا السقف والجدران معكوسة في المرآة، كانت تلمع بكثافة أعلى مما هي في الممر الحقيقيّ الموجود خلفي. أطلق الحارس ضحكة توتر.

ـ دعني، دعني سوف أجربها.

دون قصد مني جمّدته بنوع من القفلة في المصارعة الحرّة. مثل شفرات وخائفاً. أفلتُّهُ. بقفزة واحدة صار الحارس خلف طاولة العرض وأشار إلى جدار المرآة.

ـ إنّها ملتوية، ملتوية. ليست مستقيمة، تعال تقدّم، تأكّد من ذلك.

حين دخلت من فجوة طاولة مكتب الاستقبال كان هدوئي وحكمتي يدوران مثل شفرات طاحونة مجنونة. أعتقد أنّني كنتُ مستعدّاً لأن ألوي عنق الرجل المسكين، عندها لفّني عطرُ فراو إلسي كما لو أنّه أيقظَ فجأة عالماً آخر. كلّ شيء كان مختلفاً، وأتجرّأ على القول بأنّه كان خارج القوانين الفيزيائية، وكانت للمكان هناك رائحتها حتى ولو لم يكن مستطيلُ الاستقبال مفصولاً عن الممر العريض والمزدحم نهاراً. كانت علامة المرور الرصين لفراو إلسي محفوظةً وكان هذا كافياً كي يهدّئني.

بعد دراسة وجيزة عرفتُ أنّ الحارس كان على حقّ، الجدار الذي كانت عليه المرآة لم يكن موازياً لطاولة عرض مكتب الاستقبال.

تنهّدتُ وتركتُ نفسي أرتمي على كرسيّ الجلد.

يا للبياض ـ قال الحارس، بالتأكيد كان يشير إلى شحوبي وبدأ يُهَوّي لي بهدوء بالمجلة الإباحية.

ـ شكراً ـ قلتُ.

بعد بضع دقائق أبدية نهضتُ وصعدتُ إلى غرفتي.

ـ كنت بارداً ولذلك ارتديت كنزة وفتحتُ بعدها النوافذ. من الشرفة كان من الممكن تأمّل أضواء الميناء. مشهد مُهَدّئ. كلانا، الميناء وأنا، كنّا نرتجف بإيقاعٍ واحد. ليس هناك نجوم. بدا الشاطئُ فَمَ ذئب. إنّني مُتعَبٌ ولا أدري متى سأستطيع أن أنام.

٨ أيلول

شتاء ١٩٤٠. القاعدة «الشتاء الروسي الأوّل» يجب أن يُلْعَب حين يتوغّل الجيش الألماني عميقاً في الاتحاد السوفييتي بحيث إنّ وضعه إلى جانب الطقس المناوئ يُشجع على الهجوم المعاكس الحاسم، القادر على كسر توازن الجبهة وتشجيع الكماشات والجيوب؛ بكلمة واحدة: الهجوم المعاكس الذي يُجبر الجيش الألماني على التراجع. ولتحقيق هذا لا بدّ أن يملك الجيش السوفييتي احتياطات كافية (ليس بالضرورة أن تكون احتياطات مدرّعة) لتنفيذ الهجوم المعاكس المذكور، أي أنّه بالنسبة إلى الجيش السوفييتي عليه أن يلعب بقاعدة «الشتاء الروسي الأوّل» مع احتمالات الفوز، يعني أنّه حافظ في قطاع إنشاء فيالق الخريف، احتياطياً على الأقل على اثني عشر عامل قوّة جاهزة على امتداد الجبهة. أما بالنسبة إلى الجيش الألماني فأن يلعب قاعدةَ «الشتاء الروسي الأوّل» بنسبة مئوية عالية من الأمن يتطلّب شيئاً حاسماً في الحرب في الشرق ويلغي كلّ حذر روسي: تدمير أعلى رقم من عوامل قوّة السوفييت، في جميع وكل جولة من الجولات السابقة، بهذه الطريقة يتحوّل «الشتاء الروسي الأوّل» إلى شيء غير خطير في أسوأ الحالات بالنسبة للجيش الألماني يشكّل انخفاضاً في التقدّم باتجاه داخل روسيا. ويمثّل في الجانب السوفييتي تغيراً تلقائياً في ترتيب الأولويات، لن يبحث بعد الآن عن الصدام، بل عن التراجع تاركاً مساحات واسعة لجيش العدوّ، في محاولة يائسة منه لإعادة تشكيل جبهته.

فيما عدا ذلك لم يكن المحروق يعرفُ أن يلعب القاعدة (بالتأكيد ليس لأنّني لم أشرحها له) وأقل ما يمكن أن يُقال عن تحرّكاته هو إنّها مشوشة: يَشنّ في الشمال هجوماً معاكساً (لا يكاد يخدش فيالقي) ويتقهقر في الجنوب. في نهاية الشوط يمكن أن أُقيم الجبهة على أكثر الخطوط ميزة ممكنة، في سداسيات الأضلع إي ٤٢، إف ٤١، أتش ٤٢، فيتبسك، سمولينسك، كي ٤٣، بريانسك، أوريل، كورسك، إم ٤٥، إن ٤٥، أو ٤٥، بّي ٤٤، كيو ٤٤، روستوف، وفي مداخل كريميا.

على جبهة المتوسّط الكارثةُ الإنكليزية مطلقة. مع سقوط جبل طارق (دون خسائر كثيرة) بقي الجيش الإنكليزي في مصر محصوراً في مصيدة. ليس هناك ضرورة ولا حتى للهجوم عليه: النقص في المؤن، أو بالأحرى شساعة خط التموين الذي عليه أن يتبع طريق الميناء الإنكليزي ـ جنوب أفريقيا ـ خليج السويس، تضمن عدم فعاليته. عملياً المتوسّط صار لي، باستثناء جيش مصر وفيلق مشاة يحمي مالطة. الآن صار العبور بالنسبة إلى الأسطول الإيطالي سالكاً نحو الأطلسي، حيث سينضمّ إلى الأسطول الحربي الألماني. صار باستطاعتي بهذا الأسطول وبفيالق المشاة القليلة المرابطة في فرنسا أن أبدأَ بالتفكير بالنزول في بريطانيا العظمى.

تكثر الخطط في رئاسة الأركان: غزو تركيا، التوغّل في القوقاز من جهة الجنوب (إذا لم يكن قد احتلّ بعد) ومهاجمة روسيا من المؤخّرة، شريطة تأمين مايكوب وغروزني. خطط قصيرة المدى: نقل أكبر عدد من عناصر الأسطول الجوّي البارزة في روسيا ضمن إعادة التوزيع الاستراتيجي لمساندة الإنزال في بريطانيا العظمى، وخطط طويلة المدى، مثل حساب الخط الذي سيحتله الجيش الألماني في روسيا في ربيع ١٩٤٢.

إنّها الإبادة، انتصار أسلحتي. بالكاد تكلّمت قبل ذلك الوقت. الشوط التالي يمكن أن يكون ساحقاً.

ربّما ـ يجيب المحروق.

تدلّ ابتسامته على أنّه يعتقد العكس. تحرّكاته حول الطاولة، داخلاً وخارجاً من الجانب المضاء من الغرفة تشبه تحركات الغوريلا. كان رصيناً، واثقاً، مَنْ ينتظر كي يُنقذه من الهزيمة؟ الأمريكيين؟ حين سيدخل هؤلاء الحربَ قد تكون أوروبا كلّها تحت السيطرة الألمانية. ربّما على الجبهة الشرقية، ما تبقى من الجيش الأحمر هو الذي سيقاتل في الأورال، على كلّ الأحوال لا شيء مهماً.

هل يُفكّر المحروقُ في أن يلعبَ حتى النهاية؟ أخشى أن يكون كذلك. هو ما نسميه ـ لاعباً ـ بغلاً. واجهتُ ذات مرّة لاعبَ تدريب من هذا النوع. كانت اللعبة هي الناتوـالحرب القادمة في أوروبا وكان خصمي على رأس قوات حلف وارسو. بدأ رابحاً، لكنّني كبحته قبل أن يصل إلى حوض نهر الرور وظهر بدءاً من تلك اللحظة سحقه طيراني والجيش الفيدرالي وظهر واضحاً أنّه لن يستطيع الفوزَ باللعبة. على الرغم من أنّ أصدقاءه المجتمعين حوله طلبوا منه أن ينسحب، إلاّ أنّه تابع. كانت المباراة خالية من أيّ حماس. سألته أخيراً بعد أن فزتُ، لماذا لم ينسحب إذا كانت هزيمته واضحةً حتى بالنسبة إليه هو (الأحمق). اعترف ببرودة أنّه كان ينتظر أن أُنهيها مُتعباً من عناده بهجوم نووي وهكذا يحرز خمسين بالمئة من احتمالات أن يخسر البادئُ بالمحرقة النووية اللعبَ.

أمل سخيف. ليس عبثاً أنّني البطل. أعرف كيف أنتظر وأتسلّح بالصبر.

ـ هل هذا ما يُخبّئه المحروق قبل أن يستسلم؟ لا توجد أسلحة نووية في الرايش الثالث. ماذا ينتظر إذن؟ ما هو سلاحه السرّي؟

٩ أيلول

مع فراو إلسي في المطعم:

ـ ماذا فعلت البارحة؟

ـ لا شيء.

ـ كيف لا شيء؟ بحثتُ عنك مثل مجنونة ولم أرك طوال النهار. أين حشرت نفسك؟

ـ في غرفتي.

ـ بحثت عنك هناك أيضاً.

ـ في أيّ ساعة؟

ـ لا أتذكّر، في الخامسة مساءً ثم في الثامنة أو التاسعة ليلاً.

ـ شيء غريب. أعتقد أنّني كنتُ قد وصلتُ!

ـ لا تكذب عليّ.

ـ حسن، وصلت بعدها بقليل. خرجتُ لأقوم بجولة في السيارة؛ أكلتُ في البلدة المجاورة في بيت ريفيّ. كنتُ بحاجة لأن أكون وحدي وأفكّر. عندكم مطاعم جيّدة في المنطقة.

ـ وبعدها؟

ـ أخذتُ السيارة وعدتُ. أقود ببطء.

ـ فقط لا أكثر؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ إنّه سؤال. يعني ما إذا كنتَ قد فعلت شيئاً آخرَ غير التنزّه والأكل في الخارج.

ـ لا. وصلتُ إلى الفندق وأغلقت الغرفة على نفسي.

ـ عاملة الاستقبال تقول إنّها لم تركَ تصل. أنا مشغولة عليك. أظنّ أنّني أشعر بأنني مسؤولة. أخاف أن يحدث لك شيء سيّئ.

ـ أعرف كيف أعتني بنفسي لوحدي. ثمّ ماذا يمكن أن يحدث لي؟

ـ شيء سيّئ... أحياناً أحدس... كابوس...

ـ هل تقصدين أن أنتهي مثل تشارلي؟ سيكون عليّ أوّلاً أن أمارس التزلج الشراعي. بيننا، تبدو لي رياضة معتوهين. مسكين تشارلي، في أعماقي أنا شكور له، فلو لم يمت بطريقة غبية ما كنتُ هنا الآن.

ـ لو كنتُ مكانك لعدتُ إلى ستوتغارت وتصالحتُ مع... الصغيرة، خطيبتك. الآن! فوراً.

ـ لكّنك تريدينني أن أبقى، إننّي أرى ذلك.

ـ تُخيفني. تتصرّف مثل طفل غير مسؤول. لا أدري ما إذا كنتَ قادراً على أن ترى كلَّ شيء أم أنّك أعمى. عليك ألا تعمل بكلامي، إنّني متوتّرة. إنّها نهاية الصيف. بشكل عام أنا امرأة متّزنة بما يكفي.

ـ أعرف ذلك. وجميلة جدّاً.

ـ لا تقل هذا.

ـ البارحة كنتُ أُفَضّل لو بقيتُ معك، لكنّني أيضاً لم أجدك. الفندق يخنقني، طافح بالمتقاعدين وكنتُ بحاجة لأنّ أُفكّر.

ـ وبعدها كنتَ مع المحروق.

ـ البارحة. بلى.

ـ صعد إلى غرفتك. رأيت اللعبة. كانت جاهزة.

ـ صعد معي. دائماً أنتظره في باب الفندق. للأمن.

ـ وهل كان هذا كلَّ شيء؟ صعد معك ولم يخرج حتى ما بعد منتصف الليل؟

ـ تقريباً. ربّما بعد منتصفه بقليل.

ـ ماذا فعلت طوالَ كلِّ ذلك الوقت؟ لا تقُل لي كنت تلعب.

ـ بلى.

ـ يصعب تصديق ذلك.

ـ إذا كنتُ فعلاً قد دخلتِ غرفتي فلا بدَّ أنّك رأيت الرقعة. فاللعبة منشورة.

ـ رأيتها. خريطة غريبة. لا تعجبني. تفوح منها رائحة كريهة.

ـ الخريطة أم الغرفة؟

ـ الخريطة، والفيش. في الحقيقة كلّ شيء في غرفتك تفوح منه رائحة كريهة. هل يا ترى لا أحد يجرؤ على أن يدل إلى غرفتك ويقوم بأعمال التنظيف. لا. ربّما كان صديقك هو المسؤول. ربّما كانت الحروق هي التي تصدر ذلك النتن.

ـ لا تكوني سخيفة. الرائحة الكريهة تأتي من الشارع. مجروركم ليس مصنوعاً لموسم الصيف. سبق لإنجيبورغ أن قالت ذلك، بدءاً من الساعة السابعة مساءً تنتنُ الشوارع، العطر يصدر عن المجارير الطافحة!

ـ من محطة البلدية لتكرار المياه المالحة. بلى، ممكن. على كلّ الأحوال لا يسرّني أن تصعد مع المحروق إلى غرفتك. هل تعرف ما قد يُقال عن فندقي إذا ما رأوك تتسلّل في الممرات مع هذا هذه الكتلة الشائطة؟ لا يهمّني ما يتهامس به المُستَخْدَمون. الزبائن شيء مختلف، هؤلاء يجب مراعاتهم. لا أستطيع أن أُقامر بسمعة الفندق لمجرّد أنك تضجر.

ـ بالعكس أنا لا أضجر. إذا أردت أستطيع أن أُنزل الرقعة وأقيم في

المطعم. طبعاً هناك سيرى الجميع المحروقَ ولن يكون هذا دعاية حسنة. ثمّ إنّني أعتقد أنّني سأفقد بعضاً من تركيزي. لا أحب أن ألعب أمامَ ناس كثيرين.

ـ هل تعتقد أنّهم سيعتبرونك مجنوناً؟

ـ حسن، هم يمضون المساء في لعب الورق. طبعاً لعبتي أكثر تعقيداً، تتطلّب عقلاً بارداً، تأمّلياً ومجازفاً. من الصعب إتقانها، ففي كلّ بضعة شهر يُضيفون إليها قواعد وتنويعات جديدة. يُكتب عنها. أنتِ لن تفهميها. أعني أنّك لن تفهمي *التفرّغ*.

ـ وهل يجمع المحروق هذه الميّزات؟

ـ نعم، يبدو لي ذلك. إنّه بارد ومُجازف. لكنّه ليس شديد التأمّل.

ـ كنتُ أظنّ لك. أعتقد أنّه يُشبهك في داخله كفايةً.

ـ لا أظنّ ذلك. أنا أكثر فرحاً منه.

ـ لا أظنّ أنَّ الانطواءَ لساعات في غرفة ينطوي على فرح، في الوقت الذي تستطيع أن تكون فيه في مرقص أو تقرأ في شرفة أو تشاهد التلفزيون. فكرة أنّك تتجوّل أنت والمحروق في فندقي تستفزّ أعصابي. لا أتمكّن من أن أتصوّركما هادئين في الغرفة. دائماً تتحرّكان.

ـ نُحرّك الفيش ونجري حسابات رياضية...

ـ وفي هذه الأثناء تتفسّخُ سمعةُ فندقي العائلية مثل جسد صديقك.

ـ تتفسّخ مثل جسد أيّ صديق؟

ـ الغريق، تشارلي.

ـ آه، تشارلي، ما رأي زوجك بكلّ هذا؟

ـ زوجي مريض، ولو علم لأخرجك من الفندق رفساً.

ـ أعتقد أنّه يعرف. صهِ، أنا واثق. زوجك داهية.

ـ زوجي سيموت.

ـ ماذا به بالتحديد؟ هو أكبر منك كفاية أليس كذلك؟ وهو نحيل وطويل. شعره قليل، أليس كذلك؟

ـ لا أحبّ أن تتكلّمَ بهذه الطريقة.

ـ المسألة أنّني أعتقدُ أنّني رأيتُ زوجك.

ـ أتذكّر أنّ والديك كانا يُحبانه كثيراً.

ـ لا. أقصدُ في هذا الموسم. منذ وقت قصير، حين كان يُفترض أنّه كان مستلقياً محموماً وأشياء من هذا القبيل.

ـ ليلاً؟



ـ نعم.

ـ بالمنامة؟

ـ باستطاعتي أن أقول إنّه كان يرتدي رداء البيت.

ـ لا يمكن. رداء؟ ما لونه؟

ـ أسود. أو أحمر داكن.

ـ ينهض أحياناً ويجول في الفندق. في منطقة المطبخ والخدمة. إنّه حريص على النوعية دائماً وعلى أن يكون كلّ شيء نظيفاً.

ـ لم أره في الفندق.

ـ إذن أنت لم ترَ زوجي؟

ـ هل يعرف أنّنا أنا وأنتِ...

ـ طبعاً. دائماً يحكي الواحد منّا للآخر كلّ شيء. ما بيننا، أنا وأنتَ، هو مجرّد لعب، يا أودو، ويبدو لي الآن أنّه آن لنا أن ننهيه. يمكن أن يكون بالنتيجة هوساً مثل اللعب الذي تلعبه مع المحروق. بالمناسبة ما اسمه؟

ـ المحروق؟

ـ لا ، اللعب.

ـ الرايش الثالث.

ـ ما أفظعه من اسم.

ـ بحسب...

ـ من الرابح؟ أنت؟

ـ ألمانيا.

ـ أنت مع أي بلد تلعب؟ مع ألمانيا، طبعاً.

ـ مع ألمانيا، طبعاً، يا غبية.

ربيع ١٩٤١. لا أعرف اسم المحروق. ولا يهمّني. كما لا تهمّني الآن جنسيته. سيّان من أين يكون. يعرف زوجَ فراو إلسي، وهذا نعم مهم؛ وهذا ما يمنح المحروق قدرة مدهشة على التحرّك؛ فهو لا يُعاشر الذئب والخروف وحسب بل وإضافة إلى ذلك يميل إلى حديث زوج فراو إلسي الأكثر إتقاناً (يُفترض ذلك). ومع ذلك لماذا يتكلّمان على الشاطئ، في عزِّ الليل، مثل متآمرين، بدل أن يفعلا ذلك في الفندق. المشهد أقرب إلى المؤامرة منه إلى الحديث المريح. وعمّ يتكلّمان؟ موضوع حديثهما، دون أدنى شك عندي، هو أنا. وهكذا فزوج فراو إلسي يعرف عنّي عن طريقين: المحروق يحكي له على المباراة وزوجته تكلّمه عن غرامياتنا. وضعي أمامه خاسر، فأنا لا أعرف عنه شيئاً غير أنّه مريض. لكنّني أحدس ببعض الأشياء. يرغب في أنّ أرحل. يرغب في أن أخسر المباراة؛ يرغب في ألا أنام مع زوجته. الهجوم في الشرق مستمر. الإسفين المُدَرّع (أربعة فيالق) يصطدم بالجبهة الروسية ويكسرها في سمولينسك كي يُحاصر بعدها موسكو التي تسقط في معركة الاستغلال. في الجنوب أحتلُّ سيباستروبول بعد معركة دامية وأتقدّم من روستوف ـ خاركوف حتى خط إليستا ـ دون. الجيش الأحمر يشنّ هجوماً معاكساً

على امتداد خطّ كالينين ـ موسكو ـ تولا، لكنّني أنجحُ في صدّه. سقوط موسكو يحمل معه من جهة ألمانيا ١٠ نقاط موارد إستراتيجية ـ هذا مع البديل بيما؛ بالقاعدة القديمة كنتُ سأكسب ١٥ وسأضع المحروق ليس على حافّة الانهيار فقط بل في الانهيار ذاته. على كلّ الأحوال الخسائر الروسية كبيرة: يجب أن تُضاف إلى نقاط الموارد الاستراتيجية لخيارِ الهجوم من أجل محاولة استعادة موسكو الجيوشُ التي تسقط في الإصرار والتي لا تكاد تتوفّرُ بالنسبة إليها نقاطُ موارد استراتيجية تضمن انتقالاً سريعاً. بالإجمال فقط في القطاع الأوسط من الجبهة خسر المحروق أكثر من خمسين نقطة موارد استراتيجية. الوضع في اتجاه لينينغراد لا يطرأ عليه تبدلات؛ يبقى الخطّ مستقرّاً في تالين وفي سداسيات الأضلاع جي ٤٢، جي ٤٣ وجي ٤٤. (أسئلة لا أسألها للمحروق، لكنني أودّ لو أفعل؛ هل يزوره وزج فراو إلسي كلَّ ليلة. ماذا يعرف هذا عن ألعاب الحرب؟. هل استخدم زوج فراو إلسي المفتاح السحري كي يفتش في غرفتي؟ انتبه، رشّ بعض المسحوق ـ ليس عندي ـ في المدخل؛ أيّ شيء يشي بالانتهاك. ترى هل زوج فراو إلسي بالمصادفة هاوٍ؟ وبأيّ مرض لعين هو مصاب؟ نقص المناعة؟) على جبهة الغرب عملية الفقمة (أسد البحر) تنفّذ بنجاح. المرحلة الثانية، غزو واحتلال الجزيرة، سوف تتمّ في الصيف. حتى الآن تمّ تنفيذ الأصعب: رأس شاطئ في إنكلترا، محميّ بقوّة جويّة جبارة متمركزة في نورمانديا. كما كان متوقّعاً نجح الأسطول الإنكليزي في أن يعترضني في القنال؛ وبعد معركة طويلة استخدمتُ فيها كلّ الأسطول الألماني وجزءاً من الأسطول الإيطالي وأكثر من نصف طيراني نجحتُ في النزول في سداسيّ الأضلاع إلـ ٢١. احتفظت، ربّما بتأنٍ مفرط، بفيلق مظلاتي. وبالتالي فإنّ رأس الشاطئ لم يكن سلساً بالشكل الذي أردتُ (كان من المحال إعادة الانتشار باتجاه رأس الشاطئ) ومع ذلك فإن الوضع كان

مُواتياً. في نهاية الشوط سداسيات الأضلاع المحتلة من قبل الجيش البريطاني هي التالية: الخامس والثاني عشر فيلق المشاة في لندن؛ الثالث عشر الفيلق مشاة في ساوثامبتون ـ بورتسماوث؛ الثاني فيلق المشاة في بيرمينغهام؛ خمسة عوامل جوّية في مانشستر ـ شيفيلد؛ ووحدات التبديل في روسيث، جي ٢٥، إل ٢٣ وبليموث. القوات الإنكليزية المسكينة تلمح وحداتي (الفيلق الرابع والعاشر مشاة) من كثبانها ـ سداسيات أضلاعها، من خنادقها ـ سداسيات أضلاعها، ولا تتحرّك. المتوقّع مرّات كثيرة وقع. جسر من الشلل ينتشر على امتداد الفيش وحتى تنتهي بين أصابع المحروق؛ الجيش السابع ينزل في إنكلترا. حاولتُ أن أكبح الضحكة لكنّني لم أستطِع. المحروق لم ينزعج. مخطّط بشكل ممتاز! يعترف، على الرغم من أنّني لاحظت في نبرة صوته جمرة سخرية. على شرف الكلمة عليّ أن أقول إنّه خصم لا يفقد هدوءه، يلعب مستغرقاً كما لو أنّ حزن حربٍ حقيقيّة قد تمكّن منه. أخيراً هناك شيء غريب يجب أخذه بالحسبان: خرجتُ قبل أن يذهب المحروق إلى الشرفة كي أستنشق هواءً نقيّاً، ومن رأيتُ في الكورنيش يتكلّم مع الذئب والخروف؟ فراو إلسي، طبعاً يحرسها الحارس الليلي.

١٠ أيلول

أيقظتني اليوم في الساعة العاشرة صباحاً مكالمةٌ هاتفية وعلمت بالخبر. لقد عثروا على جثة تشارلي ويرغبون منّي في أن أمثل في مخفر الشرطة كي أتعرّف إليه. بعدها بقليل وبينما كنتُ أتناولُ فطوري ظهر مدير فندق كوستا برافا مشعّاً ومُثاراً ومنفعلاً.

ـ وأخيراً! علينا أن نحسن استخدام الوقت؛ الجثمان سوف يُنقل اليومَ إلى ألمانيا. تكلّمت توّاً مع قنصلية بلده. عليّ أنّ أعترف أنهم ناس فعّالون.

في الساعة الثانية عشرة وصلنا إلى بناء في ضواحي البلدة لا يشبه أبداً بناء حلم الأيام الماضية، حيث كان ينتظرنا شابّ من الصليب الأحمر ومندوب قيادة البحرية، الذي سبق أن تعرّفت إليه. في الداخل وفي قاعة انتظار قذرة وسيّئة الرائحة كان الموظّف الألماني منهمكاً في قراءة الصحافة الإسبانية.

ـ أودو بيرغير، صديق المرحوم ـ قدّمني مدير فندق كوستا برافا.

نهض الموظّف ومدّ لي يده وسألني عما إذا كنّا نستطيع أن نشرع في التعرّف.

ـ علينا أن ننتظر الشرطة ـ قال السيّد بيري.

ـ لكن ألسنا في ثكنة الشرطة؟ ـ قال الموظّف.

قام السيّد بيري بحركة تأكيدية وهزّ كتفيه. عاد الموظّف وجلس. بعد وقت قصير قلّدناه جميعنا ـ نحن الذين كنّا نتكلّم جماعياً وهمساً.

بعد نصف ساعة ظهرت الشرطة. كانوا ثلاثة ويبدو أنّه ليس لديهم فكرة عن الدافع لانتظارنا. ومرّة أخرى كان مدير فندق كوستا برافا من راح يقدّم توضيحاً، حملونا بعدها على أن نتبعهم عبر ممرات وأدراج حتى وصلنا إلى قاعة بيضاء ومستطيلة، قبو، أو هذا ما بدا لي، حيث وجدنا جثّة تشارلي.

ـ هل هو؟

ـ بلى، هو ـ قلتُ، وقال السيّد بيري والجميع.

مع فراو إلسي على السطح:

ـ هل هذا هو ملاذك؟ المنظر جميل. تستطيعين أن تشعري بأنّك ملكة البلدة.

ـ لا أشعر بأنّني شيء.

ـ الحقيقة الآن أفضلُ من آب. أقلّ قسوة. لو كان المكان لي لصعدت بأصص نباتات؛ لمسة خضراء، هكذا سيكون أكثر دفئاً.

ـ لا أريد أن أشعر بالدفء. أحبّه كما هو. ثمّ إنّه ليس ملاذي.

ـ أعرف ذلك، هو المكان الوحيد الذي تستطيعين أن تكوني فيه لوحدك.

ـ ولا حتى هذا.

ـ حسن، أنا تبعتك لأنّني بحاجة لأنّ أتحدّث معك.

ـ أنا لا، يا أودو. الآن لا. فيما بعد، إذا أردت انزل إلى غرفتك.

ـ وهل سنمارس الحبّ؟

ـ هذا ما لا يُعرف أبداً.

ـ لكنّنا أنا وأنتَ لم نُمارسه قط. نُقَبّل ونُقبّلُ بعضنا بعضاً وحتى الآن لم نُقرّر أن ندخل الفراشَ معاً. سلوكنا طفوليّ!

ـ ليس عليك أن تنشغل بهذا. سيصل حين تجتمع الشروط.

ـ وما هي هذه الشروط؟

ـ الجاذبية، الصداقة، الرغبة بترك شيء لا يُنسى. كلّ ذلك تلقائياً.

ـ لو تعلّق الأمر بي لذهبتُ إلى الفراش فوراً، الزمن يطير، ألم تنتبهي؟

ـ الآن أرغب بأن أكون لوحدي، يا أودو. ثمّ إنّ بي خوفاً من أن أتعلّق عاطفياً بشخص مثلك. أظنّ أحياناً أنّك غير مسؤول وأحياناً أخرى أنّك العكس تماماً. أراك ككائن مأساويّ. في أعماقك لا بدّ أنّك مضطربٌ كثيراً.

ـ تعتقدين أنّني ما زلتُ طفلاً...

ـ يا أبله، لا أتذكّرك ولا حتى عندما كنتَ طفلاً، هل كنت طفلاً ذات مرّة؟

ـ هل حقّاً أنّكِ لا تتذكّرين؟

ـ طبعاً. عندي فكرة مشوّشة عن والديك، لا أكثر. الذكرى التي تحتفظ بها عن السيّاح تختلف عن ذكرى الناس العاديين، إنّهم مثل قطع من فيلم، لا، من فيلم لا، بل من صور، صور وجهيّة، آلاف الصور الوجهية وجميعها فارغة.

ـ لا أدري ما إذا كان الابتذال الذي قلته يُخفّف عنّي أم يرعبني... البارحة رأيتُكِ ليلاً بينما كنتُ ألعبُ مع المحروق. كنتُ مع الذئب والخروف. هل هما بالنسبة إليك ناس طبيعيون يتركون عندك ذكرى طبيعية وليس فراغاً؟

ـ كانا يسألان عنك. قلتُ لهما أن يذهبا.

ـ حسناً قلتِ. ولماذا تأخّرتِ إلى ذلك الحدّ؟

ـ تكلّمنا عن أشياء أخرى.

ـ عن أيّ أشياء؟ عنّي؟ عمّا كنتُ أعمل؟

ـ تكلّمنا عن أشياء لا تهمّك. وليس عنك.

ـ لا أعرف ما إذا كنتُ سأُصَدِّقك، لكن شكراً على كلّ الأحوال. ما كنتُ لأُسرّ بأن يصعدا ليزعجاني.

ـ ما أنتَ؟ هل مجرد لاعب ألعاب حرب؟

ـ طبعاً لا. أنا شخص شابّ يحاول أن يستمتع... بطريقة سليمة. وأنا ألمانيّ.

ـ وما هو الألماني؟

ـ لا أعرف بالضبط. من المفروغ منه أنّه شيء صعب، شيء نسيناه بالتدريج.

ـ أنا أيضاً؟

ـ الجميع وإن كان من الممكن لأن يكون نسيانك له أقل.

ـ أعتقد أنّ هذا يجب أن يسرّني.

كنتُ مساء في ركن الأندلسيين. كان البار يستعيد بمغادرة السياح شيئاً فشيئاً طبيعتَهُ المشؤومة. الأرضية قذرة ودبقة، مليئة بأعقاب السجائر والمناديل الورقية وعلى طاولة العرض تتكدّس أطباق وفناجين وقنانٍ وبقايا شطائر، كل شيء مختلط بجو من الكآبة والسلام، الفتيةُ الإسبان ما يزالون مُلتصقين بالفيديو وصاحب البار الجالس بجانبهم يقرأ صحيفةً رياضية. طبعاً جميعهم كانوا يعرفون أنّهم عثروا على جثّة تشارلي، ومع أنّهم يبقون لبضع دقائق على نوع من مسافة احترام، اقترب المالك وعزّاني دون مقدّمات: «الحياة قصيرة» يقول بينما هو يُقدّم لي القهوة بالحليب ويجلس إلى جانبي. أجيبُه مُفاجَأً بغموض. «الآن ستذهب إلى بيتك وسيعود كلّ شيء ليبدأ من جديد». هززتُ رأسي موافقاً. بدأ البقيّةُ يتظاهرون بأنّهم يُشاهدون الفيديو إلاّ أنّهم كانوا في الحقيقة مشدودين إلى الكلمات التي قلتُها. امرأة مسنّة خلفَ طاولة العرض مستندة بيدها

إلى جبينها لم تكن ترفع عينيها عنّي. «لا بدّ أنّ خطيبتك تنتظرك. الحياة تستمرّ ويجب أن تُعاش بأفضل ما أمكن». سألتُ من تكون المرأة. ابتسم صاحبُ الحانة. «أمّي. المسكينة لا تعي شيئاً. لا تُحب أن ينتهي الصيف». أشرتُ إلى شبابها. «بلى، أنجبتني في الخامسة عشرة من عمرها. أنا أكبر أخوتي العشرة. المسكينة تالفة جدّاً». قلت إنّها تحافظ على نفسها بشكل ممتاز. «تعمل في المطبخ، تُحَضّر طوالَ النهار الشطائرَ، الفاصوليا بالنقانق، البائية، البطاطا المقلية مع البيض المقلي، والبيتزا». عليّ أن آتي لأتذوّق البائيّة، قلتُ.. رفّ المالكُ أجفانه، كانت عيناه دامعتين. في الصيف القادم، أضفتُ.. «ما عادت كما كانت»، قال بشكل محزن. «لذيذة كما من قبل، لا تحلم». «من قبل ماذا؟» «قبل مرور السنين». آه، قلتُ، شيء طبيعي، ربّما كنتَ معتاداً أكثر من اللازم وما عدتَ تجد فيها اللذة. «ممكن». تقوم المرأة وهي في وضعيتها ذاتها بحركة يمكن أن تكون موجّهة إليّ أو تعليقاً على الطقس والحياة. اعتقدتُ أنّني تنبأت خلف ابتسامتها المجعدة والحزينة بنوع من الحماس الشرس. بدا أنّ صاحب الحانة فكّر لحظة ثمّ نهض بجهدٍ واضح وقدّم لي قدحاً «دعوة من الدار»، رفضته لأنّني لم أكن قد أنهيت القهوة بالحليب بعد. عندما مرّ صاحب الحانة أمام طاولة العرض وفي الوقت الذي كان ينظر فيه إليّ قبّل أمّه على جبينها. عاد بحيوية ملحوظة حاملاً في يده قدحَ كونياك. سألتُ ماذا حلّ بالذئب والخروف. يبحثان عن عمل. ما العمل؟ لم يكن يعرف، أيّ عمل، في البناء أو في أي شيء آخر. لم يكن يروق له الموضوع. آمل أن يجدا شيئاً يعجبهما، قلتُ. لم يكن يعتقد ذلك. هو كان قد شغّل الذئبَ عنده في موسمين سابقين ولا يتذكّر نادلاً أسوأ منه. فقط دام شهراً. «على كلّ الأحوال خير لك أن تبحث عن عمل، وإن لم يكن هناك من ينوي أن يمنحه لك، من أن تصاب بالسأم مثل خنزير». وافقتُهُ، كان هذا هو الأفضل. على الأقل كان

موقفاً أكثر إيجابية. «الآن وأنتَ ذاهبٌ، من سيصاب بالسأم مثل كلبٍ هو المحروق». (لماذا *كلب* وليس *خنزيراً*؟ كان صاحب الحانة يعرف كيف يحدّد الاختلافات). نحن أصدقاء جيّدون، قلتُ وإن كنت لا أعتقد أنّنا أصدقاء إلى هذا الحدّ. «لا أقصد هذا»، أطلقتْ عينا صاحبِ الحانة شرراً، «بل أقصد اللعب». راقبته دون أن أقولَ شيئاً. مهما كانَ يُحرّك يديه تحت الطاولة كما لو أنّه يمارس العادة السرّية. مهما كان الوضعُ فقد كان يسرّه. «لعبتك، المحروق مسرور جدّاً بها. لم أره قط مهتمّاً بشيء إلى هذا الحدّ». صفّيتُ صوتي وقلتُ نعم. الحقيقة أنّني فوجئت بأنّ المحروق راح يحكي عن لعبتنا هناك. كان فتية الفيديو ينظرون باتجاه طاولتي بطرف أعينهم كما لو بتمويه متناقص، باتجاه طاولتي. انتابني إحساس بأنّهم كانوا ينتظرون، مُهَدِّدين، أن يحدثَ شيء. «المحروق فتى ذكيّ وإن كان منكمشاً، طبعاً بسبب الحروق»، صار صوت صاحب الحانة همساً لا يكاد يُسمع. في الطرف الآخر عادت أمّه أو أيّاً كانت لِتُكرِّمني بابتسامة ضارية. شيء طبيعي، قلتُ» لعبتك نوع من الشطرنج، الرياضة، أليس كذلك؟» شيء مُشابِه. «لعبة حرب، الحرب العالمية الثانية. أليس صحيحاً؟ بلى، هي كذلك. «والمحروق يخسرُ أو على الأقل هذا ما تعتقدُهُ أنتَ، أليس صحيحاً، لأنّ كلّ شيء مشوّش». بالفعل. «حسن، المباراة تبقى غير منتهية؛ هذا أفضل». سألته لماذا كان يعتقد أنّ الأفضل هو ألا تنتهي المباراة. «إنسانياً!» قام صحاب الحانة بحركة مفاجئة وابتسم بعدها بشكل مُطَمْئِن. «لو كنتُ مكانك لما حشرت نفسي معه؟» فضّلت أن أختار صمتاً حذراً. «أعتقد أنّه لا يُحبّ الألمان». تشارلي كان يُحِبُّ المحروق، تذكّرتُ، وكان يؤكّد أنّه ودٌّ متبادل. أو ربّما حنّة هي التي قالت ذلك. فجأة شعرتُ بأنني منقبض وبرغبة للعودة إلى فندق البحر، أُرتب حقائبي وأرحل على الفور. «الحروق، هل تعلم، أنزلوها به عمداً، لم تكن بسبب أيّ حادث.» ألمان؟ ألذلك لا

يستلطف الألمان؟ قال صاحب الحانة، المنكمش على نفسه وذقنه تكاد تلامس بلاستيك الطاولة الأحمر: «الفريق الألماني» وأدركتُ أنّه يقصد اللعبة، لعبة الرايش الثالث. المحروق يجب أن يكون مجنوناً، صحتُ. وكجواب شعرتُ جسديّاً بنظراتِ كراهيةِ جميعِ من كانوا بجانب الفيديو. كان مجرّدَ لعبٍ، لا أكثر، وكان الرجلُ يتكلّم كما لو أنّ هناك فيشاً للجيستابو (هاها) جاهزة لتقفز إلى وجه اللاعب الحليف. «لا أحبّ أن أراه يُعاني». لا يُعاني، قلتُ، بل يُسرّ. ويُفكِّرُ «هذا هو الأسوأ، هذا الفتى يُفكّر أكثر من اللازم. حرّكت امرأةُ طاولةِ العرض رأسَها من جانب إلى آخر ثمّ أدخلت إصبعاً في أذنها. فكّرتُ في إنجيبورغ. ترانا وجِدنا في ذلك المكان وشربنا وتكلّمنا عن حبّنا؟ لا يُستغرب أن تملّ منّي. إنجيبورغ المسكينة والبعيدة. الفاجعة. ما لا مفرّ منه، كانت تغمر كلَّ زاوية من زوايا البار. قام صاحب الحانة بحركة في الجانب الأيسر من وجهه: حركة جعّدت خدّه وصعدت وتسلّقَت عينه. لم أمدح مهارته. لا يبدو أنّ صاحبَ البار استاء، في أعماقه كان في مزاج رائع. «النازيون» قال. «الجنود النازيون الحقيقيّون الذين يمضون في العالم طلقاءَ.» هكذا إذن، قلتُ. أشعلتُ سيجارة. كلّ ما كان هناك راح يتخذ بعزيمة صبغة خارقة للطبيعة. هكذا إذن تسري قصّة أنّ من أحرقوه كانوا نازيين؟ وأين حدث هذا ومتى ولماذا؟ نظر إليّ صاحب الحانة بتعالٍ قبل أن يجيبني بأنّ المحروق مارس في زمن بعيد وغير دقيق مهنة الجندي، «نوع من الجندي الذي يقاتل بشكل يائس». مشاة، وضّحتُ. بعدها فوراً سألتُ بابتسامةٍ على شفتيّ عمّا إذا كان المحروق يهوديّاً أو روسيّاً، لكن صاحب الحانة لم يكن أهلاً لمثل هذه التفاصيل. يقول: «لا أحد يجرؤ معه، تنقبض أرواحهم بمجرّد أن يُفكّروا فيه (لا بدأ أنّه يقصد زعران ركن الأندلسيين)، أنتَ مثلاً، هل لمست ذات مرّة ذراعيه؟» لا، أنا لا. «أنا بلى»، يقول صاحب الحانة بصوت جنائزيّ. ثمّ يُضيف: «في

الصيف الفائت عمل هنا، في المطبخ، بمبادرة ذاتية منه، كيلا يُخسّرني زبائن، معروف أنّ السياح لا يُحبّون وجهاً بهذا الشكل، وخاصّة إذا كانوا يشربون». قلتُ هناكَ الكثيرُ مما يُقال حول هذا الموضوع، هناك أذواق لكل شيء، وهذا شيء معروف. نفى صاحب الحانة بحركة من رأسه. كانت عيناه تلمعان بنور خبيث. لن أعود لأطأ تلك المغارة، فكّرتُ. «كان بودّي أن يستمرّ معي، إنّني أُقدّره حقيقةً، لذلك أُحبّ أن ينتهي اللعب في الرقع، لا أحبّ أن أراه محشوراً في مشاكل». إلى أيّ نوعٍ من المشاكل كان يُشير، سألتُ. تأمّل صاحب الحانة طويلاً أمَّهُ، طاولةَ العرض، الرفوفَ المليئة بالقناني المغبرّة، ملصقات فرق كرة القدم.. «أسوأ مشكلة تحدث حين لا يكون المرء قادراً على أن يفي بوعده» ما نوع الوعد؟ النورُ الذي كان في عيني صاحب الحانة انطفأ فجأة. أعترفُ أنّني خفت في لحظة معيّنة من أن ينفجر بالبكاء. أخطأتُ، فالأخرق كان يضحك وينتظر، مثل قطّ عجوز، بدين وفاسق. هل هو شيء على علاقة بصديقي الميت؟ تقدّمتُ ضابطاً نفسي. بزوجة صديقي الميّت؟ حمل صاحب الحانة يده إلى كرشه وصاح: «آخِ، لا أعرف، حقيقةً لا أعرف، لكنّني أتمزّق». لم أفهم معنى ما أراد أن يقوله فسكتُّ. قريباً عليّ أن أجتمع مع المحروق في باب الفندق وهذا يسبّب لي لأوّل مرّةٍ بعض القلق. لم تعد المرأة وراء طاولة العرض، المضاءة بشكل باهت بمصابيح صفراء تتدلى من السقف. أنتَ تعرفُ المحروق، قلْ لي كيف هو. «مستحيل، مُستحيل»، تمتم صاحب الحانة. من النوافذ شبه المغلقة بدأ يتسرّب الليلُ والرطوبة. في الخارج، في الشرفة لم يبق غير ظلال تخترقها من حين لآخر أضواءُ سيارات تخرج من الكورنيش إلى داخل البلدة. بحزنٍ شديد تصوّرتُ نفسي أبحثُ عن الطريق المختفيّ جيدّاً وكان يقود إلى فرنسا، بعيداً عن بلدة الإجازة. «مستحيل، مستحيل»، تمتم بحزنٍ، منكمشاً على نفسه، كما لو أنّه شعر فجأة

بالبرد. قُلْ لي على الأقلّ من بلدِ أيِّ شياطين هو. مطّ أحدُ فتية الفيديو عنقه باتجاه طاولتنا وقال إنّه شبح. نظر إليه صاحب الحانة بألم. «هو يشعر الآن بفراغ، لكن بسلام». من أين هو؟ كرّرتُ. نظر إليّ فتى الفيديو بابتسامة فاحشة وقال من البلدة.

صيف ١٩٤١. وضعُ الجيشِ الألمانيّ في إنكلترا مُرْضٍ. فيالق الجيش: الرابع مشاة في بوستماوث، معزّز في إعادة التوزيع الاستراتيجي مثل الفيلق ٤٨ المدرّع. في نقطة الإنزال البحرية يستمرّ الفيلق العاشر، معزّزاً بالفيلق العشرين والتاسع والعشرين مشاة. يجمّع الإنكليز قوّاتٍ في لندن ويؤخّرون وحداتهم الجوّية تحسّباً لهجوم جوّ - جوّ. (هل كان يجب أن يزحف مباشرة على لندن؟ لا أظنّ). وضع الجيش الألماني في روسيا: ممتاز. حصار لينينغراد؛ تلتقي الوحدات الفنلندية والألمانية في سداسيّ الأضلاع سي ٤٦؛ بدءاً من ياروسلفل أبدأُ بالضغط باتجاه فولوغدا؛ من موسكو باتجاه غوركي؛ في سداسيات الأضلاع الموجودة ما بين الآي التاسع والأربعين والإل ٤٨ تبقى الجبهة مستقرّة؛ في الجنوب أتقدّم حتى ستالينغراد؛ يتحصّن المحروق الآن على الجانب الآخر من الفولغا وبين أستراخان ومايكوب. هناك وحدات في وضع حرج في المنطقة الشمالية من روسيا: خمسة فيالق مشاة، فيلقان مدرّعان، أربعة فيالق فنلندية مشاة. وحدات في وضع حرج في منطقة الجنوب: ستّة فيالق مشاة، ثلاثة فيالق مدرّعة فيلق مدرّع إيطالي، أربعة فيالق مشاة رومانية وثلاثة فيالق مشاة هنغارية. وضعية جيوش المحور في المتوسّط: لا جديد؛ خيارات استنزاف.

١١ أيلول

مفاجأة: حين نهضتُ، لم تكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة بعد، كان أوّل شيء رأيته عندما فتحت الشرفة هو المحروق؛ كان يسير على الشاطئ ويداه خلف ظهره، منخفض النظرة كما لو أنّه يبحث عن شيء في الرمل، جلده الداكن بسبب الشمس والمحروق بالنار المتلألئ يكاد يخلِّف على الشاطئ أثراً ذهبيَّ اللون.

اليوم عطلة. آخر دفعة من المتقاعدين والسوريناميين غادرت بعد الغداء وبذلك بقي الفندق بربع استيعابه فقط. من ناحية أخرى أخذ غالبيةُ المستخدمين إجازةَ اليوم. كانت الممرات تدوي مطفأة وحزينة حين توجّهت لتناول الفطور. (صوت قساطل مكسورة أو شيء من هذا القبيل كان يدوّي على الدرج، لكن لا أحد بدا أنّه انتبه لذلك).

في السماء طائرة سيزنا صغيرة ترسم حروفاً كانت الريح تمحوها قبل أن أستطيع قراءة الكلمات كاملة. حزن هائل أمسكني بين فكيه من بطني والعمود الفقري، آخر أضلاعي، إلى أن بقي جسمي منحنياً تحت الشمسية!

أدركت بطريقة مبهمة، كما لو أنّني كنتُ أحلم، أنّ صباح الحادي عشر من أيلول كان يجري فوق الفندق على مستوى أجنحة طائرة السيزنا وأنّنا نحن الذين كنّا تحت ذلك الصباح، المتقاعدون الذين كانوا يُغادرون الفندق، النُدُل الجالسون في الشرفة وهم يتأمّلون دوران الطائرة، فراو إلسي المشغولة والمحروق وهو يمارس دور الغندور على الشاطئ، كنّا بطريقة ما محكومين بأن نغادر في الظلمة.

وهل أيضاً إنجيبورغ، المحميّة بنظام مدينة معقول وعمل معقول؟ وهل أيضاً رؤسائي ورفاقي في المكتب، الذين كانوا يدركون ويخمّنون ويأملون؟ وهل أيضاً كونراد، الذي كان وفيّاً وشفافاً وأفضل صديق يمكن أن يتمناه أحد. هل جميعهم تحت؟

بينما كنتُ أتناولُ فطوري كانت شمس هائلة تُحرّك مجسّاتها في كل الكورنيش وجميع الشرفات دون أن تتمكّن من أن تُدَفّئ في الحقيقة شيئاً.. ولا حتى الكراسي البلاستيكية. رأيت بسرعة فراو إلسي في مكتب الاستقبال ومع أنّنا لم نتبادل الكلام إلاّ أنّني اعتقدتُ أنّني لمحت في نظرتها أثر ودّ. سألتُ النادل الذي قام على خدمتي أي شياطين كانت تُحاول الطائرة أن تكتبها هناك في الأعلى. إنّها تُحيي ذكرى الحادي عشر من أيلول، قال. وما الذي يجب أن تُحيي ذكراه؟ اليوم هو يوم كتالونيا، قال. كان المحروق ما يزال يمشي على الشاطئ من جانب إلى آخر. حيّيته رافعاً ذراعاً، لكنّه لم يرني.

ما لا يكاد يكون واضحاً في منطقة الفنادق والمخيمات بَيِّنٌ في القسم القديم من البلدة. الشوارع مزيّنة ومن النوافذ والشرفات تتدلى أعلام، معظم المتاجر مغلقة وفي البارات المزدحمة بالناس يلاحظ التاريخ المذكور. أمام السينما وضع بعض المراهقين طاولتين يبيعون عليها كتباً ومناشير وأعلاماً. وعندما سألت ما نوع الأدب هذا يجيبني فتى نحيل لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بأنّها «كتب وطنية». ماذا كان يعني بذلك؟ صرخ أحد رفاقه ضاحكاً بشيءٍ لم أفهمه. إنّها كتب كتلانيّة! قال الفتى النحيلُ. اشتريت واحداً وابتعدت. في ساحة الكنيسة ـ كان هناك فقط عجوزان يتهامسان على مقعد ـ ألقيت نظرة عليه ثمّ رميته في أوّل سلّة مهملات.

عدتُ إلى الفندق متبعاً أطول الطرق.

في المساء هتفت لإنجيبورغ. قبلها حضّرتُ الغرفة. الأوراق على طاولة السرير، الثياب المتسخة تحت السرير، جميع النوافذ مفتوحة كي أستطيع أن أرى البحرَ والسماء، والشرفة مفتوحة كي أستطيع أن أرى الشاطئ حتى الميناء. جاء الحديث أبرد مما كنتُ أتوقّع. على الشاطئ كان هناك ناس يستحمون وفي السماء لم يبق أثر للطائرة. قلتُ إنّ تشارلي قد ظهر. ثمّ وبعد صمت مرهق أجابت إنجيبورغ بأنّ هذا كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً. اهتفي لحنّة وأخبريها، قلتُ. لم يكن ضرورياً، بحسب إنجيبورغ. القنصلية الألمانية ستخبر والدَي تشارلي وإنجيبورغ ستعلم من خلالهما. بعد برهة انتبهت إلى أنّه لم يكن لدينا ما نقوله. على كلّ الأحوال لم أكن أنا من أغلق الهاتف. قلتُ لها كيف كان الطقسُ، كيف كان الفندقُ والشاطئ، قلت كيف كانت المراقص على الرغم من أنّني منذ أن غادرت لم أطأ أيّاً منها. طبعاً لم أقل هذا.. أخيراً أغلقنا الهاتف كما لو أنّنا كنّا نخاف أن نوقظ أحداً ينام قريباً منّا. هتفتُ بعدها لكونراد وكرّرت الشيء ذاته تقريباً. قرّرتُ بعدها ألا أجري مزيداً من المكالمات.

مراجعة يوم ٣١ آب.

تقول إنجيبورغ ما تفكّر فيه وتفكّر في أنّني غادرت. طبعاً كنت تافهاً بما يكفي حين لم أسألها إلى أين تفترض أنّني يمكن أن أذهب. إلى شتوتغارت؟ ترى هل كان لديها دافع ما كي تُفكّر في أنّني يمكن أن أكون قد ذهبت إلى ستوتغارت؟ إضافة: عند استيقاظي تبادلنا النظرات ولم يعرف بعضنا بعضاً. أنا انتبهتُ وهي أيضاً انتبهت وأدارت لي ظهرها. تراها لم تكن تريدني أن أنظر إليها! ألاّ أعرفها، أنا الذي استيقظتُ توّاً، شيء طبيعي؛ غير المقبول هو أن يكون الاستغراب متبادلاً. ترى هل انكسر حبُّنا في تلك اللحظة؟ ممكن. على كلّ الأحوال في تلك اللحظة

انكسر شيء. أجهل ما هو، على الرغم من أنّني أحدسُ أهمّيته. قالت لي: إنّني خائفة، فندق البحر يُخيفني، البلدةُ تُخيفني. المسألة هي أنّها كانت تحسّ بالضبط بذلك، بالشيء الوحيد الذي لم أكن أتوقّف عنده.

السابعة مساء. في الشرفة مع فراو إلسي.

ـ أين زوجك؟

ـ في غرفته.

ـ وأين هي غرفته؟

ـ في الطابق الأوّل، فوق المطبخ. ركن صغير لا يذهب إليه الزبائن أبداً. ممنوع منعاً باتّاً.

ـ هل يشعر اليوم بنفسه في وضع حسن؟

ـ لا. ليس كثيراً. هل تريد أن تزوره؟ لا، طبعاً، لا تريد.

ـ أودّ أن أتعرّف إليه.

ـ حسن، ما عاد لديك وقت. أنا أيضاً كنت أودُّ أن تتعارفا، لكن ليس في الحالة التي هو عليها الآن. أنت تفهمني، أليس كذلك؟ في ظروف متكافئة، كلاكما واقف.

ـ لماذا تُفكّرين في أنّه ليس لديّ وقت؟ هل لأنّني ذاهب إلى ستوتغارت؟

ـ بلى، لأنّك سوف تعود.

ـ أنت تخطئين، فأنا حتى الآن لم أقرّر الذهاب. وهكذا إذا تحسّن زوجك وتستطيعين حمله إلى المطعم، مثلاً بعد العشاء، ستكون لي سعادة التعرف إليه والدردشة معه.

ـ أنت لا تذهب...

ـ لماذا؟ لن تُفكّري في أنّني كنتُ في فندقك فقط بانتظار جثّة

تشارلي. في حالةٍ في غاية السوء. أعني: الجثّة. ما كنتِ لتُحِبّين إطلاقاً أن تذهبي إلى هناك وتريها.

ـ هل تبقى لأجلي؟ هل لأنّنا لم ننم معاً.

ـ كان محطّم الوجه. من الأذنين وحتى الفكّ، أكله السمك كله. لم يبق له عينان ولا جلد، جلد الوجه والعنق صار رمادياً حليبياً. تمرّ لحظات أُفكّر فيها بأنّ ذلك الشقيّ لم يكن تشارلي. يمكن أن يكون هو ويمكن ألا يكون. قالوا لي إنّ جثّة إنكليزي غرق في التاريخ ذاته تقريباً لم تظهر. من يدري. لم أبغ أن أعلقّ بشيء لموظّف القنصلية كيلا يعتبرني مجنوناً. لكن هذا ما أُفكِّرُ فيه. كيف تستطيعان أن تناما فوق المطبخ؟

ـ إنّها أكبر غرفة في الفندق. جميلة جدّاً. الغرفة التي تتمناها كلّ فتاة. ثمّ إنّه المكان الذي تشير التقاليد إلى أنّ على مالكي الفندق أن يناموا فيه. قبلنا والدا زوجي. وكفى، تقليد صغير، حمواي أشادا الفندق. هل تعلم أنّ الجميع سوف يخيب ظنّهم بذهابك الزائف.

ـ من هم الجميع؟

ـ حسن، يا عزيزي، ثلاثة أو أربعة أشخاص، لا تُستَثر، أرجوك. زوجك؟

ـ لا، هو بالضبط لا.

ـ من؟

ـ مدير فندق كوستا برافا، حارسي الليلي، الذي صار في الآونة الأخيرة حسّاساً جدّاً، كلاريتا، نادلتي.

ـ أيّ نادلة؟ الشابّة جدّاً والناحلة؟

ـ هي.

ـ تخاف منّي. أعتقد أنّها تظن أنّني سأغتصبها في أيّ لحظة.

ـ لا أدري، لا أدري. أنت لا تعرف النساء.

ـ من يرغب بذهابي أيضاً.

ـ لا أحد.

ـ ما المصلحة التي يمكن أن تكون عند السيّد بيري بذهابي؟

ـ لا أدري. ربّما يعني بالنسبة إليه إغلاق القضية.

ـ قضيّة تشارلي؟

ـ نعم.

ـ يا له من أحمق. وحارسك؟ ما مصلحته؟

ـ متضايق منك. بالمقابل يُراقبكَ تمضي في الليل كمتسرنم. أظنّ أنّك توتّره.

ـ كيف كمتسرنم؟

ـ تلك هي كلماته.

ـ لكنّني لم أتكلّم معه إلاّ مرّتين!

ـ هذا لا يدخل في الحسبان.

ـ هذا لا يدخل في الحسبان. يتكلّم مع كلّ أنواع الأشخاص... مع المحروق. ويعرف أنّ آخر ضوء مشتعل يُرى من الشارع هو ضوء نافذتك.

ـ ظننتُ أنّه يستلطفني.

ـ ما من زبون يستلطفه حارسنا، خاصّة إذا رآه يُقبّل رئيسته.

ـ شخص غريب جدّاً. أين هو الآن؟

ـ أمنعك من الكلام معه، لا أريد أن يتعقّد هذا أكثر، مفهوم؟ لا بد أنّه نائم الآن.

ـ حين أقول كلّ الأشياء التي أقولها لك، هل تُصدّقينني؟

ـ يعني، بلى.

ـ إذا قلتُ لك إنّني رأيتُ زوجك ليلاً على الشاطئ مع المحروق، هل تُصدّقينني؟

ـ يبدو لي ظلماً أنّ نحشره... هي خيانة من جهتي.

ـ لكنّه هو من يحشر نفسه.

ـ ...

ـ عندما أقول لك إنّ الجثّة التي أرتني إياها الشرطة يمكن ألاّ تكون جثّة تشارلي، هل تُصدّقينني؟

ـ بلى.

ـ لا أقول إنّهم يعرفون ذلك، أقول إنّنا جميعاً مخطئون.

ـ بلى. لن تكون المرّة الأولى.

ـ تصدّقينني إذن؟

ـ بلى؟

ـ وإذا قلت لك إنّني أشعر بشيء غير ملموس، غريب يحوم حولي، مُهدِّداً، هل تُصدّقينني؟ قوّة فائقة تراقبني. طبعاً أستبعدُ حارسك، على الرغم من أنّه هو أيضاً انتبه، باللاشعور، لذلك يرفضني. العمل ليلاً يستنفر بعض المشاعر.

ـ في هذه النقطة لا أستطيع أن أُصَدّقك، لا تطلب منّي أن أرافِقك في هذياناتك.

ـ شيء محزن، لأنّك الوحيدة التي تُساعدني، الوحيدة التي أستطيع أن أثق بها.

ـ عليك أن تغادر إلى ألمانيا.

ـ طاوياً ذيلي بين ساقيّ؟

ـ لا، بمزاج رصين مستعداً لأن تُفَكّر في ما شعرت به.

ـ أن أمضي غير محسوس بي، كما يرغب المحروق لنفسه.

ـ يا له من فتى مسكين. يعيش في سجن دائم.

ـ أن أنسى أنّ كلّ شيء كان له، في لحظة معينة، صوتاً جهنمياً موسيقياً.

ـ ما الذي تخافه إلى هذه الدرجة؟

ـ أنا لا أخافُ شيئاً. ستملكين الوقت كي تريه بأمّ عينك.

صعدنا إلى أعلى نقطة في التل. في المطل ما يقارب المئة شخص، كبار وأطفال، كانوا يتأمّلون البلدةَ المضاءة حابسين أنفاسهم ومشيرين إلى نقطة في الأفق بين البحر السماء، كما لو أنّهم ينتظرون أن تحدث معجزة وتظهر هناك الشمس في غير أوانها. إنّه عيد كتالونيا، همسوا في أذني. أعرف، قلتُ. ما الذي يجب أن يحدث الآن؟ ابتسمت فراو إلسي وأشارت سبّابتُها التي تكاد تكون شفّافة من طولها إلى حيث كان الجميع ينظرون. فجأة خرجت من زورق صيّادين، زورقَيْن أو أكثر لم يكن أحد يراها أو على الأقل لم أرها أنا مسبوقة بدويّ شبيه بصوت الطباشير على اللوح عدّة تشكيلات لألعاب نارية شكّلت بحسب ما أكّدت فراو إلسي، علمَ كتالونيا. بعد برهة لم يبقَ غير مجسات الدخان وعاد الناس إلى سياراتهم وبدؤوا يهبطون إلى البلدة، حيث كان الليلُ المتأخرُ من نهاية الصيف ينتظر الجميع.

خريف ١٩٤١. معارك في إنكلترا. لا الجيش الألماني يحتلُّ لندن ولا الجيش البريطاني ينجح في دفعي إلى البحر. خسائر كبيرة. تنمو القدرة البريطانية على المعافاة. في روسيا خيار الاستنزاف. المحروق ينتظر عام ١٩٤٢. يتحمّل في هذه الأثناء.

جنرالاتي:

ـ في بريطانيا العظمى: رايشناو، سالموث وهوث.

ـ في الاتحاد السوفييتي: غودريان، كلايست، بوش، كلوغ، فون فايشز، كوشلير، مانشتاين، موديل رومل هاينريتش وغاير.

ـ في أفريقيا: راينهاردت وهويبنير.

نقاط مواردي الأساسية: منخفضة، ولذلك من المستحيل اتخاذ خيارات هجومية في الشرق والغرب أو في المتوسّط. كافية لإعادة تشكيل وحدات. (ألم ينتبه المحروق؟ ما الذي ينتظره؟).

١٢ أيلول

اليوم غائم. تمطر منذ الرابعة صباحاً والتقرير يتكلَّمُ عن تردّي الطقس. ومع ذلك لا يوجد برد ويمكنني أن أرى من الشرفة أطفالاً بلباسِ السباحة، وإن لم يكن لفترة طويلة، يقفزون على الشاطئ مع الأمواج. جوّ المطعمِ المحتلّ من قبل زبائن يلعبون بالورق ويتأمّلون مكتئبين النوافذَ الطوِلية المغبّشة، مشحون بالكهرباء والريبة. عندما جلستُ وطلبتُ فطوراً راحت تُراقبني وجوه معترضة لا تكاد تُدرك أنّه يوجد أشخاص ينهضون بعد الثانية عشرة ظهراً. حافلة تنتظرُ، منذ ساعات، في باب الفندق (السائق لم يعد موجوداً)، مجموعةً من السياح كي تقلّهم إلى برشلونة. الحافلة رمادية لؤلؤية، مثل الأفق حيث تظهر أعاصير حليبية باهتة ومقطوعة مثل انفجاراتٍ أو فوالق ضوئية تحت سقف العاصفة. أخرجُ بعد تناولي للفطور إلى الشرفة: تطرق القطرات الباردة وجهي على الفور فأتراجع. طقس سيّئ، يقول عجوز ألماني جالس في قاعة التلفاز ويدخّن سيجاراً ويرتدي بنطلوناً قصيراً. الحافلة تنتظره بين آخرين، لكن لا يبدو أنّه مستعجل. أستطيع أن أتأكد من شرفتي أنّ الزلاجات الوحيدة التي بقيت على الشاطئ، غير محمية، وقد صارت كوخاً أكثر من أيّ وقت مضى، كانت زلاجات المحروق؛ بالنسبة للبقيّة كان موسم الصيف قد مات. أغلقتُ الشرفة وعدتُ لأخرج. قالوا لي في مكتب الاستقبال إنّ فراو إلسي قد غادرت الفندق في ساعة الصباح الأولى وإنّها لن تعود حتى المساء. سألت عمّا إذا كانت قد

خرجت وحدها. لا. مع زوجها. قطعتُ المسافة بين فندق البحر وفندق كوستا برافا في السيارة. عند نزولي كنتُ أتصبب عرقاً. في فندق كوستا برافا وجدتُ السيّد بيري يقرأ الصحيفة. «صديقي، أودو، سعيدة العيون التي تراك!» فكّرتُ في أنّه حقيقة كان يشعر بأنه سعيد وهذا ما جعلني أثق به. تبادلنا خلال برهة ترهات حول الطقس. بعدها قال السيّد بيري إنّه يضع طبيبه تحت تصرّفي. رفضت مذعوراً. «خذْ بعض الأقراص على الأقل!». طلبتُ قدح كونياك شربته بجرعة واحدة. ثمّ قدحاً آخر. حين أردتُ أن أدفع قال السيّد بيري إنّني مدعو من قبل الفندق. «أنت الآن تدفع قلقَ الانتظار ويكفيك هذا!» شكرته ونهضت بعدها بقليل. تبعني السيّد بيري حتى الباب. قبل أن أودّعه قلتُ له إنّني أكتب يوميتي. يوميّة؟ يومية عن إجازتي، عن حياتي، كما كانوا يقولون عادةً. آه، فهمت، قال السيّد بيري. في أيّامي كان هذا عادة فتيات صغيرات... وشعراء. لاحظت السخرية: ناعمة، متعبة، خبيثة بعمق. كان البحر أمامنا يبدو مستعدّاً لأنّ يقفز فوق الكورنيش في أيّ لحظة. أنا لستُ شاعراً، ابتسمتُ. أهتمُّ بالأشياء اليومية، بما في ذلك المزعج منها، مثلاً أحب أن أُسجّل في يومياتي شيئاً متعلّقاً بالاغتصاب. شب لون بيري. أيّ اغتصاب؟ ما حدث قبل قليل من غرق صديقي (في تلك اللحظة، ربّما بسبب الإشارة إلى تشارلي كصديق) انتابتني نوبة غثيان استطاعت أن تشنّج نخاعي الشوكي. أنت تُخطئ، تمتم السيّد بيري. هنا لم تحدث أيّ عملية اغتصاب، على الرغم من أنّنا في الماضي لم نستطع أن نمنع مثل هذا العمل الشائن، الذي يقوم به عامّة عناصر غريبة عن مجتمعنا، أنت تعرف، المشكلة اليوم بالذات هي هبوط مستوى النوعية في السياحة التي تزورنا، إلخ.. إذن يجب أن أكون مخطئاً، اعترفتُ. لا شك، لا شكّ. شددنا كل على يد الآخر ووصلت إلى السيارة راكضاً كي أتفادى وابل المطر.

شتاء ١٩٤١ كنتُ أرغبُ في أن أتكلّم مع فراو إلسي، أو أن أراها برهةً. لكنّ المحروق يحضر قبلها. فكّرتُ للحظةٍ من الشرفة في ألاّ أستقبله. الشيء الوحيد الذي عليّ أن أفعله هو ألا أمثل في باب الفندق، وبدءاً من هناك إذا لم أذهب لأبحث عنه فإنّ المحروق لن يتابع. لكن لا بدَّ أنّه رآني من الشاطئ، عندما كنتُ في الشرفة وأسأل نفسي الآن عمّا إذا لم أقف في ذلك المكان بالتحديد كي يراني المحروق، أو كي أبرهن لنفسي على أنّني لم أكن أخاف أن أُرى. هدف سهل: أعرض نفسي خلف البلور المبلّل كي يراني المحروق والذئب والخروف.

ما تزال تمطر: على امتداد المساء راح الفندقُ يفرغُ بالتدريج من السيّاح الذين جاؤوا ليأخذوا حافلات هولندية. ماذا تراها تفعل فراو إلسي؟ تراها تنتظر الآنَ، وفندقها يفرغُ، في عيادة طبيب؟ تراها تمشي آخذة بذراع زوجها في شوارعِ وسطِ برشلونة؟ تراهما يتوجّهان إلى سينما صغيرة وتكاد تخفيهما الأشجار. بعكس ما هو متوقّع يشنّ المحروقُ هجوماً على إنكلترا. يفشلُ. افتقاري لنقاط الموارد الأساسية، يجعل ردّي محدوداً. على الجبهات الأخرى لا يوجد تغيرات على الرغم من أنّ الجبهة السوفييتية تتعزّز. الحقيقة أنّني لا أتخلّى عن اللعب (بعكس المحروق، الذي يقضي الليل وهو يدور هو الطاولة ويعمل حسابات في دفتر يدشّنه اليوم!) المطر، ذكرى فراو إلسي الحديدية دفعاني إلى البقاء مستلقياً في الفراش، أدخّن وأتصفّح النسخ التي جئت بها معي من ستوتغارت وأظنّ أنّها ستبقى هنا، في إحدى حاويات القمامة. كم من كتّاب المقالات أولئك يفكّرون فعلاً في ما يكتبون. كم عدد من يشعرون به؟ أنا أستطيع أن أعمل في *الجنرال*. حتى وأنا نائم ـ متسرنم، كما يقول حارس فراو إلسي ـ أستطيع أن أدحضهم. كم هم الذين نظروا إلى الهاوية. وحده ريكس دوغلاس يعرف شيئاً عن هذه المسألة (بينما ربّما هو تاريخياً صارمٌ وميشيل أنشورز أصيلٌ ومفعم بالحماس، نوع من

كونراد الأمريكي). البقيّة: مُمِلّون جدّاً ومُقلِقلون. حين أقولُ للمحروق إنّ الأوراق التي أقرؤها، كلّ الحركات والحركات المضادة المتوقّعة، كلّ النفقات المتوقّعة، كلّ الاستراتيجيات المحدّدة دون عيب هي خطط كي أهزمَهُ تعبرُ وجهَهُ ابتسامةٌ فظيعة (عليّ أن أفترض أنّها تحدث بالرغم منه) وهناك ينتهي جوابه. وكخاتمة خطوات صغيرة، الظهر الذي ينحني، ملاقط في يديه وحركة قوات. لا أراقبه. أعرف أنّه لا يَغشّ. نقاط موارده الأساسيّة تتراجع حتى تصل إلى أدنى مستوياتها، المستوى الضرورية كي تبقى جيوشه تتنفّس. هل قضى المطر على تجارتك. يقول المحروق بشكل مفاجئ لا. وإنّ الشمس ستطلع مرّة أخرى. وماذا ستعمل خلال ذلك؟ هل ستستمرّ في العيش تحت الزلاجات. ويجيب بشكل وظهره إليّ آلي وهو يُحرك الفيش، إنّ هذا ليس مشكلة بالنسبة إليه. ليس مشكلة أن تنام على الرمل المبلّل. يصفرُ المحروقُ أغنية.

ربيع ١٩٤٢ يصلُ المحروقُ اليومُ أبكرَ من المعتاد. ويصعد لوحده، دون أن ينتظر أن أنزل لأبحث عنه. يظهر عندما أفتح البابَ مثل صورة ممحوّة بممحاة. (يظهر مثل خطيب يحمل أوراقاً منسوخة مضغوطة على صدره بدل الأزهار). سرعان ما أعرفُ سبب هذا التغيُّر. المبادرة الآن مبادرته. الهجوم الذي قام به الاتحاد السوفييتي يتمّ في المنطقة الموجودة بين بحيرة أونيغا وياروسلافل؛ مدرعاته تكسر جبهتي في سداسيّ الأضلاع إي ٤٨ ويستغلون النجاح باتجاه الشمال، باتجاهِ كاريليا، تاركين أربعة فيالق مشاة وفيلقاً مدرّعاً ألمانياً على أبواب فولوغدا، على شكلِ جيوب. بهذا الفعل يبقى الجناح الأيسر من الجيوش التي تضغط باتجاه كويبيشيف وكازان مكشوفة تماماً. الحل الوحيد الفوري هو أن تنقل إلى هناك، في مرحلة إعادة التوزيع الاستراتيجية، وحدات من مجموعة جيوش الجنوب المنتشرة على خطوط الفولغا والقوقاز، مضعِفة بالمقابل الضغطَ نحو باتون وأستراخان. المحروق يعرف ذلك ويستغلّه.

على الرغم من أنّ وجهه بقي كما هو دائماً، غارقاً وحده الله يعلم في أيّ جحيم، أستطيع أن ألتقط ـ في تشققات خدّيه ـ! التلذّذَ الذي كان يمارس به حركاته التي كانت في كلّ مرّة أكثر مرونة. الهجوم، المحسوب بالتفصيل رُتِّب في جولة مسبقة. (مثلاً في منطقة الهجوم فقط كان يستطيع أن يستعمل مدينة فولوغدا كمهبط للطيران؛ كيروف الأقرب، كانت بعيدة أكثر من اللازم: ولمداراة ذلك ولأنّه كان بحاجة إلى تركيز الدعم الجوّي في جولة شتاء الحادي والأربعين فقد حمل فيشَ قاعدة جوّية إلى سداسيّ الأضلاع سي ٥١[1]...) لا يرتجل: على الإطلاق. في الغرب التغيّر الجوهري الوحيد هو دخول الولايات المتحدة في الحرب؛ الدخول الرخو نظراً لمحدودية نقاط آي دي[2]، والذي يبقى الجيش البريطاني بسببه في حالة ترقّب حتى يدرك الشروط الخاصة بحرب حقيقيّة (نفقات نقاط موارد الحلفاء الغربيين الأساسية تتجّه في غالبيتها لدعم الاتحاد السوفييتي). الوضع النهائي للجيش الأمريكي المنقول إلى بريطانيا العظمى هو التالي: الفيلقان الخامس والعاشر مشاة في روسيز، خمسة عوامل جوية في ليفربول وتسعة عوامل بحرية في بلفاست. الخيار الذي يتخذه بالنسبة إلى الغرب هو الاستنزاف ولا يُحالفه الحظ بالزهر. أنا أيضاً خياري الاستنزاف وأنجح في احتلال سداسيّ أضلاع في جنوب غرب إنكلترا، الحيويّ بالنسبة إلى مشاريعي في الجولة التالية. في صيف ١٩٤٢ سوف أحتلّ لندن، وسأُخضع البريطانيين وسينسحب الأمريكيون كما انسحب الإنكليز من دونكيرك[3]. في هذه

---

(١) Hexágono

(٢) ID

(٣) انهزمت فيها القوات البريطانية وراحت تنسحب عائدة إلى بريطانيا، والغريب أن هتلر أوقف هجومهم على تلك القوات أثناء انسحابها.

الأثناء أتسلى بِنُسَخِ المحروق. النسخ التي لا يعترف أنّها لي إلا بعد لحظات، لكن ليست بي رغبة لأن أضع نفسي في وضعية التأثّر ولذلك اخترتِ أن أرى فيه الجانب المضحك وأن أسأله من أين استخرجها. أجوبة المحروق بطيئة وواخزة ـ وأسئلتي تتجاوب مع هذا الإيقاع تدريجياً ـ، كما لو أنّها بدأت توّاً بالنهوض والمشي. إنّها لك، يقول. استخرجَها من كتاب. من كتاب لك، كتاب تحتفظ به تحت الزلاجات؟ كتاب مستعار من مكتبة صندوق التقاعد في كتالونيا؟ يُريني هوية عضويته. هذا ما كان ينقصني. بحث في مكتبة بنكِ وأخرج هذا الخراء كي يفركه في وجهي، لا أكثر ولا أقل. ينظرُ المحروقُ إليّ الآن من طرف عينه منتظراً أن يظهر الخوف في الغرفة، يسقط ظلُّهُ على جدار الباب غامضاً تسري فيه ارتعاشات. لن أمنحه هذه الفرحة. أضع النسخ على منضدة المصباح بلامبالاة، لكن بحذرٍ أيضاً. بعدها حين أرافقه إلى باب الفندق، أطلب منه أن نتوقّف قليلاً في مكتب الاستقبال. الحارس يقرأ مجلة. اقتحامنا لمنطقة سيادته يُثيره، لكنّ الخوف غطّى عليه. أطلب دبابيس. دبابيس؟ تقفز نظرته الحذرة من المحروق إليّ، كما لو أنّه ينتظر مزحة ثقيلة ولا يريد أن تأخذه على حين غرّة. بلى، يا أبله، ابحث في الأدراج وأعطني عدداً منها، أصرخُ به. (اكتشفتُ أنّ الحارسَ شخصٌ جبان ورعديد يجب أن يُعامَل بقسوة) أستطيع، بينما هو يُقلّب في أدراج المكتب، أن أرى مجلتين إباحيّتين. أخيراً يرفع عبوة بلاستيكية صغيرة وشفافة مليئة بالدبابيس. هل تريدها كلّها؟، يهمس كما لو أنّه يضع نهاية لكابوس. وبهزّة من كتفيّ أسأل المحروقَ كم نسخة هي. أربع، يقولُ مُنزعجاً وناظراً إلى الأرض. لا تسرّه دروس قوّتي. أربعة دبابيس، أُكرّر وأمدّ راحة كفّي حيث يضع الحارس بعناية اثنين برأسين أخضرين واثنين برأسين أحمرين. بعدها أرافق المحروق حتى الباب وأودّعه دون أن أنظر إلى الخلف. الكورنيش مُقفر وسيّئ الإضاءة (كسروا مصباحَ عمودِ

إنارة)، لكنّني أبقى خلف الزجاج حتى أتأكّد من أنّ المحروق قفز باتجاه الشاطئ وضاع باتجاه الزلاجات، عندها فقط أعودُ إلى غرفتي. هناك أختار بهدوء جداراً (جدارَ رأسية سريري وأثبت النسخ المصورة عليه، بعدها أغسل يديّ وأُراجع اللعبة بعناية. على الرغم من أنّ المحروق يتعلّم بسرعة إلاّ أنّ الجولة القادمة ستكون لي.



١٤ أيلول

استيقظتُ في الساعة الثانية مساء. كان جسدي محطماً وصوتٌ داخليٌّ يقول لي إنّ عليّ أن أحاول أن أكون أقلَّ وقت ممكن في الفندق. خرجتُ حتى دون أن أستحمّ. عدتُ، بعد أن شربتُ قهوة بالحليب وقرأتُ شيئاً من الصحافة الألمانية في بارٍ قريب، إلى فندق البحر وسألتُ عن فراو إلسي. لم تعد من برشلونة. طبعاً ولا زوجها. الجوّ في مكتب الاستقبال عدوانيّ. أيضاً في البار. نظراتُ نُدُل متجهّمة وأشياء من هذا القبيل، لا شيء جدّيّ. الشمس تلمع على الرغم من أنّ بعضَ الغيوم السوداء كانت ما تزال عالقة في الأفقِ، مشحونةً بالمطر، بحيث ارتديتُ ملابسَ السباحة وذهبتُ لأرافق المحروق. كانت الزلاجات مُفكّكة والمحروق لا يظهر في أيِّ مكان. قرّرتُ أن أنتظره فاستلقيت على الرمل. لم أكن قد حملتُ معي أيَّ كتاب، لذلك فالشيء الوحيد الذي كان باستطاعتي أن أفعله هو أن أنظرَ إلى السماء، عميقة الزرقة، وأتذكّرُ أشياءَ حلوة كي يمرَّ الزمنُ سريعاً. طبعاً في لحظة معينة أخذني النوم، كان الشاطئ مؤهلاً لذلك، دافئاً، وليس هناك إلا عدد قليل من المستحمين، بعيداً عن صخب آب. عندها حلمتُ بفلوريان ليندين. كنتُ أنا وإنجيبورغ في الفندق، في غرفة تُشبِهُ غرفتنا وكان أحد يقرع الباب. لم ترد إنجيبورغ مني أنّ أفتحه. لا تفتحْ، قالت، إذا كنتَ تُحبّني فلا تفعل. حين كانت تتكلّم كانت شفتاها ترتجفان. يمكن أن يكون شيئاً مستعجلاً، قلتُ عازماً، لكنّني حين كنتُ أحاول أن أذهب باتجاه الباب كانت إنجيبورغ

تتشبّث بي بكلتا يديها، مانعة إيّاي من أيّ حركة. اتركيني، كنتُ أصرخ، اتركيني، بينما الطرقات راحت تصير في كلّ مرّة أقوى، إلى حدّ أنّني فكّرتُ في أنّ إنجيبورغ قد تكون على حقّ وأنّ من الأنسب أن أبقى هادئاً. في المشادّة سقطت إنجيبورغ على الأرض. كنتُ أنظر إليها من علٍ، كانت كما لو أنّه مغشيّ عليها وساقاها مفتوحان جدّاً. باستطاعة أيّ كان أن يغتصبك، قلتُ لها، وعندها فتحت هي عيناً، عيناً واحدة فقط، اليسرى، أظنُّ، هائلة وفائقة الزرقة، لا ترفعها عنّي، تتبعني إلى حيث أتحرّك؛ كان فيها تعبير، لا أدري، لم يكن تعبيرَ عينٍ مراقبة أو مُتَّهِمَة، بل تعبيراً أقرب إلى المتيقّظة، المتيقّظة للجديد والمذعورة. عندها لم أستطع أن أتحمّل أكثر وألصقت أذني بالباب. لم يكونوا يقرعون الباب بل يخدشونه من الجانب الآخر! من؟ سألتُ. أنا فلوريان ليندين، رجل تحرٍّ خاص، ردّ خيطٌ من صوتٍ. هل تريدُ أن تدخل؟ سألتُ. لا، لا تفتح الباب مهما كان الأمر! أصرّ صوت فلوريان ليندين بقوّة أكبر، وإن لم تكن أكثر بكثير، كان يُلاحظ أنّه جريح. بقينا برهة صامتين، نُحاول أن نسمع، لكن في الحقيقة لم يكن يُسمع شيء. بدا الفندق غارقاً في قاع البحر. حتى الحرارة بدت مختلفة، صار الطقس بارداً وبما أنّنا كنّا نرتدي ملابس صيفية فقد شعرنا به أكثر. سرعان ما صار غير محتمَل واضطررتُ لأن أنهض وأخرج بطانيات من الخزانة لففت بها نفسي وإنجيبورغ. على كلّ الأحوال لم يفد ذلك في شيء. راحت إنجيبورغ تُجهِشُ. كانت تقول إنّها لم تعد تشعر برجليها وإنّنا سنموت متجمِّدين. فقط إذا نمتِ ستموتين، أكّدتُ لها، متفادياً النظرَ إليها. أخيراً على الطرف الآخر من الباب صار هناك شيء يُسمع. خطوات: أحد كان يقترب، كما لو على رؤوس أصابعه، ثمّ يذهب. العملية ذاتها تكرّرت ثلاث مرّات. هل أنت هناك، يا فلوريان؟ بلى، أنا هنا، لكن عليّ الآن أن أذهب، ردّ فلوريان ليندين. ماذا جرى؟ مسائل مشبوهة، ليس لديّ

وقت لأوضّحها لك، أنتما الآن بمنجاة، بالرغم من أنّه لو كنتما ذكيَّيْن وعمليَّيْن لعدتما غداً صباحاً إلى بيتكما.. بيتنا؟ وصل صوتُ رجل التحرّي مليئاً بالصرير والطقطقة. إنّهم يُفكّكونه! فكّرتُ. حاولت بعدها أن أفتح الباب فلم أستطع أن أنهض. كانت قدماي ويداي فاقدة الحسّ. كانت مثلجة. وسط الرعب كنتُ أتكهن بأنّنا لن نستطيع أن نذهب وأنّنا سنموت في الفندق. إنجيبورغ ما عادت تتحرّك، مرمية عند قدميّ لم تكن البطانيةُ تظهر غير شعرها الأشقر على البلاط الأسود. وددتُ لو أعانقها وأبكي وأشعر بأنني مُستَضعَف جدّاً، لكن في هذه اللحظة بالضبط فُتح الباب دون أيّ تدخّل منّي. في المكان الذي كان يجب أن يكون فيه فلوريان ليندن لم يكون يوجد أحد فقط ظلّ، ظلٌّ هائل في عمق الممرّ. عندها فتحتُ عينيّ وأنا أرتعد ورأيتُ السحابةَ، العملاقةَ، الداكنةَ تُغطّي البلدةَ وتتحرّك مثل حاملةِ طائرات ثقيلة باتجاه التلال. شعرت بالبرد؛ كان الناس قد غادروا الشاطئَ والمحروقُ لن يأتي. لا أدري كم برهة بقيتُ ساكناً، ممدّداً أنظرُ إلى السماء. لم يكن بي أيّ عجلة. كان باستطاعتي أن أبقى هناك ساعاتٍ وساعات. حين قرّرتُ أخيراً أن أنهض لم أتوجّه إلى الفندق بل إلى البحر. كانت المياه فاترةً ووسخة. سبحتُ قليلاً. بقيت السحابةُ الداكنة تتحرّكُ فوقي. عندها توقّفتُ عن تحريك ذراعيّ وغصت حتى لامستُ القاع. أجهل ما إذا كنتُ قد نجحت بذلك؛ أعتقدُ أنّني كنتُ، بينما أنا أغوص، مفتوحَ العينين جيّداً، لكنّني لم أرَ شيئاً. كان البحرُ يجرفني نحو الداخل. حين خرجت لاحظتُ أنّني ابتعدتُ عن الشطّ أقلّ مما فكّرتُ. عدتُ إلى جانب الزلاجات، أخذت المنشفةَ وشرعتُ أنشّف نفسي بعناية. كانت المرّة الأولى التي لا يأتي فيها المحروقُ للعمل. فجأة سرت قشعريرةٌ في جسمي. مارستُ بعضَ التمارين، انحناءات تمارين بطن، جريتُ قليلاً. حين جففتُ ربطت المنشفة حول خصري ووجهت خطوي نحو ركن الأندلسيين. طلبتُ

هناك قدح كونياك وأخبرتُ صاحبَ الحانة أنّني سأمرّ لاحقاً لأدفع له. ثمّ سألتُ عن المحروق. لا أحد رآه.

استطالَ المساء. لا فراو إلسي ظهرتْ في الفندق ولا المحروقُ شُوهدَ على الشاطئ، على الرغم من أنّ الشمس ظهرت قرابة الساعة السادسة واستطعت أن ألمح في رأس شاطئ المخيمات زلاجة وشماسي مفتوحةً وناساً يلعبون مع الأمواج. في قطاعي من الشاطئ الحيوية أقل، زبائن الفندق كانوا قد سجّلوا جماعة في رحلة، أعتقد أنّني أتذكّر أنّها إلى بعض مخامر النبيذ أو إلى دير مشهور ولم يبق في الشرفة إلا عدد قليل من المسنين والنُّدُل. حين بدأت تُظلم كانت قد وضحت أفكاري وطلبتُ بعد قليل من مكتب الاستقبال أن يصلني مع ألمانيا. قبلها كنتُ قد راجعتُ مواردي المالية ولم يكن معي في الإجمال ما يكفي لدفع حسابي والنوم ليلة أخرى في فندق البحر ولتعبئة قليل من البنزين للسيارة. في المحاولة الخامسة أو السادسة استطعتُ أن أتصل بكونراد. كان صوته يصل كما لو أنّه وسْنانُ. وكانت تُسمع أصواتُ أخرى. دخلتُ مباشرة في الموضوع. قلتُ له إنّني بحاجة إلى مال. قلتُ له إنّني أُفكّر في أن أبقى بضعة أيّام أخرى.

ـ كم يوماً؟

ـ لا أعرف، بحسب.

ـ ما الدافع؟

ـ هذه مسألتي. سأُعيدُ لك المالَ ما إن أعود.

ـ بالحكم من موقفك يمكن للمرء أن يقولَ إنّك لا تُفَكّر في أن تعود أبداً.

ـ يا لها من فكرة غير معقولة. ماذا أستطيع أن أفعل هنا طوال حياتي؟

ـ لا شيء، أعرفُ هذا، لكن هل تعرفه أنت؟

ـ حسن، ليس لا شيء لا. أستطيع أن أعمل دليلاً سياحيّاً. أن أُقيم عملي الخاص بي. هذا مليء بالسياح وشخص يتقن أكثر من ثلاث لغات لن يكون عالةً أبداً.

ـ مكانك هنا. عملك هنا.

ـ أي عمل تقصد؟ عمل المكتب؟

ـ عمل الكتابة، يا أودو، المقالات إلى ريكس دوغلاس، الروايات، بلى، اسمحْ لي أن أقولها لك، الروايات التي يمكنك أن تكتبها لو لم تكن طائشاً إلى هذا الحدّ، الخطط التي وضعناها معاً... الكاتدرائيات...، هل تتذكر؟

ـ شكراً، يا كونراد، بلى، أعتقد أنّني أستطيع...

ـ عُدْ، إذن بأسرع ما تستطيع. غداً أرسل لك المال. جثّة صديقك يجب أن تكون قد أصبحت في ألمانيا. نهاية القصّة. ماذا تريد أن تفعل أكثر هناك؟

ـ من قال لك إنّهم عثروا على تشارلي؟... إنجيبورغ؟

ـ طبعاً. هي مشغولة عليك. نحن نلتقي كلّ يوم تقريباً. ونتكلّم. أحكي لها أشياء عنك. قبل أن تتعارفا. أوّل البارحة أخذتها إلى شقّتك، كانت تريد أن تراها.

ـ إلى بيتي؟ خراء! ودخلته؟

ـ طبعاً. كان معها المفتاح، لكنّها لم تكن تريد أن تذهبَ لوحدها. قمنا فيما بيننا نحن الاثنين بتنظيفها. كانت الشقة تحتاج ذلك. أيضاً أخذت بعضَ أشيائها، كنزة، بعض الأقراص الصلبة. لا أظنّ أنّها تحبّ أن تعرف أنّك طلبت مالاً كي تبقى وقتاً أطول. إنّها فتاة طيّبة، لكنّ لصبرها حدوداً.

ـ ماذا فعلت غير ذلك في البيت؟

ـ لا شيء. قلته لك: كناسة، رمي الأشياء المتعفّنة في البراد...

ـ ألم تنظر إلى أوراقي؟

ـ طبعاً لا.

ـ وأنت ماذا فعلت؟

ـ بالله عليك، يا أودو، الشيء ذاته الذي فعلته هي.

ـ حسن... شكراً. هكذا إذن تلتقيان كثيراً؟

ـ كلّ يوم. أعتقد أنّ ذلك بسبب أنّه لا يوجد هناك من تتحدّث معه عنك. كانت تريد أن تهتف لأبويك، لكنّني نجحت بإقناعها بالعدول. أفكّر في أنّ إشغالهما ليست فكرة جيّدة.

ـ والداي لن ينشغلا، فهما يعرفان البلدة والفندق.

ـ لا أعرف. بالكاد أعرف والديك، لا أدري كيف ستكون ردّة فعلهما.

ـ بالكاد أيضاً تعرف إنجيبورغ.

ـ صحيح. أنت الوسيلة. على الرغم من أنّه يبدو أنّ نوعاً من الصداقة نشأت بيننا. في هذه الأيّام الأخيرة عرفتها بشكلٍ أفضل وبدت لي لطيفة جدّاً. إنّها ذكية وعملية، إضافة إلى أنّها جميلة.

ـ أعرف، يحدث دائماً. أغ...

ـ أغوتني؟

ـ لا. إغواء لا، فهي مثل الثلج. تهدّئك. تهدّئك أنت وغيرك. إنها كما لو أنّك وحدك منهمكاً في أشيائك حصراً، اطمئن.

ـ لا تتكلّم بهذه الطريقة. إنجيبورغ تُحبُّك. غداً دون تأخير سأرسل لك المال. هل ستعود؟

ـ ليس بعد.

ـ لا أفهم ما الذي يمنعك من المجيء. هل حكيت لي كلّ شيء تماماً كما هو. أنا أفضلُ صديق لك...؟

ـ أُريد أن أمكث بضعة أيّام أخرى، هذا كلّ شيء. ليس هناك غموض. أريد أن أُفكِّر، وأكتبَ، وأتمتّع بالمكان الآن حيث الناس قليلون.

ـ فقط لا غير؟ لا شيء له علاقة بإنجيبورغ؟

ـ يا للبلاهة، طبعاً لا.

ـ يُسعدني أن أسمع هذا. كيف تسير مباراتك؟

ـ صيف الثاني والأربعين. أمضي رابحاً.

ـ كنتُ أفترض ذلك. هل تتذكّر تلك المباراة مع ماتياس مولّير، التي لعبناها منذ سنة في نادي الشطرنج؟

ـ أيّ مباراة؟

ـ مباراة رايش ثالث. فرانز وأنت وأنا ضدّ مجموعة *الخطى الحثيثة*.

ـ بلى، وماذا حدث؟

ـ ألا تتذكّر. فزنا وماثياس من كثرة غضبه، فهو لا يتقن الخسارة، هذه حقيقة، ضرب بيرند ران بالكرسيّ وكسره.

ـ كسر الكرسيّ.

ـ طبعاً. أخرجه أعضاء نادي الشطرنج رفساً ولم يعد بعدها قط إلى هناك. هل تتذكّر كم ضحكنا في تلك الليلة؟

ـ بلى، بَلى، ما تزال ذاكرتي جيدة. ما يحدث هو أنّ هناك أشياء لم تعد تبدو لي ظريفة. لكنّني أتذكّر كلّ شيء.

ـ أعرفُ، أعرف.

ـ اسألني سؤالاً، أيَّ سؤال وسترى....

ـ أصدّقك، أُصدِّقُك...

ـ اسألني. قل لي ما إذا كنتُ أتذكّر فرقَ المظلّيين في أنزيو.

ـ أكيد أنك تتذكّر....

ـ اسألني...

ـ حسن... ما هي...

ـ الفرقة الأولى المؤلفة من الأفواج العاشر والحادي عشر والثاني عشر. الفرقة الثانية المؤلفة من الفوج الثاني والخامس والسادس، والفرقة الرابعة، المؤلّفة من الفوج العاشر والحادي عشر والثاني عشر.

ـ ممتاز...

ـ والآن اسألني عن فرق البانزر إس إس في حصن أوروبا.

ـ موافق. قلها لي

ـ الفرقة الأولى لايبستاندرات أدولف هتلر، الفرقة الثانية داس رايش، الفرقة التاسعة هوهنستاوفن، الفرقة العاشرة فروندسبرغ والفرقة الثانية عشرة هتلر جوغاند.

ـ تمام. ذاكرتك تعمل بشكل تام.

ـ وذاكرتُك؟ هل تتذكّر من كان يقود الفرقة ٣٥٢، فرقة مشاة هايميتو غيرهاردت.

ـ حسن. يكفي.

ـ قُلْ. هل تتذكّر أم لا؟

ـ لا...

ـ شيء بسيط جدّاً، تستطيع أن تراجعه اليوم في أوماها بيشهايد أو في أي كتاب في التاريخ العسكري. الجنرال ديتريخ كرايس كان قائد الفرقة والكولونيل ماير كان رئيس فوج هايميتو، الفوج ٩١٥.

ـ حسن، سأنظر فيه. هل هذا هو كلّ شيء؟

ـ كنتُ أُفكّر في هايميتو. هو بلى يعرف هذه الأشياء. يمكن أن يتلو عن ظهر قلب التشكيل الكامل لأطول يوم على مستوى الكتيبة.

ـ طبعاً، بما أنّهم أسروه هناك.

ـ لا تسخرْ. هايميتو حالة قائمة بذاتها. كيف حاله الآن، يا ترى؟

ـ جيّد، لماذا سيكون سيّئاً.

ـ لأنّه عجوز وكلّ شيء يدور، لأنّه بدأ يصير وحيداً، يا كونراد، يبدو كذباً أنّك لا تنتبه.

ـ إنّه عجوز صلب وسعيد. ثمّ إنّه ليس وحده، في تموز ذهب في إجازة إلى إسبانيا مع زوجته. أرسل إليّ بطاقة بريدية من إشبيليا.

ـ نعم، وأرسل لي أيضاً. الحقيقة أنّني لم أفهم حروفه. كان عليّ أن أطلب إجازتي في تموز.

ـ كي تُسافر مع هايميتو؟

ـ ربّما..

ـ حتى الآن نستطيع أن نفعل ذلك في كانون الأوّل. من أجل مؤتمر باريس. منذ فترة قصيرة تلقيت البرنامج، سيكون له صدى.

ـ ليس شيئاً واحداً. لم أقصد هذا...

ـ ستكون لنا فرصة كي نقرأ مداخلتينا. تستطيع أن تتعرّف شخصياً على ريكس دوغلاس. سنلعب لعبة عالم يحترق مع أبناء البلد. عليك أن تتشجع قليلاً، سوف يكون شيئاً رائعاً...

ـ ما هذا العالم الذي يحترق مع أبناء البلد؟

ـ هو أنّ فريقاً من الألمان سوف يلعب مع ألمانيا، وفريق من البريطانيين سوف يلعب مع بريطانيا العظمى، وفريق من الفرنسيين سوف يلعب مع فرنسا. كل مجموعة تحت علم كتيبتها نفسها.

ـ لم يكن لديّ أدنى فكرة، من سيمثلون الاتحاد السوفييتي.

ـ أعتقد أنّ مشكلة ستقع هناك، أعتقد أنّهم الفرنسيون، لكن لا أحد يعرف، يمكن أن تحدث مفاجآت.

ـ واليابان؟ هل سيأتي يابانيون.

ـ لا أعلم، ربّما.

ـ إذا كان ريكس دوغلاس سيأتي فلماذا لن يأتي اليابانيون. ربما سيقع على عاتقنا نحن أو على الوفد البلجيكي. المنظمة الفرنسية بالتأكيد حسمت أمرها.

ـ كيابانيين سيكون البلجيكيون مهزلة.

ـ أُفضّل ألا أستبق الأحداث.

ـ أشتَمُّ في هذا كلّه مهزلة، لا أراه جدّيّاً. هكذا إذن ستكون اللعبة النجمة في المؤتمر هي لعبة عالم يحترق. من يخطر له هذا؟

ـ ليست بالضبط اللعبة النجمة: موجودة في البرنامج والناسُ أحبّوها.

ـ كنتُ أظنّ أنّهم سيمنحون فضاء مفضلاً للعبة الرايش الثالث،

ـ وسيمنحونها لها، يا أودو في المداخلات.

ـ طبعاً، بينما أنا أتكلّم عن الاستراتيجيات المتعدّدة سيكون كل العالم يُشاهد مباراة عالم يحترق.

ـ تُخطئ. مداخلتنا هي يوم الحادي والعشرين مساء والمباراة تبدأ في العشرين وتنتهي في الثالث والعشرين، ودائماً بعد المُداخلات. واختيرت اللعبة لأنّ باستطاعة عدّة فرق أن تُشارك فيها وليس لأمر آخر.

ـ ما عادت بي رغبة في الذهاب... طبعاً، الفرنسيون يريدون أن يمثلوا الاتحاد السوفييتي لأنّهم يعرفون أنّنا سنخرجهم من اللعبة في المساء الأوّل... لماذا لا يتبنون اليابان؟ وفاء للكتل القديمة، شيء طبيعي... بالتأكيد سيحتكرون ريكس دوغلاس ما إن يهبط من الطائرة...

ـ عليك ألا تقوم بهذا النوع من التخمينات، إنّها عقيمة.
ـ وجماعة كولونيا، طبعاً لن تتخلف الموعد.
ـ بلى.
ـ حسن. نقطة وانتهى. سلّم على إنجيبورغ.
ـ عُدْ قريباً.
ـ لا تكتئب.
ـ لا أكتئب. أنا هنا على ما يرام، سعيد.
ـ اهتف لي. تذكّر أنّ كونراد أفضل صديق لك.
ـ أعرف. كونراد أفضل صديق لي. وداعاً.

صيف ١٩٤٢ يظهر المحروق في الساعة الحادية عشرة ليلاً. أسمع صيحاته بينما أنا مستلقٍ على السرير أقرأ رواية فلوريان ليندين. يا أودو بيرغير. يدوّي صوته في الكورنيش المقفر. ردّ فعلي الأوّل كان أن أبقى ساكناً وأن أترك الوقت يمرّ. نداء المحروق أجشّ كما لو أنّ النار آذت أيضاً داخل عنقه.. عندما أفتح الشرفة أراه على الرصيف المقابل جالساً على الجدار الاستنادي للكورنيش كما لو أنه يملك كلّ وقت العالم وكيس بلاستيكي عند قدميه. سلامنا، طريقة تمييزِ الواحد منّا للآخر، فيها سيماء من ألفة رعبٍ مغلّفة أساساً بالشكل الصامت والمطلق فجأة الذي رفعنا فيه أيدينا. بيننا نحن الاثنين تقوم معرفة خرساء وخشنة تُغلّفنا. لكنّ هذا الانطباع قصير ويدوم حتى يكشف المحروق وقد صار في الغرفة، عن داخل الكيس ويجد فيها كثيراً من البيرة والشطائر. وفرة بائسة لكنّها أصيلة! (قبلها سألتُ عندما مررتُ بمكتب الاستقبال عن فراو إلسي. لم تعد بعد، يقول الحارسُ دون أن ينظر إلى عينيّ. إلى جانبه يراقبني عجوز جالس على كرسيّ أبيض ضخم وعلى ركبتيه صحيفة

ألمانية، بابتسامة لا تكاد خفية على شفتيه الهزيلتين. بحسب مظهره لا يُقدّر له أنّه سيعيش أكثر من سنة. ومع ذلك فإنّ العجوز ينظر إليّ، بقوّة غير معهودة. من تحت ذلك الهُزال الشديد، الذي يُبرز بشكل خاصّ الوجنتين والصدغين، كما لو أنّه يعرفني. كيف تسير الحرب؟ يقول الحارسُ، عندها تبرز ابتسامة العجوز. إذا ما مددت يدي من فوق طاولة عرض الاستقبال سيكون باستطاعتي أن آخذ الحارس من قميصه وأهزّه، لكنّه يحدس شيئاً فيبتعد قليلاً. أنا معجب برومل، يوضّح. يهزّ العجوز رأسه بالموافقة. لا، أنتَ شيطان بائس، دحضته يرسم العجوز دائرة صغيرة بشفتيه ويعود ليوافق. ربّما، يقولُ الحارسُ. نظرات الكراهية التي نخصّ بها بعضنا بعضاً ظاهرة وتشكّل تحدّياً كاملاً.. ثمّ إنّك مُقَمَّل، أُضيفُ، راغباً في أن أفقده صبره أو على الأقل أن أنجح بتقريبه بضعة سنتيمترات من طاولة الاستقبال. حسن، لقد حُلّ كلّ شيء، يقول العجوز بالألمانية وينهض. إنّه طويل جدّاً وذراعاه كذراعي ساكن الكهوف تتدليان حتى تكادا تلمسان ركبتيه. في الحقيقة هذا انطباع زائف ناتج عن أنّ ظهر العجوز مُنْحَنٍ. على كلّ الأحوال طوله ملحوظ: منتصباً يجب أو كان يجب أن يبلغ طوله أكثر من مترين. لكن في صوته، الصوت المحتَضَر والعنيد، تكمن سلطته. وعلى الفور تقريباً يعود ويترك نفسه يسقط على الكرسي كما لو أنّه أراد أن أراه بكلّ عظمته، ويسأل: هل ما زال هناك مشكلة؟ لا، طبعاً لا، يسارع الحارس ليقول. لا. ما من مشكلة، أقولُ. رائع، يقول العجوز محملاً الكلمة بالخبث والضراوة؛ را ـ ئع ـ ويُغمِضُ عينيه).

أكلنا أنا والمحروق جالسَيْن على السرير ونحن ننظر إلى الجدار حيث سمّرتُ النسخَ. ودون الحاجة لأن أقول شيئاً يُدرك كم كان من التحدّي في موقفي. كم من القبول. على كلّ الأحوال أكلنا يلفنا صمتٌ

لا يقطعه إلا ملاحظات عبثية كانت في الحقيقة صمتاً نُضيفه إلى الصمت العظيم الذي كان يحيط منذ ساعة أو ما يقارب الساعة بالفندق وبالبلدة.

أخيراً غسلنا أيدينا كيلا نلطخ الفيشَ بالزيت وبدأنا نلعب.

بعدها سوف أستولي على لندن وأخسرها على الفور. سوف أشنّ هجوماً معاكساً في الشرق وسأضطرُ إلى التراجع.

أنزيو، حصن أوروبا. أوماها بيتشهايد. صيف الثاني والأربعين

جبتُ الشاطئ، آنَ كان كلُّ شيء مظلماً وأنا أتلو الأسماء المنسية المركونة في الأرشيفات، إلى أن عادت الشمس وطلعت. لكن هل هي أسماء منسية أم هي فقط أسماء تنتظر. تذكّرت اللاعبَ يراه أحد من علٍ، مجرد رأسٍ وكتفين وظهر اليدين والرقعة والفيش، مثل خشبة مسرح تدور عليها آلاف البدايات والنهايات، للأبد، مسرح ملوّن، جسر وحيد بين اللاعب وذاكرته، ذاكرته التي هي رغبة وهي نظرة. كم كان عدد فرق المشاة، المستنفدة، غير الخبيرة التي حافظت على الجبهة الغربية؟ أيّها أوقفت التقدّم في إيطاليا على الرغم من الخيانة. أي فرق مدرعة اخترقت الدفاعات الفرنسية الأربعين والروسية الحادي والأربعين والاثنين وأربعين؟ وبأيّها، الحاسمة، أعاد المارشال مانشتاين احتلالَ خاركوف وحال دون الكارثة؟ ما فرق المشاة التي حاربت كي تفتح طريقاً للعربات في عام ١٩٤٤، في لاس أردنياس؟ وكم من المجموعات القتالية ضحّت بنفسها كي تُؤَخِّر العدوَّ على كلّ الجبهات؟ لا أحد يتفق. وحدها الذاكرة التي تلعب تعرف. تائهاً على الشاطئ أو متقوقعاً في غرفتي، أستحضرُ الأسماء التي تصل دفقاً وتُطمئنني. فيشي المُفضّلة، الفرقة المظلية الأولى في أنزيو، وفرقة بانزر ليهر والفرقة الأولى إس إس لاه في حصن أوروبا، الفيش الإحدى عشرة للفرقة الثالثة مظليين في أوماها

بيتشهايد، الفرقة السابعة مدرعات في فرنسا ٤٠، والفرقة الثالثة مدرعات في بانزيركريغ، الفيلق الأول مدرعات إس إس في الحملة الروسية، الفيلق الأربعون مدرع على الجبهة الروسية، الفرقة الأولى إس إس لاه في معركة بولغ، فرقة البانزر ليهر والفرقة الأولى إس إس لاه في كوبرا، الفيلق المدرع غروس ديوتشلاند (ألمانيا العظمى) في الرايش الثالث، الفرقة المدرعة الحادية والعشرون في أطول يوم، الفوج ١٠٤ مشاة في جيش أفريقيا المدرع... ولا حتى قراءة سفين هاسيل بصوت عال يمكن أن يشجع أكثر... (أيْ، من هو الذي كان لا يقرأ غير سفين هاسيل؟) قد يقول الجميع إنّ إم إم يبدو هو، له طبيعته، لكنّه كان آخر، آخر كان يبدو ظلَّه نفسه الذي كنّا أنا وكونراد نضحك منه على هوانا. هذا الفتى نظّم بعض أيّام ألعاب تقمّص الأدوار، في ستوتغاردت في عام ١٩٨٥. أقام جاعلاً من المدينة كلها مسرحاً المدينة كلّها، لعبة كبرى بقواعد لعبة القاضي دريد معدّلة، عن أيّام برلين الأخيرة. على العكس الآن أستطيع أن أُلاحظ الاهتمام الذي يوقظه عند المحروق، الاهتمام الذي يمكن أن يكون زائفاً كيلا أركّز على المباراة، خداع مشروع لكن لا طائل منه، فأنا قادر على أن أُحرّك فيالقي بعينين مغمضتين. ممَّ تتكونُ اللعبةُ ـ المسماة ملجأ برلين ـ، ماذا كانت أهدافها، كيف كان يتحقّق النصر ـ ومن الذي كان يُحقّقه ـ إنّه شيء لم يتَّضِح قط. كانوا اثني عشر لاعباً يلعبون دورَ حلقة الجنود حول برلين. ستّة لاعبين كانوا يلعبون دورَ الشعب والحزب ويستطيعون أن يلعبوا داخل حلقة الحماية فقط. ثلاثة لاعبين يلعبون دورَ الإدارة ويجب أن يكونوا قادرين على الربط بين الثمانية عشرة المتبقين كيلا يبقوا خارج محيط الدائرة حين يتقلّص هذا، وهو ما كان معتاداً، وعلى الأخص كيلا ينكسر المحيط، والذي كان حتمياً. كان هناك لاعب أخير، وظيفته غامضة وباطنية؛ كان هذا يستطيع أن يتنقّل في المدينة المُحاصَرة ويجب عليه أن يتنقل، لكنّه كان الوحيد الذي لم يكن يعرف

أبداً أين تنتهي حلقة الحماية، كان يستطيع وعليه أن يجوب المدينة، لكنّه كان الوحيد الذي لا يعرف أيّاً من بقيّة اللاعبين، كان مُخوّلاً بتدمير أحد أعضاء الإدارة وترفيع واحد من الشعب، مثلاً، لكنّه كان يفعل هذا على غير هدى، تاركاً أوامر مكتوبة ومتلقياً تقارير في مكان مُتفق عليه. كانت سلطته كبيرة كعماه ـ براءته، بحسب سفين هاسّيل ـ، كانت حرّيته كبيرةً كِبَرَ تعرُّضه المستمرّ للخطر. كان يُمارَسُ عليه نوعٌ من الوصاية الخفيّة والحذرة، ذلك أنّ المصير النهائي للجميع كان متعلّقاً بمصيره. انتهت اللعبة كما كان متوقّعاً، نهايةً مفجعة، انتهت بلاعبين ضائعين في الضواحي، بمكائد، بمؤامرات، باحتجاجات، بقطّاعات من المحيط مهجورة عند حلول الليل، بلاعبين لم يروا خلال المباراة كلّها غير الحَكَم، إلخ. من المفروغ منه أنّنا لم نشارك لا أنا ولا كونراد، على الرغم من أنّ كونراد تجشّم عناءَ متابعةِ الأحداث بدءاً من قاعة الرياضة في مدرسة الفنيين الصناعيين التي استضافت الأيام وعرف كيف يوضّح لي فيما بعد الإرباك، أولاً، ثم الانهيار المعنوي لسفين هاسيل أمام فشله. بعدها بأشهر قليلة غادر ستوتغارت، والآن يعيش، بحسب كونراد، الذي يعرف كلَّ شيء، في باريس ويتفرّغ للرسم. لا أستغرب أن أعود وأراه في المؤتمر...

بعد الثانية عشرة ليلاً تكتسب النسخ الملصقة على الجدار مظهراً جنائزياً، أبواباً صغيرة مفتوحة على الفراغ.

ـ بدأ الجوّ يترطّب ـ أقول.

يرتدي المحروق سترة مخملية، صغيرة جدّاً، لا شكّ في أنّها هدية من روح محسنة. السترة قديمة، لكنّها من نوعية جيّدة، عندما يقترب من الرقعة بعد الطعام يخلعها ويضعها طاوياً إياها بعناية فوق السرير، استعداده الساهي والسليم مؤثّر. الدفتر الذي يُسجِّل فيه التغيرات الاستراتيجية والاقتصادية لحلفه (أم تراها يوميات كيومياتي؟) لا يُفارقه

أبداً. يبدو كأنّه وَجَدَ في الرايش الثالث شكلاً من أشكال التواصل المُرْضية. هو هنا، إلى جانب الخريطة وتجمّع القوى، ليس مسخاً بل رأس يُفَكّر، يتجسّد في مئات الفيش... إنه دكتاتور وخالق، إضافة إلى أنّه يستمتع... لو لم يكن بسبب النسخ، لقلتُ إنّني صنعتُ معه معروفاً. لكنّها كانت تحذيراً واضحاً، الإخطار الأوّل بأنّ عليّ أن أكون حذراً.

ـ يا محروق ـ أقولُ له ـ هل تُحب اللعب؟

ـ بلى، أحبّه.

ـ وهل تعتقد بأنّك ستفوز لأنّك كَبَحْتَني؟

ـ لا أعرف، ما زال الوقت باكراً.

حين فتحتُ بابَ الشرفة على مصراعيه كي يُنظِّفَ الليلُ غرفتي من الدخان، شمشمَ المحروقُ مثلَ كلب، مائلاً بوجهه جانباً بصعوبة وقال:

ـ قُلْ لي ما هي فيشُك الأُخرى المُفَضّلَة، ما هي الفرق التي تبدو لك أجمل (بلى، حرفياً!) والمعارك الأصعب. احكِ لي أشياء عن الألعاب....

مع الذئب والخروف

يظهرُ الذئبُ والخروف في غرفتي. غياب فراو إلسي ليّنَ قواعدَ الفندق الصارمة ظاهرياً والآن يدخل ويخرج من يشاء. راحت الفوضى تحطّ بنعومة في كلّ طبقات الخدمة باطرادٍ معاكسٍ لنهاية الأيام الحارّة. كما لو أنّ الناس فقط يعرفون العمل حين يجدونَ أنفسهم منغمسين أو يروننا، نحن السياح، منغمسين بالعرق. يمكن أن تكون فرصة جيّدة للمغادرة دون دفع، العمل غير النبيل الذي سأقوم به فقط على افتراض أنّ جنياً يضمن لي أنّني سأستطيع أن أرى بعدها، وجهَ فراو إلسي، مفاجأتَها، دهشتَها. ربّما مع انتهاء الصيف وبالتالي انتهاء عقود الكثير من

العمال الموسميين، يرتخي الانضباط ويحدث ما لا مفرّ منه؛ اختلاسات، سوء خدمات، قذارة. اليوم مثلاً، لم يصعد أحدٌ ليُسوّي السرير. اضطُرِرت لأن أسويه بنفسي. أحتاج أيضاً ملاحفَ إلى نظيفة. لا أحد عندما أهتف إلى مكتب الاستقبال يستطيع أن يُعطيني توضيحاً مقنعاً. تمّت زيارةُ الذئب والخروف بالضبط بينما كنتُ أنتظرُ أن يصعدَ لي أحد من المصبغة بملاحف نظيفة.

ـ فقط لدينا برهة حرّة استغللناها كي نأتي ونراك. لم نكن نريد أن تذهب دون أن تودّعنا.

طمأنتهما. لم أقرّر بعدُ اليومَ الذي سأذهب فيه.

ـ إذن يجب أن نخرج كي نحتفل بذلك ببعض الكؤوس.

ـ قد تبقى لتعيش في البلدة ـ يقول الخروفُ.

ـ وربّما وجدتَ شيئاً مهمّاً يستحقّ أن تبقى لأجله ـ يردّ الذئبُ، غامزاً إيّاه. هل يقصد فراو إلسي أم شيئاً آخر؟

ـ ما الذي عثر عليه المحروق؟

ـ عمل ـ أجاب الاثنان، كما لو كان الشيء الأكثر طبيعية.

كلاهما يعمل مياوماً ويلبس الملابس المناسبة القطنية الملطخة بالدهان والإسمنت.

ـ انتهت حياة الرخاء ـ يقول الخروف.

في هذه الأثناء كانت حركات الذئب العصبية تحمله إلى الطرف الآخر من الغرفة حيث يتأمّل بفضول الرقعةَ ومجموعَ القوى عند هذا المستوى من الحرب هناك فوضى فيشٍ يصعب فهمُها بالنسبة لمُستجدّ.

هل هذه هي اللعبة الشهيرة؟ أحرّك رأسي بالموافقة. بودي لو أعرف من جعلها شهيرة. ربّما الذنب ذنبي أنا وحدي فقط.

ـ وهل هي صعبة جدّاً؟

ـ تعلَّمَها المحروق ـ أُجيب.

ـ لكنّ المحروق شيء مختلف ـ يقول الخروف دون أن يتشمّم حول اللعبة؛ الحقيقة أنّه لم ينظر إليها ولا حتى بطرف عينه، كما لو أنّه يخاف أن يترك آثار بصماته حول جسد الجريمة. فلوريان ليندين؟

ـ إذا كان المحروق قد تعلّم فباستطاعتي أنا أيضاً أن أتعلّم ـ يقول الذئب.

ـ هل يعني أنّك تتكلّم الإنكليزية؟ هل تستطيع أن تقرأ القواعدَ بالإنكليزية؟ ـ يتوجّه الخروف بالكلام إلى الذئب لكنّه ينظر إليّ بابتسامة تواطؤ وإشفاق.

ـ يعني، قليلاً، منذ كنتُ نادلاً، ليس لحد القراءة، لكن...

ـ ـ إذن لا، إذا لم تكن قادراً على أن تقرأ العالم الرياضي بالإسبانية فكيف ستكون قادراً على أن تبلع قواعد باللغة الإنكليزية، دعك من الحماقات.

أوّل مرّةٍ يُحرز الخروف الصغير، على الأقل أمامي سيماء التفوق على الذئب. يشير هذا الذي كان ما يزال مسحوراً باللعبة إلى سداسيات الأضلاع التي تدور فيها المعركة من أجل إنكلترا (لكن دون أن يلمس الخريطة ولا أكداس الفيش في أيّ لحظة!) ويقول إنّه وبحسب فهمه، «مثلاً»، هناك، ويقصد جنوب غرب لندن، «حدثت، أو سوف تحدث مواجهة». حين أُعطيه الحقّ يقوم الذئبُ بحركةٍ من يده للخروف، أعتقد أنّها فاحشة، لم يسبق أن رأيتها، ويقول، ها أنت ترى أنّها ليست صعبةً جدّاً.

ـ لا تكن مهرّجاً، يا رجل ـ يُجيب الخروف، مصرّاً على ألاّ ينظر إلى الطاولة.

ـ حسن، عرفتها بالمصادفة؟ هل سُررت؟

ينتقل انتباه الذئب الآن بحذرٍ من الخريطة إلى النسخ؛ ويتفحّصها واضعاً يديه على خصريه قافزاً من واحدة إلى أخرى دون أن يملك وقتاً كي يقرأها. يمكن القول إنّه كان يتأمّلها كرسوم.

هل هي جزء من القواعد؟ لا، طبعاً لا.

ـ مقرّة في اجتماع مجلس الوزراء يوم ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٨ ـ يقرأ الذئب ـ. وَيْحكَ! هذه هي بداية الحرب.

ـ لا، الحرب تبدأ لاحقاً. في خريف العام التالي. النسخ فقط تساعدنا... في لعبنا. هذا النوع من الألعاب يُولّد دافعاً توثيقياً مثيراً للفضول كفاية. إنّه كما لو أنّنا نُريد أن نعرف كلّ ما فعلوه لتعديل ما أسيء عمله.

ـ فهمت ـ يقول الذئبُ، طبعاً دون أن يفهم شيئاً.

ـ المسألة هي أنّه إذا كرّرتما الكلّ فقد ملاحته. ولا يعود لعباً ـ يتمتم الخروف بينما هو يرتمي على الموكيت معرقلاً المرور إلى الحمّام.

ـ شيء من هذا القبيل... وإن كان يتعلّق بالدافع... بوجهة النظر...

ـ كم كتاباً يحتاج المرء أن يقرأ كي يلعب جيّداً؟

ـ كلّ الكتب ولا كتاب. كي يلعب المرء مباراة دون تطلّعات كبيرة تكفي معرفة القواعد.

ـ القواعد، القواعِد، أين هي القواعد؟ ـ يرفع الذئبُ الجالسُ على سريري علبة الرايش الثالث ويخرج القواعد باللغة الإنكليزية، يروزها بيد ويحرّك رأسه بإعجاب شديد ـ. لا أفهم...

ـ ماذا؟

ـ كيف استطاع المحروق أن يقرأ هذه الشخبطة على الرغم من كمية الشغل الهائل عنده.

ـ لا تُبالِغْ، الزلاجات ما عادت تدرُّ نقوداً ـ قال الخروف.

ـ نقوداً لا، لكن لا تتصوّر كم تتطلبُ من العمل. كنتُ معه، أُساعده، تحت الشمس، وأعرف هذا.

ـ أنتَ كنتَ ترى ما إذا كان باستطاعتك أن تُطبِّقَ أجنبية. لا تخدعني...

ـ أيضاً...

كان تفوّقُ الخروفِ المتصاعد على الذئب جلياً. افترضت أنّ شيئاً استثنائياً حدث لهذا الأخير أخلّ، ولو فقط آنياً، بالتراتبية بين الاثنين.

ـ لم يقرأ المحروق شيئاً. أنا شرحتُ له القواعد، شيئاً فشيئاً، وبكثير من الصبر! ـ وضّحتُ.

ـ لكنّه قرأها لاحقاً. نسخ القواعد وكان يُراجعها ليلاً في البار مُعلّماً الأجزاء التي كانت تهمّه أكثر من غيرها. اعتقدتُ أنّه كان يقرأ كي يحصل على شهادة السواقة؛ قال لي لا، إنّها قواعد لعْبَتِك.

ـ منسوخة؟ ـ أومأ الذئب والخروف بالموافقة.

فوجئتُ فقد كنتُ أعرف أنّني لم أعر القواعدَ لأحد. هناك احتمالان: أن يكونا مخطئين وأساءا الظنّ بالمحروق أو أن يكون هذا الأخير قد حكى لهما، كي يزيحهما عن كاهله، أوّلَ شيء خطر له، أو أنّهما كانا على حقّ وأنّ المحروق أخرج الأصلَ دون موافقتي كي يُصوّره واضعاً إياه في اليوم التالي في مكانه. بينما كان الذئب والخروف يسهبان في اعتبارات أخرى (نوعية وراحة الغرفة، سعرها، الأشياء التي قد يفعلانها هما في مكان مثل هذا، بدل إضاعة الوقت بلعب «البوزل»، إلخ)، طرحتُ الاحتمالات الحقيقية التي خطرت للمحروق كي يخرج كراسَ القواعد ويضعه في اليوم التالي في العلبة بعد أن صوّره. ما من احتمال. باستثناء الليلة الأخيرة كان دائماً يرتدي قميصاً داخلياً في الغالب مُنَسَّلاً وبنطلوناً قصيراً أو طويلاً لا يترك ولا بشكل من الأشكال الفراغ الذي

يحتاجه كي يُخفي كتاباً بنصف حجم كتاب الرايش الثالث، فيما عدا ذلك كان يدخل ويخرج عادة بحراستي وإذا كان طبيعياً أن أتخيّل مقاصدَ أخرى عند المحروق فإنّه كان من الصعب عليّ أكثر أن أقبل أنّني تغافلت عن تغيّرٍ، انتفاخِ واش! مهما صغر، في هيئة المحروق عندما كان يصل وهيئته عندما كانَ يذهب. الاستنتاج المنطقي كان يُبَرِّئُهُ. مادّياً كان محالاً. في هذه النقطة بالذات يدخل تفسير ثالث، بسيط ومُقلق في آنٍ معاً؛ شخص آخر، شخص من الفندق، استخدم مفتاحه السحري، دخل غرفتي. فقط يخطر لي شخص واحد: زوج فراو إلسي.

(مجرّد تصوّره، على رؤوس أصابعه، كان يُثير الغثيان في معدتي. كنتُ أقدّر أنّه طويل وهيكل عظمي، بلا وجه أو أنّ وجهه ملفوف بنوع من السحابة الداكنة والمتبدّلة؛ يُفتِّشُ في أوراقي وثيابي، مشدوداً إلى الخطوات في الممر، إلى صوت المصعد، ابن العاهرة، كما لو أنّه ينتظرني منذ عشر سنوات، فقط ينتظرني ويتحمّل، كي يُطلق عليّ حين تحين الفرصة كلبه المحروق ويمزّقني...).

صوت بدا لي في البداية غريباً وسيبدو لي لاحقاً تحذيرياً استطاع أن يُعيدني إلى الواقع.

كانوا يقرعون الباب.

فتحتُ. كانت العاملة جاءت بالملاحف النظيفة. وبشيء من الفجاجة أدخلتُها، فمجيئها لا يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً. في تلك اللحظة فقط كنتُ أرغب بأن تُنهي عملها سريعاً، أن أعطيها إكرامية وأن أبقى برهة أكثر مع الإسبانيّين، اللذين سأخضعهما لسلسلة من الأسئلة أتخيّلها غير قابلة للتأجيل.

ـ ضعيها الآن ـ قلتُ ـ الأشياء الأخرى سلّمتُها في الصباح.

ـ كلاريتا، كيف حالك يا امرأة. ـ استلقى الذئب على السرير كما لو كي يؤكّد وضعه كضيف وحيّا بحركة كسولة وودّية.

العاملة، ذاتها التي كانت ترغبُ، بحسب فراو إلسي، في رحيلي عن الفندق، تردّدتْ بضعَ ثوان، كما لو أنّها أخطأت الغرفةَ، اللحظات التي استغلّتها عيناها المطفأتان بخداعٍ كي تكتشفا الخروف، الذي كان ما يزال على الموكيت ويحيّيها، بعدها اختفى الخجل أو الريبة (أو الرعب!) الذي كان يظهر عليها، بمجرّد عبورها عتبة غرفتي، ردّت على التحيتين بابتسامة، واستعدّت، أي أنّها وقفت في مكان استراتيجي بجانب السرير، كي تضع الملاحف النظيفة.

ـ ابتعدْ ـ أمرتُ الذئبَ. استندَ هذا إلى الجدار وبدأ يقوم بحركات تبجّح وتهريج. راقبته بفضول. لمصاته التي كانت في البداية مجرّد حماقات راحت تحرز *لوناً*، راحت تصير داكنة في كلّ مرّة أكثر حتى نسجت فوق وجهِ الذئب قناعاً أسودَ لا يكاد يُخفّف منه بعضُ الأخاديد الحمراء والصفراء.

نشرت كلاريتا الملاحف بحركة فجّة. انتبهتُ إلى أنّها كانت متوتّرة بالرغم من أنّه لم يكن يظهر عليها ذلك.

ـ حذارِ، لا تُطيّري الفيشَ ـ نبّهتُها.

ـ أيّ فيش؟

ـ فيش الطاولة، فيش اللعبة ـ قال الخروف ـ. يمكن أن تُسبّبي زلزالاً، يا كلاريتا.

متردّدة بين أن تتابع عملها أو أن ترحل، اختارت أن تبقى بلا حراك. كان يصعب التصديق بأنّ هذه الفتاة هي نفسها التي كانت تملك عنّي رأياً في غاية السوء، هي التي تلقّت في أكثر من مناسبة إكرامياتي، هي التي لم تفتح فمها قط بحضوري. هي الآن تضحك، محتفية بالنكات وتقول

أشياء من مثل «لن تتعلّموا أبداً»، «انظروا كيف تركتم الأشياء»، «كم أنتم فوضويون»، كما لو أنّ من يستأجر الغرفة هما الذئب والخروف وليس أنا.

ـ أنا لن أعيش أبداً في غرفة كهذه ـ قالت كلاريتا.

ـ لا أعيش هنا، أنا هنا عابر فقط ـ وضّحتُ.

ـ سيّان ـ قالت كلاريتا ـ. هذه بئر بلا قاع.

أدركتُ لاحقاً أنّها كانت تقصد العمل، تقصد أنّ تنظيف غرفة في فندق شيء لا نهاية له، لكنّني عندئذٍ فكّرتُ في أنّه تقييم شخصيّ فأحزنني أنّه حتى المراهقة كانت تشعر بأنّ لها الحقّ بأن تصدر حكماً نقدياً عن وضعي.

ـ أحتاج لأن أتكلّم معك، بشيء مهم ـ دار الذئب حول السرير وقد تخلّى عن اللمص وأخذ العاملة من يدها. ارتعشت هذه كما لو أنّها تعرّضت للسعة أفعى.

ـ فيما بعد ـ قالت، ناظرةً إليَّ وليس إليه، بابتسامة محتقنة، ملموحة على شفتيها، متوسّلة موافقتي، لكن موافقتي على ماذا؟

ـ الآن، يا كلاريتا، الآن علينا أن نتكلّم.

ـ نعم، الآن ـ نهض الخروفُ عن الأرض وراقب برضا الأصابعَ التي كانت تشدّ على ذراع العاملة.

سادي صغير، فكّرتُ، لم يكن يجرؤ على هزّها، لكنّه كان يُحبّ أن يتفرّج ويضيف حطباً إلى النار. بعدها عادت نظرة كلاريتا لتستقطب كلّ انتباهي، النظرة التي سبق أن استقطبت اهتمامي في حادث الطاولة المؤسف، لكنّها في تلك المناسبة بقيت في البعد الثاني، في برزخ النظرات، ربّما لأنّني قارنتها بنظرة أخرى، نظرة فراو إلسي، لتنبثق الآن، مُرَكّزة وهادئة مثل منظر، متوسّطي؟ أفريقيّ؟

ـ يا امرأة، يا كلاريتا، يبدو كأنّك أنتِ المهانة، يا للظرافة.

ـ أنت على الأقلّ مدينة لنا بتوضيح،

ـ لم يكن حسناً ما فعلته أليس كذلك؟

ـ خافي مُدَمَّر وأنت في غاية الهدوء.

ـ عنك ما عادوا يُريدون أن يعرفوا شيئاً.

ـ إطلاقاً.

أُفلتت العاملةُ من الذئب بحركة قاسية، دعني أعمل! وسوّت الملاحفَ، أدخلتها تحت الفراش، غيّرت غمدَ الوسادة، نشرت وسوّت الشرشفَ الخفيف الطحيني؛ بعد أن انتهت من كلّ شيء وبدل أن تذهب، فالنشاط الذي قامت به كان قد ترك الذئب والخروفَ، بلا حجة ولا رغبة بالاستمرار، تكتّفت على الطرف الآخر من الغرفة، يفصلها عنّا السرير النظيف، وسألت ماذا عليها أن تسمع أكثر. فكّرت للحظة في أنّها كانت تتوجّه بالكلام إليَّ، بدا موقفُها المتحدّي، الذي يتناقض إلى أقصى حدّ مع حجمها، مشحوناً برموزٍ وحدي من كان يستطيع قراءتها.

ـ ليس عندي أيّ شيء ضدّك أنت. خافي حقير ـ جلس الذئب في زاوية السرير وبدأ يلفّ لفافة حشيش، بينما تجعيدة تنتشر، واضحة، وحيدة حتى الطرف الآخر من الشرشف، الهاوية.

ـ أحمق سخيف ـ قال الخروف.

ابتسمت وهززت رأسي عدّة مرّاتٍ كما لو أنّني أُفْهِمُ كلاريتا أنّني أتكفّل بالحالة. لم أبغِ أن أقولَ شيئاً بالرغم من أنّني في أعماقي انزعجتُ من أنّهم ومن دون موافقتي تجرّؤوا على أن يُدخّنوا في غرفتي. ماذا ستظنّ فراو إلسي لو ظهرت فجأة؟ ما الرأي الذي سيُشكلّه عنّي زبائن ومستخدمو الفندق لو أنّ هذا لامس مسمعهم؟ من سيضمن لي في النهاية أنّ كلاريتا لن يزلّ لسانها.

ـ هل تُريد؟ ـ مصّ الذئب اللفافةَ مرّتين ومرّرها لي. ولكي لا أحرج، وخجلاً، استنشقت بعمق مرّة واحدة، مسروراً لأنّني لم أجد المصفاة مُبلّلة وناولتها لكلاريتا. تلامست أصابعنا غصباً عنّا، ربّما لزمن أكثر من اللازم وتولّد عندي انطباع بأنّ خدّيها احمرّا. وبحركة إذعان، في الحقيقة كانت طريقة ضمنية لتضع نهاية للمسألة الغامضة التي كانت تطرحها مع الإسبانيين، جلست العاملة بجانب الطاولة وظهرها إلى الشرفة، وتركت عن قصد الدخان يُغطّي الخريطة. يا لها من لعبة معقّدة جدّاً! قالت بصوت عالٍ، وأضافت هامسة هي فقط لأصحاب العقول!

ـ تبادل الذئبُ والخروفُ النظرات، لا أستطيع أن أؤكّد ما إذا كانا مذعورين أم متردّدين، هما أيضاً بحثا بعدها عن موافقتي، لكنّني فقط كنتُ قادراً على النظر إلى كلاريتا وأكثر مما إلى كلاريتا كان إلى سحابة الدخان الهائلة التي كانت عالقة فوق أوروبا، زرقاء، شفافة، مُجدّدَة بشفتي الفتاة الداكنتين، التي كانت تُطلق بدقّة بنّاءة أنابيبَ الدخان، الدقيقة والطويلة التي كانت تتفلطح بعدها فوق فرنسا، ألمانيا وفوق فضاءات شاسعة من الشرق.

ـ آه، يا كلاريتا، مرّريها ـ احتجّ الخروف.

نظرت إلينا العاملةُ، كما لو أنّنا أخرجناها من حلم جميل وبطولي، ومدّت ذراعها باللفافة في رأس أصابعها؛ كان ذراعاها هزيلين ومنمشين، وعليهما دوائر أفتح من بقية الجلد. فكّرتُ ربّما كانت مريضة وليست معتادة على التدخين، وأنّ من الأفضل أن يعود كلّ إلى عمله، بما في ذلك الذئب والخروف.

ـ إطلاقاً، يسحرها ـ قال الذئب ممرّراً اللفافة التي كانت فعلاً مبلّلة هذه المرّة باللعاب ودخّنتها وشفتاي مقلوبتان إلى الداخل.

ـ ما الذي يسحرني؟

ـ البوريات[1]، يا وسخة ـ بصق الخروف.

ـ ليس صحيحاً ـ قالت كلاريتا منتصبةً بقفزة مسرحية أكثر مما هي عفويّة.

ـ على رسلك، يا كلاريتا، على رسلك ـ قال الذئب بصوت صار فجأة حلواً، مخملياً، بل ومخنثاً، بينما كان يمسكها من أحد كتفيها ويضربها ضربات خفيفة بيده على أضلاعها ـ، لا ترمي سهامك، ماذا سيُفكّر صديقنا الألماني، أنّك بلهاء، أليس كذلك؟ وأنت ليس عندك من الغباء شيء.

غمزني الخروف بعينه وجلس على السرير، خلف العاملة، وراح يقوم بحركات جنسية بصمت مضاعف، إذ حتى الضحكة من الأذن إلى الأذن كانت ملتفتة ليس نحوي أو نحو ظهر كلاريتا بل نحو... نوع من مملكة جمودٍ... منطقة خرساء (بعينين مفتوحتين في لحم حيّ) استقرّت خفية وسطَ غرفتي، لِنَقُلْ... من السرير وحتى الجدار المزيّن بالنسخ.

كانت يدُ الذئب، التي وقتها انتبهت فقط إلى أنّها كانت مشدودة ويمكن أن تكون قد آلمتها، انفتحت وطوّقت ثدي العاملة. بدا أنّ جسد كلاريتا قد أذعن مادياً، ألانته الثقة التي كان يسير بها الذئب. سطا الخروف دون أن ينهض عن السرير وبجدع متصلّب بشكل غير طبيعي وهو يحرك ذراعيه، مثل دمية متحرّكة، على أليتي الفتاة وتمتم بكلمة بذيئة. قال، عاهرة، ثعلبة، أو قذرة. ظننتُ أنّني سأحضر اغتصاباً وتذكّرت كلمات السيّد بيري فندق كوستا برافا، حول إحصائيات عمليات الاغتصاب في البلدة. سواء أكانت هذه مقاصدهم أم لا، فهم لم يكونوا مستعجلين: شكلّ الثلاثة للحظة لوحة حيّة حيث الشيء الوحيد

---

(١) سجائر الحشيشة الغليظة.

الذي كان نشازاً هو صوت كلاريتا، التي كانت تقول من حين إلى آخر لا، في كلّ مرّة بجزم مختلف، كما لو أنّها تجهل وتبحث عن النبرة الأكثر مناسبة للمقاومة.

ـ هل نضعها في وضعية أكثر راحة؟ ـ كان السؤال موجّها إليّ.

ـ طبعاً، يا رجل، هكذا هي أفضل ـ قال الخروف.

وافقتُ بحركة من رأسي، لكن ما من واحد من الثلاثة تحرّك: الذئب يمسك واقفاً كلاريتا التي بدا أنّها تملك صوفاً بدل العضلات والعظام والخروف على حافة السرير يُداعب أليتي الفتاة بحركات دائرية وموقّعة كما لو أنّه يخلط فيشَ الدومينو. دفعني انعدام الديناميكية الكبير إلى القيام بعمل طائش. فكّرت في ما إذا كان كلّ ذلك حيلة، فخّاً كي يسخروا منّي، مزحة غريبة يستمتعون بها وحدهم. استنتجت عندئذٍ أنّني إذا كنتُ على حقّ فإنّ الممرّ لن يكون في تلك اللحظة خاوياً. وبما أنّني كنتُ القرب إلى الباب لم يكن ليكلفني شيئاً أن أمدّ يدي وأفتحه وأجلي شكوكي. وهذا ما فعلته بحركة سريعة غير ضرورية. لا أحد كان هناك. ومع ذلك أبقيت على الباب مفتوحاً. قطع الذئب والخروف عبثهما بقفزة عن السرير، كما لو أنّهما تلقيا دلو ماء بارد، على العكس من العاملة التي كرّمتني بنظرة استلطاف عرفت كيف أقدّرها وأفهمها. أمرتها بأن تذهب. فوراً ودون أن تنبسي بكلمة! مطيعةً ودّعت كلاريتا نظرة كانين وابتعدت في الممر بخطوات متعبة ومألوفة عند كلّ عاملات الفنادق؛ بدت من خَلفٍ مستضعفة وقليلة الجاذبيّة. ربّما كانت كذلك.

حين بقينا لوحدنا والإسبانيان لم يخرجا من المفاجأة بعد، سألتُ بنبرة لا تقبل ردّاً ولا مواربة عمّا إذا كان تشارلي قد اغتصب أحداً. في تلك اللحظة كنتُ متأكّداً من أنّ إلهاً كان يلهمني كلماتي. تبادل الذئب والخروف نظرة كان يختلطُ فيها بجرعاتٍ متساوية عدمُ الفهمِ والحذرُ. لم يخطر ببالهما ما كان سينهار عليهما!

ـ هل اغتصب فتاة؟ المسكين تشارلي، ليرقد بسلام؟

ـ القواد تشارلي ـ أكّدتُ.

أعتقد أنّني كنتُ مستعداً لأن أنتزع منهما الحقيقة ولو بالضرب. الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون خصماً جديراً بالاحترام هو الذئب؛ الخروف بالكاد كان طوله يبلغ المئة وستين سنتيمتراً، ينتمي إلى النوع الهزيل الذي يبقى خارج اللعبة من أول صفعة. على الرغم من أنّني يجب ألا أركن إلى هذا إلاّ أنّه أيضاً لم يكن هناك أسباب كي أتصرّف بحذر أكبر. كان وضعي الاستراتيجي للدخول في معركة ممتازاً: كنتُ أسيطر على المخرج الوحيد، الذي أستطيع أن أسدّه حين أعتقدُ أنّ ذلك مناسباً، أو أن أستخدمه كطريق للهرب إذا ما ساءت الأشياء. ثمّ إنّه كان لصالحي عامل المفاجأة. مع خوف الاعترافات المباغتة. مع ضعف الرشاقة العقلية عند الذئب والخروف. حسن الآن إذا أردتُ أن أكون صريحاً، فلا شيء من هذا كان قد خُطِّط له، ببساطة حدث، كما في أفلام الألغاز حيث تُشاهَدُ صورةٌ مرّة وأخرى إلى أن تنتبه إلى أنّها مفتاح الجريمة.

ـ يا رجل، لنحترم الموتى، خاصّة إذا كانوا أصدقاء ـ قال الخروف.

ـ خراء! ـ صرختُ.

كلاهما كان شاحباً ففهمتُ أنّهما لن يُقاتلا، وأنّهما فقط كانا يريدان أن يخرجا من الغرفة بأسرع ما أمكن.

ـ من تريده أن يكون قد اغتصب؟

ـ هذا ما أريد أن أعرفه. حنّة؟ ـ قلتُ.

نظر إليّ الذئب كما لو أنّه ينظر إلى مجنون أو طفل:

ـ حنّة كانت زوجته، كيف تريده أن يغتصبها؟

ـ فعل أم لم يفعل؟

ـ لا، يا رجل، طبعاً لا، ما هذه الأفكار التي تخطر لك؟ ـ قال الخروف.

ـ تشارلي لم يغتصب أحداً ـ قال الذئبُ ـ كان طيباً كالخبز.

ـ تشارلي كان طيباً كالخبز؟

ـ يبدو كذباً ألا تعرف هذا وهو صديقك.

ـ لم يكن صديقي.

ضحك الذئب ضحكة عميقة وقصيرة دون تروٍّ، نابعة من عظامه، وقال إنّه انتبه، وألا أصدّق، فهو لم يكن بمثل ذلك الغباء. ثمّ عاد ليؤكّد أنّ تشارلي كان شخصاً طيباً، غيرَ قادرٍ على أن يغتصِبَ أحداً، وأنّه إذا كانوا قد حاولوا أن يفتعلوا بأحدٍ، فهو تشارلي، في تلك الليلة التي ترك فيها إنجيبورغ وحنّة مهجورتين على الطريق. عندما عاد إلى البلدة سكر مع بعض الغرباء؛ كانوا بحسب الذئب مجموعة من الأجانب، ربّما ألماناً. ذهبوا من البار جميعاً، عدد غير محدّد، جميعهم رجال، إلى الشاطئ. كان تشارلي يتذكّر الشتائم، ولم تكن جميعها موجّهة إليه، الدفعات، ربّما مزاحات غليظة ومحاولة أن يُنزلوا له بنطلونه.

ـ إذن هل هو من اغتصبوه؟

ـ لا، أبعدَ من كان فوقه برفسة واحدة وذهب. لم يكونوا كثراً وكان تشارلي قويّاً، لكنّه كان مزعوجاً كفاية وأراد أن ينتقم. ذهب في طلبي إلى بيتي. عندما عدنا لم يكن قد بقي أحدٌ على الشاطئ.

صدّقتهما؛ كان صمت الغرفة، ضجيج الكورنيش الخافت، بل وحتى الشمس التي راحت تختفي والبحر المحجوب بستائر الشرفة، كلُّ شيء كان لصالح ذلك الثنائي البائس.

ـ تعتقد أن ما حدث لتشارلي كان انتحاراً، أليس كذلك؟ لا لم يكن كذلك، فتشارلي ما كان لينتحر أبداً. كان حادثاً.

غادرنا نحن الثلاثة مواضعنا الدفاعية والاستقصائية واتخذنا دون مرحلة انتقالية موقفاً حزيناً (على الرغم من أنّ الكلمة مبالغة في عدم دقّتها) قادنا نحن الثلاثة للجلوس على السرير تحت غطاء التضامن الدافئ، كما لو كنّا حقيقةً أصدقاء، أو أنّنا انتهينا توّاً من مضاجعة العاملة، ملقين ببطء خطاباتٍ قصيرة كان الآخرون يشجّعونها بكلمات أحادية المقاطع ومتحملين الحضور الآخر، النابض، الذي كان يرينا ظهره الجبار في الطرف الآخر من الغرفة.

من حسن الحظّ أنّ الخروف عاد وأشعل لفافة حشيش ورحنا نمرّرها فيما بيننا حتى انتهت. لم يكن هناك أكثر. الرماد المرمي على الموكيت أخذ الذئب على عاتقه بعثرته بنفخة واحدة.

خرجنا معاً لنشرب بيرة في ركن الأندلسيين. كان البار مقفراً فغنّينا أغنية.

بعد ساعة ما عاد باستطاعتي تحمّلهما فودّعتهما.

جنرالاتي المُفضّلون

لا أبحث فيهم عن الكمال. ماذا يعني الكمال في رقعة لعب غير الموت، وغير الفراغ؟ في الأسماء، في المسيرات السريعة، في ذلك الذي يُشكّلُ الذاكرة، أبحثُ عن أيديهم بين الضباب، بيضاءَ وواثقة، أبحث عن عيونهم تُراقبُ معاركَ (بالرغم من أنّ الصور التي تظهرهم في هذه الوضعية معدودة)، هم غير كاملين وفريدون، رقيقون، بعيدون، أفظاظ، شجعان، حكماء، يمكن العثور فيهم جميعاً على الشجاعة والحبّ. في مانشتاين، في غودريان، في رومل. جنرالاتي المُفضَّلون. وفي راندستدت، في فون بوك، في فون ليب. لا أبحث فيهم ولا في الآخرين عن الكمال، أبقى مع الوجوه، المفتوحة أو الكتيمة، مع

المكاتب، أحياناً أبقى مع اسم وعملٍ صغير. بل أنسى ما إذا كان فلانٌ قد بدأ الحرب قائداً لفرقةٍ، أو لواء، ما إذا كان فاعلاً على رأس عربات حربية أو مشاة، أخلط بين الميادين والعمليات. وليسوا لهذا السبب أقلّ لمعاناً. المجموع يطمسهم، بحسب المنظور، لكنّه دائماً يحتويهم. ما من مسعى، ما من ضعف، ما من مقاومة قصيرة كانت أم طويلة تضيع. لو أنّ المحروق كان يعرف ويُقدّر قليلاً الأدب الألماني في هذا القرن (ومن المحتمل أنه يعرف وأنّه يُقدّر) لقلتُ له إنّ مانشتاين يُقارن بغونتر غراس وإنّ رومل يُقارن ب... سيلان. بالطريقة ذاتها يمكن أن يُقارن باولوس بتراكل وسلفِهِ، رايشناو، بهاينريخ مان، غودريان هو الندّ لجونغير وكلوغ دي بول. لا يفهمه. على الأقل لا يفهمه حتى الآن. على العكس، سهل بالنسبة إليّ أن أبحث فيهم عن انشغالات، أسماء مستعارة، هوايات، أنواع البيوت، فصول السنة، إلخ. أو أن أقضي الساعات وأنا أقارن بين سجلات خدماتهم وأعمل إحصاءات. أرتّبهم وأعيد ترتيبهم: بحسب الألعاب، الأوسمةِ، الانتصارات، الهزائم، سنواتِ حياتهم، كتبهم المنشورة. ليسوا ولا يبدون قدّيسين، لكنّني رأيتهم أحياناً في السماء، كما لو في فيلم، وجوههم مطبوعة على الغيوم، يبتسمون لنا، ينظرون إلى الأفق، يجربون تحيات، بعضهم يهز رأسه بالموافقة، كما لو أنّهم يجلون شكوكاً لم تُصَغ. يتقاسمون غيوماً وسماءً مع جنرالات فيديريك العظيم كما لو أنّ الزمانين وكلّ الألعاب انصهرت في دفقة بخار واحدة. (أتصور أحياناً أنّ كونراد مريض، أُدخل مشفى ليس فيه زيارات، حتى ولو كنتُ واقفاً بجانب الباب ويكتشف في احتضاره الخرائطَ والفيشَ التي لن يعود ليلمسها، معكوسةً على الجدار! زمن فيديريك وجميع الجنرالات الهاربين من قوانين العالم الآخر! الفجوة التي يطرقها صديقي كونراد المسكين بقبضته!) صور لطيفة، كموديل لتيتان، شورنير الغول، ريندوليو ابن الزنا، أرنيم المُطيع، فيتزليبين السنجاب، بلاسكوفيتز

المستقيم، كنوبيلسدروف الجوكر، بلاك القبضة، مانتيوفيل الشهم، ستودينت الناب، هاوسير الأسود، ديتريخ العصامي، خاينريشي الصخرة، بوش العصبي، هوث الهزيل، كلايست الفلكي، باولوس الحزين، برايث الصموت، فيتتينغهوف العنيد، بايرلاين المجدّ، هويبنير الأعمى، سالموث الأكاديمي، غاير المتقلّب، ليست اللامع، راينهاردت الأخرس، مايندل الخنزير، ديتل المتزلّج، فهولير العنيد، شيفاليري الساهي، بيتريخ الكابوس، فالكينهورست القافز، وينك النجار، نيهرينغ المتحمّس، وايخز الحاذق، إيبرباخ المكتئب، دولمان القلبي، هالدير رئيس الخدم، سودينستيرن السريع، كيسيلرينغ الجبل، كوشلير المنطوي على نفسه، هوب الذي لا يكلّ، زانغين الغامض، وايس الشفاف، فريسنير الأعرج، ستوم ارماد، ماكينسين الخفيّ، ليندیمان المهندس، فيستفال الخطّاط، ماركز الممتعض، ستولبناغيل الأنيق، فون توما السليط..مدمجون في السماء... في سحابة فيرديناند، برونسفيك، شويرين، ليهوالدت، زينزين، دوهنا، كلايست، فيديل، جنرالات فِيديريك، ذاتهم... في سحابة جيش بلوشير المنتصر في واترلو: بولوو، زينزين، بيرخ، تيلمان، هيلير، لوستزين، شفيرين، شولينبيرغ، فاتزدورف، جاغوو، تيبلسكيرخين، إلخ. شخصيات رمزية قادرة على أن تدخل دون تروٍّ في كلّ الأحلام مع صرخةِ وجدتها، وجدتها!، استيقِظْ! كي تفتح عينيك، إذا ما استطعت أن تسمع صياحهم دون خوف، وتجدَ عن قدم السرير الحالات المواتية التي وجدت أو الحالات المواتية التي يمكن أن تكون قد وُجِدَت. بين الحالات الأولى سأؤكّد على حملة رومل مع الفرقة السابعة المدرعة في عام ١٩٤٠، ستودنت هابطاً فوق كريت، تقدّم كلايست مع جيش مانستيان الأوّل المدرّع في كريميا، المدفع دورا بحدّ ذاته، العلم في إلبروس بحد ذاتها، مقاومة هوب في روسيا وفي صقلية، جيش رايشيناو يكسر عنق البولنديين، من بين

الأوضاع المواتية أنّهم لم يذهبوا، عندي تفضيل خاص لاحتلال موسكو من قبل قوات كلوج، لاحتلال ستالينغراد من قبل قوات رايشيناو وليس من قبل باولوس، لإنزال الجيش التاسع والسادس عشر في بريطانيا العظمى، بما في ذلك إنزال مظليين، لبلوغ خطّ أستراخان ـ أركانجيل، للنجاح في كورسك ومورتاين، للانسحاب نظامياً حتى الجانب الآخر من السين، لاحتلال بودابست، لإعادة احتلال أمبيريس، للمقاومة اللامحدودة في كورلانديا وكونيغسبرغ، لثبات خطّ إودير، لمعقل الألب، لموت زارينا وتغيّر التحالفات، حماقات، بلاهات، أبهات غير مجدية، كما يقول كونراد، كيلا يرى وداع الجنرالات الأخير: راضون في النصر، خاسرون جيدون في الخسارة، بل وحتى في الخسارة المطلقة، يغمزون بعينٍ، يتدربون على التحيات العسكرية، يتأمّلون الأفقَ أو يهزّون رؤوسهم بالموافقة. ما علاقتهم بهذا الفندق الذي يتهاوى أشلاء، لا علاقة لهم أبداً، لكنّهم يُساعدون؛ يُريحون. يُطيلون الوداع إلى الأبد ويجعلونك تتذكّر مباريات قديمة، مساءاتٍ، ليالي، ما يُطرَح منها ليس النصر ولا الفشل فقط بل الحركة، المراوغة، الصدام، وربتات الأصدقاء على الظهر.

خريف ١٩٤٢. *شتاء ١٩٤٢*

ـ ظننتُك ذهبتَ ـ قال المحروق.

ـ إلى أين؟

ـ إلى بلدتك، إلى ألمانيا.

ـ لماذا عليّ أن أذهب، يا محروق؟ هل تظن أنّني خائف؟

يقولُ المحروق، لا لا لا لا، ببطء شديد، دون أن يكاد يُحرّك شفتيه، متحاشياً أن تلتقي نظرتي بنظرته؛ لا ينظر بثبات إلاّ إلى الرقعة،

ما عداها لا يكاد يشدّ انتباهه لبضع ثوان. متوتّراً ينتقلُ من جدارٍ إلى جدار، مثل سجين، لكنّه يتفادى منطقة الشرفة، كما لو أنّه لا يريد أن يُرى من الشارع، يرتدي قميصاً قصير الكمَّيْن، ويمكن أن تُرى في ذراعه فوق الحروق طبقةٌ من الطحلب الأخضر، خفيفة جدّاً، ربّما بقايا كريم. لكنّه لم تكن توجدُ اليومَ شمس، وبحسب ما أتذكّر فإنّه لم يكن يَضع كريماً على جسده ولا حتى في أكثر الأيام قيظاً. هل عليّ أن أستنتج أنّ الأمرَ يتعلّق بطفح جلديّ. هل ما أعتبره فطوراً هو جلد جديد متراكِبٌ بعضه فوق بعض؟ هل تراها طريقة جهازه في تبديل الجلد الميت؟ إنّه، كائناً ما كانَ، يُثير الاشمئزاز. من حركاته يمكن القول إنّ هناك شيئاً يشغله، على الرغم من أنّه مع هذا النوع من الناس لا يعرف المرء أبداً بماذا يهتم. فجأة يصيرُ حظُّهُ مع الزهر ساحقاً. يواتيه الحظّ في كلّ شيء، بما في ذلك الهجمات الأسوأ حظّاً. أجهل ما إذا كانت تحركاته تخضع لاستراتيجية شاملة أم أنّها نتاج القدر، نتاج ضربة هنا وضربة هناك، لكن لا ينكر أنّ حظَّ المُبتدئ يرافقه. في روسيا عليَّ، بعد هجماتٍ وهجماتٍ مضادّة متتالية، أن أتراجع إلى خطّ لينينغراد ـ كالينين ـ تولا ـ ستالينغراد ـ إليستا، في الوقت الذي يحيق خطرٌ أحمرُ جديد بالجنوب الأقصى، في القوقاز باتجاهين، باتجاه مايكوب، الخالية تقريباً من الدفاعات وباتجاه إليستا. في إنكلترا أتمكّنُ على الأقلّ من الاحتفاظِ بسداسيّ أضلاع واحد، بورتسموث، بعد هجوم شامل للوحدات الأنجلو ـ أمريكية، بالرغم من كلّ شيء لم ينجحوا فيحرزوا هدفهم بطردي من الجزيرة. وبالرغم من الاحتفاظ ببورتسموث كان تهديد لندن ما يزال قائماً. يُنزل المحروق في مراكش لواءي مشاة أمريكيين، اللعبة الوحيدة الساذجة التي لا أرى هدفاً آخر لها غير الإزعاج وجلب قوات ألمانية من جبهات أخرى، جلُّ جيشي موجود في روسيا ولا أعتقد أنّ باستطاعتي أن أخرج الآن من هناك فيشةً بديلة واحدةً.

ـ وإذا كنتَ تعتقد أنّني ما عدت موجوداً فلماذا جئت؟

ـ لأنّ بيننا التزاماً.

ـ التزام بيننا أنا وأنت، يا محروق؟

ـ بلى، نلعبُ ليلاً، هذا هو الالتزام؛ أنا آتي حتى ولو لم تكن موجوداً، إلى أن أنهي اللعبة.

ـ سيأتي يومٌ لن يتركوك تدخل أو سيطردونك رفساً.

ـ ممكن.

ـ أيضاً سيأتي يوم أُقرر فيه أن أرحل وبما أنّه بالنسبة إليّ ليس سهلاً دائماً أن أراك ربّما لن أستطيع أن أوّدعك. يمكن أن أترك لك ملاحظ في الزلاجات، صحيح، إذا كانت ما تزال على الشاطئ. لكنّني سأرحل ذات يوم فجأة وسيكون قد انتهى كلّ شيء قبل عام ٤٥.

يبتسم المحروق بضراوة (وفي ضراوته يمكن للمرء أن يتكهن بآثار هندسة دقيقة ومجنونة) متيقناً بأنّ زلاجاته سوف تستمر على الشاطئ حتى ولو سحبت جميع زلاجات البلدة إلى مبيتاتها الشتوية؛ سوف يبقى الحصن على الشاطئ، وسيبقى هو ينتظرني أو ينتظر ظلّي حتى ولو لم يكن هناك سياح أو حلّ المطر. عناده نوع من السجن.

ـ الحقيقة أنّه لا يوجد شيء، يا محروق. هل تفهم الالتزام بمعنى الواجب؟

ـ لا، هو بالنسبة لي ميثاق؟

ـ ليس بيننا أيّ نوع من الميثاق، نحن فقط نلعب، لا أكثر.

يبتسم المحروق، يقول نعم، إنّه يفهم، لا أكثر، وفي ضجيج المعركة وبينما الزهر يواتيه يخرج من جيب بنطلونه نسخاً جديدة مطوية يُقدمها إليّ. هناك بعض الفقرات مُعلّمة وتُقدّر على الورق بقعُ شحم وبيرة ربّما ناتجة عن إعادة قراءتها على طاولة في بار. تماماً كما في

عملية التسليم الأولى صوت داخليّ يُملي ردود فِعلي، وهكذا وبدل أن أوبّخه على الهدية التي يمكن أن يخفي وراءها شتيمة أو استفزازاً، على الرغم من أنّه يمكن أن تكون الآلية البريئة التي ينضم بها المحروق إلى أفكاري، سياسياً وليس تاريخاً عسكرياً! أشرع بهدوء في تثبيتها بجانب النسخ الأولى، بطريقة يُظهر فيها جدارُ رأسية السرير جوّاً مختلفاً كلّياً عن المعتاد. للحظة تولّد عندي انطباع بأنّني في غرفة آخر، غرفة مراسل أجنبيّ في بلد حارّ وعنيف؟ أيضاً: تبدو الغرفةُ أصغر. من أين هي الأوراق المنسوخة؟ من كتابين، واحد لفلان والثاني لعلّان. لا أعرفهما. ما الدروس الاستراتيجية التي يمكن أن تُستخرج منهما؟ يحرف المحروق نظره، ثمّ يبتسم ابتسامة مفتوحة ويقول ليس من المناسب أن يكشف عن خططه؛ غايته أن يجعلني أضحك، وهذا ما أفعله لباقةً.

يعودُ المحروق في اليوم التالي بقوّة أكبر، إن جاز التعبير. يُهاجم في الشرق وعليّ أن أتراجع مرّة أخرى يُجمّع قوات في بريطانيا العظمى ويبدأ يتحرّك، وإن كان ببطء شديد آنيّاً، من مراكش ومصر. اللطخة في ذراعه اختفت، فقط بقي الحرق الأملس والمنبسط. تنقلاته في الغرفة مأمونة بل ورشيقة، وما عادت تُظهر توتّرَ اليوم السابق. لكنّه وهذا صحيح، يتكلّم قليلاً. موضوعه المُفضّل هو اللعب، عالم الألعاب، النوادي، المجلات، البطولات، المباريات بالمراسلة، المؤتمرات، إلخ.، وكلُّ محاولاتي كي أنقل الحديث نحو مجالات أخرى، مثل من أعطاهُ أوراق قواعد الرايش الثالث المنسوخة، كانت عبثاً، يتخذ أمام الأشياء التي لا يريد أن يسمعها موقفَ الحجر أو الثور ببساطة لا يعتبر نفسه معنيّاً. ربّما كان تكتيكي في هذا الجانب يعاني من رقّة. أنا حذر وأحاول في أعماقي ألا أجرح مشاعره. ربّما يكون المحروق عدّوي، لكنّه عدوّ طيّب وليس هناك خيارات كثيرة يختار منها المرء. ماذا سيحدث لو كلّمته بوضوح، لو قلتُ له ما حكاه لي الذئب والخروف

وطلبتُ منه توضيحاً؟ ربّما سيكون عليّ في النهاية أن أختار بين كلمته وكلمة الإسبانيَّيْن. أُفضّل ألاّ أفعل. هكذا نتكلّم عن الألعاب واللاعبين، وهو موضوع لا نهاية له ويبدو أنّه يهمّ المحروق. أعتقد أنّني إذا أخذته معي إلى ستوتغارت، لا، إلى ستوتغارت لا، إلى باريس! سوف يتحوّل إلى نجم المباريات؛ إحساسُه بأنه أضحوكة تافهٌ، أعرف ذلك، لكنّه إحساس حقيقيّ عانيتُ منه أحياناً عندما كنتُ أصل إلى نادٍ وأرى من بعيدٍ أشخاصاً كباراً في السنّ منهمكين في حلّ مشاكل عسكرية صارت بالنسبة إلى بقيّة الناس من الماضي، سيتبخر بمجرّد حضوره. يضفي وجهه الشائط سطوة على عمليّة اللعب. عندما أسأله عمّا إذا كان يُحبّ أن يأتي معي إلى باريس، تشتعل عيناه وبعدها فقط يهزّ رأسه رافضاً. هل تعرف باريس، يا محروق؟ لا، لم يزرها قط. هل تُحبّ أن تذهب؟ يُحبُّ لكنّه لا يستطيع. يُحبّ أن يلعبَ مع آخرين، مباريات كثيرة، «الواحدة تلو الأخرى»، لكنّه لا يستطيع. ليس عنده غيري ويكتفي. حسن، ليس قليلاً، أنا البطل. هذا يُريحه. لكنّه على كلّ الأحوال يُحب أن يلعب مع آخرين، وإن كان لا يُفكّر في أن يشتري اللعبة (على الأقل لا يقول شيئاً عن هذا)، بل إنّني أفكّر في لحظة من لحظات كلامه أنّنا نتكلّم عن مسائل مختلفة. أتزوّد بالوثائق، يقولُ. أفهم بعد جهد أنّه يقصد النسخ. لا أستطيع أن أتفادى الضحك.

ـ هل ما زلت تزور المكتبةَ، يا محروق؟

ـ بلى.

ـ وتستعير فقط كتب حرب.

ـ الآن بلى، قبلها لا.

ـ قبل ماذا؟

ـ قبل أن أبدأ اللعب معك.

ـ وما نوع الكتب التي كنت تستعيرها قبل ذلك، يا محروق؟

ـ شعر.

ـ كتب شعر؟ ما أجملها. ما نوع تلك الكتب؟

ينظر المحروق إليّ كما لو أنّه أمام فلاح ساذج.

ـ باليبخو، نيرودا، لوركا... هل تعرفهم؟

ـ لا. وهل كنت تحفظها عن ظهر قلب؟

ـ ذاكرتي سيّئة جدّاً.

ـ لكنّك تتذكّر شيئاً منها؟ هل تستطيع أن تقرأ لي بعضها كي أُكوّن فكرة؟

ـ لا، فقد أتذكّر أحاسيس.

ـ ما نوع الأحاسيس؟ قل لي واحداً.

ـ القنوط...

ـ فقط؟ هل هذا كلّ شيء؟

ـ القنوط، السماء، البحر، أشياء غير مُغلقة، مفتوحة على مصاريعها، كما لو أنّ صدرك سينفجر.

ـ نعم، فهمت. ومنذ متى تركت الشعر، يا محروق؟ هل منذ أن بدأنا نلعب لعبة الرايش الثالث؟ لو عرفت ذلك ما كنتُ لألعب. أنا أيضاً أُحبّ الشعر.

ـ ما الشعر الذي تُحب؟

ـ أنا أحبّ غوته، يا محروق.

وهكذا حتى تحين ساعة المغادرة.

١٧ أيلول

خرجتُ من الفندق في الخامسة مساءً، بعد أن تكلّمتُ بالهاتف مع كونراد، وحلمتُ مع المحروق ومارست الحبّ مع كلاريتا. كان رأسي يطنُّ، وهو ما عزوته إلى نقص في الغذاء، ولذلك وجّهت خطواتي نحو الجزء القديم من البلدة، مستعداً لأن آكل في مطعم سبق أن ألقيت عليه نظرة. للأسف وجدته مغلقاً، ووجدتُ نفسي أسير في أزقّة لم أطأها قط، في حيّ شوارعه ضيقة لكنّها نظيفة وظهري إلى المنطقة التجارية وإلى ميناء الصيادين وأنا في كلّ مرّة أكثر استغراقاً في أفكاري، مستسلماً للتمتع البسيط بالمحيط، وما عدت جائعاً وبي همّة لأنّ أُطيلَ مشواري حتى يحلّ الليل. كنتُ في هذه الحالة حين سمعتُ أحداً يُناديني باسمي. سيّد بيرغير. حين التفتّ وجدتُ أنّ الأمر يتعلّق بفتى لم أتعرّف إلى وجهه بالرغم من أنّه كان مألوفاً بشكل ضبابي. كان سلامه من القلب. فكّرتُ في أنّه يمكن أن يكون أحد الأصدقاء الذين صادقناهم أنا وأخي في البلدة قبل عشر سنوات. هذا الاحتمال يسعدني مُقدّماً. شعاع شمس يُصيبه في وجهه تماماً ولذلك لم يتوقّف الفتى عن الرمش. تخرج الكلمات دفقاً وبصعوبة أفهم ربع ما يقوله، يداه الممدودتان تمسكني من مرفقيّ، كما لو كي يضمن أنّني لن أفلت منه. كان الوضع يوحي بأنّه سيطول إلى ما لا نهاية. أخيراً اعترفتُ له مغتاظاً أنّني لا أنجح في تذكّره. أنا موظف الصليب الأحمر، الذي ساعدك في أوراق صديقك. تعارفنا في تلك الظروف الحزينة! وبحركة جريئة يخرج من جيبه نوعاً من الهوية

المجعدة تُعرّف به كعضوٍ في الصليب الأحمر البحري. بعدَ أن حُلّ كلّ شيء تنهّدنا وضحكنا. وعلى الفور دُعيتُ لتناول بيرة لم أجد موانع من قبولها. بقليل من المفاجأة انتبهتُ إلى أنّنا لم نكن ذاهبَيْن إلى بار بل إلى بيت المنقذ، على بعد خطوات قليلة من هناك في الشارع ذاته، في طابق ثالث معتم ومغبرّ.

كانت غرفتي في فندق البحر أوسع من ذلك البيت بمجمله، لكنّ إرادة مُضيفي الطيبة كانت تُعوّض عن هذا الخلل المادي. كان اسمه ألفونس، وكان بحسب ما قال يدرس في المدرسة الليلية: المقفز كي يستقرّ بعدها في برشلونة. هدفه: أن يصير مصمّماً أو رسّاماً، المهمّة المستحيلة كيفما نُظر إليها، بالحكم عليه من ثيابه، من الملصقات التي كانت تملأ حتى آخر جزء من الجدار ومن مزيج الأثاث، الذي كان جميعه سيّئاً وكريهَ الذوق. حسن الآن، كان في طبيعة المنقذ شيء فريد. لم نكن قد تبادلنا أكثر من كلمتين، جالساً أنا على كرسيّ قديم مغطى ببطانية عليها رسومات هندية وهو على كرسي من المحتمل أنّها من اختراعه، حين سأل بغتةً ما إذا كنتُ أنا «أيضاً» فنّاناً. أجبت بشكل غامِض أنّني أكتبُ مقالات. أين؟ في ستوتغارت، في كولونيا، أحياناً في ميلان، نيويورك... أعرف، قال المُنقِذ. بأيّ طريقة كنتَ تعرف؟ من وجهك. أقرأ الوجوه كما لو أنّها كتب. شيء في نبرته، أو ربّما في الكلمات التي استخدمها جعلني أستنفر. حاولتُ أن أبدّل الموضوعَ، لكنّه كان يريد أن يتكلّم عن الفنّ فتركته.

كان ألفونس ثقيلاً، لكنّني في النهاية اكتشفت أنّ الوجود هناك ليس سيئاً، أشرب بصمت ومحميّ مما كان يجرى في البلدة، أي مما كان يُحاك في عقل المحروق، الذئبِ والخروفِ وزوجِ فراو إلسي ومحاطاً بهالة الأخوّة التي نشرها المُنقذ ضمنياً حول الاثنين. تحت جلدنا كنّا

زملاء، كما يقول الشاعر: عرف الواحد منّا الآخر في الظلمة ـ في هذه الحالة، هو عرفني بموهبته الخاصّة ـ وتعانقنا.

تذكّرتُ، تُهدهدني قصَصُهُ، قصصُ الحكواتي المدمن، التي لم أكن أوليها أدنى انتباه، أبرزَ أحداث ذلك اليوم. أولاً بترتيب زمني، الحديث الهاتفي مع كونراد، القصير، فهو من هتف، ودار بشكلّ أساسيّ حول الإجراءات التأديبية التي كان يُفكّر مكتبي في اتخاذها إذا لم أظهر خلال الثماني وأربعين ساعة المقبلة. ثانياً، كلاريتا التي قبلت بعد أن رتّبت الغرفة أن تُمارس الحبّ معي دون كثيرِ تمنّع، والتي كانت من الصغر بحيث إنّني لو استطعت أن أنظر إلى السرير بنوع من الإسقاط الفلكي من السقف لا شكّ ما كنتُ لأرى غير ظهري وربّما رأسَي قدميها. وأخيراً الكابوس، الذي كانت العاملةُ مسؤولةً عنه جزئياً، فبعد أن انتهت جلستنا، وقبل أن ترتدي ملابسها وتعود إلى أعمالها، سقطتُ يلفني نعاس غريب، كما لو أنّني مُخدّر ورأيت الحلمَ التالي: كنتُ أسير في الكورنيش في الساعة الثانية ليلاً وأنا أعرف أنّ إنجيبورغ تنتظرني في غرفتي. الشارع، الأبنية، الشاطئ، البحر ذاته كلّ ذلك كان أكبر بكثير مما هو في الواقع. كما لو أنّ البلدة حُوِّلت كي تستقبل عمالقة. كانت النجوم على العكس، على الرغم من أنّها كانت كثيرة كما هو معتاد في ليالي الصيف، إلاّ أنّها كانت أصغر بشكل محسوس. رؤوس دبابيس فقط تُضفي مظهر المرض على القبة الليلية. كان خطوي سريعاً لكن ليس لهذا السبب كان فندق البحر يظهر في الأفق. وعندما أصاب باليأس كان المحروقُ ينبثق على الشاطئ منهكَ الخطوِ يحمل علبةَ كرتون تحت ذراعه. يجلس على الحاجز ويشير نحو البحر، نحو الظلمة. وعلى الرغم من أنّني حافظتُ على مسافة حذرة تقارب العشرة أمتار، كانت أحرف العلبة الضاربة للونِ البرتقالي مقروءة تماماً ومألوفة: إنّه الرايش الثالث، لعبتي لعبة الرايش الثالث. ماذا كان يفعل المحروق في تلك الساعة

بلعبتي؟ تراه ذهب إلى الفندق وأهدتها له إنجيبورغ نكاية بي؟ تراه سرقها؟ فضّلتُ أن أنتظر دون أن أوجّه أيّ نوع من الأسئلة، فقد حدستُ أنّ في الظلمة بين البحر والكورنيش كان هناك شخص آخر وأنّه سيكون عندنا أنا والمحروق متسع من الوقت كي نحلّ مسائلنا على انفراد. هكذا بقيتُ صامتاً وانتظرتُ. فتح المحروق العلبةَ وبدأ ينشر اللعبة على الحاجز. سيخرّب الفيش، فكّرتُ، لكنّني بقيت ملتزماً الصمت. حرّكت نسمةُ الليل الرقعةَ مرّتين. لا أعلمُ في أيّ لحظة وضع المحروق الوحدات في وضعياتٍ لم أرها قط من قبل. قضية سيّئة بالنسبة إلى ألمانيا، أنت تلعب عن ألمانيا، قال المحروق. جلستُ على الحاجز مقابله ودرستُ الوضع؟ بلى، قضية سيّئة، جميع الجبهات توشك أن تنكسر والاقتصاد منهار، من دون قوات جوّية، من دون بحرية حربية، وبجيشٍ برّي غير كافٍ بالنسبة إلى أعداء بهذه الضخامة. نور صغير أحمر اشتعلَ داخل رأسي. ماذا نلعب؟ سألتُ نفسي. هل نلعب بطولة ألمانيا أم بطولة إسبانيا؟ حرّك المحروقُ رأسه بالنفي وعاد ليشير إلى حيث كانت تنفجر الأمواجُ، إلى حيث ينتصب حصنُ الزلاجات هائلاً وكئيباً. ماذا نلعب، ألححتُ وعيناي يغشوهما الدمع، كان لديّ انطباع رهيب بأنّ البحر يقتربُ نحو الكورنيش، باستمرار، بلا عجلة ولا توقّف. الشيء الوحيد الذي يهمُّ، أجاب المحروقُ، متفادياً النظرَ إليّ. وضع جيوشي لم يكن يسمح بكثير من الآمال، لكنّني قمت بجهد كي ألعب بأقصى درجات الدقّة الممكنة وأعدتُ تشكيل الجبهات. لم أكن أُفكّر في أن أستسلم دون قتال.

ـ ما الشيء الوحيد الذي يهمّ؟ ـ قلتُ، وأنا أراقبُ حركةَ البحر.

ـ الحياة ـ بدأت جيوشُ المحروق تسحقُ خطوطي بمنهجية.

«هل الذي يخسرُ يخسر حياته؟» لا بدّ أنّني مجنون، فكّرتُ بينما

المدّ تابع صعوده بإفراط، كما لم أره من قبل في إسبانيا ولا في أيّ مكان آخر.

ـ الفائز يتصرّف بحياة الخاسر ـ حطّم المحروق جبهتي من أربعة أماكن مختلفة وتوغّل في ألمانيا عبر بودابست.

ـ أنا لا أريد حياتَكَ، يا محروق، دعنا من المبالغة ـ قلتُ، ناقلاً احتياطيَّ الوحيد إلى منطقة فيينا. صار البحر الآن يلعق حافّة الحاجز. بدأت أشعر بارتعاشات في كامل جسدي. كانت ظلال الأبنية تبتلع النور القليل الذي كان ما يزال ينير الكورنيش.

ـ ثمّ إنّ هذا المشهد مبنيّ بشكل واضح كي تخسر ألمانيا!

ـ تسلّق الماءُ درجات الشاطئ وتناثر على عرض الرصيف؛ فَكّرْ جيّداً في لعبتك المقبلة، نبّهني المحروقُ وبدأ يبتعد، مبربطاً باتجاه فندق البحر؛ كان ذلك هو الصوت الوحيد الذي يُسمَع. مرّت برأسي مثل ريح شديدة صور إنجيبورغ وحيدة في الغرفة، صور فراو إلسي وحيدة في الممر بين المغسل والمطبخ، صور كلاريتا المسكينة خارجة من عملها من باب الخدمة، متعبة وهزيلة مثل عصا مكنسة. كان الماء أسود ويصل الآن حتى رسغيَّ. نوع من الشلل كان يمنعني من أن أُحرّك ذراعيّ، رجليَّ، بحيث لم يكن باستطاعتي أن أُعيد تنظيم فيشي على الخريطة ولا أن انطلق جارياً خلف المحروق. الزهر أبيض مثل القمر كان اليَكّ مقلوباً إلى الأعلى. كان باستطاعتي أن أُحرّك رقبتي وأن أتكلّم (على الأقل أن أتمتم)، لكن أكثر قليلاً. سرعان ما اختطف الموجُ الرقعةَ عن الحاجز وبدأت هذه مع تجمّع القوات والفيش تطفو وتبتعد عنّي. إلى أين ستذهب؟ هل نحو الفندق أو نحو الجزء القديم من البلدة. هل سيعثر عليها أحد ذات يوم؟ وإذا ما حدث هذا هل سيكونون قادرين على أن يعرفوا أنّ تلك الخريطة هي خريطة معارك الرايش الثالث، وأنّ تلك

الفيش هي ألوية الرايش المدرعة، والمشاة، والطيران، والبحرية؟ طبعاً لا. الفيش، أكثر من خمسمئة، سوف تطفو معاً في الدقائق الأولى، بعدها حتماً ستتفرق حتى تضيع في قاع البحر، الخريطة وتجمع القوات الأعظم سوف تُظْهِرُ مقاومة بل وهناك احتمال أن يحصرها الموجُ بين الصخور حيث ستتفسّخ بوداعة. فكّرت والماء إلى عنقي في أن الأمرَ يتعلّق أوّلاً وأخيراً بقطع كرتون. لا أستطيع أن أقول إنّني كنتُ متضايقاً. كنتُ أنتظر هادئاً، دون أمل بإنقاذي، اللحظةَ التي سيغمرني فيها الماء. عندها انبثقتْ في المنطقة المضاءة بمصابيح الشارع زلاجاتُ المحروق. راحت تنزلق متخذةً واحداً من التشكيلات العديدة على شكل إسفين (زلاجة في المقدمة، ستة في رتل ثنائي في القاع وثلاثة تغلق المسيرة) بلا ضجيج متزامنة وأنيقة على طريقتها، كما لو أنّ الطوفان كان اللحظة الأنسب لعرض عسكري. مرّة وأخرى دارت في ما كان من قبل الشاطئ دون أن تستطيع نظرتي الذاهلة أن تنفصل عنها ثانية واحدة؛ إذا كان هناك من يُحرّكها ويوجّهها فلا شك هي أرواح، فأنا لم أرَ أحداً. أخيراً ابتعدت، ليس كثيراً، داخل البحر ونوّعت التشكيل. هي الآن مرتبة في صفّ متعرّج وبطريقة غامضة قليلاً لا تتقدّم، لا تتراجع، بل ولم تكن تتحرّك في بحر المجانين ذاك الذي تُضيئه عاصفة البروق في البعيد. من موقعي فقط كنت أستطيع أن ألمحَ فرطوس الأوّل، كان التشكيل الجديد المتخذ في غاية الكمال، راقبتُ، دون أن ينتابني شكّ كيف كانت الزلاجات تشقّ الماء وتبدأ التحرُّك من جديد. كانت قادمة مباشرة نحوي! لم تكن سريعة جدّاً، لكنّها حاسمة وثقيلة مثل سفن جوتلاند المدرعة القديمة. استيقظتُ تماماً قبل أن تسحقَ رأسي عوّامةُ الزلاجة الأولى، التي تلتها التسع الباقية.

كان كونراد على حق، ليس في أنّه أصرّ على أن أعود، بل حين رسم وضعي كنتيجة لخللٍ عصبي. لكن دعونا من المبالغة، فالكوابيس

لم تكن يوماً غريبة عنّي؛ الوحيد المسؤول هو أنا وربّما الأحمق تشارلي لأنّه مات غرقاً. على الرغم من أنّ كونراد كان يرى الخلل في أنها كانت المرّة الأولى التي كنتُ أخسر فيها لعبة الرايش الثالث. إنّني أخسر، صحيح، لكن دون أن أهجر لعبي النظيف، على سبيل المثال أطلقت عدّة قهقهات. (خسرت ألمانيا، بحسب كونراد، باللعب النظيف، والبرهان هو أنّها لم تستخدم الغازات السامّة، ولا حتى ضدّ الروس، ها ها ها).

قبل أن أغادر سأل المنقذ أين قُبر تشارلي. قلت له ليست لديّ فكرة. نستطيع أن نزور قبره ذات مساء، اقترحَ. أستطيعُ أن أتحقّق من ذلك في قيادة البحرية. الشكّ بأنّ تشارلي يمكن أن يكون مقبوراً في البلدة استقرّت في رأسي، مثل قنبلة موقوتة. لا تفعل ذلك، قلت له. كان المنقذُ، لاحظت ذلك عندئذٍ، سكران ومُثاراً. علينا، أكّد على هذه الكلمة، أن نُقَدِّم لصديقنا آخر تكريم. لم يكن صديقك، غمغمتُ. سيّان، كما لو كان، نحن الفنانين أخوة أنّى كنّا، أحياء أو أمواتاً، دون حدود للعمر ولا للزمن. الاحتمال الأكبر هو أن يكونوا قد أرسلوه إلى ألمانيا، قلتُ. امتقع وجه المنقذ، أطلق بعدها قهقهة عميقة كادت ترمي به على ظهره. كذبة منتنة! إنّهم يرسلون بطاطا وليس الموتى، وخاصة في *الصيف*. صديقنا موجود هنا، أشارت سبّابتُهُ إلى الأرض، بحركة لا تقبل الردّ. اضطررت لأن أسنده من كتفيه وآمره أن يذهب لينام. كان يصرّ على أن يرافقني إلى الشارع بحجّة أنّني قد أجد الباب الرئيسيّ مغلقاً. وغداً أُحقّق أين قبروا أخانا. لم يكن أخانا، كرّرتُ مُتعباً، بالرغم من أنّني كنتُ أدرك أنّ عالمه، في تلك اللحظة الدقيقة ومن يدري بسببِ أيِّ تشوّهٍ مريع، كان مُكوّناً منّا نحن الثلاثة حصراً، الأشخاص الوحيدين في محيط هائل ومجهول. تحت هذا النور الجديد كان المُنقِذ يكتسب ميزات بطلٍ ومجنون. نظرتُ، ونحن واقفان في بسطة الدرج، إلى وجهه

فشكرتْ نظرتُهُ البلورية نظرتي دون أن تفهمها على الإطلاق. بَدَوْنا شجرتين، لكنّ المنقذ بدأ يُحرّك يديه باتجاهي. مثل تشارلي. عندها قرّرتُ أن أدفعه، لأرى ما كان سيحدث وحدث الأنسبُ: سقط المُنقذُ على الأرض ولم ينهض بعدها، منكمشَ الرجلين ووجهه نصف مغطى بإحدى ذراعيه، الذراع البيضاء، كذراعي، لم تمسها الشمس. هبطتُ بعدها الدرج وعدتُّ إلى الفندق وعندي متسع من الوقت كي أستحمّ وأتعشى.

ربيع ١٩٤٣ يدخل المحروق متأخّراً قليلاً عن المعتاد. الحقيقة أنّ برنامج وصوله كان يتأخّر أكثر قليلاً يوماً بعد يوم. إذا ما استمرّ هكذا سوف نبدأ لعبة الشوط الأخير في السادسة صباحاً. هل ينطوي هذا على معنى معيّن؟ في الغرب أخسرُ آخرَ سداسيّ أضلاع لي في إنكلترا. المعطيات استمرّت لصالحه. في الشرق خطّ الجبهة يجري على طول تالين ـ فيتيبسك ـ سمولينسك ـ بريانسك ـ خاركوف ـ روستوف ومايكوب. في المتوسط أدرأ هجوماً أمريكياً على وهران، لكنّني لا أستطيع أن أنتقل إلى الهجوم؛ في مصر كلّ شيء كما كان، تستمرّ الجبهة في سداسيي الأضلاع إل إل٢٦ وإم إم ٢٦، إلى جانب مُنخفض القطّارة.

١٨ أيلول

مثل شعاع نور تظهر فراو إلسي في نهاية الممر. استيقظت توّاً وأنا في طريقي إلى تناول الفطور، لكنّ المفاجأة جمّدتني كحجر.

ـ كنتُ أبحث عنك ـ تقول مقبلة للقائي.

ـ في أي مكان لعين حشرتِ نفسك؟

ـ في برشلونة، مع العائلة، زوجي ليس في وضع حسن، أنتَ تعرف ذلك، لكنّك أيضاً لست في وضع جيّد وسوف تُصغي إليّ.

أدخلها إلى غرفتي. رائحة كريحة، رائحة تبغ وجوّ مغلق. حين أفتح الستائر تجعلني الشمس أرمش متألماً. تراقب فراو إلسي أوراقَ المحروق المنسوخة الملصقة على الجدار؛ أظنّ أنّها ستؤنّبني لأنّ ذلك يتعارض مع قوانين الفندق.

ـ هذا استهتار ـ تقول، ولا أدري ما إذا كانت تقصد أوراق المحروق المنسوخة والملصقة على الجدار أم تقصد إرادتي بعرضها.

ـ إنها جرائد حائط المحروق.

تدور فراو إلسي. عادتْ، إذا كان هذا ممكناً، أكثرَ جمالاً مما كانت قبل أسبوع.

ـ هل هو من وضعها هنا؟

ـ لا، أنا. المحروق أهداها لي و... قررت أنّ من الأفضل ألا أُخبّئها، النسخ بالنسبة إليه مثل ديكور لعبتنا.

ـ أي نوع من اللعب المريع هذا؟ لعبة الاستعطاف؟ يا لعدم اللباقة.

عظما وجنتي فراو إلسي ربّما شُحذا قليلاً خلال غيابها.

ـ معك حق، عدم لباقة، على الرغم من أنّ الذنب في الواقع هو ذنبي، أنا أوّل من استعمل النسخ؛ طبعاً نسخي كانت مقالات عن اللعب؛ بما أنّها من المحروق فهذا شيء متوقّع، كلّ واحد يتوجّه كيفما يستطيع.

ـ مُقَرّ في اجتماع مجلس الوزراء يوم ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٨ ـ قرأتْ بصوتها العذب وحسن التوقيع ـ. أنت، يا أودو ألا يقلب لك معدتك؟

ـ أحياناً ـ قلتُ دون أن أبغي أن أُعظم نفسي. تبدو فراو إلسي في كلّ مرّة أكثر توتراً ـ. التاريخ عامّة ما يكون شيئاً دامياً. علينا الاعتراف بذلك.

ـ لم أكن أتكلّم عن التاريخ، بل عن ذهابك وإيابك. أنا لا يعنيني التاريخ، ما يعنيني فعلاً هو الفندق وأنت. أنت هنا عنصر مزعج ـ بدأتْ تنتزع الصور المنسوخة بكثير من الحذر.

افترضت أنّه لم يكن الحارس وحده من كان يشي لها. تراها كلاريتا أيضاً؟

ـ سآخذها معي ـ قالت وظهرها إليّ وهي ترفع النسخ ـ. لا أريدك أن تعاني.

سألتها عمّا إذا كان هذا هو كلّ الذي كان عليها أن تقوله لي. تتأخّر فراو إلسي في الردّ، تُحرّك رأسها، تقترب وتطبع قبلة على جبيني.

ـ تُذكّرينني بأمّي ـ قلتُ.

بعينين مفتوحتين طبعت فراو إلسي قبلة على فمي. والآن؟ دون أن أعرف ما كنتُ أفعل أخذتها بين ذراعيّ ووضعتها على السرير. راحت فراو إلسي تضحك. رأيت كوابيس، قالت، لا شكّ، لا شكّ مستوحية

ذلك من الفوضى التي كانت تسود الغرفة. ضحكتها، حتى ولو لامست الهستيريا، كانت شبيهة بضحكة طفلة. كانت تُداعب شعري بيد وتتمتم بكلمات غير مفهومة وحين استلقيت بجانبها شعرت على خدّي بالتباين بين برودة قماش قميصها وبشرتها الدافئة وناعمة الملمس. فكّرتُ للحظة في أنّها ستستسلم أخيراً، لكنّها حين أدخلتُ يدي تحت تنورتها كي أنزل سروالها انتهى كلّ شيء.

ـ ما زال الوقت باكراً ـ قالتْ وهي تجلس على السرير كما لو أنّ نابضاً دفعها بقوّة لا توصف.

ـ نعم ـ اعترفتُ ـ الآن استيقظتُ، لكن ما همّ؟

تنهض فراو إلسي تماماً وتغيّر الموضوع بينما يداها التامّتان والسريعتان! تسوّيان لباسها ككائنين مفصولين تماماً عن جسدها. وتنجح بدهاء في جعل كلماتي ترتدّ ضدّي. الآن استيقظتُ؟ هل كنت أعرف كم كانت الساعة، هل يبدو لي سليماً أن أنهض متأخّراً هكذا؟ ألم أكن أنتبه إلى الإرباك الذي كان يُسبّبه هذا في خدمة الغرف؟ ترافق خطابها برفس متقطّع للملابس المرمية على الأرض وبوضع الصور المنسوخة في حقيبتها.

أخيراً بقي واضحاً أنّنا لن نمارس الحبَّ وأنّ عزائي الوحيد كان تأكّدي من أنها لم تكن مطلعة على علاقتي مع كلاريتا.

عندما تودّعنا في المصعد اتفقنا على أن نلتقي في هذا المساء في ساحة الكنيسة.

مع فراو إلسي في مطعم بلايامار، على طريق داخلي يبعد عن البحر قرابة خمسة كيلومترات، التاسعة ليلاً.

ـ زوجي مصاب بالسرطان.

ـ هل هو خطير؟ ـ قلتُ وأنا متأكّد تماماً من أنّني أسأل سؤالاً مثيراً للسخرية.

ـ قاتل ـ نظرت فراو إلسي إليَّ كما لو أنّ زجاجاً مضاداً للرصاص يفصلُ بيننا.

ـ كم بقي له من الزمن؟

ـ قليل. ربّما لن يتخطّى الصيف.

ـ لم يبق كثير كي ينتهي الصيف... على الرغم من أنّ الطقس الحسن سوف يستمرّ حتى تشرين الأوّل ـ أتمتم.

تضغطُ يدُ فراو إلسي على يدي من تحت الطاولة. نظرتها على العكس تضيعُ في البعيد. توّاً بدأ الآن الخبر يأخذ شكله في رأسي؛ الزوج يُحتضَر؛ هو ذا التفسير أو المحفّز لكثير من الأمور التي تحدث في الفندق وخارجه. موقفُ جذبٍ ورفضِ فراو إلسي الغريب. مستشار المحروق الغامض، انتهاكات غرفتي والحضور المراقِب الذي أحدس به في الفندق. تحت هذا الموشور، هل كان الحلم مع أنفلرويان ليندين تحذيراً من لاشعوري كي أحذَرَ زوجَ فراو إلسي؟ الحقيقة أنّ من المخيّب للآمال أن نحصر كلّ شيء بمسألة الغيرة.

ـ ما المشترك بين زوجك والمحروق؟ ـ أسأل بعد برهة لم يشغلها غير أصابعنا، التي تتشابكُ خفيةً: مطعم بلايامار مكان مطروق وخلال زمن قصير سلّمت فراو إلسي على عدّة أشخاص.

ـ لا شيء.

عندها أُحاول أن أقولَ لها إنّها مخطئة، وإنّهما يُخطّطان معاً لتدميري، وإنّ زوجها سرق القواعد من غرفتي كي يتعلّم المحروق اللعب جيّداً، وإنّ الاستراتيجية التي يستخدمها الحلفاء لا يمكن أن تكون ثمرة عقل واحد، وإنّ زوجها قضى ساعات في غرفتي يدرسُ اللعبة. لا

أستطيع. وبدل هذا وعدتها بأنّني لن أرحل ما لم يتضّح وضعها (أي اختفاء زوجها)، وسأبقى إلى جانبها وأن تعتمد عليّ في أيّ أمر وأنّني أتفهّم أنّها لا ترغب بممارسة الحبّ وأنّني سأساعدها كي تكون قويّة.

طريقة فراو إلسي في شكري على كلماتي هي في الضغط على أصابعي حتى تهرسها.

ـ ما الذي يجري؟ ـ أقول منفلتاً منها بأكبر قدر ممكن من السرية.

ـ عليك أنْ ترحل إلى ألمانيا. عليك أن تعتني بنفسك وليس بي.

حين صرّحت بهذا امتلأت عيناها بالدموع.

ـ أنتِ ألمانيا ـ أقول.

تُطلق فراو إلسي قهقهة ساحرة، رنّانة قويّة تشدّ إلى طاولتنا نظرات جميع من في المطعم. أنا أيضاً أختارُ أن أضحك برغبة: أنا رومانسي مزمن. متحذلق مزمن، تُصَحِّحُ هي. معكِ حقّ.

عند العودة أوقفُ السيارة في نوع من النزل، في طريق رملي يصل إلى غابة صنوبر حيث توجد طاولات حجرية ومقاعد وصناديق قمامة موزّعة بطريقة فوضوية. عندما أنزلت زجاج النافذة سمعنا موسيقى بعيدة حدّدت فراو إلسي أنّها صادرة عن مرقص في البلدة. كيف يمكن ذلك والبلدة بعيدة جدّاً. نزلنا من السيارة، تأخذني فراو إلسي من يدي حتى درابزين إسمنتي. النزل في أعلى تلّ ومن هناك تُشاهَدُ أنوارُ الفنادق وإعلانات الشوارع التجارية النيونية. أحاول أن أُقبّلها، فتنكر فراو إلسي عليّ شفتيها. بشكل مناقض هي من يأخذ في السيارة بزمام المبادرة. بقينا ساعة نتبادل القبل ونسمع موسيقى من الإذاعة. النسمة الرطبة التي كانت تدخل من النوافذ شبه المنزلة كانت محمّلة برائحة أزهار وأعشاب عطرية وكان المكان مثالياً لممارسة الحبّ، لكنّني فضّلت ألا أتقدّم أبداً في ذلك الاتجاه.

حين أنتبه أجد أنّ الساعة تجاوزت الثانية عشرة ليلاً، ومع ذلك لم تُظهر فراو إلسي، المحمرّة الخدين من كثرة ما قبلتها وقبّلتني، استعجالاً للعودة.

على درج مدخل الفندق نجد المحروق. صففتُ السيارة في الكورنيش وهبطنا معاً. لم يرنا المحروق حتى أوشكنا أن نصبح فوقه. كان رأسه غائراً بين كتفيه وينظرُ إلى الأرض بشرود، على الرغم من حجم ظهره فإن الانطباع الذي كان يعطيه من بعيد هو انطباع أنّه ظهر طفل ضائع بشكل غير مبرر. مرحباً، قلتُ محاولاً أن أشفّ عن فرح على الرغم من أنّ حزناً ضبابياً وملحّاً حلّ في روحي منذ أن هبطنا أنا وفراو إلسي من السيارة. رفع المحروقُ عينيه الضأنيتين وقال لنا ليلة سعيدة. لأوّل مرّة، وإن كان لوقت قصير، بقيت فراو إلسي بجانبي، كلانا واقف كما لو أنّنا خطيبان وما يثير الاهتمام عند أحدنا يُثيره عند الآخر. هل أنت هنا منذ وقت طويل؟ نظر إلينا المحروق وهزّ كتفيه. كيف يسير العمل؟ سألته فراو إلسي. عاديّ. أطلقت فراو إلسي أفضل ضحكاتها، ضحكتها البلورية، التي كانت تُحَلّي الليل:

ـ أنت آخر من يترك الموسم. هل عندك عمل للشتاء؟

ـ ليس بعد.

ـ إذا أردنا أن ندهن البار سأخبرك.

ـ اتفقنا.

شعرتُ بقليل من الحسد: كانت فراو إلسي تعرف كيف تُكلّم المحروق، هذا ما لا مجال للشك فيه إطلاقاً.

ـ تأخّر الوقت وغداً عليّ أن أستيقظ باكراً. ليلة سعيدة. من الدرج رأينا كيف توقّفت فراو إلسي في مكتب الاستقبال لحظةً، حيث من المحتمل أنّها تكلّمت مع أحدٍ ما، وتابعت بعدها في الممر شبه المظلم، انتظرت المصعد، اختفت...

ـ ماذا سنفعل الآن ـ أفزعني صوتُ المحروق.

ـ لا شيء. ننام. سنلعب في يوم آخر ـ قلتُ بقسوة.

تأخّر المحروق في هضم كلماتي. سأعود غداً، قال بنبرة لاحظتُ فيها امتعاضاً. نهض بقفزة واحدة مثل رياضيّ. بقينا برهة يراقب واحدنا الآخر كما لو أنّنا عدوّان لدودان.

ربّما غداً ـ قلتُ محاولاً أن أسيطر على الرعشة المفاجئة في ساقيّ والرغبة بالانقضاض على رقبته.

في عراك نظيف قد تكون القوّتان شبه متعادلتين. هو أثقل وأقصر منّي وأنا أرشق وأطول؛ كلانا طويل الذراعين؛ هو معتاد على الجهد الجسديّ، إرادتي أفضل سلاح عندي. ربّما كان العامل الحاسم هو مكان العراك. على الشاطئ؟ يبدو المكان الأنسب، على الشاطئ وفي الليل، لكن هناك أخشى أن يكون التفوق لصالح المحروق. أين، إذن؟

ـ إذا لم أكن مشغولاً ـ أضفتُ بازدراء.

اعتبر المحروقُ الصمتَ جواباً وذهب. حين عبر الكورنيش التفتَ كما لو كي يتأكّد من أنّني ما أزال على الدرج. حبذا لو أنّ سيّارة انبثقت في تلك اللحظة من الظلمة بسرعة مئة وخمسين كيلومتراً في الساعة.

من الشرفة لا يُلمح أدنى لمعان في حصن الزلاجات. طبعاً أنا أيضاً أطفأتُ أنواري باستثناء نور الحمّام. المصباح فوق المرآة يسكب سطوعاً مائياً ينير بصعوبة قطعةً من الموكيت من خلالِ الباب الموارب.

لاحقاً أُشعلُ الأنوار من جديد بعد أن أُغلِقَ الستائرَ، وأدرسُ واحداً فواحداً جوانبَ وضعي. إنّني أخسر الحربَ. بالتأكيد خسرتُ عملي. كلُّ يوم يمرّ يُبعد إنجيبورغ أكثر قليلاً عن الصلح المستبعد. يتسلى زوج فراو إلسي في احتضاره بكراهيتي، بحصاري ببراعةِ مريضٍ في مراحله الأخيرة. أرسل إليّ كونراد قليلاً من النقود. المقال الذي فكّرتُ في

الأصل في أن أكتبه في فندق البحر مُبعد ومنسيّ... المشهد العام ليس مُشجّعاً.

في الثالثة فجراً استلقيتُ دون أن أخلع ملابسي وأخذت كتاب فلوريان ليندين من جديد.

استيقظت على ضغطٍ في صدري قبل الخامسة بقليل. لم أكن أعرف أين كنتُ وكلّفني بضع ثوانٍ إدراك أنّني كنتُ ما أزال في البلدة.

وكلّما اختفى الصيف أكثر (أريد أن أقول، كلّما اختفت مظاهره أكثر) راحت تُسمع في فندق البحر أصوات لم نكن قبلها نظنّ أنّها موجودة: القساطل تبدو الآن فارغة وأكبر. ضجيج المصعد العادي والأخرس أفسح المكان للقشط والجري بين فراغ الجدران. الريح التي تهزّ إطار ومفاصل النافذة هي في كلّ ليلة أقوى. حنفيتا المغسلة تُخشخشان وتهتزّان قبل أن تفلتا الماء. حتى رائحة الممرِ المعطرّ برائحة الخزامى الصناعي تتراجع بسرعة أكبر وتكتسب نتناً يُثير السعال الرهيب في ساعات الفجر المتقدّمة.

يلفت الانتباه هذا السعال، تلفت الانتباه تلك الدوسات الليلية التي لا تتمكن السجاجيد من امتصاصها كلّياً.

لكن ماذا سترى إذا ما أطللت على الممر الفارغ في الظلمة؟ لا شيء.



١٩ أيلول

حين أستيقظ أجد كلاريتا في الغرفة، عند قدم السرير بلباس العاملة الموحّد تنظر إليّ. لا أدري لماذا أسعدني حضورها. أبتسم وأطلب منها أن تدخل معي في الفراش، على الرغم من أنّني قلتُ ذلك بالألمانية دون أن أنتبه. الطريقة التي تفهمني بها كلاريتا لغز، الصحيح أنّ أوّل ما تفعله هو أنّها تُغلق البابَ من الداخل، ثمّ تقبع بجانبي، دون أن تخلع شيئاً، غير الحذاء. كما في المرّة السابقة كانت تفوح من فمها رائحة تبغ أسود، وهو بالنتيجة جذّاب جدّاً في امرأة صغيرة مثلها. بحسب العادات يجب أن يصدر عن شفتيها طعم سجق وثوم، أو علكة نعناع. يسعدني أنّ الأمر ليس كذلك. حين أركبها تنشمر تنورتها حتى خصرها ولولا أنّ ركبتيها اللتين تضغطان على فرائصي بلهفة لقلتُ إنّها لا تشعر بشيء. ما من آهة، ولا همسة. تُمارس كلاريتا الحبّ بأكثر الطرق حشمة في العالم. عندما ننتهي، أسألها كما في المرّة السابقة عمّا إذا استمتعت. تُجيب بحركة من رأسها بالإيجاب وتقفز على الفور خارج السرير، تُمَسِّدُ تنورتها، تلبسُ سروالها الداخلي وحذاءها وبينما أنا أتوجّه إلى الحمّام لأغتسل، تبدأ هي بترتيب الغرفة بكفاءة، حذرةً فعلاً كيلا تُطيّر أيَّ فيشة.

ـ هل أنت نازيّ؟ ـ أسمع صوتها بينما أنا أُنظف قضيبي بالورق الصحّي.

ـ ماذا قلت؟

ـ ما إذا كنت نازيّاً.

ـ لا، لستُ نازياً. بالأحرى أنا أقرب لمعاداة النازية. ما الذي يجعلك تُفكّرين في هذا، اللعبة؟ ـ على علبة الرايش الثالث رُسمت بعض الصلبان المعقوفة.

ـ الذئبُ حكى لي أنّك نازيّ.

ـ مُخطئ الذئب ـ أدخلتها إلى الحمّام كي أتابع الكلام معها بينما أنا أستحمّ. يبدو لي أنّ كلاريتا من الجهل بحيث إنّها ستُصدّقني إذا ما قلتُ لها إنّ النازيين يحكمون مثلاً في سويسرا.

ـ أما من أحد يستغرب أنّك تتأخرين إلى هذا الحد في ترتيب غرفة؟ ألا ينتبه أحد إلى غيابك؟

كلاريتا جالسة على جرن المرحاض منحنية الظهر، كما لو أنّ النهوض من السرير يسبب الوقوع في مرض مجهول. مرض مُعدٍ؟ الغرف تُرتب عادة في الصباح، تُعلمني. (أنا حالة خاصّة) هي لا أحد يتفقّدها ولا أحد يُراقبها، يكفيها ما عندها من عملٍ وقلةِ راتب حتى تتحمّل فوق ذلك المراقبة. ولا حتى فراو إلسي؟

ـ فراو إلسي مختلفة ـ تقول كلاريتا.

ـ لماذا مختلفة؟ هل تتركك تفعلين ما تشائين؟ هل تغضّ الطرف عن مسائلك؟ هل تحميك؟

ـ مسائلي هي مسائلي، أليس كذلك؟ ما علاقة فراو إلسي بمسائلي؟

ـ عنيت ما إذا كانت تغضّ الطرف عن ورطاتك، عن مغامراتك الغرامية.

ـ فراو إلسي تفهم الناس ـ لا يكاد صوتها الغاضب يرتفع فوق صوت ماء المرذاذ.

ـ هل هذا يجعلها مختلفة؟

كلاريتا لا تردّ. أيضاً لا تنوي أن تغادر. بقينا ساكنين، تفصل بيننا

الستارة البلاستيكية البيضاء القبيحة بطاراتها الصفراء، كلانا مترقّب، شعرت بحزن عميق تجاهها وبرغبة بمساعدتها. لكن كيف يمكنني أن أساعدها إذا كنتُ غير قادرِ على مساعدة نفسي.

ـ إنّني أُضايقكِ، اعذريني ـ قلتُ عند خروجي من تحت المرذاذ.

جسدي المعكوس جزئياً في المرآة وجسد كلاريتا المتكور بشكل غير ملحوظ فوق جرن المرحاض كما لو أنّ الأمر لا يتعلّق بفتاة (كم كان عمرها، ستّ عشرة سنة؟) بل بجسد عجوز هو في كلّ مرّة أبرد، نجحا متراكباً الواحدُ منهما فوق الآخر أن يؤثّرا بي حتى البكاء.

ـ أنت تبكي ـ ابتسمت كلاريتا ببلاهة. مررت بالمنشفة على وجهي وشعري وخرجت من الحمّام كي أرتدي ملابسي. خلفي بقيت كلاريتا تمسح بالممسحة البلاط المبلل.

ـ في جيب من جيوب بنطلون الجينز كان معي ورقة من فئة الخمسة آلاف بيزيتا، لكنّني لم أجدها. جمعت كيفما استطعت ثلاثة آلاف قطعة معدنية قليلة القيمة وأعطيتها لكلاريتا. قبلت هذه النقود دون أن تقول شيئاً.

ـ أنت، التي تعرفين كلّ شيء، يا كلاريتا ـ أخذتها من خصرها كما لو كي أبدأ مغازلتَها من جديد ـ هل تعرفين في أيّ غرفة ينام زوجُ فراو إلسي؟

ـ في أكبر غرفة في الفندق. الغرفة المظلمة.

ـ مظلمة، لماذا؟ ألا تدخلها الشمس؟

ـ الستائر دائماً مُسدلة. السيّد مريض جدّاً.

ـ هل سيموت، يا كلاريتا؟

ـ بلى، ما لم تقتله أنت قبل ذلك.

لدافعٍ ما أجهل سببه، توقظ كلاريتا عندي غرائز بهيمية. حتى الآن

أحسنتُ التصرّف معها، لم أؤذها قط. لكنّها تملك، بمجرّد حضورها، القدرةَ الغريبة على نبش الصور النائمة في روحي. صور صغيرة ورهيبة مثل صواعق، أخافها وأهرب منها. كيف أتجنّب هذه القوّة القادرة بشكل مباغت على أن تفلت من عقالها في داخلي؟ أأركعها بالقوّة وأجبرها على أن تمصّ لي قضيبي وإستي؟

ـ طبعاً أنت تمزحين.

ـ بلى، هي مزحة ـ تقول ناظرةً إلى الأرض بينما قطرة عرق في توازن تام تنزلق حتى زهرة أنفها.

ـ قولي لي إذن أين ينام سيّدُك.

ـ في الطابق الأوّل، في عمق الممر، فوق المطبخ... من المحال أن يضيع أحد...

أهتف بعد الغداء إلى كونراد. لم أخرج اليوم من الفندق. لا أريد أن ألتقي بالمصادفة (إلى أيّ حدّ هي مصادفة) بالذئب والخروف، أو بالمُنقِذ، أو بالسيّد بيري... لم يبدُ كونراد كما في المناسبات السابقة، مُفاجَأً بمكالمتي. أكتشف في صوته مسحةَ تعبٍ كما لو أنّه يخشى أن يسمع بالضبط ما كنتُ سأطلبه منه. من المفروغ منه أنّه لا يُنكر عليّ شيئاً. أحتاج لأن يُرسل لي مالاً وسيفعل. أطلب أخباراً عن ستوتغارت، كولونيا، عن التحضيرات، فيقدمها هو بإيجاز، دون أن يُضيف التعليقات اللاذعة والماكرة، التي كنتُ أحبّها كثيراً. لا أدري لماذا أخجل من السؤال عن إنجيبورغ. عندما أستجمع قواي وأفعل لا يفعل الجواب شيئاً آخر غير أنّه يغمّني. ينتابني شكّ غامض بأنّ كونراد يكذب. انعدام الفضول عنده عَرَضٌ جديد؛ لا يرجوني أن أعود، ولا يسأل عن مباراتي. اطمئن، يقول لي في لحظة معينة، وهو ما يجعلني أستنتج أنّ

الحديث لم يخلُ عندي من التقلبات، غداً سأحوّل لك النقود. أشكره. كاد وداعنا يكون تمتمة.

أعود لألتقي بفراو إلسي في أحد ممرات الفندق. نتوقّف بارتباك حقيقيّ أو مُفتعل، ما همّ، على مسافة خمسة أمتار بين الواحد والآخر واليدان على الخصرين، شاحبين، حزينين، نبلغ بالنظر بعضَنا بعضاً بالخيبة التي نشعر بها في قرارة ذهابنا وإيابنا. كيف حال زوجك؟ تُشير فراو إلسي بيدها إلى شعاع النور تحت الباب، أو ربّما إلى المصعد، لا أدري. فقط أعرف أنّني محمول بدافع جامح ومؤلم (دافع يتولّد في معدتي التي صارت مزقاً) قَصَّرْتُ المسافةَ وعانقتها دون خوف من أن نُكتَشَف، دون أيّ رغبة أخرى غير أن أنصهر فيها، هي التي لا تكاد تُبدي مقاومة، ثواني أو حياةً بكاملها. يا أودو، هل أنت مجنون؟ تكاد تكسرُ لي ضلعاً. خفضت رأسي واعتذرت. ماذا حدث لك في شفتيك؟ لا أدري. حرارةُ أصابعِ فراو إلسي التي تستريح على شفتَيّ تحتَ الصفر فأنتفضُ. إنّهما تنزفان، تقول. تواعدنا، بعد أن وعدتها بأنّ أداويهما في الغرفة بأن نلتقي بعد عشر دقائق في مطعم الفندق. أنا أدعو، قالت فراو إلسي العارفة بضيق حالتي الاقتصادية. إذا لم تكن هناك خلال عشر دقائق سأرسل نادلين من أكثر النُّدُل وحشية ليبحثا عنك. سأكون هناك.

صيف ١٩٤٣ إنزال أنجلو-أمريكي في دييبّ وكاليه. لم أتوقّع أن ينتقل المحروق إلى الهجوم بتلك السرعة. من الواضح أنّ رؤوس الشاطئ المكتسبة ليست قويّة جدّاً؛ لقد وضع قدماً في فرنسا، لكن ما يزال يصعب عليه أن يثبت أقدامه ويتوغّل. الوضع في الشرق يزداد سوءاً، فبعد انسحاب استراتيجي جديد ثبتت الحدود بين ريغا ومينسك، كييف وسداسيات الأضلاع كيو ٣٩، آر ٣٩ وإس ٣٩. تنتقل دنيبروبيتروفسك إلى سلطة الحمر. يملك المحروق تفوّقاً جوّياً في روسيا

كما في الغرب. الوضع في أفريقيا والمتوسّط ما يزال دون تغييرات، على الرغم من أنّ هذا سيكون مختلفاً تماماً في الجولة القادمة. تفصيل غريب: غفوتُ بينما كنّا نلعب. كم من الوقت؟ لا أدري. لمس المحروقُ كتفي مرّتين وقال استيقِظْ. عندها استيقظتُ فجافى النوم بعدها أجفاني.

٢٠ أيلول

غادرتُ الغرفة في السابعة صباحاً. كنتُ قد بقيت ساعة جالساً في الشرفة أنتظرُ الفجر. حين طلعت الشمسُ أغلقتُ الشرفةَ وأسدلتُ الستائر وبحثتُ واقفاً في الظلمة ويائساً عن شغل أقتل به الوقت. أن أستحمّ. أُبدّل ثيابي؟ بدت لي تمارين رائعة كي أبدأ النهار، لكنّني بقيتُ هناك، جامداً وسط تنفّسي المضطرب. من بين الستائر الشفافة بدأ نور النهار يتسرب. عدتُ وفتحتُ الشرفة ونظرتُ برهة طويلة إلى الشاطئ وهيكل حصن الزلاجات المشوّش. سعداء من لا يملكون شيئاً. سعداء من بهذه الحياة يكسبون روماتيزماً مُستقبليّاً ويحالفهم الحظّ بالزهر ويذعنون لأنّ لا يكون لديهم نساء. ما من نفس تَتَجَوّل على الشاطئ في تلك الساعات، على الرغم من أنّني سمعتُ أصواتاً صادرة عن شرفة أخرى، نقاشاً بالفرنسية. وحدهم الفرنسيون قادرون على أن يتكلّموا بصوت عالٍ قبل السابعة. أسدلتُ مرّة أخرى الستائر وحاولت أن أتعرى لأدخل إلى الحمّام. لم أستطِع. بدا نورُ الحمّام نورَ قاعة تعذيب. فتحت الحنفيةَ بجهدٍ وغسلتُ يديَّ. حين حاولتُ أن أُبلّل وجهي اكتشفت أنّ ذراعيّ متيبّستان فقررت أن من الأفضل أن أؤجل ذلك إلى ما بعد. أطفأت النورَ وخرجتُ. كان الممرّ مقفراً ومضاء في أطرافه فقط بمصابيح شبه مخفية يصدر عنها وهج ضعيف مصفرّ. هبطتُ الدرجَ دون أن أُحدث جلبة حتى وصلت إلى بسطة الطابق الأسفل الأولى. من هناك استطعت أن أرى في المرآة الضخمة قفا عنق الحارس الليلي الذي يبرز فوق حافة طاولة

مكتب الاستقبال. لا شكّ في أنه كان نائماً. عدت وقطعت المسافة حتى الطابق الأوّل، حيث انعطفت نحو العمق (الاتجاه الشمالي الغربي)، مصغياً كي أسمع الأصوات المميزة للمطبخ، على افتراض أنّ الطباخين وصلوا، الأمر المشكوك فيه كثيراً. كان صمت عبوري في الممر في البداية تامّاً، لكن ومع توغّلي بدأت أميّز شخيراً ربوياً راح يكسرُ مع فواصل قصيرة رتابةَ الأبواب والجدران. حين وصلت إلى النهاية توقّفتُ، كان هنا أمامي باب خشبيّ مع لوحة مرمر في الوسط تنشر بأحرف سوداء قصيدة (أو هكذا ظننتُ) من أربعة أبيات، لم أفهم معناها. أسندتُ يدي منهكاً إلى عضادة الباب ودفعت إلى الأمام. فُتح البابُ دون أدنى عائق. تلك كانت الغرفة الكبيرة، المعتمة كما وصفتها كلاريتا. فقط كان باستطاعتي أن أميّز طيف نافذة وكان الهواء مشحوناً، وإن لم أشعر برائحة أدوية. كنتُ أستعدّ لأن أغلق الباب الذي سبق أن فتحته بخوف شديد حين سمعتُ صوتاً انبثق من كلّ الزوايا ولم ينبثق من أيّ منها. صوت كان يلخّص فضائل متناقضة: مثلجة وحارّة، متوعّدة وحميمة:

ـ ادخل ـ كان يتكلّم بالألمانية.

خطوت بضع خطوات دون هداية متلمساً ورق الجدران، بعد أن انتصرتُ على لحظة تردّد أغوتني كي أغلق فجأة وأهرب.

ـ من أنت؟ ادخلْ. هل أنت بخير؟ ـ جاء الصوت كأنّه خارج من آلة تسجيل على الرغم من أنّني كنتُ أعرف أنّ زوجَ فراو إلسي هو من كان يتكلّم متربّعاً على عرش سريره الهائل والخفيّ.

ـ أنا أودو بيرغير ـ قلتُ واقفاً في الظلمة. خفتُ إذا ما تابعتُ تقدّمي أن أرتطم بالسرير أو بقطعة أثاث أخرى.

ـ آه، الشاب الألماني، أودو بيرغير، أودو بيرغير، هل أنت بخير؟

ـ بلى، تماماً.

من زاويةٍ في الغرفة لا تخطرُ ببال تأتي تمتماتٌ بالموافقة. ثمّ:

ـ هل تستطيع أن تراني؟ ماذا تريد؟ إلامَ أنا مدين بشرف زيارتك.

ـ اعتقدت أنّ علينا أن نتكلّم. على الأقل أن نتعارف، نتبادل أفكاراً بشكل حضاريّ ـ قلتُ هامساً.

ـ أحسنتَ التفكير.

ـ لكنّني لا أستطيع أن أراك. لا أستطيع أن أرى شيئاً... وهكذا من الصعب إقامة حديث...

عندها سمعت جلبة جسد يزحف بين ملاحف منشاة تلاها أنينٌ وقَسَمٌ، وأخيراً أشعل على بعد ثلاثة أمتار من حيث كنتُ مصباح منضدة سرير. كان زوج فراو إلسي يبتسم مائلاً في منامة زرقاء بحرية، مزرّرة حتى العنق. هل أنت مبكّر أم أنّك لم تنم بعد؟ نمت ساعتين تقريباً، قلتُ. لا شيء في ذلك الوجه يمكن أن يُذكّر بالصورة القديمة التي تعود إلى عشر سنوات مضت. لقد شاخ بسرعة وبشكل سيّئ.

ـ هل كنتُ تريد أن تكلّمني على اللعبة؟

ـ لا، عن زوجتك.

ـ زوجتي، زَوجتي، كما ترى ليست هنا.

انتبهتُ فجأة إلى أنّ فراو إلسي غير موجودة فعلاً. انطمر زوجها تحت الملاحف حتى ذقنه بينما أنا أجوب بنظري بقية الغرفة خائفاً من مزحة فظّة أو فخّ.

ـ أين هي؟

ـ هذا، يا عزيز الشاب، شيء يجب ألا يهمّك ولا يهمّني. ما تفعله أو لغرفتي دونجتي هو شأنها هي وحدها فقط.

هل فراو إلسي بين ذراعي آخر، يا ترى؟ عشيق سرّي لم تقل عنه شيئاً؟ هل يحتمل أن يكون أحداً من البلدة، فندقّياً آخر، صاحب مطعم

بحريات؟ شخصاً أفتى من زوجها، لكنّه أكبر منّي؟ أم من الممكن أنّ فراو إلسي تقود الآن سيارتَها في طرقٍ فرعية كنوع من العلاج كي تنسى مشكلاتها؟

ـ أنت ارتكبتَ عدّة أخطاء ـ قال زوجُ فراو إلسي ـ. الخطأ الأساسي هو مهاجمتك الاتحاد السوفييتي بهذه السرعة.

لا بد أنّ نظرتي الكارهة أربكته للحظة، لكنّه سرعان ما استعاد نفسه.

ـ لو كان من الممكن تفادي الحرب ضدّ الاتحاد السوفييتي في هذه اللعبة ـ تابع ـ لما كنتُ لأبدأها: طبعاً أنا أتكلّم من المنظور الألماني. الخطأ الثاني الاستخفاف بالمقاومة التي يمكن أن تقوم بها إنكلترا، هناك أضعت وقتاً ومالاً. كان يستحق المعاناة أن تُخصّص لمحاولتك خمسين بالمئة من قوّتك، لكن هذا ما لم يكن باستطاعتك أن تسمح لنفسك به، لأنّ يديك كانتا مكبّلتين في الشرق.

ـ كم مرّة دخلت غرفتي دون علم منّي؟

ـ ليست كثيرة.

ـ ألا تخجل من الاعتراف بذلك؟ ميزاته يجب أخلاقياً أن يتسلّل صاحبُ فندق خلسة إلى غرف ضيوفه؟

ـ بحسب الحالة. كلّ شيء نسبيّ كفاية. أنت هل يبدو لك أخلاقيّاً أن تحاول أن تُطبّق زوجتي؟ ـ ابتسامة تواطؤ وخبث خرجت من تحت الملاحف واستقرّت على خدّيه ـ. ومرّاتٍ متكرّرة دون أيّ نجاح.

ـ هذا مختلف. أنا لا أُحاول أن أخفي شيئاً. تهمّني زوجتك، تهمّني صحتها. أحبّها. وأنا مستعدّ لأن أواجه أي شيء... ـ لاحظت أنّه احمرّ.

ـ دعك من الكذب. أنا أيضاً يهمّني الفتى الذي تلعب أنت معه.

ـ المحروق؟

ـ المحروق، بلى، المحروق. أنت ليس عندك أدنى فكرة عن الورطة التي دخلت فيها. فتى خطير كأفعى رقطاء.

ـ المحروق؟ هل تقول ذلك بسبب الهجومات السوفييتية. أعتقد أنّ قسماً كبيراً من ميزاته يجب أن يُعزا إليكَ أنت. في الأساس من الذي خطّ له استراتيجيته؟ من الذي نصحه أين يجب أن يُدافع وأين يجب أن يهاجم؟

ـ أنا، أَنا، أنا، لكنّ ليس كلّها. هذا الفتى ذكيّ. احترس منه! راقبْ تركيّا! انسحبْ من أفريقيا، قلِّصْ الجبهات، يا رجل!

ـ هذا ما أفعله. هل تعتقد أنّه يُفكّر في غزو تركيا؟

ـ الجيش السوفييتي يتجه لأن يُصبح في كلّ مرّة أقوى ويمكن أن يسمح لنفسه بهذا الترف. تنويع في العمليات! شخصياً لا أعتقد أنه ضروريّ، والآن حسن، ميّزة امتلاك تركيا واضحة، التحكّم في المضائق وخروج الأسطول من البحر الأسود إلى المتوسّط. إنزال سوفييتي في اليونان تتلوه إنزالات أنجلوـأمريكية في إيطاليا وإسبانيا وستجد نفسك مجبراً على أن تحبس نفسك خلف حدودك. استسلام. أخذ عن منضدة المصباح النسخَ التي كانت قد أخذتها فراو إلسي من غرفتي وهزّها في الهواء. ظهرت بقع حمراء على خدّيه. تولّد عندي انطباع بأنّه يُهدِّدني.

ـ تنسى أنّني أنا أيضاً يمكن أن أنتقل إلى الهجوم.

ـ أستلطفك! ألا تستسلم أبداً؟

ـ أبداً.

ـ كنتُ أعتقد ذلك. أقول: بسبب إصرارك على زوجتي. أنا في أيامي، ما كنتُ لأستبدلها ولا حتى بريتا هيوارث. هل تعلم ماذا تعني هذه الأوراق؟ بلى. صور من كتب حرب تقريباً، لكن أنا لم أقترح شيئاً من هذا على المحروق (لو فعلت لنصحته بـ *تاريخ الحرب العالمية*

الثانية، لليديل هارت، كتاب بسيط ودقيق، أو *الحرب في روسيا* لألكساندر يرث). على العكس كان ذلك بمبادرة ذاتية. وأعتقد أن معناها واضح، وسواء أنا أو زوجتي انتبهنا على الفور إلى ذلك. أنت لا؟ تصوّرتُ ذلك. حسن اعلمْ أنّني دائماً كانت لي سطوة كبيرة على الشباب، الذين يشغل بينهم المحروق مكاناً خاصّاً ولذلك تحمّلني زوجتي قليلاً من المسؤولية، أنا المريض! عمّا يمكن أن يحدث لك أنتَ.

ـ لا أفهم شيئاً. إذا كنّا نتكلّم عن الرايش الثالث فعليَّ أن أخبرك أنّني في ألمانيا البطل الوطني لهذه الرياضة.

ـ رياضة! اليوم يسمّون أي شيء رياضة. هذه ليست رياضة أبداً. وبالطبع أيضاً لا أتكلّم عن الرايش الثالث، بل عن المشاريع التي يُحضّرها لك هذا الفتى المسكين. ليس في اللعبة (هذه لا أكثر ولا أقل، هي ما هي) بل في الحياة الواقعية!

هززتُ كتفيَّ، لم أكن مُستعدّاً لأن أناقض مريضاً. عبّرت عن ريبتي مطلقاً ضحكة ودّية؛ بعدها شعرتُ بأنني أفضل.

ـ طبعاً قلتُ لزوجتي إنّ ما أستطيع فعله قليل. عند هذا المستوى هذا الفتى لا يُصغي إلا لما يهمُّه، إنّه غارق حتى عنقه ولا أعتقد أنّه سيتراجع.

ـ فراو إلسي تقلق عليّ أكثر من اللازم. على كلّ الأحوال هي طيّبة جدّاً.

أحرز وجه الزوج مسحةً منْ حلم وغياب.

ـ هي كذلك، نعم، يا سيّد، طيّبة جدّاً. طيّبة أكثر من اللازم... فقط يؤسفني أنّني لم أهبها ولدين.

بدت لي الملاحظة فظّة. شكرتُ السماء على العقم الحقيقيّ لذلك

الرجل البائس. من المحتمل أنّ الحمل كان سيكسر التوازن الكلاسيكي لجسد فراو إلسي، السلطة التي تسود الغرف حتى ولو لم تكن موجودة جسدياً.

ـ وفي أعماقها، ككلّ امرأة، ترغب في أن تصير أمّاً. أخيراً آمل أن يُحالفها الحظّ مع التالي. ـ غمزني وأستطيع أن أقسم بأنه قام تحت الملاحف بحركة بذيئة من أصابعه ـ. دعك من التوهّم، لن تكون أنت، كلّما انتبهت أبكر كان أفضل هكذا لن تُعاني ولن تجعلها تُعاني. على الرغم من أنّها تشعر بتقدير نحوك فهذا مُسَلّم به. حكت لي أنّك قبل سنوات كنت تأتي مع والديك إلى فندق البحر. ما اسم أبيك؟

ـ هاينز بيرغير، كنتُ آتي مع والديّ ومع أخي الأكبر. كلّ صيف.

ـ لا أتذكّره.

قلت ليس لهذا أهمّية. بدا أنّ زوجَ فراو إلسي يُركّز بكلّ قواه على الماضي. فكّرتُ في أنّه يشعر بأنه مريض. ذُعرتُ.

ـ وأنت هل تتذكّرني؟

ـ نعم.

ـ كيف كنتُ، ما الصورة التي تحتفظ بها عنّي؟

ـ كنتُ طويلاً ونحيلاً جدّاً. كنتَ تستعمل قمصاناً بيضاء وكانت فراو إلسي تبدو سعيدة إلى جانبك. ليس كثيراً.

ـ يكفي.

أطلق تنهيدة واسترخى وجهه. من كثرة الوقوف بدأت تؤلمني ساقاي. اعتبرتُ أنّ عليّ أن أذهب، أن أنام قليلاً أو أن آخذ السيارة وأخرج بحثاً عن شرمٍ معزول حيث أستطيع أن أغطس ثم أرتاح على الرمل النظيف.

ـ انتظرْ، ما زال عندي ما أحذرك منه. ابتعد عن المحروق. فوراً.

ـ سأفعل ـ قلتُ مُتعباً ـ عندما أذهب من هنا.

ـ وماذا تنتظر كي تعود إلى وطنك؟ ألا تلاحظ أنّ... الفاجعة وسوء الحظ يحومان حول هذا الفندق.

خمّنتُ أنّه يقول ذلك بسبب موت تشارلي. ومع ذلك إذا كانت الشرور تترصّد فندقاً فهذا الفندق يجب أن يكون فندق كوستا برافا، حيث عاش تشارلي وليس فندق البحر. ابتسامة الودِّ أزعجت زوجَ فراو إلسي.

ـ هل عندك فكرة عمّا سيحدث في الليلة التي تسقط فيها برلين؟

سرعان ما أدركتُ أنّ سوء الطالع الذي يشير إليه هو الحرب.

ـ لا تُقلّل من قيمتي ـ قلتُ، محاولاً أن أتكهن بمشهد الفناءات الداخلية التي من المحتمل أنّها تنتشر على الطرف الآخر من الستائر. لماذا لم تختارا غرفة تُطلّ على البحر؟

مطّ زوجُ فراو إلسي عنقه مثل دودة. كان شاحِباً وبشرته لامعة من الحرارة.

ـ أيّها المغرور، هل تعتقد أنّه ما يزال باستطاعتك أن تفوز؟

ـ أستطيع أن أبذل جهدي. عندي سهولة في استعادتي لنفسي، أستطيع أن أقوم بهجومات تردع الروس. ما أزال أحتفظ بقوّة مواجهة كبيرة... تكلّمتُ وتكلّمتُ عن إيطاليا، عن رومانيا، عن قواتي المدرعة، عن إعادة تنظيم قواتي الجوّية، كيف أستطيع أن أجعل رؤوس الشاطئ في فرنسا بل وفي إسبانيا تختفي. وشيئاً فشيئاً رحتُ أشعرُ بأنّ داخل رأسي يتجمّد وبأنّ البرد يهبط إلى سقف حلقي، إلى لساني إلى حنجرتي، وبأنّ حتى الكلمات التي كانت تخرج من فمي راحت تُطلق بخاراً في طريقها إلى سرير المريض. سمعتُ هذا يقول: استسلم، جهزْ حقائبك، ادفعْ، هه؟ وارحلْ. أدركتُ مذعوراً أنّه فقط كان يُريد أن يُساعدني. وأنّه كان يفعل ذلك على طريقته لأنّهم طلبوا منه ذلك.

ـ في أيّ ساعة ستعود زوجتُك؟ ـ سُمِعَ صوتي بشكل لا إراديّ قانطاً. من الخارج كان يصل صدح عصافير وضجيج محركات وأبواب خافت. تجاهل زوج فراو إلسي السؤال وقال إنّه نعس. كما لو أنّه يريد أن يؤكّد ما سبق، أغلق أجفانه بتثاقل.

خفتُ أن ينام حقيقة.

ـ ماذا سيحدث بعد سقوط برلين؟

ـ بحسب ما أرى الوضع ـ قال دون أن يفتح أجفانه جارّاً الكلمات جرّاً ـ هو لن يكتفي بتلقي التهاني.

ـ ماذا تظنّ أنه سيفعل.

ـ ما هو أكثر منطقاً، يا سيّد[1] أودو بيرغير، ما هو أكثر منطقاً. فكِّرْ، ماذا يفعل المنتصر. ما هي صفاته؟

اعترفت بجهلي. اتخذ زوج فراو إلسي وضعية مريحة على جنبه في السرير، بحيث إنّني أستطيع أن أرى فقط جانبه النحيل والحاد. اكتشفتُ أنّه بهذا الشكل يُشبهُ دون كيخوت، دون كيخوت المنهك، العاديّ والمرعب كالقدر. استطاع الاكتشاف أن يُقلقني. ربّما كان هذا هو ما شدّ فراو إلسي.

ـ إنّه موجود في كلّ كتب التاريخ ـ كان لصوته جرسٌ واهن ومتعب ـ بما في ذلك الكتب الألمانية. البدء بمحاكمة مجرمي الحرب.

ضحكتُ في وجهه:

ـ تنتهي اللعبة بالنصر الحاسم، نصر تكتيكي، نصر هامشي أو تعادل، ليس بمحاكمات من هذا النوع ـ تلوتُ.

ـ آه، يا صديقي، في كوابيس هذا الفتى المسكين المحاكمة ربّما

---

(١) يستخدم الكلمة الألمانية Herr.

كانت الفعل الأهم في اللعبة، الوحيد الذي يستحق أن يقضي لأجله ساعات في اللعب. شنق النازيين!

شددت أصابع يدي اليمنى حتى سمعت صوت كلّ عظم من عظامها.

ـ إنّها لعبة استراتيجيا ـ همستُ ـ استراتيجيا عليا، أيّ نوعٍ من الجنون هذا الذي تقوله؟

ـ أنا فقط أنصحك بأنّ تسوي حقائبك وتختفي. على كلٍّ الأحوال برلين، برلين الوحيدة والحقيقيّة سقطت منذ زمن، أليس كذلك؟

كلانا وافق بحركة من رأسيه. الإحساس بأنّنا كنّا نتكلّم عن مواضيع مختلفة بل ومتعارضة كان في كلّ مرّة أكثر وضوحاً.

ـ من يُفكر في أن يُحاكِم؟ فيش فصائل الحماية؟ ـ بدا أن مَخرجي سرَّ زوجَ فراو إلسي فابتسم بخساسة شبهَ مُنتصبٍ في السرير.

ـ أخشى أن تكون أنت من يُلهمه الكراهية ـ صار جسد المريض فجأة نبضاً واحداً غير منتظم، كبيراً، واضحاً.

ـ هل أنا من سيُجْلِسُهُ على مقعد المحاكمة ـ على الرغم من أنّني كنتُ أحاول أن أحافظ على تماسكي إلا أنّ صوتي كان يرتعش استياءً.

ـ نعم.

ـ وأين يُفكرّ في أن يفعل ذلك؟

ـ على الشاطئ، مثل الرجال الأشدّاء ـ استطالت الابتسامة الخسيسة أكثر وصارت في الوقت ذاته أعمق.

ـ هل سيغتصبني؟

ـ لا تكن أحمق. إذا كان هذا ما تبحث عنه فأنت لم تُحسن الاختيار.

أعترف أنّني كنتُ مشوّشاً.

ـ ما الذي سيفعله بي إذن؟

ـ ما هو مستخدم مع الخنازير النازيين، ضربهم حتى ينفجروا. تركهم

ينزفون في البحر، يرسلك إلى والهالا مع صديقك، صاحب الزلاجة الشراعية.

ـ تشارلي لم يكن نازياً، بحسب علمي.

ـ ولا أنت، لكنّ المحروق عند هذا المستوى من الحرب سيّان عنده. أنت محقت الريفيرا الإنكليزية وحقول القمح الأوكرانية، كي تقول ذلك شعراً لا تنتظر منه الآن أن يكون رقيقاً معك.

ـ هل أنت من اقترح هذه الخطّة الشيطانية؟

ـ لا، على الإطلاق. لكنها تبدو لي مسلية!

ـ جزء من المسؤولية يقع عليك، لولا نصائحك ما كان المحروق ليملك أدنى فرصة.

ـ تُخطئ! المحروق تخطى نصائحي. يُذكّرني بطريقة ما بالإنكي أتاهوالبا، سجين عند الإسبان تعلّم لعبة الشطرنج في مساء واحد مراقباً كيف كان آسروه يُحرّكون الحجارة.

ـ هل المحروق أمريكي جنوبي؟

ـ حار، حارّ...

ـ وحروق جسده...؟

ـ جائزة!

قطرات عرق هائلة كانت تُغطي وجهَ المريض حين قلتُ له وداعاً. كان بودّي لو أرتمي بين ذراعي فراو إلسي وألا أسمع غير كلمات المواساة في بقية اليوم. وبدل ذلك حين التقيتُ بها لاحقاً ومعنوياتي أكثر هبوطاً، اقتصرتُ على أن همستُ لها بعض الشتائم والتوبيخات. أين قضيتِ الليلة؟ مع من؟ إلخ. حاولت فراو إلسي أن تصعقني بنظرتها (من ناحية أخرى لم أفاجأ أبداً بأنّني كلّمت زوجها) لكنّني كنتُ قد فقدت إحساسي بكلّ شيء.

خريف الثالث والأربعين وهجوم جديد للمحروق. أخسرُ وارسو وبيسبارابيا. يسقط غرب وجنوب فرنسا في أيدي الأنجلو-أمريكيين. يمكن أن يكون التعب هو الذي أثبط قدرتي على الرد.

ـ سوف تفوز، يا محروق ـ أقولُ هامساً.

ـ بلى، يبدو ذلك.

ـ وماذا سنفعل بعد ذلك؟ ـ لكنَّ الخوف يُجبرني على إطالة السؤال كيلا أسمع جواباً محدّداً ـ. أين سنحتفل بابتدائك كلاعبِ حرب؟ خلال وقتٍ قصير سوف أستلم مالاً من ألمانيا ونستطيع أن نخرج إلى مرقص لنلهو ونمرح مع فتيات، شمبانيا أو شيء من هذا القبيل.

المحروق الساهي عن كلّ ما ليس تحريك محدلتيه الهائلتين، يجيب بعد ذلك بجملة أجد فيها لاحقاً خصائص رمزية: احرسْ ما لديك في إسبانيا.

تراه يُشير إلى فيالق المشاة الألمانية الثلاثة وإلى فيلق المشاة الإيطالي، التي بقيت ظاهرياً معزولة في إسبانيا والبرتغال، الآن والحلفاء يتحكّمون بجنوب فرنسا؟ الحقيقة أنّني لو أردتُ لأجليتها في عملية إعادة التوزيع الاستراتيجي عبر موانئ المتوسّط، الشيء الذي لن أفعله، على العكس ربّما عزّزتها كي أوجد تهديداً أو تسلية في الخاصرة، على الأقل سيؤخّر هذا الزحف الأنجلو-أمريكي باتجاه الراين. لا بدّ أنّ المحروق يعرف هذا الاحتمال الاستراتيجي إذا كان ذكياً إلى هذا الحدّ كما يبدو. أم أنّه أراد شيئاً آخر؟ شيئاً شخصياً. ما الذي عندي في إسبانيا؟ أنا نفسي!

٢١ أيلول

ـ يغلبك النوم، يا أودو.

ـ تواتيني نسمة البحر.

ـ تشرب كثيراً وتنام قليلاً، هذا ليس جيّداً.

ـ لكنّك لم ترني قط سكران.

ـ بل وأسوأ، تريد أن تقول إنّك تسكر لوحدك. تأكل وتتقيّأ شياطينك دون حل بالاستمرار.

ـ لا تهتمّي، عندي معدة كبيرةٌ، كبيرة، كبيرَة.

ـ عندك هالات زرقاء مريعة وأنت في كلّ يوم أكثر شحوباً، كما لو أنّك في سيرورة التحوّل إلى الرجل الخفيّ.

ـ إنّه لون بشرتي الطبيعي.

ـ مظهرك مظهرُ مريضٍ. لا تسمع شيئاً، لا ترى شيئاً، تبدو مذعناً لأن تبقى في البلدة إلى الأبد.

ـ كلّ يوم أمضيه هنا يُكلّفني مالاً. لا أحد يهديني شيئاً.

ـ ليست مسألة نقودك، بل مسألة صحّتك. لو أعطيتني هاتف والديك لهتفتُ لهما كي يأتيا ويأخذاك.

ـ أستطيع أن أهتمّ بنفسي.

ـ لا يُلاحظ هذا، أنت قادر على أن تنتقل من موقفٍ غضوبٍ إلى

موقف سلبيّ بكلّ هدوء. البارحة صرخت بي واليوم تقتنع بالابتسامة مثل متخلّف عقلي دون أن تستطيع أن تنهض عن هذه الطاولة طوال الصباح.

ـ أخلط الصباحات بالمساءات. هنا أتنفّس جيداً. تغيّر الطقس، هو الآن رطب وضاغط... فقط ـ في هذه الزاوية الصغيرة أرتاح.

ـ سترتاح في الفراش أكثر.

ـ إذا كبوت عدّة مرات لا تنشغلي. فالذنب ذنب الشمس. تأتي وتروح. في داخلي إرادتي لم تُمس.

ـ لكنّك تتكلّم وأنت نائم!

ـ لستُ نائماً، فقط أبدو كذلك.

ـ أعتقد أنّني سأجد نفسي مضطرّة لأن أحضر لك طبيباً كي يُلقي عليك نظرة.

ـ طبيب صديق؟

ـ طبيب ألماني جيّد.

ـ لا أريد أن يأتي أحد. الحقيقة أنّني كنتُ جالساً بهدوء أتلقى نسمة البحر وجئت لتلقي عليَّ موعظة دون أن أدعوك، تلقائياً لمجرّد الرغبة.

ـ أنت لست على ما يرام، يا أودو.

ـ بالمقابل أنتِ فقط تُثيرين الشبق، تقبلين كثيراً، تلمسين كثيراً، لكن لا أكثر، حضورك ضبابي ووعدك ضبابي.

ـ لا ترفعْ صوتَك.

ـ الآن أرفع صوتي، حسن جدّاً، ها أنت ترين أنّني لستُ نائماً.

ـ نستطيع أن نحاول أن نتكلّم كصديقين جيّدَين.

ـ هيّا، تعرفين أنه لا حدود لتسامحي وفضولي. ولا لحبّي.

ـ هل تريد أن تعرف ماذا يسميك النُّدُل؟ المجنون. معهم حقّ،

فشخص يقضي اليوم في الشرفة متدثّراً ببطانية مثل عجوز مريض بالروماتيزم، كابياً برأسه من النعاس ويتحوّل ليلاً إلى سيّد حرب كي يستقبل عاملاً من طبقة سفلى، وللطامة الكبرى مشوّه، في العادة ليس كثيراً. هناك من يرى أنّك مثليّ مجنون وهناك من يقولون فقط إنّك شاذّ مجنون.

ـ شاذّ مجنون! يا للحماقة، جميع المجانين شاذون. هل سمعت هذا أم أنّك اخترعته الآن؟ النُّدل يحتقرون ما لا يفهمونه.

ـ النُّدُل يكرهونك. يعتقدون أنّك تأتي إلى الفندق بالحظّ السيّئ. عندما أسمعهم يتكلّمون أُفكّر في أنّه لن يزعجهم أن تموت غرقاً، مثل صديقك تشارلي.

ـ من حسن الحظ أنّني لا أكاد أسبح. الطقس في كلّ يوم أسوأ من الذي قبله. على كلّ الأحوال هي مشاعر لذيذة رائعة.

ـ يحدث في كلّ صيف. دائماً هناك زبون يستقطبُ كلَّ الغضب. لكن لماذا أنت؟

ـ لأنّني أخسر الشوطَ ولا أحد يُشفق على الخاسر.

ـ ربّما لم تكن معاملتك للعاملين لبقة. لا تنمْ، يا أودو.

ـ جيوش الشرق تنهار ـ قلتُ للمحروق ـ. كما يتفكّك في النتيجة التاريخية للجانب الروماني ولا يوجد احتياطات لكبح موجة الفيش الروسية التي تتوغّل في الكاربات، في البلقان عبر السهل الهنغاري وعبر النمسا. إنّها نهاية الجيش السابع عشر والجيش المدرّع الأوّل، والجيش السادس والجيش الثامن.

ـ في الشوط المقبل ـ... يهمس المحروق، متأجّجاً مثل امرأة منتفخة العروق.

ـ هل سأخسر في الشوط المقبل؟

ـ في أعماقي، في أعمق أعماقي، أُحبك ـ تقول فراو إلسي.

ـ هذا أبرد شتاءات الحرب ولا شيء يمكن أن يكون أسوأ منه. أنا في حفرة عميقة ربّما لن أستطيع الخروجَ منها. الثقة ناصحة سيّئة ـ أسمع نفسي أقول بصوتٍ حياديّ.

ـ أين النسخ؟ ـ يسأل المحروق.

ـ سلّمتْها فراو إلسي إلى معلّمك ـ أجبتُ وأنا أعرف أنّه ليس للمحروق معلّم ولا أيّ شيء شبيه بذلك. ربّما أنا، الذي علّمته اللعب. لكن ولا حتى هذا.

ـ ليس لي معلّم ـ قال المحروق كما هو متوقّع.

في المساء وقبل الشوط ارتميت على السرير، منهكاً وحلمتُ بأنّني رجلُ تحرٍّ (فلوريان ليندين؟) باقتفائي أثراً توغّلت في معبد شبيه بمعبد إنديانا جونيس و*المعبد الملعون*. ماذا كنتُ سأفعل هناك؟ لا أعرف. أعرف فقط أنّني جبتُ ممرات وأروقة دون أيّ نوع من التحفظ العقلي، بما يشبه المتعة، وأنّ برد الداخل جلب إلى ذاكرتي بردَ الطفولة وشتاءً خيالياً حيث كان كلُّ شيء، وإن كان للحظةٍ فقط، أبيضَ وجامداً بشكل مطلق. في وسط المعبد، الذي لا بدّ أنّه محفورٌ في أحشاء التلّ المسيطر على البلدة، وجدتُ رجلاً مضاءً بمخروط ضوئي يلعبُ بالشطرنج. عرفتُ، دون أن يقول لي أحدٌ، أنّه أتاهوالبا. حين اقتربتُ رأيتُ من فوق كتف الرجل الحجارةَ السوداء، كانت محروقة. ما الذي جرى؟ التفت الزعيمُ الهندي كي يتفحّصني دون كبير اهتمام وقال إنّ هناك شخصاً رمى بالحجارة السوداء في النار. ما السبب؟ الشرّ؟ وبدل أن يُجيب أتاهوالبا حرّك الوزيرَ الأبيض إلى مربع داخل منطقة دفاع الحجارة السوداء. سيأكلونها! فكّرتُ. ثمّ قلت لنفسي الأمر سيان، ذلك لأنّ أتاهوالبا كان يلعب وحده. في الحركة التالية قَتل الوزيرُ الفيلَ. ما فائدة أن يلعب المرء

وحده إذا كان سيحتال؟ سألتُ. الهندي لم يلتفت هذه المرّة، أشار بذراعه الممدودة إلى عمق المعبد، فضاء مظلم عالق بين القبّة والأرضية الغرانيتية. خطوت بضع خطوات تقريباً إلى المكان المشار إليه فرأيت مدخنة هائلة من القرميد الأحمر ومجامر من الحديد المشغول حيث كان ما يزال هناك بعض الجمر المتفحّم ولا بد أنّه استهلك مئات القُرَم. بين الرماد هنا وهناك كانت تبرز قطعُ الشطرنج ملتويةَ الرؤوسِ. ماذا كان يعني ذلك؟ استدرتُ بوجهي الملتهب سخطاً وغَضَباً نصفَ استدارة وصرختُ بأتاهوالبا كي يلعب معي. لم يكلّف خاطره بأن يرفع رأسه عن الرقعة. عندما راقبته بتأنٍّ أكبر انتبهت إلى أنّه لم يكن عجوزاً كما ظننتُ زيفاً في البداية؛ وأنّ أصابعه الفسيلية وشعره الطويل والمتسخ الذي يكاد يغطي وجهه كاملاً تؤدّي إلى الخداع. العبْ معي إن كنتَ رجلاً، صرختُ، مبتغياً الهرب من الحلم. خلفي كنتُ أشعر بالمدخنة مثل جهاز حيّ، بارد ـ ساخن، غريب عنّي وغريب عن الهنديّ المستغرق. لماذا تُخرّب عملاً فنيّاً جميلاً؟ قلتُ. ضحك الهنديُّ، لكنّ الضحكةَ لم تخرج من حنجرته. حين انتهى الشوطُ نهض واقترب من المدخنة حاملاً صينية فيها رقعة وحجارة شطرنج. أدركتُ أنّه سيصلي النار فقررت أنّ من الذكاء جدّاً أن أنظر وأنتظر. من بين الجمر عاد ليخرج لهبٌ، شاحبٌ، ألسنةُ نار لن تتأخّر في أن تختفي ما إن زُوِّدَتْ بتلك الكميّة الهزيلة. كانت عينا أتاهوالبا الآن ثابتتين على قبّة المعبد. من أنت؟ سأل. سمعت جواباً رائعاً يخرج من فمي: أنا فلوريان ليندين وأبحث عن قاتل كارل شنيدر، الذي يدعى أيضاً تشارلي، سائح في هذه البلدة. خصّني الهنديّ بنظرة ازدراء وعاد إلى مركز الإضاءة، حيث كانت تنتظره، كما لو بفعلِ سحرٍ، رقعةٌ أخرى وفيشٌ أخرى. سمعته يدمدم بشيء غير مفهوم؛ رجوته أن يُكرّره؛ هذا قتله البحر، قتلته رقّته وحماقته، دوّت على جدران الكهف الكلمات الإسبانية الجافّة. أدركتُ أنّه لم يعد للحلم معنى أو أنّه أوشك

على نهايته فسارعت بأسئلتي الأخيرة. هل كانت حجارة الشطرنج مقدَّمة لإله؟ ما سبب أنّه كان يلعب وحده؟ متى سينتهي كلّ ذلك؟ (حتى الآن أجهل معنى هذا السؤال). من غيري كان يعرف بوجود المعبد وكيفية الخروجِ منه؟ قام الهنديّ بأوّل حركة وتنهَّدَ. أين تظنّ أنّنا موجودان، سأل بدوره. اعترفت أنّني يقيناً لم أكن أعرف، على الرغم من أنّني أظنّ أنّنا تحت تلّ البلدة. تُخطئ، قال. أين نحنُ؟ راح صوتي يحرز تدريجياً مسحةً هستيرية. كنتُ خائفاً، أعترفُ بذلك، وأريد أن أخرج. عينا أتاهوالبا اللامعتان تراقبانني من خلال الشعر الذي كان ينسدل فوق وجهه مثل شلّال من مياه المجاري. ألم تنتبه؟ كيف وصلت إلى هنا؟ لا أعرف، قلتُ. كنتُ أسير على الشاطئ. ضحك أتاهوالبا نحو الداخل: نحن تحت الزلاجات، قالَ، وشيئاً فشيئاً سوف يؤجّرها المحروق، على الرغم من أنّ هذا ليس أكيداً نظراً لسوء الطقس وتستطيع أن تُغادر. آخر ما أتذكّره هو أنّني انقضضتُ على الهندي ورحت أصرخُ به. استيقظتُ في الوقت الدقيق للنزولِ لاستقبال المحروق، لكن ليس لاستحمامي. كان وركاي والقسم الداخلي من فخذيَّ تتأجّج. ارتكبتُ في بولونيا وفي جبهة الغرب خطأين فادحين. في المتوسّط كنس المحروقُ فيالقَ الجيش القليلة المتروكة كإلهاءٍ في القسم الغربي من ليبيا وتونس. في الشوط المقبل سأخسر إيطاليا. وربّما سأكون قد خسرت اللعبة في صيف الأربعة والأربعين. ما الذي سيحدث إذن.

٢٢ أيلول

في المساء أو في الصباح، في تلك اللحظة لم أكن أعرف، عندما استيقظت للفطور! وجدتُ فراو إلسي وزوجها وشخصاً لم يسبق أن رأيته جالسين إلى طاولة معزولة من المطعم، يتناولون شاياً وحلوى. المجهول، طويلٌ، أشقرُ الشعر، مسمرّ البشرة جدّاً، كان هو يبرز بحضوره وكانت فراو إلسي وزوجها يحتفلان بين برهة وأخرى بخواطرهِ أو نكاته ضاحكَيْن، مائلَيْن جانبياً حتى يلامس رأس الواحد منهما الآخر ويحرّكان أيديهما كي يطلبا أن يوقف طوفان القصص. اعتليت تابوريه بجانب طاولة العرض بعد أن تردّدت فيما إذا كان من المناسب أن أنضمّ إلى المجموعة، وطلبت فنجان قهوة بالحليب. حرص النادل على غير عادته على تقديمه لي بسرعة مدهشة، وهو ما أحدث تأثيرات معاكسة: اندلقت القهوةُ، وكان الحليب ساخناً أكثر من اللازم. غطيتُ، بينما كنتُ أنتظر، وجهي بيديّ وحاولتُ أن أهرب من الكابوس. لم يُعطِ نتيجة وهكذا ما إن دفعت حتى خرجتُ راكضاً لأغلق على نفسي غرفتي.

نمتُ برهةً، حين استيقظت كنتُ أشعر بدوخة وغثيان. طلبتُ مكالمة مع ستوتغارت. كنتُ بحاجة لأن أتكلّم مع أحد ومن يمكن أن يكون أفضل من كونراد. شيئاً فشيئاً رحتُ أشعر بأنني أكثر رصانة، لكن لا أحد في بيت كونراد كان يرفع السماعة. ألغيت المكالمة وبقيت برهة أدور، دون أن أتوقّف في الغرفة، أنظر في كلّ مرّة أمرّ فيها بجانب الطاولة منطقة الدفاع الألمانية، أخرج إلى الشرفة، طارقاً طرقات، لا، ليس

طرقات بل طُريقات على الجدران والأبواب، أصارع أخطبوط الأعصاب الذي كان يتمطّى داخل معدتي.

بعد قليل رنّ الهاتف. هتفوا من الأسفل يُعلنون عن زيارة. قلتُ إنّني لا أريد أن أقابل أحداً، لكنّ عاملة الاستقبال أصرّت. فزائري لا يُفكّر في أن يذهب دون أن يقابلني. كان ألفونس. أيّ ألفونس، سموّا كنية لم أكن أتذكّرها إطلاقاً. سمعتُ أصواتاً ونقاشات. المصمّم الذي كنتُ قد سكرتُ معه. نبّهتهم إلى أنّني قطعاً لا أرغب في رؤيته، وألا يسمحوا له بالصعود. كان من الممكن أن أسمع من خلال السماعة صوت زائري بوضوح مطلق يحتجّ على قلّة أدبي، انعدام الأخلاق، انعدام الصداقة، إلخ. أغلقت الهاتف.

مرّت دقيقة أو دقيقتان دفعني خلالهما عواءٌ قادمٌ من الشارع كان يمزق القلب، كي أخرج إلى الشرفة. وسط الكورنيش كان المُصمّم يمزّق حنجرته صارخاً باتجاه واجهة الفندق. كان المسكين، استنتجتُ، يُعاني من قصر نظر ولم يرني. تأخّرتُ قليلاً حتى فهمتُ أنّه يقول فقط، يا ابن العاهرة، مرات متكرّرة. كان شعره منكوشاً ويرتدي سترة أمريكية بلون العصفر وحشوتي كتفين هائلتين. خفت للحظة أن يصدموه، لكن من حسن الحظ كان الكورنيش مقفراً في تلك الساعة.

عدتُ فاقدَ الهمة إلى السرير لكنّني لم أستطع أن أنام. كانت الشتائم قد توقّفت منذ برهة على الرغم من أن كلمات غامضة وجارحة كانت تتردّد في رأسي. كنتُ أسأل نفسي من هو المهذار المجهول الذي كان مع فراو إلسي. عشيقها؟ صديق العائلة؟ الطبيب؟ لا. الأطباء أكثر صمتاً، أكثر حشمة. أتساءل عمّا إذا كان كونراد قد عاد والتقى بإنجيبورغ. كنتُ أتصورهما آخذاً كلّ منهما بيد الآخر، يتنزهان على امتداد جادة خريفية. لو كان كونراد أقلّ خجلاً! كانت اللوحة بحسب فهمي مليئة بالاحتمالات، تملأ عينيّ بالدموع. كم كنتُ في أعماقي أحبّهما، كليهما.

بينما أنا أفكّر انتبهت إلى أنّ الفندق كان غارقاً في صمتٍ شتوي. بدأتُ أتوتّر واستأنفت سيري في الغرفة. درست الوضع الاستراتيجي دون أمل بأن تتوضّح الأفكار: الوضع الاستراتيجي سيُقاوم كحدّ أقصى ثلاثة أشواط وأربعة إذا حالفني الحظّ كثيراً. سعلتُ، تكلّمتُ بصوت مرتفع، بحثتُ بين أوراقي عن بطاقة بريدية كتبتُ عليها لاحقاً وأنا أسمع صوت القلم ينساب على سطحها الكرتونيّ. تلوتُ أبيات غوته:

وخلال ذلك لم تُدركه،

هذا: مُتْ وستعيش!

لستَ أكثر من ضيفٍ مُزعج في أرضٍ كالحة[١]

لا شيء مُجْدٍ. حاولتُ أن أُخفّف من وحدتي، من حساسيتي، فهتفتُ لكونراد، لإنجيبورغ، لفرانز غرابوفسكي، لكن لا أحد ردّ. فكّرتُ للحظة في أنّه لم تبق نفسٌ واحدة في ستوتغارت. بدأت أهتفُ على عماها، فاتحاً المفكّرة مثل مروحة. طبعاً القدر هو من أدار رقم ماتياس مولير، غرّ *الخطى الحثيثة*، أحد أعدائي المعلنين. هو بلى كان موجوداً. المفاجأة كانت، كما أعتقد، متبادلة.

صوت مولير، الذكوري بشكل زائف، ينسجم مع سعيه كيلا يُظهر عواطفه. هكذا وببرودة يرحّب بي في البيت. طبعاً، يعتقد أنّني عدتُ. طبعاً يأمل أيضاً أن تكون مكالمتي استجابة لدعوة ذات طبيعة مهنية، كأن نُحضّر معاً مُداخلات باريس. أُخَيّب أمله. ما أزال في إسبانيا. سمعته يقول شيئاً، كذّاب. ويتخذُ على الفور وضعية دفاعية، كما لو أنّ مهاتفتي

---

(١) من قصيدة لغوته تقول بالألمانية:

Und so lang du das nicht hast,
dieses Stirb und Werde,
bist du nureintrüberGast
auf der dunklenErde.
West-östlicher Divan, Buch des Sängers, SeligeSehnsucht

له من إسبانيا تشكّل بحدّ ذاتها فخاً أو شتيمة. هتفت لك على عماها، قلتُ. صمت. أنا محبوس في غرفتي أُجري مكالمات على غير هدى. أنت الفائز. بدأتُ أضحك مقهقهاً ومولير يُحاول عبثاً أن يُقلّدني. فلم يحقّق غير زبيط هجين.

ـ أنا الفائز ـ كرّر.

ـ هو كذلك. كان من الممكن أن يكون هاتفي من نصيب أيٍ كان من سكان ستوتغارت، لكن كان نصيبك أنت.

ـ كان نصيبي، حسن. هل كنتَ تأخذ الأرقام من دليل هاتف أم من مفكّرتك؟

ـ من مفكّرتي.

ـ إذن لم يكن الحظّ حليفي إلى هذا الحدّ.

بغتة يعاني صوت مولير من تحوّل ملحوظ. يتولّد لديّ انطباع بأنّني أتكلّم مع طفل في العاشرة من عمره، يطلق العنان لأغرب الأفكار. البارحة رأيت كونراد، يقولُ، في النادي، متغيّراً جدّاً، هل كنت تعرف؟ كونراد؟ كيف سأعرف إذا كنتُ منذ قرون في إسبانيا؟ يبدو أنّهم صادوه أخيراً هذا العام. صادوه؟ بلى، منهار، ممسوس، مقضيّ عليه، منقبض، مثخَن بالضربات. إنّه عاشق، يختم. كونراد عاشق؟ يُسمع على الطرف الآخر من الخطّ بلى تأكيدية، يلزم كلانا بعدها صمتاً محرجاً، كما لو أنّنا أدركنا أنّنا تكلّمنا أكثر من اللازم. في النهاية قال مولير: مات الفيل. اللعنة أيّ فيل؟ كلبي، قال ثمّ أطلق سيلاً من الأصوات المحاكية عاعَ عَعا، عاعَ عَعاعا. كان هذا خنزيراً! هل كان كلبك ينبح مثل خنزير؟ إلى اللقاء، قلتُ مستعجلاً وأغلقت.

عندما أعتمتْ هتفتُ إلى مكتب الاستقبال سائلاً عن كلاريتا. قالوا في مكتب الاستقبال إنّها غير موجودة. أعتقد أنّني شعرتُ بمسحة قرف في

الجواب. مع من أتكلّم؟ الشكّ في أنّ فراو إلسي متظاهرة بصوت آخر حلّ في صدري مثلَ فيلم رعبٍ فيه مسابح مليئة بالدم. مع نوريا، عاملة الاستقبال، قال الصوتُ. كيف حالك، يا نوريا، سلّمتُ بالألمانية، بخير، بخير، وأنتِ؟ لم تكْ فراو إلسي. يرتعش الذي كان جسدي سعادةً وراح يتدحرج على السرير إلى أن سقط وتأذّى. أطلقت العنان لكلِّ الدموع المحبوسة خلال المساء ووجهي غائر في الموكيت. تحمَّمتُ بعدها، حلقتُ ذقني وبقيتُ أنتظر.

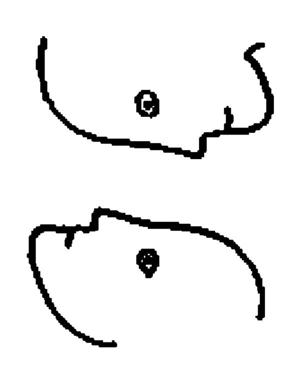
ربيع ١٩٤٤ أخسرُ إسبانيا والبرتغال، وإيطاليا (باستثناء تريستي) آخر رأسِ جسرٍ في الجانب الغربي من الراين، هنغاريا، كوينيغسبيرغ، دانزينغ، كراكوفيا، بريسلاو، لوزنان، لودز (إلى الشرق من أودير أحتفظ بزغرب فقط)، أربعة فيالق مدرّعة، عشرة فيالق مشاة، أربعة عشر عاملاً جوّياً...

٢٣ أيلول

نجحتْ جلبة قادمة من الشارع بإيقاظي على الفور. حين أنتصبُ فوق السرير لا أتمكن من سماع شيء. ومع ذلك فالإحساس بأنّه نودي عليّ قويّ ومشوّش. بالسروال الداخلي أطلّ من الشرفة: لم تطلع الشمسُ بعد، أو ربّما غابت وفي باب الفندق سيارة إسعاف وجميع أضوائها مشتعلة. بين القسم الخلفي من سيارة الإسعاف والدرج هناك ثلاثة أشخاص يتحدثون بصوت خافت وإن كانوا يُحرّكون أيديهم بإفراط، تصعد أصواتهم إلى الشرفة وقد صارت تمتمة غير مفهومة. في الأفق يسود لون أزرق داكن مع ضرباتٍ براقة كما لو كانت مقدّمة لعاصفة. الكورنيش مقفر باستثناء ظلّ يضيع على الرصيف الذي يحيط بالبحر باتجاه منطقة المخيمات، التي تُشبه في مثل تلك الساعة (لكن كم الساعة؟) قبّةً رمادية حليبية، درنة في منعطف الشاطئ. على الطرف الآخر، أضواء الميناء قلّت أو لم تشتعل بكاملها. أسفلت الكورنيش مبلّل، ولذلك من السهل التكهّن بأنّها أمطرت. بسرعة يجعل أمرٌ الناسَ الذين ينتظرون يتحرّكون، تلقائياً تنفتح أبواب الفندق وسيارة الإسعاف وتهبطُ نقّالةٌ الدرجَ يحملها ممرضان. مع هذين تظهر فراو إلسي مرتدية معطفاً أحمرَ طويلاً والمهذارُ ذو البشرة المسمرّة تتلوهما عاملة الاستقبال والحارس ونادلٌ وسيّدة المطبخ البدينة. على النقّالة زوج فراو إلسي مُغطى ببطانية حتى عنقه. هبوط الدرج في غاية الحذر، أو هكذا بدا لي. الجميع ينظرون إلى المريض. يُتمتمُ هذا بفمه إلى الأعلى وبحركة

مكروبة ببعض التعليمات من أجل هبوط الدرج. لا أحد يوليه اهتماماً. عند ذلك تماماً تلتقي نظراتنا في الفضاء الشفاف (والمرتعش) الذي بين الشرفة والشارع.

هكذا:



بعدها تُغلَق الأبواب، تنطلقُ سيارة الإسعاف وصفارتها مدوية، على الرغم من أنّه لا تُلمح سيارة واحدة في الكورنيش، النور الذي يعبر نوافذ الطابق الأوّل تنقص كثافته، يلف الصمتُ فندقَ البحر مرّةً أخرى.

صيف ١٩٤٤ أنسخُ مثلَ كريبس، فريتاجلورينغوفن، غيرهارد بولدت، تقاريرَ الحرب على الرغم من معرفتي بأنّني خسرتها. لم تتأخّر العاصفة في الانفجار والمطر الآن يطرق الشرفة المفتوحة مثل يدٍ طويلة جدّاً وناتئة العظام، أمومية بشكل غامض، تريد أن تُحذّرني من أخطار العجرفة. أبواب الفندق ليست مراقبة ولذلك لم يجد المحروق أيّ مشكلة في الصعود إلى غرفتي وحده. البحر يرتفع، يُتمتم داخل الحمّام، إلى حيث جررته، بينما كان يُنشّف رأسه ببشكير، يمارس عليّ سحراً بارداً وساطعاً. يتشكل تحت قديمة غمر من الماء. أجبره قبل أن يبدأ اللعب على أن يخلع قميصه المُبلّل ويرتدي واحداً من قمصاني، ضيقاً

عليه قليلاً، لكنّه على الأقل جاف. يرتديه المحروق عند هذا المستوى كما لو أنّ إهداءه شيئاً كان من أكثر الأمور طبيعية، دون أن يقول كلمة. إنّها نهاية الصيف ونهاية اللعبة. جبهة الأودر وجبهة الراين تتفكّكان عند أوّل هجوم. يتحرّك المحروق حول الطاولة كما لو أنّه يرقص. ربّما هذا هو ما يفعله. آخر دائرة دفاع عندي موجودة في برلين ـ ستيتين ـ بريمين ـ برلين، ما عدا ذلك بما في ذلك جيوش بافاريا وشمال إيطاليا مقطوع عنها التموين. أين ستنام هذه الليلةَ يا محروق؟ قلتُ. في بيتي، يُجيب المحروقُ. تحاصر بقية الأسئلة في حنجرتي. بعد أن تودّعنا بقيت في الشرفة وتأمّلتُ الليل الماطر. كبير بما يكفي كيلا يبتلعنا جميعاً. غداً سأُهزَمُ، لا شكّ في ذلك.

٢٤ أيلول

استيقظتُ متأخّراً وبدون شهيّة. هكذا أفضل، فالنقود المتبقية معي قليلة. لم يهدأ المطر. حين أسأل في الاستقبال عن فراو إلسي يقولون لي إنّها في برشلونة أو جيرونا، «في المشفى الكبير»، إلى جانب زوجها. حول خطورة حالة هذا التعليق لا يُخطئ: إنّه يموت. تكوّن فطوري من قهوة بالحليب وقطعة كرواسان. في المطعم بقي نادل واحد فقط كي يلبّي حاجاتي وحاجات خمسة عجائز سوريناميين. فجأة أقْفَرَ فندقُ البحر.

انتبهتُ بعد الظهر وأنا جالس في الشرفة إلى أنّ ساعتي ما عادت تعملُ. حاولتُ أن أقرنها، أضربها، لكن ما من وسيلة. منذ متى هي كذلك؟ هل لهذا معنى ما؟ هذا ما آمله. أُراقب من بين قضبان الشرفة المارّةَ القليلين الذين يجوبون الكورنيش مسرعين. ميّزتُ الذئبَ والخروفَ يسيران باتجاه الميناء، كلاهما يرتدي سترة قطنية. رفعتُ يداً كي أحيّيهما، لكنّهما بالطبع لم يرياني. بَدَوَا جروين يقفزان فوق الأغمار ويتدافعان ويضحكان.

بعدها بقليل نزلتُ إلى المطعم. ومن جديد كان هناك العجائز السوريناميون جميعهم حول منسف يطفح بالرز الأصفر والبحريات. جلست إلى طاولة قريبة وطلبت شطيرةَ همبورغر وكأسَ ماء. كان السوريناميون يكلّمون بسرعة كبيرة، أجهل ما إذا كان بالهولندية أم بلغتهم الأصلية واستطاع طنين أصواتهم أن يطمئنني. حين ظهر النادل مع الهمبورغر سألته ما إذا لم يبق غير أولئك الناس في الفندق. لا، يوجد

زبائن آخرون يقومون خلال النهار برحلة في حافلة، أشخاص مسنون، قال. مسنون؟ يا للغرابة. وهل يصلون متأخرين جدّاً؟ متأخرين وصاخبين، قال النادل. عدتُ بعد الغداء إلى غرفتي، أخذتُ حماماً ساخناً ونمتُ.

استيقظت ومعي وقت كافٍ كي أسوّي حقائبي وأطلب مكالمة يدفعها الرقم المطلوب في ألمانيا. الروايات التي جئتُ بها كي أقرأها على الشاطئ (والتي حتى لم أتصفّحها) تركتها على منضدة السرير كي تعثر عليها فراو إلسي عندما تعود، احتفظتُ فقط برواية فلوريان ليندين. بعد برهة أعلمتني عاملة الاستقبال أنّ باستطاعتي أن أتكلّم. كان كونراد قد قبل المكالمة. بكلمات قليلة قلتُ له إنّني سعيد بالتكلّم معه وإنّنا إن حالفني الحظّ سنتقابل قريباً. أظهر كونراد في البداية فظاظة وجفاءً، لكّنه لم يتأخّر أكثر من اللازم في الانتباه إلى خطورة ما يُطبخ. هل هو الوداع الأخير؟ سأل بطريقة مبتذلة كفاية. قلت لا، على الرغم من أنّ صوتي كان في كلّ مرّة أقلّ ثقة. قبل أن أغلق تذكّرنا سهرات النادي والمباريات الملحمية، التي لا تُنسى، وضحكنا مقهقهين عند الإشارة إلى حديثي الهاتفي مع ماثياس موليز. اعتنِ بإنجيبورغ، تلك كانت كلمات وداعي. سأفعل، وعد كونراد بوقار.

واربتُ الباب وانتظرتُ. سبق صوتُ المصعد وصولَ المحروق. كانت الغرفة تقدّم للنظرة البسيطة مظهراً مختلفاً عن مظهر الليالي السابقة، كانت الحقائب على جانب من السرير، في مكان ظاهر جيّداً، لكنّ المحروق لم يخصّها ولا حتى بنظرة. جلسنا، أنا على السرير وهو بجانب الطاولة، وخلال لحظة لم يحدث أيّ شيء، كما لو أنّنا أحرزنا فضيلة الدخول والخروج بإرادةِ داخلِ جبل جليدي (الآن، حين أُفكّر في ذلك يحضرني وجهُ المحروق أبيضَ تماماً، مُغطى بالطحين، قمرياً، على الرغم من أنّه يُخمَّن وجود الندب تحت الطلاء) المبادرة كانت له

ودون الحاجة لإجراء حسابات، لم يحضر معه دفتره، لكن كلّ نقاط موارد العالم الأساسية كانت له، أطلق الجيوش الروسية على برلين واحتلّها. وبالجيوش الأنجلو ـ أمريكية مزّق الوحدات التي كان يمكن أن أُرسلها. بهذه السهولة كان النصر. حين جاء دوري حاولتُ أن أُحرّك الاحتياط المدرّع في منطقة بريمين فانفجرتُ على جدار الحلفاء. عملياً كان عملاً رمزياً. وعلى الفور اعترفتُ بالهزيمة واستسلمتُ. والآن ماذا؟ قلتُ. أطلقَ المحروقُ زفرةَ عملاقٍ وخرج إلى الشرفة. أشار إليّ من هناك كي أتبعه، كان المطر والريح قد اشتدّا وحنيا أشجار نخيل الكورنيش. إصبع المحروق يشير إلى الأمام من فوق كاسر الأمواج. على الشاطئ حيث كان ينتصب حصن الزلاجات، رأيتُ نوراً، متذبذباً وغير واقعي مثل نار من نيران سانتيلمو. نور داخل حصن الزلاجات؟ زأر المحروق مثل المطر. لا أخجل من الاعتراف بأنني فكّرتُ في تشارلي، في تشارلي شفافٍ قام من الماوراء ليواسيني على دماري. حقيقة كان قريباً جدّاً من الهذيان. قال المحروق: «هيّا بنا، لا نستطيع التراجع» وتبعته. هبطنا أدراج الفندق مارّين بالاستقبال المضاء والفارغ، حتى أصبحنا أنا وهو وسط الكورنيش؟ المطر الذي ساط وقتها وجهي كان له تأثير المخدرات. توقّفتُ وصرختُ داخلاً في الشاطئ. ودون أن أفكّر رحتُ أجري خلفه. فانبثقت أمامي فجأة مجموعة الزلاجات الهائلة. لا أدري ما إذا كان بتأثير المطر أم بتأثير الأمواج التي هي في كلّ مرّة أكبر، راح يتولّد عندي انطباع بأن الزلاجات تغوص في الرمل. هل جميعنا كنّا ننهار؟ تذكّرتُ الليلةَ التي جررت فيها نفسي حتى هنا كي أستمع إلى النصائح الحربية من المجهول الذي اعتبرته زوج فراو إلسي. تذكّرتُ حرَّ ذلك الوقت وقارنته بالحرّ الذي أشعر به الآن في كامل جسدي. كان النور الذي رأيناه من الشرفة يومض بحنقٍ داخل الكوخ. بكلتا يديّ استندتُ، بحركة كانت تجمع بين العزم والتعب في وقت واحد في رأس بارز من العوّامة

وحاولت من خلال الثغور أن أتحقق ممن كان بجانب النور: كان غير مجدٍ. حاولتُ دافعاً بكلّ قوّتي أن أهدم البناء فلم أنجح إلا في جعل يديَّ تتغطيان بالخدوش من سطحِ الخشب والحديدِ القديمين. كان للحصن تماسكَ الغرانيت. كان المحروق، الذي توقّفتُ عن مراقبته لبضع ثوانٍ، يقفِ وظهره إلى الزلاجات، كان مستَغْرِقاً في تأمّل العاصفة. من هناك؟ رجاءً، أجِبْ، صرختُ. ودون أن أنتظر جواباً غير محتمَل، حاولتُ أن أتسلّق الكوخَ لكنّني خطوت خطوة ناقصة فسقطت بوجهي على الرمل. حين نهضتُ، وإن كان نصفَ نهوض فقط، وجدتُ أنّ المحروق بجانبي. فكّرتُ في أنّه ما عاد باستطاعتي أن أفعل شيئاً. أمسكت يدُ المحروق بعنقي وشدّتني نحو الأعلى. ضربتُ بيديّ ضربتين، لكن دون جدوى، حاولتُ أن أرفسه، لكنّه كان قد صار لأعضائي قوام الصوف، وتمتمتُ على الرغم من أنّني لا أعتقد أنّ المحروق كان يصغي إليّ، بأنّني لم أكن نازيّاً، وإنّني لم أرتكب أيّ ذنب. فيما عدا ذلك لم يكن باستطاعتي أن أفعل أيّ شيء، فقوّة المحروق وتصميمه، المستوحيين من العاصفة وهيجان البحر، كانا لا يُقاومان. بدءاً من تلك اللحظة ذكرياتي ضبابيّة ومقطّعة. رفعني مثل خرقة وبعكس ما كنتُ أتوقّعه (موتاً في الماء) نقلني جرّاً إلى فتحة كوخ الزلاجات. لم أبدِ أيَّ مقاومة، لم أستمرّ بالتوسّل، لم أُغمض عينيّ إلا عندما بدأتُ الرحلة ممسوكاً من عنقي ومن فخذي إلى الداخل، عندها، فعلاً أغمضت عينيّ ورأيت نفسي مستقراً في يومٍ آخر أقلّ سواداً لكنّه ليس وضاءً، مثل «الضيف المزعج» في «الأرضَ المكفهرة» ورأيت المحروق يذهب من البلدة ومن البلد في طريق ملتوٍ معمول من رسوم متحرّكة وكوابيس (لكن من أيّ بلد؟) من إسبانيا؟ من السوق الأوروبية المشتركة، كموجوعٍ أبديّ. فتحتُ عينيّ حين شعرت بأنني عالق في الرمل، على بعد سنتيمترات قليلة من مصباح مخيم غازيّ. لم أتأخرّ،

بينما أنا أتقلّب مثل دودة، في إدراك أنّني كنتُ وحدي وأنّه لم يوجد قط أحد بجانب المصباح؛ وأنّ هذا بقي مشتعلاً تحت العاصفة بالتحديد كي أراقبه من شرفة الفندق. في الخارج كان المحروقُ، الذي راح يسير بشكل دائري حول الحصن، يضحك. كان باستطاعتي سماع خطواته التي كانت تغوص في الرمل وضحكته الصافية، السعيدة كضحكة طفل. كم من الوقت مكثتُ هناك على ركبتيّ بين ممتلكات المحروق القليلة؟ لا أعرف. حين خرجتُ كانت قد توقّفت عن المطر والفجر بدأ يُلْمَحُ في الأفق. أطفأت المصباحَ، انتصبت خارج الثقب. كان المحروق يجلس متربّعاً، ينظرُ نحو الشرق، بعيداً عن زلاجاته. كان من المُمكِن أن أكون ميتاً تماماً وأن أبقى محافظاً على توازني. اقتربتُ، ليس كثيراً، وقلتُ له وداعاً.

٢٥ أيلول، لا خونكيرا

غادرت فندق البحر مع أوّل أنوار النهار. درت ببطء في السيارة في الكورنيش، حذراً من أن يُزعج صوتُ المحرّك أحداً. استدرتُ عند مستوى فندق كوستا برافا وصففت السيارة في المنطقة المحجوزة للحافلات، حيث أرانا تشارلي في بداية إجازتنا لوحَ الزلاجة الشراعية. بينما كنتُ متوجّهاً نحو الزلاجات لم أر أحداً باستثناء عدّاءَيْن بلباس الرياضة يضيعان باتجاه المخيمات. كان المطر قد توقّف منذ برهة، يمكن أن يحدس المرء من نقاءِ الهواء أنّه سيكون يوماً مشمساً. ومع ذلك كان الرمل ما يزال مُبلَّلاً. حين وصلت إلى جانب الزلاجات ركّزت انتباهي لعَلّيَ أسمعُ صوتاً ما يشي بوجود المحروق وظننت أنّني سمعتُ شخيراً ناعماً جدّاً قادماً من الداخل، لكنّني لستُ متأكّداً. كنتُ أحملُ الرايش الثالث في كيس بلاستيكي. وضعته بحذر على القماش الذي كان يُغطي الزلاجات وعدتُ إلى السيارة. في التاسعة صباحاً غادرتُ البلدةَ. كانت الشوارع شبهَ مقفرة وهو ما جعلني أفكّر في أنَّ الأمرَ يتعلّق بعيدٍ ما محليّ. بدا كأنّ الجميع في أسرّتهم. زادت على الطريق السريع حركةُ المرور، بسيارات لوحاتها فرنسية وألمانية تسير بالاتجاه ذاته الذي أسير فيه.

أنا الآن في خونكيرا.



٣٠ أيلول

بقيتُ ثلاثةَ أيّام لم أر فيها أحداً. البارحة مررتُ أخيراً على النادي وبي قناعة داخلية بأنّ رؤية أصدقائي القدامى ليست فكرة جيّدة، على الأقل آنياً. كان كونراد جالساً إلى إحدى أكثر الطاولات عزلة. كان شعره أطول وحول عينيه هالتان عميقتان لا أتذكرهما. بقيتُ برهة أنظر إليه دون أن أقول شيئاً بينما كان البقيّة يقتربون ليسلّموا عليّ. مرحباً، يا بطل. بكم من البساطة والحرارة استُقْبِلت، ومع ذلك الشيء الوحيد الذي شعرت به هو المرارة. حين رآني كونراد وسط الحلقة اقترب دون عجلة ومدّ لي يده. كان سلاماً أقل حماساً من سلام البقية، لكنّه أكثر صدقاً، كان له تأثير البلسم في روحي؛ جعلني أشعر بأنّني في بيتي. سرعان ما عاد الجميع إلى طاولاتهم وشرعوا في معارك جديدة. طلب كونراد بأن يستبدلوه بآخر وسأل عمّا إذا كنتُ أرغب في الحديث في النادي أم خارجه. قلتُ له أُفَضّل المشي. بقينا في بيتي نشرب القهوة ونتكلّم عن أي شيء إلا عن الشيء الذي كان يهمّنا في الحقيقة إلى ما بعد منتصف الليل. الوقت الذي عرضت فيه عليه أن أرافقه إلى بيته. قطعنا الطريق كلّه في السيارة صامتين. لم أبغ الصعود. كنتُ نعساً، وضّحتُ له. عندما تودعنا قال لي كونراد ألا أتردّد بأن أطلب منه إذا كنتُ بحاجة إلى مال. من المحتمل أنّني سأحتاج إلى بعض المال. مرّة أخرى تصافحنا مصافحة أطول وأصدق من سابقتها..

إنجيبورغ

ما من أحد منّا كان ينوي أن يُمارس الحب وانتهينا أخيراً في السرير. أثّر فينا الترتيب الحسي للأثاث والسجاجيد والأشياء المختلفة التي زيّنت بها إنجيبورغ غرفتها الفسيحة وغناء مغنية أمريكية لا أتذكّر اسمها وكذلك المساء النيليّ، الوديع كالقليل من مساءات الآحاد. هذا لا يعني أنّنا جدّدنا علاقتنا. القرار بأن نبقى أصدقاء فقط لا رجعة عنه بالنسبة لكلينا. وبالتأكيد ستكون علاقتنا أكثر فائدة من سابقتها. كي أكون صريحاً الفارق بين هذا الوضع وذاك، ليس كبيراً. طبعاً اضطررت لأن أحكي لها عن بعض الأشياء التي جرت في إسبانيا بعد رحيلها. تكلّمتُ بشكل أساسي عن كلاريتا وعن العثور على جثّة تشارلي. كلا القصّتين أثرتا فيها بقوّة. بالمقابل كشفت لي هي عن شيء لا أدري ما إذا كنتُ سأعتبره محزناً أم مضحكاً. حاول كونراد خلال غيابي أن يبدأ معها علاقة رومانسية. من المفروغ منه أنّ ذلك كان دائماً ضمن الاحتشام المطلق. وماذا جرى؟ قلتُ مفاجأً. لا شيء. هل قبّلك؟ حاول، لكنّني صفعته. ضحكنا أنا وإنجيبورغ كثيراً، لكنّي حزنتُ عليه بعدها.

حنّة

تكلّمت بالهاتف مع حنّة. قالت لي إنّ تشارلي قد وصل إلى أوبرهاوزن في كيس بلاستيكي بطول خمسين سنتيمتراً تقريباً، مثل كيس القمامة الكبير، هذا ما حكاه لها أخو تشارلي الأكبر، الذي أخذ على عاتقه استلام الجثة والقيام بالإجراءات البيروقراطية. ابن حنّة في حالة ممتازة. حنّة سعيدة، بحسب ما تقول، وتُفكّر في أن تعوذ لتقضي إجازاتها في إسبانيا. «هذا ما كان سيسرّ تشارلي، ألا ترى ذلك. أجبتها نعم، ربّما. وأنت ما الذي حدث معك حقيقة؟ تسأل حنّة. المسكينة إنجيبورغ صدّقت كلّ شيء، لكن أنا عجوز، أليس كذلك؟ لم يحدث معي شيء، قلتُ. ما الذي حدث معكِ أنت؟ بعد لحظة (تُسمع أصوات، حنّة ليست وحدها) تقول: معي. ما يحدث دائماً.

العشرون من تشرين الأوّل

بدءاً من غد سأبدأ أعمل إداريّاً في شركة مخصصة لصناعة الملاعق والشوك والسكاكين ومتمماتها. ساعات العمل شبيهة بتلك التي كانت لي سابقاً والراتب أعلى قليلاً.

منذ أن عدتُ وأنا منقطِع عن اللعب (أكذب، الأسبوع الماضي لعبتُ بالورق مع إنجيبورغ ورفيقتها في الشقّة). لا أحد من دائرتي، فأنا ما أزال أذهب إلى النادي مرَّتَيْن في الأسبوع، أحسّ بذلك. هناك يعزون عدم رغبتي إلى الإشباع أو إلى أنّني مشغول جدّاً بالكتابة عن الألعاب. ما أبعدهم عن الحقيقة! المداخلة التي كنتُ سأُقدّمها في باريس يُحرّرها كونراد الآن. مساهمتي الوحيدة فيها ستكون بترجمتها إلى الإنكليزية. لكنّ الآن، وقد بدأت مرحلة عمل جديدة، حتى هذا غير مضمون.

فون سيكت

اليوم بعد مشوار طويل سيراً على القدمين، قلتُ لكونراد إنّنا كنّا جميعاً، إذا ما فكّرنا جيّداً، أشباحاً تنتمي إلى رئاسة أركان شبحية، نتمرّن باستمرار على رقع ألعاب الحرب. المناورات بمقاييس. ألا تتذكّر فون سيكت؟ نبدو ضباطه، ساخرين من الشرعية، أشباحاً تلعب مع أشباح. أنت شاعريّ جدّاً هذه الليلة، قال كونراد. طبعاً لم يفهم شيئاً. أضفتُ أنّ من المحتمل ألا أذهب إلى باريس. فكّر كونراد في البداية أنّ المسألة تتعلق باستحالة ذلك بسبب العمل فقَبِلَ ذلك لكنّه، حين قلتُ إنّ الجميعَ في العمل سيذهبون في إجازة في كانون الأوّل وأنّ السببَ آخرُ، اتخذ موقف المهان شخصياً ورفض لبرهة طويلة أن يُكلّمني. كما لو أنّك تتركني وحدي أمام الأسود، قال. ضحكت برغبة؛ نحن قمامة فون سيكت، لكنّنا نحب بعضنا بعضاً، أليس كذلك. أخيراً كونراد ضحك أيضاً وإن كان بحزن.

فراو إلسي

تكلّمتُ بالهاتف مع فراو إلسي. كان حديثاً بارداً وعنيفاً. كما لو أنّه لم يكن لدينا ما هو أفضل من الصراخ. زوجي مات! وضعي جيّد، ما باليد حيلة! كلاريتا عاطلة عن العمل! الطقس جيّد. ما يزال يوجد سياح في البلدة، لكنّ فندق البحر مُغلق! قريباً سأذهبُ في إجازة إلى تونس! افترضتُ أن الزلاجات ما عادت موجودة. بدل أن أسأل مباشرة عن المحروق سألت سؤالاً تافهاً. قلتُ: هل الشاطئ فارغ؟ كيف سيكون؟ فارغاً، طبعاً! كما لو أنّ الخريف أصمّنا. ما همّ. قبل أن يودع أحدنا الآخر ذكّرتني فراو إلسي بأنّني تركتُ بعض الكتب في فندقها، وبأنّها تُفكّر في أن ترسلها إليّ بالبريد. لم أنسها، قلتُ، تركتها كي تكون لك. أعتقد أنّها تأثّرت قليلاً. تمنينا كل للآخر بعدها ليلة سعيدة وأغلقنا.

المؤتمر

قرَّرتُ أن أُرافق كونارد إلى المؤتمر وأن *أتأمّل*. كانت الأيّام الأولى مملّة وعلى الرغم من أنّني عملتُ عرضياً مترجماً بين الرفاق الألمان، الفرنسيين والإنكليز، فإنّني كنتُ أهرب ما إن أملك متسعاً من الوقت وأخصص بقيةَ النهار لمشاوير طويلة في باريس، لحسن أو لسوء الحظّ قُرِئتْ جميعُ المداخلات والخطابات ولُعِبتَ جميع الألعاب، ووضعوا جميع المشاريع لوحدة أوروبية للاعبين وعانوا معها. من ناحيتي وصلت إلى استنتاج مفاده بأنّ ثمانين بالمئة من المُداخلين كانوا بحاجة إلى معالجة نفسية. ولكي أواسي نفسي كنتُ أُكرّر مرّة بعد أخرى بأنّهم غير عدوانيين وأخيراً انتهيتُ إلى قبول ذلك لأنّه كان أفضل ما يمكن أن أفعله. الوجبة الرئيسية كانت وصول ريكس دوغلاس والأمريكيين. ريكس شخص عمره بحدود الأربعين ونيّف، طويل، قويّ، شعره كستنائي كثيف ولامع (تراهُ يضع مُلمّعاً على شعره؟ من يدري) يهدر طاقة أينما ذهب. يمكن التأكيد أنّه كان نجمَ المؤتمر بلا منازع والمحفّز الأوّل لكلّ الأفكار التي أُطلقت، لا يهم مدى غرابتها وتفاهتها. من ناحيتي فضّلتُ ألا أُسَلّم عليه، على الرغم من أنّه أقرب إلى الحقيقة القول بأنّني فضّلتُ ألا أُجهد نفسي بالاقتراب منه، هو المحاط دائماً بسحابة من منظمي المؤتمر والمعجَبين. تبادل معه كونراد يومَ وصوله بضع كلمات، وفي الليل في بين جان ـ مارك، حيث كنّا نازلين فقط تكلّم عن أهمّية وذكاء ريكس. يُقال إنّه لعب مباراة نهاية العالم، اللعبة الجديدة التي أطلقتها دارُ

نشرِهِ إلى السوق، لكنّني في ذلك المساء لم أكن هناك ولم أستطِع أن أراه. فرصتي جاءت في اليوم ما قبل الأخير من المؤتمر. كان ريكس قد اجتمع مع مجموعة من الألمان والإيطاليين وكنتُ على بعد خمسة أمتار منهم، على طاولة عرض مجموعة ستوتغارت، حين سمعتهم يُنادونني. هذا هو أودو بيرغير، بطل بلدنا. عندما اقتربتُ ابتعد البقيّةُ وبقيتُ وجهاً لوجه مع ريكس دوغلاس. أردتُ أن أقول شيئاً لكنّ الكلمات الوحيدة التي عثرت عليها خرجت متعثّرة وغير منسجمة. مدّ ريكس لي يده. لم يتذكّر تراسلنا القصير أو أنّه فضّل ألا يُعلنه. وعلى الفور عاد إلى الدردشة مع واحد من مجموعة كولونيا وبقيتُ أنا أستمع لحظة شبهَ مُغمَض العينين. كانوا يتكلّمون عن الرايش الثالث وأنا حتى لم أقترب لأدور في محيط الألعاب! استنتجتُ من خلال ما قالوه أن لاعب كولونيا كان يقود الألمان وأن سير الحرب وصل إلى طريق مسدود.

ـ هذا جيد بالنسبة إليك ـ قال ريكس دوغلاس بفجاجة.

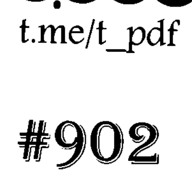
ـ بلى، إذا تشبّثنا بما احتللناه، وهو ما سيكون مهمّة صعبة ـ قال ابن كولونيا.

وافقت البقية. مدحوا لاعباً فرنسياً كان يقود المجموعة التي تُمثل الاتحاد السوفييتي وبدؤوا على الفور يضعون خططاً لعشاء الليلة، عشاء، ككلّ العشاءات، صداقة. رحت أبتعد عن المجموعة دون أن ينتبه إليّ أحدٌ. عدتُ إلى طاولة ستوتغارت، الفارغة إلاّ من المشاريع التي يرعاها كونراد، أصلحتها قليلاً، وضعت مجلة هنا، لعبة هناك، وغادرتُ مكان المؤتمر دون أن أحدث جلبة.



روبِرتو بولانيو: الرايش الثالث

الفهرس



مكتبة
t.me/t_pdf

هذا الكتاب

جنرالاتي *المُفضّلون* لا أبحث فيهم عن الكمال. ماذا يعني الكمال في رقعة لعب غير الموت، وغير الفراغ؟ في الأسماء، في المسيرات السريعة، في ذلك الذي يُشكّلُ الذاكرة، أبحثُ عن أيديهم بين الضباب، بيضاءَ وواثقة، أبحث عن عيونهم تُراقبُ معاركَ (بالرغم من أنّ الصور التي تظهرهم في هذه الوضعية معدودة)، هم غير كاملين وفريدون، رقيقون، بعيدون، أفظاظ، شجعان، حكماء، يمكن العثور فيهم جميعاً على الشجاعة والحبّ.

الغلاف : سكينة صلوَن


ISBN 978-9922630137

